

المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس - السويسي
معهد الدراسات الإفريقية
الرباط



سلسلة : بحوث ودراسات (8)

المجتمع البيضاوي^{٥٤٦} في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)

محمد بن محمد

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة
نواكشوط (موريتانيا)

منشورات معهد الدراسات الإفريقية

2001

المقدمة

لفت انتباهنا، خلال صيف 1987، وكنا حينها بصدد إنجاز قائمة ببليوغرافية لأطروحة دكتوراه السلك الثالث نعدّها حول "تاريخ الإمارات البيضانية" خلال القرن التاسع عشر"، العديد من الوثائق التي خلفها رحالون فرنسيون زاروا الأراضي الموريتانية أثناء ذلك القرن. فنمت لدينا، بالتدريج، رغبة تشدنا إلى دراسة تاريخ المجتمع البيضاني من خلال كتب الرحلات الفرنسية تلك.

لكن هذه الرغبة اصطدمت بعدم توفر جل هذه المصادر داخل مراكز التوثيق الموجودة في موريتانيا بما فيها الأرشيف الوطني الموريتاني الذي تكاد تتعدم فيه الوثائق المتعلقة بالقرن التاسع عشر إذا استثنينا منه العشرية الأخيرة.

وعندما أتاحت لنا الظروف فرصة القيام بمهمة¹ بحث في الأرشيف الوطني السنغالي سنة 1988 اطلعنا على مجموعة من كتب الرحلات تلك، فوجدناها تحتوى جملة من المعلومات المتنوعة عن البلاد الموريتانية، فتعمقت رغبتنا تلك مما جعلنا نلتمس من أستاذنا المشرف الدكتور محمد الهادي الشريف الموافقة على تغيير موضوع الأطروحة حتى نتمكن من تحقيق تلك الرغبة التي تجاوب معها الأستاذ مشكورا بقبوله الموضوع الجديد وعنوانه "المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)".

1 - يتعلق الأمر بإمارة البراكه والتراتزه وأدرار وتكانت، وتحدثنا عنها في الفصل الخامس من هذا العمل، صص.

2 - حصلنا عليها بدعم من رابطة الجامعات الناطقة بالفرنسية جزئيا أو كليا (AUPELF) ومكنتنا من البحث في الأرشيف السنغالي بداكار خلال ربيع 1988.

وبعد أن تم تحديد الموضوع مثلت عقبتان حاجزا أمام الشروع الفعلي في إنجاز العمل، تتمثل أولاهما في عدم توفرنا على بعض كتب الرحلات الفرنسية إلى البلاد الموريتانية، إذ لم نتمكن سنة 1988 من العثور عليها في الأرشيف الوطني السنغالي، فكان لا بد أن نبحث عنها في مظنتها الرئيسية وهي الأرشيف الوطني الفرنسي.

أما العقبة الثانية -ولا تقل أهمية عن سابقتها- فهي انعدام المعلومات البيوغرافية عن العديد من أصحاب الرحلات موضوع الدراسة، فمعظم تلك الرحلات نشرت في مجلات متخصصة³ كانت تصدر أثناء القرن التاسع عشر، وتعنى، أساسا، بالرحلات والكشوفات الجغرافية، وغالبا ما تنشر تلك المجلات نص الرحلة دون إعطاء معلومات عن حياة صاحبها باستثناء اسمه ورتبته العسكرية أو وظيفته في أحسن الحالات.

ولم نتمكن من تذليل هاتين العقبتين إلا في ربيع سنة 1991 عندما قمنا بمهمة بحث في مركز أرشيف ما وراء البحار بمدينة أكس-آن-بروفانص (Aix-en-Provence)، حيث تمكنا من الإطلاع على غالبية الرحلات المتبقية وعلى تقارير خطية⁴ (Rapports autographes) لبعض هؤلاء المكتشفين الفرنسيين.

³ - من أهم تلك المجلات:

- ✓ Annales des Voyages (1816-1865),
- ✓ Bulletin de la Société de Géographie de Paris (1821-1865)
- ✓ Revue Coloniale (1843-1859),
- ✓ Revue Algérienne et Coloniale (1859-1860),
- ✓ Revue Maritime et Coloniale (1861-1895),
- ✓ Tour du Monde (1860-1914).

⁴ - من تلك التقارير الخطية يمكننا أن نذكر على سبيل المثال:

- ✓ Rapport autographe de Mollien sur sa mission en Afrique (1818-1819), 9 p.: Archives Nationales de France: Centre des Archives d'Outre-mer (ANFCAOM), Série géographique, Afrique, Sous-série

وقد سمحت لنا تلك المهمة -وثلاث مهمات أخرى لاحقة قمنا بها في الوثائق الفرنسية- بالإطلاع على ملفات أرشيفية خاصة ببعض المستكشفين الفرنسيين وعلى معاجم وموسوعات⁵ غير متوفرة في موريتانيا جمعنا منها معلومات بيوغرافية متعلقة بسير جل الرحالين الفرنسيين ممن سنتناول رحلاتهم خلال هذا العمل الذي يسعى إلى تسليط الأضواء على الاهتمامات الأساسية التي شغلت المستكشفين الفرنسيين وهم يرتادون البلاد الموريتانية في القرن التاسع عشر وإلى دراسة تاريخ المجتمع البيضاني وخاصة أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية من خلال تلك الآثار.

فهذا الموضوع إذن محاولة لمحاورة نصوص أولئك الفرنسيين واستنطاقها ونقدتها في محاولة لدراسة جوانب من التاريخ الموريتاني من خلال نظرة الآخر (الغربي والفرنسي على وجه التحديد). فالإلى أي حد عكست نظرة "الآخر" تلك ممثلة في كتب الرحلات الفرنسية- الحياة التي كان يعيشها البيضان في ذلك القرن؟ وما هي المظاهر التي لفتت، أكثر من غيرها، انتباه المستكشفين الفرنسيين وهم يطأون المجال

Sénégal et Dépendances (Sén. et Dép.)، 'Sénégal et Dépendances-III : Explorations et Missions: Sén. et Dép. III-1,

- ✓ Rapports autographes sur les missions de Mage (1860-1866), Sén. et Dép.-III-9, 7 et 21 p.

⁵ - من أهم تلك المعاجم والموسوعات:

- ✓ Anonyme, Hommes et Destins, Dictionnaire Bibliographique d'Outre-mer, Paris, 9 tomes, 1975-1989,
- ✓ Broc Numa, Dictionnaire illustré des explorateurs français au XIXème siècle, I, Afrique, Paris, Editions du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques (CTHS), 1988, 316 p.,
- ✓ Prevost et autres (sous la direction de), Dictionnaire de la Bibliographie Française, Paris, Librairie Letouzey, 1933-1994, 18 tomes.

البيضانى ويحاولون وصف حياة هذا المجتمع؟ وكيف تطورت أغراض الرحلات الفرنسية مع تطور الحضور الفرنسي في المنطقة؟ وما هو موقع الرحلات الاستكشافية الفرنسية ضمن السياسة الفرنسية في المنطقة؟ وما هي -بالتالي- المكانة التي تنتزل فيها كتب الرحلات تلك ضمن مصادر التاريخ الموريتاني الحديث والمعاصر؟ أسئلة عديدة سنحاول سبرها في هذه الدراسة التي يتطلب عنوانها جملة من التوضيحات والتحديدات الإجرائية يتعلق أولها بإطارها المكاني/البشري وهو إطار يتحدد بتحديد المجال البيضانى نفسه.

إن إطلاق تسمية البيضان أو البياضين على سكان هذا الجزء من الصحراء الإفريقية الكبرى يعود -حسب علمنا- إلى الرحالين العرب⁶ في القرون الوسطى وذلك لتمييز هؤلاء السكان ذوي البشرة السمراء (الضاربة أحيانا إلى البياض) عن بقية سكان المنطقة الزوج ذوي البشرة السوداء (السود).

وقد احتفظ البيضان لأنفسهم على مر الزمن بهذه التسمية حتى أصبحت علما على البلاد تماما كصحراويتها⁷ وما تزال تسمية البيضان دالة إلى يوم الناس هذا على الموريتانيين العرب (غير الزوج) مع شيوع كتابتها "بيضان" بدل بياضان أي بإبدال حرف الضاد ظاء.

⁶ - راجع بهذا الشأن:

✓ محمد اللواتى الطنجى ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار التراث، بيروت، 1968، ص 682، ص 663.
✓ أبا عبيد بن عبد العزيز البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ (د. ت.)، صص 158-159.

⁷ - بابيه بن الشيخ سيدي، إمارتا إدوعيش ومشطوف، دراسة وتحقيق إزيد بيه بن محمد محمود، نواكشوط، 1992، ص 292، ص 90.

أما الفرنسيون فقد درجوا، ومنذ القرن السابع عشر، على تسمية هؤلاء السكان البيضان بـ"المور" (Maures). ولئن كانت تلك التسمية أصلا تشمل بالإضافة إلى سكان هذه المنطقة بعض جيرانهم الشماليين فإن الفرنسيين قد ألقوها أكثر بالبيضان (الموريتانيين) وترجموها أحيانا كثيرة بالعربان أو بالعرب⁹. وربما يكون ذلك عائدا إلى شعور الفرنسيين بسرعة التعرب الذي عرفته هذه المنطقة وشموليته، وبجزئيته وبطئه النسبيين في بعض المناطق الشمالية المجاورة التي ظل بعض الرحالين الغربيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وحتى مطلع القرن التاسع عشر يسميها بلاد البربر¹⁰ (La Barbarie).

⁸ - عرفت هذه التسمية تطورا دلاليا عبر العصور، ففي القديم أطلق الرومان اسم (Maure) أو (More) على سكان موريتانيا القديمة (المغرب الحالي)، وفي الفترة الوسيطة شاع هذا المصطلح للدلالة على المسلمين الذين فتحوا الأندلس، وحاليا تطلق هذه التسمية على سكان المنطقة الصحراوية التي تضم فضلا عن الجمهورية الإسلامية الموريتانية أجزاء من جمهوريتي مالي والنيجر وجنوب الجزائر والصحراء الغربية.

Anonyme, Le Petit Larousse, Dictionnaire Encyclopédique, Paris, 1993, p. 641(Maure).

⁹ - راجع بهذا الخصوص:

- ✓ Pierre-Raymond de Brisson, Histoire du naufrage et de la captivité de M. de Brisson, Genève et Paris, Borde Mauget et Cie, Libr. Royez, 1789, 200 p., pp. 155 et suivantes.
- ✓ Villeneuve Geoffroy, L'Afrique ou histoire, m-urs, usages et coutumes des Africains, Le Sénégal, Paris, 1814, 4 vol., t.-I, p. 142.

¹⁰ - راجع على سبيل المثال:

- ✓ Louis Poiret, Voyage en Barbarie, Paris, 1789),
- ✓ Denise Brahimi, Voyageurs français du XVIIIème siècle en Barbarie, thèse pour l'obtention du doctorat, Paris III , 1976, 755 p.

أما إطلاق تسمية موريتانيا على هذا الجزء الجنوبي الغربي من الصحراء فليس من ابتكار الإداري كزافيي كوبولاني¹¹ (Xavier Coppolani) كما هو الشائع لدى المهتمين بتاريخ الفترة الاستعمارية في موريتانيا. فقد أطلق الضابط جان-فرانسوا كاي¹² (J.-F. Caille) تلك التسمية سنة 1843 على سكان هذه المنطقة البيضاء¹³ وذلك قبل أن يتبناها كوبولاني بحوالي نصف قرن، أي في نهاية القرن الماضي ومطلع الحالي عندما بدأت الوثائق الإدارية الفرنسية تحمل اسم "موريتانيا الغربية" (Mauritanie occidentale) إلى جانب ترجمتها باللغة العربية (تراب البيضاء) وهي

¹¹ - هو كزافيي كوبولاني (1866-1905) إداري فرنسي ارتبط اسمه بعملية إخضاع البلاد الموريتانية، إذ تفتن إلى المكانة المتميزة للدين الإسلامي في المنطقة فاعتنى بدراسة الثقافة العربية الإسلامية ومبادئ هذا الدين وتخصص في الطرق الصوفية. وفي ملتقى القرنين التاسع عشر والعشرين تزعم كوبولاني مسار مد النفوذ الفرنسي في المنطقة مستفيدا من وضعية الفوضى التي كانت تعرفها البلاد حينها ومستميلا بعض القبائل الزاوية لتدعمه في تطبيق سياسته الشهيرة في "نشر السلم وإخماد الفتن" (la pacification). وكان كوبولاني وراء إنشاء إقليم "موريتانيا الغربية" (La Mauritanie Occidentale) التي شغل منصب مقيمها العام. ولم يكد كوبولاني ينهي عمليات إخضاع الترارزه والبراكه وتكانت حتى قتلته مجموعة من رجال المقاومة يوم 12 مايو/أيار 1905 في قلعة تجكجه بوسط البلاد. راجع حوله:

- ✓ Robert Arnaud dit Randau, Les explorateurs, roman de la grande brousse, Paris, 1909, 369p,
- ✓ Anonyme, Hommes et destins, op.cit., t.-1, pp. 158-160.

¹² - سنتحدث عن ذلك الضابط في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

¹³ - Jean -François Caille, Notes sur les peuples de la Mauritanie et de la Nigritie, riverains du Sénégal, Paris, Revue Coloniale (RC), t.-IV, 3ème série, septembre 1846, pp. 1-10.

"تمتد -حسب كوبولاني- من الضفة اليمنى لنهر السنغال والمناطق الواقعة بين خاي¹⁴ وتينبكتو إلى رأس جيبى¹⁵ غربا، أي إلى تخوم المغرب وجنوب الجزائر شمالا"¹⁶.

ويتطابق هذا التحديد، إلى حد كبير، مع تصور البيضان الموريتانيين¹⁷ لمجالهم الجغرافي. فسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم¹⁸ يرى¹⁹ أن بلاد شنجيط (شنقيط) تمتد من الساقية الحمراء إلى السودان إلى أروان²⁰.

أما المختار بن حامد²¹ فيستنتج انطلاقا من بعض المعايير التاريخية والاجتماعية والبشرية أن هذه البلاد تمتد إلى الشمال لتشمل الصحراء الغربية وجزء

¹⁴ - مدينة تقع في غرب جمهورية مالي على الضفة اليسرى لنهر السنغال. وقد اضطلعت بدور مهم بصفتها مركزا تجاريا في طليعة بضائعه الصمغ العربي والفول السوداني.
¹⁵ - رأس جيبى أو جوبى (Cap Juby): رأس يقع على بعد بضعة كيلومترات من مدينة الطرفاية المغربية.

¹⁶ - Robert Randau, Un Corse d'Algérie chez les Hommes bleus, X. Coppolani, le pacificateur, Alger, A. Imbert Editeur, 1939, 216 p., p.72.

¹⁷ - سنستخدم في ثنايا هذه الدراسة تسميات مثل "موريتانيا" و"الموريتانيين" .. الخ.. للتدليل على المجال والسكان البيضانين موضوع هذا العمل دون الوقوع في مفارقة تاريخية (Anachronisme historique) ما دامت تسمية موريتانيا قد أطلقت على هذه المنطقة منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر.

¹⁸ - سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم أحد أبرز فقهاء البلاد الموريتانية وأصوليها المشهورين، درس في فاس وزار مصر والحجاز. ترك العديد من المؤلفات في مجالات متعددة. راجع: محمد فال ولد بابه، كتاب التكملة في تاريخ إمارتي البراكنه والترارزه، تحقيق أحمدو ولد الحسن، تونس، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات-بيت الحكمة، قرطاج، 1986، ص55.

¹⁹ - سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم، صحيحة النقل في علوية إدوعل وبكرية محمد قل، مخطوط.
²⁰ - مدينة تقع في جمهورية مالي الحالية.

²¹ - المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا (الجغرافيا)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، 1414/ 1994، ص348، ص.8.

من جنوب غربي الجزائر حيث مضارب قبيلتي الركيبات²² وتجاننت²³ كما تضم في الشرق منطقة تقع في غرب وشمال جمهورية مالي حيث مضارب بعض مجموعات كنته²⁴ والبراييش²⁵ والعناصر العربية الأخرى".

ورغم كل ذلك يبقى ضبط المجال البيضاني وتحديده²⁶ مسألة مستعصية جراء طبيعة البيضان ونمط حياتهم، وهم البداية الرعيون المتنقلون دوما بحثا عن الماء

²² - مجموعة قبلية تنتسب إلى علي بن سيدي أحمد الركيب، وتنتشر بطونها في مناطق أدرار وتيرس زمور بالشمال الموريتاني وكذا في الصحراء الغربية وفي الجنوب الجزائري. راجع: المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا، ج. 3، مرقون، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، ص. 65.

²³ - إحدى قبائل الزوايا، جمعت بين السيف والقلم. لها نفوذ اقتصادي وعلمي مهم، وهي منتشرة في مختلف أنحاء البلاد الموريتانية وبعض البلدان المجاورة. راجع: الشيخ محمد المامي، نصوص من التاريخ الموريتاني (شيم الزوايا-أمر الولي ناصر الدين-رسالة النصيحة)، تقديم وتحقيق محمذن ولد باباه، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات-بيت الحكمة، قرطاج، 1990، ص. 224، ص. 136، الإحالة رقم 98 من عمل المحقق.

²⁴ - قبيلة موريتانية ترفع نسبها إلى عقبة بن نافع. وهي تنتشر في مختلف أنحاء البلاد الموريتانية وكذلك في العديد من بلدان المنطقة. راجع:

✓ المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا، جزء كنته، مرقون، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط.

✓ بول مارتي، كنتة الشرقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادي، دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، د.ت. 256 ص، صص. 27 وما بعدها.

²⁵ - قبيلة ينتسب بعض بطونها إلى حمو بن حسان، وهم من طلائع المجموعات الحسانية قدوما إلى المنطقة ويتمركزون خاصة في منطقة أزواد وما جاورها. وكانوا يتحكمون في تجارة الملح بين تاودني وتنبكتو. راجع:

✓ صالح بن عبد الوهاب، الحسوة البيسانية في معرفة الأنساب الحسانية، ص. 4.

✓ الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي، الرسالة الغلاوية، مخطوط، نسخة المعهد الموريتاني للبحث العلمي، رقم 3273، نواكشوط.

²⁶ - ننوه بالمجهودات التي بذلها في هذا الصدد زميلانا:

والكلا لمواشيهم وعن الظروف المناخية والأمنية الأكثر ملاءمة في محيط صحراوي يمتاز بقساوة المناخ وشح مصادر العيش وغياب نظام مركزي قادر على توفير مستلزمات الحياة والطمأنينة للسكان.

ويزيد من صعوبة تحديد هذا المجال تنقل البيضان وتوغلهم -جيبئة وذهابا- داخل الأجزاء الشمالية والوسطى المتاخمة لهم من الصحراء الإفريقية الكبرى وانعدام حدود طبيعية واضحة المعالم من جهتي الشرق والشمال.

وإذا كانت التحديدات السابقة تعتمد الإطار البشري للمجموعات البيضانية بغض النظر عن من يسود الإقليم الذي تتحرك ضمنه تلك المجموعات، فإننا، واعتبارا لعنصر السيادة، نميل إلى تقسيم المجال البيضاني هذا إلى مستويين: متسع وضيق، فالمتسع يمتد ليشمل، بالإضافة إلى الأراضي الموريتانية الحالية، الصحراء الغربية وأجزاء من جنوب الجزائر ومساحات متسعة من جمهورية مالي وجزء من النيجر، أي بعبارة أخرى كل المنطقة التي يعيش فيها سكان بيضان (Moures) يتكلمون العربية في مستوى من مستوياتها ويدينون بالإسلام ويشتركون في مجموعة من العادات والقيم الثقافية. ولا يختلف هذا المجال البيضاني كثيرا عن التحديدات التي أشرنا إليها أعلاه.

أما المجال البيضاني الضيق فهو -بالنسبة لنا- الميدان الذي كانت تحكم فيه الإمارات البيضانية التي تقاسمت السيطرة على المنطقة أثناء القرن التاسع عشر.

✓ أحمد ولد الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، مساهمة في وصف الأساليب، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الطبعة الأولى، 1995، 478 ص، صص. 13- 23.

✓ دود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17 - 18 م)، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ (دكتوراه السلك الثالث)، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992- 1993، 270 ص، صص. 31-32.

ويكاد هذا المجال يتطابق مع الامتداد الحالي للجمهورية الإسلامية الموريتانية. وهذا المجال البيضاني الضيق سيكون موضوع الامتداد المكاني لهذه الدراسة.

ويهتم التوضيح الثاني بالإطار الزمني لهذه الدراسة، وهو القرن التاسع عشر وبالتحديد الفترة الممتدة من 1816 إلى 1909. ويستند اختيارنا له، فضلا عما يميز هذا القرن من جاذبية²⁷، إلى كونه يعتبر قرن الرحلات والاكتشافات الأوروبية في إفريقيا بوجه عام وفي منطقة الصحراء الكبرى على وجه الخصوص.

فبعد انتهاء الحروب النابليونية سنة 1815 بدأت أوروبا الغربية تعرف مرحلة من التطور الصناعي والتقني والسلم العالمي والاستقرار النقدي، فضلا عن التضخم الديموغرافي والسلعي؛ وكلها عوامل شجعت على استئناف النشاط الاستعماري وتكثيفه، وهو نشاط تسبقه -وتصاحبه أحيانا- البعثات الاستكشافية.

وبالفعل فقد باشرت الدول الاستعمارية، مدفوعة بـ"ما وفرته لها الثورة الصناعية من قوى اقتصادية وعسكرية وسياسية وفكرية لا يمكن التصدي لها أو مقاومتها"²⁸، باشرت نشاطاتها الاستكشافية والتوسعية عبر العالم وعلى الخصوص داخل القارة الإفريقية بما فيها البلاد الموريتانية.

وليس من الغريب أن نجد، على متن السفن التي أقلت الوالي الفرنسي الجديد على السنغال الجنرال شمالتز²⁹ (Schmaltz) سنة 1816 إلى قلعة سين-لوى³⁰ لاستعادة

²⁷ - بخصوص جاذبية هذا القرن، راجع: عبد الأحد السبتي، "التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج: ملاحظات أولية"، ضمن: البحث في تاريخ المغرب. حصيلة وتقويم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 14، الرباط، 1989، صص. 43-57، صص. 44-45.

²⁸ - محمد الهادي الشريف، ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، دار "سراس" للنشر، تونس، 1980، ص. 191، ص. 96.

²⁹ - جوليين شمالتز (1827-1769) Julien Schmaltz، مهندس جسور وطرق وضابط سام في الجيش الفرنسي كان أحد الناجين من تحطم سفينة "لامديز" الفرنسية سنة 1816. وقد شغل منصب الوالي الفرنسي على السنغال بين سنتي 1816 و 1820.

السنغال من أيدي الإنجليز طبقا لاتفاقية باريس سنة 1814 ، اثنين من هؤلاء الفرنسيين هما الرحالتان³¹ موليين (Mollien) وكايي (Caillié) سيكون لهما شأن في اكتشاف العديد من المناطق الداخلية الإفريقية خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر.

ولئن كان حد بداية فترتنا، وهو سنة 1816، لا يثير مشكلة كبيرة لتصادفه مع نهاية الحروب النابليونية واستعادة الفرنسيين للسنغال من الإنجليز ومجئ رواد استكشافات القرن التاسع عشر إلى البلاد الموريتانية، فإن حد نهايتها يطرح بعض الإشكال، ذلك أن العشرية الأولى من القرن العشرين تمثل بداية الاستعمار الفعلي لهذه البلاد حيث احتل الفرنسيون أثناء السنوات الأولى من ذلك القرن العديد من مناطقها.

وقد شهدت نهاية هذا العقد الحملة الفرنسية على أدرار³² التي قادها الجنرال كورو³³ (Gouraud) واستهدفت إخضاع منطقة أدرار التي كانت معقلا لمقاومة التوغل

³⁰ - سين-لوي (Saint-Louis): أول مركز أسسه الفرنسيون بالسنغال في حدود سنة 1638، وهو يقع في شبه جزيرة بمصب نهر السنغال. وقد تمكن الإنجليز -في نطاق صراعهم بالمنطقة مع الفرنسيين- من انتزاع هذا المركز مرتين في منتصف القرن الثامن عشر وفي نهايته قبل أن يستعيده الفرنسيون منهم آخر مرة في يناير/كانون الثاني سنة 1817. وأثناء ولاية الجنرال فيدرب (Faidherbe) جعل مركز سين-لوي عاصمة لمستعمرة السنغال قبل أن يتم تحويلها إلى دكار سنة 1903. وقد بقي الفرنسيون يديرون الشؤون الموريتانية من سين-لوي حتى استقلال موريتانيا. وسين-لوي الآن إحدى أهم المدن السنغالية. راجع:

Alain Sinon, Comptoirs et villes coloniales du Sénégal (Saint-Louis, Gorée, Dakar), Paris, Editions Karthala, 1993, 364 p

³¹ - سنعود إلى هذين الرحالتين في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

³² - منطقة تقع في شمال البلاد الموريتانية توجد بها مدينتا شنقيط ووادان التاريخيتان فضلا عن أطلال مدينة أزوكي عاصمة المرابطين. وقد كانت منطقة أدرار خلال القرن التاسع عشر مجالا لإمارة أهل يحيى بن عثمان التي تسمى أيضا إمارة أدرار. وأدرار الآن إحدى ولايات الجمهورية الإسلامية الموريتانية.

الفرنسي داخل موريتانيا. وتعتبر الرحلة/المهمة³⁴ المشتركة التي قام بها رني شودو (René Chudeau) وأبل كروفل (Abel Gruvel) سنة 1908 عبر الساحل الموريتاني من سين-لوي إلى بور-أتيان³⁵ آخر رحلة فرنسية داخل البلاد قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى التي ستؤدي إلى توقف مهمات الاستكشاف والرحلات فترة من الزمن.

ويتعلق التحديد الثالث باختيار الرحلات الفرنسية ذاتها. وهو اختيار ينبع من أهمية هذا الصنف (غير القصدي أحيانا كثيرة) من مصادر التاريخ الموريتاني.³⁶ ذلك أن الرحالين والمستكشفين الفرنسيين الذين زاروا المنطقة آنذاك تركوا آثارا تشتمل على معلومات غزيرة عن البلاد الموريتانية وسكانها شملت الجوانب الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية، وهي محاور قلما أثارت اهتمام المؤلفين الموريتانيين الذين

³³ - الجنرال كورو (1867-1946) Gouraud، أحد ضباط الجيش الفرنسي، اشتهر على الخصوص في حملة أدرار الهادفة إلى إخضاع المناطق الوسطى والشمالية من البلاد الموريتانية في نهاية العشرية الأولى من القرن العشرين. راجع حوله:

- ✓ Gouraud, Mauritanie Adrar, souvenirs d'un Africain, Paris, Plon, 1945, 349 p.
- ✓ Anonyme, Hommes et destins, op.cit., t.-VIII, 1988, pp. 162-165.
- ✓ Prevost, Dictionnaire ..., op.cit., t.-XVI, 1985, pp. 769-772.

³⁴ - سنتحدث عن تلك المهمة وصاحبها خلال الفصل الثاني من هذا العمل.

³⁵ - بور-أتيان Port-Etienne : تسمية أطلقها الفرنسيون على مركز نواديبيو إبان تأسيسه سنة 1907، وهي نسبة إلى ايجين أتيان (1844-1921) Eugène Etienne وهو أحد الساسة الفرنسيين الذين اهتموا بالمنطقة، وقد شغل في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين عدة وظائف حكومية من بينها على وجه الخصوص حقائب وزارات البحرية والمستعمرات، الداخلية والحربية.

³⁶ - راجع مقالنا: "كتب الرحلات الفرنسية أثناء القرن التاسع عشر مصدرا للتاريخ الموريتاني"، الوسيط، مجلة المعهد الموريتاني للبحث العلمي، العدد 3، 1989، صص. 58-68.

ركزوا أكثر على التاريخ الوقائعي من وفيات أعيان ونزاعات وحروب ومساجلات فقهية³⁷... الخ.

وتعتبر هذه المصادر الفرنسية فريدة من نوعها، ليس لأنها اهتمت بالجوانب الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية من حياة البيضان ومحيطهم أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ومطلع القرن العشرين وحسب، بل لأنها كذلك سعت إلى تغطية كامل التراث الموريتاني، ولأن أصحابها كانوا يسجلون معايناتهم المباشرة في آثار تعتبر رغم نواقصها من أهم ما خلفته تلك الفترة لطابعها الشمولي والعياني ذلك.

ومما يزيد من أهمية هذه المصادر أنها أنجزت في أفق تيار العقلنة الذي سعى إلى تحرير العقول من قيود الأساطير والخرافات المتركمة عبر الحقب الماضية مما أعطى قيمة كبيرة للمعلومات التي سيزودنا بها كتاب القرن التاسع عشر، تلك المعلومات التي أصبحت تميل إلى الموضوعية والدقة وتتأى عن المبالغة والأسطورية وإن كانت ستتأثر -كما سنرى- بالإيديولوجيا الاستعمارية المشحونة بعقد التعالي

³⁷ - ننوه بالمجهودات التي يبذلها زميلنا يحيى ولد البراء ومحمد المختار ولد السعد بشأن قراءة بعض النصوص الفقهية الموريتانية وخاصة الفتاوى والنوازل الفقهية التي لا يشكك أحد في قيمتها التاريخية. راجع:

- ✓ يحيى ولد البراء ومحمد المختار ولد السعد، "ميكانيزمات البنى القبلية بين الثبات والتغير من خلال مسألة العاقلة"، مصادر: دفاثر التاريخ الموريتاني، الكتاب الأول، جامعتا نواكشوط وبروفانس، 1994، صص. 5-57.
- ✓ يحيى ولد البراء، "المحتوى الاجتماعي لفتاوى "العلك" (ملاحظات في المسألة السياسية)"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد 4، 1993، صص. 111-137.
- ✓ محمد المختار ولد السعد، "الفتاوى الفقهية والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي الموريتاني: وقفة تأمل"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط، العدد 4، 1994، صص. 77-145.

والذات المركزية الأوروبية، فتحاول أن تشوه جوانب من حياة هذا المجتمع الذي تصفه³⁸.

ولا يعني هذا أن كل من كتبوا عن هذه البلاد كانوا في مستوى معرفي يمكنهم من تمثل الحقيقة الاجتماعية بأبعادها المختلفة، إذ أن منهم العالم المختص والمغامر الهاوي والمأمور المسخر...

وقد يكون من الضروري هنا أن نفرص بين المستوى المعرفي والتراكم الحاصل في وصف الظواهر والمعطيات من جهة، والمستوى الإيديولوجي من جهة أخرى لأن تجاهل هذا الفصل قد يؤدي إلى إضاعة مادة علمية ثمينة³⁹ وهذا ما تظن إليه إدوارد سعيد⁴⁰ الذي أكد على القيمة المعرفية للدراسات الاستشراقية حين قال: "في اعتقادي أننا سنكون على خطأ إذا قلنا من أهمية مخزون المعرفة الموثقة وتقنيات السنة الاستشراقية". وإذا كانت ملاحظة إدوارد سعيد تنطبق على الاستشراق العالم أكثر من غيره، فإنها كذلك تصدق على أصحاب مدونتنا ولو بدرجات متفاوتة.

ولعل من أهم الأسباب التي دعنا إلى الاشتغال بهذه الوثائق (الرحلات الفرنسية إلى البلاد الموريتانية)، رغم المزالق والعقبات المتعددة، عزوف الباحثين -جملة وتفصيلا- عن هذا الموضوع، إذ لم يتناولوه من قبل -حسب علمنا- أي باحث موريتاني⁴¹.

38 - راجع مقالنا: "الرحالة الفرنسيون في القرن التاسع عشر ودورهم في تشويه التاريخ الموريتاني"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط، العدد 2، نواكشوط، 1990، صص. 21-35.

39 - جماعة من الباحثين، الأنثروبولوجيا والتاريخ، حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1988، 130 ص، ص. 7.

40 - إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة-السلطة-الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط. 3، 1991، 366 ص، ص. 70.

41 - إذا استثنينا مقالينا السابقين الذكر وبأحدين أشرفنا عليهما أنجزهما الطالبان:

كما أننا لم نعثر على أية دراسة أجنبية مخصصة له مما جعلنا نلجأ إلى الدراسات المتعلقة بالمجالات المجاورة للمجال البيضاني أو المتقاطعة معه. ومن أهم تلك الدراسات وأكثرها ارتباطاً بموضوعنا وتقاطعا معه:

أولاً. الدراسات المكتوبة باللغات الأجنبية

أ. الكتب المنشورة

- ج. أنسيل، الاستكشافات في السنغال وفي الأصقاع المجاورة...،

- J. Ancelle, Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines, depuis l'antiquité jusqu' nos jours, Paris, Maisonneuve frères et Ch., Leclerc, 1886, 445 p.

تناول هذا المؤلف بطريقة لا تخلو من سطحية وسردية الرحلات التي توجهت إلى المنطقة منذ العهود القديمة وحتى بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر، مركزاً على السنغال. وقد استعرض أنسيل تسعة من المستكشفين والرحالين ممن

✓ يوسف بن الكيرع، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في منطقة البراكنه من خلال رحلة رني

كاي، مذكرة تخرج للحصول على المتريز، جامعة نواكشوط، 1990، ص 55 .

✓ تسلم بنت محمد حرمة، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع البيضاني من خلال

رحلة الضابط العسكري فينصان، مذكرة تخرج للحصول على المتريز، جامعة نواكشوط،

1992، ص 45.

وهذان البحثان المعدان للحصول على شهادة المتريز من جامعة نواكشوط لم تسمح الإمكانات

لصاحبيهما بدراسة الوثيقتين دراسة يركن إليها.

لامسوا هوامش المجال البيضاني أو زاروه أثناء هذا القرن مكتفيا في غالب الأحيان بتلخيص رحلاتهم.

- بول فويو، استكشاف الصحراء الغربية، دراسة تاريخية وجغرافية،

- Paul Vuillot, L'exploration du Sahara Occidental, étude historique et géographique, Paris, Augustin Challamel, 1895, 335 p.

أشار صاحب هذا الكتاب في مقدمته إلى أنه سيستعرض مختلف الرحلات التي جاب أصحابها الصحراء الجزائرية والمغربية والتونسية وأنه سيركز على المنطقة الواقعة بين الجزائر والنيجر. ورغم أهميته، فإن هذا المرجع لم يتناول من أصحاب مدونتنا إلا اثنين هما رني كايي وليوبولد باني، وهو تناول موجز أملتته ضرورة مرور هذين الرحالتين بالمجال الذي يهتم المؤلف.

- جيل كرو، مستكشفونا في إفريقيا،

- Jules Gros, Nos explorateurs en Afrique, Paris, Picard, sans date (s.d.), 288 p.

ويتناول هذا المرجع المستكشفين الفرنسيين في مختلف أنحاء القارة الإفريقية. وقد خصص صاحبه تسع صفحات لرني كايي وسبعا لبول صوليبي. ورغم أن هذا المؤلف شغل وظيفة سكرتير الجمعية الجغرافية الباريسية فترة من الزمن، فإنه لم يكلف نفسه عناء إغناء كتابه بالخريطة والفهارس والإحالات الضرورية.

- بول كافارل، تاريخ توسع فرنسا الاستعماري من 1871 إلى 1905،

- Paul Gaffarel, Histoire de l'expansion coloniale de la France depuis 1871 jusqu'en 1905, Marseille, Barlatier, 1905, 426 p.

لقد أشار صاحب هذا المرجع في ثنايا كتابه إشارات قصيرة ومتفرقة وسطحية، لا تتجاوز ثماني صفحات إلى المجال البيضاني الذي ندرسه.

- آ. ماجو، الاكتشاف في إفريقيا أثناء القرن التاسع عشر،

- A. Mageau, Exploration en Afrique pendant le XIXème siècle, Paris, Librairie générale de vulgarisation illustrée, Alfred Degorce, 1913, 207 p .

رغم أن هذا المؤلف يشترك معنا في الفترة الزمنية، فإنه لم يتناول من الرحالين الذين يهمننا سوى كايي ولم يخصص له إلا ثلاث صفحات. واستعرض ماجو أيضا فيما لا يزيد على خمسة أسطر (ص.46) رحالي مرحلة "القفرة المنسقة"⁴² (فينصان، بورل، ابن المقداد وعلي صل). ومع أن ماجو كان عضوا في الجمعية الجغرافية لمدينة روشفور (Rochefort) الفرنسية، فإن كتابه، هو الآخر، تنقصه الإحالات والفهارس والخريطة التي يفترض وجودها في هذا النوع من المراجع.

- ل. جيلبي (الرائد)، التوغل داخل موريتانيا،

- L. Gillier, La pénétration en Mauritanie, Paris, Paul Geuthner, 1926, 359p.

يعتبر الفصل الرابع من هذا الكتاب (الكشوفات وجرد ثروات البلاد الموريتانية: صص.99-67) أكثر أجزاءه ارتباطا بموضوعنا. وقد استعرض فيه المؤلف مختلف الرحالين والمستكشفين من فرنسيين وبريطانيين وبرتغاليين وإسبانيين ممن زاروا المنطقة استعراضا غير دقيق أحيانا مما أوقعه في بعض الأخطاء⁴³.

- هانري- بول أيدو، استكشاف الصحراء،

⁴² - راجع العنصر الثالث من الفصل الثاني من هذا العمل، صص. 106-118.

⁴³ - من تلك الأخطاء على سبيل المثال لا الحصر إشارة الرائد جيلبي إلى أن الرحالة صولبي بعد أن نهبت قافلته في أدرار وقضى فترة استراحة في فرنسا عاد إلى منطقة الترارزه ومكث فيها ثلاثة أسابيع قبل أن ي رجم على الرجوع من حيث أتى وأن ذلك الرحالة قد زار البلاد الموريتانية أربع مرات (ص.94) وهذه المعلومات على ما يبدو خاطئة. فخلال تفحصنا لملف صولبي ومطالعتنا للمصادر والمراجع المتعلقة بهذا الرحالة لم نعثر على أية إشارة تؤكد أنه دخل المجال الموريتاني أكثر من مرة واحدة. وذلك ما يجعلنا نشك في رواية الرائد جيلبي تلك ونعتقد أنه ربما كان يعنى المستكشف فابير (Fabert) لأنه - حسب علمنا- هو الفرنسي الوحيد الذي زار البلاد الموريتانية عدة مرات أثناء القرن التاسع عشر.

- H.-Paul Eydoux, L'exploration du Sahara, Paris, Gallimard, 1938, 242 p.

هذا المرجع كله مخصص تقريبا للصحراء الجزائرية والنيجر وتشاد. غير أن صاحبه أشار إشارات جد موجزة إلى بعض أصحاب مدونتنا مثل رني كايي وليوبولد باني.

- ج. ن. ل. بيكر، تاريخ الكشوفات الجغرافية والاستكشافات،

- J. N. L. Baker, Histoire des découvertes géographiques et des explorations, traduction française de Planiol, Paris, Payot, 1949, 455 p.

هذا الكتاب كما يتضح من عنوانه عام تناول فيه المؤلف الكشوفات الجغرافية عبر الحقب وفي مختلف أنحاء المعمورة مانحا أبناء جلدته الإنجليز نصيب الأسد من كتابه.

وفي الصفحات السبعة عشرة (276-271 و 281-291) المخصصة لإفريقيا الشمالية الغربية ومشكلة نهر النيجر (1848-1888) أشار هذا المؤلف وهو مدرس الجغرافية التاريخية بجامعة أوكسفورد (Oxford) إشارات موجزة إلى مستكشفين فرنسيين مع بعض الخلط الذي يتضح في نقاط كقوله: "إن الجمعية الجغرافية الباريسية قد منحت كايي جائزة السبق إلى تنبكتو سنة 1821"⁴⁴، أي قبل وصول ذلك الرحالة إلى تلك المدينة بسبع سنوات! وحين تحدث بيكر عن رحلة باني عبر الصحراء قال: "إن ذلك المستكشف قتل أثناء تلك الرحلة"⁴⁵. وضمن أخطائه،

⁴⁴ - J. N. L. Baker, Histoire des découvertes géographiques et des explorations, traduction française de Planiol, Paris, Payot, 1949, 455 p., p. 275.

⁴⁵ - Ibid, p. 284 .

يسترسل زاعما أن البرتغاليين بعد اكتشافهم لسواحل إفريقيا الغربية قد انطلقوا من المركز التجاري الذي أقاموه في آدرار ليصلوا تينبكتو سنة 1487!⁴⁶

- مارسل شايب، البعثات الفرنسية الكبرى إلى إفريقيا الغربية،

- Marcel Chailley, Les grandes missions françaises en Afrique Occidentale, Dakar, Initiations africaines ,IFAN, 1953, 145 p .

لقد أشار مؤلف هذا الكتيب إشارات موجزة إلى بعض المستكشفين الفرنسيين الذين زاروا المجال الموريتاني أثناء القرن التاسع عشر وخاصة كايي وصولي وموليين. وطبعاً، فإن استعراض بعض هؤلاء المستكشفين لا يعني بالضرورة الحديث عن المجال البيضاني لأن غالبيتهم زارت، بالإضافة إلى هذا المجال، مجالات مجاورة له أو قريبة منه.

- إ. ديشان، أوربا تستكشف إفريقيا. إفريقيا الغربية (1794-1900)،

- Hubert Deschamps, L'Europe découvre l'Afrique. Afrique occidentale (1794-1900), Paris, Berger-Levrault, 1967, 282 p.

رغم الطابع الشمولي لهذه الدراسة التي لا تختص بالرحالين والمستكشفين الفرنسيين وحدهم، فإن صاحبها استعرض في أماكن مختلفة من كتابه معلومات تتعلق بمجموعة من الرحالين والمستكشفين الفرنسيين ضمن من نهتم بهم في هذا البحث. ونخص بالذكر من بينهم موليين ، كايي، باني، رافنل وصولي.

- أليكيأ مبوكولو، من المبشرين إلى المستكشفين. الأوربيون في إفريقيا،

- Elikia M'bokolo, Des missionnaires aux explorateurs ,les Européens en Afrique, collection, Histoire générale de l'Afrique, Imprimerie Casterman SA Tournai (Belgique), 1978, vol.-7, 107 p

⁴⁶ - Ibid, pp. 175-176.

اقتصر هذا الكتيب، وهو جزء من سلسلة تاريخ إفريقيا العام، على ذكر رني كايي من بين قائمة المستكشفين التي تهمننا. وهو لا يخلو من سطحية وإيجاز مغلين.
- موريس باربيي، الرحلات والاستكشافات داخل الصحراء الغربية أثناء القرن التاسع عشر،

- Maurice Barbier, Voyages et explorations au Sahara Occidental au XIXème siècle, Paris, L'Harmattan, 1985, 371 p.

يمكن اعتبار هذا الكتاب أكثر المراجع ملامسة في الظاهر على الأقل- لبعض جوانب موضوعنا، وذلك بحكم الاشتراك الجزئي في الإطار المكاني جراء التداخل والتجاور بين المجالين الصحراوي الغربي والموريتاني ذلك التداخل الذي أشرنا إليه قبل قليل. غير أن تدقيق النظر في هذا الكتاب يظهر مدى اختلافه عن موضوعنا. فتأليفه جاء تلبية لغرض إيديولوجي يمليه موقف سياسي بحت.⁴⁷

ومع شمولية عنوان هذا الكتاب فإن مؤلفه اقتصر على واحد وعشرين مستكشفا من بينهم سبعة من الفرنسيين لم يدخل منهم المجال الموريتاني (الذي ندرسه نحن) سوى اثنين هما نقيب الأركان هانري فينصان والرحالة كامي دولس.

ومن حيث طريقة تناول الموضوع، فقد اكتفى باربيي بتقديم نصوص توحي منها خدمة غرضه السابق الذكر، في حين تسعى هذه الدراسة إلى توحي الموضوعية ناشدة الوصول إلى الحقيقة بغض النظر عن الاعتبارات الإيديولوجية والسياسية،

⁴⁷ - يسعى موريس باربيي من خلال هذا الكتاب -وكذلك من خلال كتابه الآخر: "ثلاثة فرنسيين داخل الصحراء الغربية 1784-1786 (Trois Français au Sahara Occidental)- إلى تأييد موقفه السياسي من مشكلة الصحراء الغربية، وهو يصرح بذلك في مقدمة الكتاب ويحاول من خلال النصوص التي أختارها أن يدعم ذلك الموقف.

واضحة في الاعتبار الأول قوله مارك بلوك (Marc Bloch) الشهيرة: "إن العالم، أي المؤرخ بعبارة أخرى، مدعو إلى الامحاء أمام الأحداث"⁴⁸.

ب. المقالات، البحوث والأطروحات

- بول مارتى، "مئوية استعمارية. اكتشاف منابع غامبيا والسنغال، موليين (1818-1819)"،

- Paul Marty, "Un centenaire colonial. La découverte des sources de la Gambie et du Sénégal. Mollien (1818-1819", Paris, Revue de l'Histoire des Colonies Françaises (RHCF), 1921, pp. 53-98.

هذا المقال كما يتضح من عنوانه، مخصص للرحالة المستكشف موليين، وقد ضمنه صاحبه بعض الملاحظات المتعلقة برحلة ذلك المستكشف.

- مودا (الكولونيل)، "البرتغاليون، العرب والفرنسيون في منطقة أدرار الموريتانية"،

- Modat (Le Colonel), "Portugais, Arabes et Français dans l'Adrar mauritanien", Gorée, Bulletin du Comité des Etudes Historiques et Scientifiques de l'Afrique Occidentale Française (BCEHSAOF), n°1, 1922, pp. 550-582.

⁴⁸ - "Le savant, l'historien en d'autres termes, est invité s'effacer devant les faits", voir: Marc Bloch, Apologie pour l'histoire ou métier d'historien, Paris, Armand Colin, Cahier des Annales, 1949, 111 p., p. 69.

رغم عنوان هذا المقال فإن صاحبه لم يتطرق فيه إلى الرحالين والمستكشفين بل خصص نصفه للهجرات العربية إلى المنطقة وغالبية النصف المتبقي لعملية إخضاع البلاد الموريتانية عسكرياً.

- روبرت كورنفين، "ليوبولد بانى (1820-1859)، أول مستكشف للصحراء الموريتانية وأول كاتب إفريقي بالفرنسية"،

- Robert Cornevin, "Léopold Panet (1820-1859), premier explorateur du Sahara mauritanien et premier écrivain africain de langue française", Dakar, Bulletin de l'Institut Français de l'Afrique Noire (BIFAN), Série B, t.-XXX, n°3, juillet 1968, pp. 1243-1255.

- إيف-ج. سين-مارتان، "مئوية منسية: إيجين-أبدون ماج 1837-1869"،

- Yves-J. Saint-Martin, "Un centenaire oublié: Eugène-Abdon Mage 1837-1869", Paris, Revue Française d'Outre-mer, t.-LVII, n°207, 2ème trimestre, 1970, pp. 141-182.

- جاك فاليت، "التوغل الفرنسي في الصحراء والاستكشاف: بول صولبي نموذجاً"،

- Jacques Valette, "Pénétration française au Sahara et exploration: le cas de Paul Soleillet", Paris ,RFHOM, t.-XVII, n°248-249, 3ème et 4ème trimestres,

هذه المقالات الثلاثة، كما يتضح من عناوينها، مخصصة على التوالي للرحالة: بانى وصولبي وماج. وقد تضمن كل منها معلومات تخص أحد هؤلاء الرحالين.

- دنيز براهيمي، الرحالون الفرنسيون إلى بلاد البربر أثناء القرن الثامن عشر،

- Denise Brahim, Voyageurs français du XVIIIème siècle en Barbarie, op.cit.

تختلف هذه الأطروحة عن موضوعنا زمانا ومكانا إذ تتعلق بالرحالين الفرنسيين الذين زاروا بلاد البربر أثناء القرن الثامن عشر. كما أن عينة الرحالين الفرنسيين التي انتقتها الباحثة لم يدخل أي واحد من أصحابها المجال البيضاني الذي ندرسه نحن. ولم يتم التطرق في هذه الأطروحة، لا إلى هذا المجال ولا إلى سكانه.

وتكمن أهمية هذه الدراسة بالنسبة لنا في كونها تتناول مجالا يحاذي مجالنا وسكانا يتقاطعون في بعض السمات مع البيضان موضوع بحثنا.

- نوما بروك، "المستكشفون الفرنسيون في القرن التاسع عشر"،

-Numa Broc , "Les explorateurs français au XIXe siècle", Paris, (RFHOM), t.-LXIX, n°256, 3ème trimestre, 1982, pp. 237-273 et n°257, 4ème trimestre, 1982, pp. 323-359.

لقد استفدنا من مقال نوما بروك هذا -وكذلك من معجمه⁴⁹- فهما عملا اشتملا على معلومات مهمة عن الرحالين والمستكشفين الفرنسيين في مختلف أنحاء المعمورة خلال القرن التاسع عشر.

- عبد الودود ولد الشيخ، البداوة والإسلام والسلطة السياسية في المجتمع البيضاني قبل الاستعمار...

- Abdel Wedoud Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale. Essai sur quelques aspects du tribalisme, thèse pour le doctorat en sociologie, Université Paris-V, 1985, 3 t., 1056 p.

تعتبر هذه الأطروحة من أهم الأعمال التي أنجزت، لحد الآن، حول المجتمع البيضاني. فالثقافة الموسوعية لصاحبها وإطلاعه الواسع على الدراسات الانتروبولوجية والاجتماعية والتاريخية الحديثة أعطت لعمله قيمة كبرى وجعلت الكثير من دراسي الفترة يكتفون بترجمة وتكرار بعض آرائه واستنتاجاته القيمة.

⁴⁹ - Broc, Dictionnaire illustré des explorateurs..., op.cit.

ثانيا. الدراسات باللغة العربية

إذا كانت الدراسات المرتبطة، بصفة أو بأخرى، بموضوعنا متوفرة نوعا ما باللغة الفرنسية كما يتضح من الصفحات السابقة، فإن هذه الدراسات باللغة العربية جد شحيحة.

ولعل مرد ذلك إلى طبيعة الموضوع نفسه التي تلصقه أكثر بالدراسات المنشورة باللغات الأجنبية وخاصة منها الفرنسية والإنجليزية. وربما تكون هذه الخصوصية هي التي أرغمتنا على التركيز على تلك الدراسات. هذا فضلا عن كون البلاد الموريتانية بصفة عامة ظلت إلى عهد قريب شبه مجهولة في حقل الدراسات العربية.

ومن ضمن الدراسات العربية القليلة التي تمكنا من الرجوع إليها نذكر على سبيل المثال:

- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، 415 ص.

تناول هذا الباحث في كتابه تاريخ الصحراء الكبرى بصفة عامة. ويعتبر فصله الرابع (المكتشفون والرواد صص. 107-63) أكثر أجزاء هذا الكتاب ارتباطا بموضوعنا. إلا أن مطالعته تستلزم الحذر تقاديا للسقوط في أخطاء وقع فيها هذا المؤلف⁵⁰ الذي يفتقر إلى الصرامة المنهجية والدقة في إطلاق الأحكام على الأقل فيما يتصل بالرحلات التي نتقاسم وإياه الاهتمام بها.

⁵⁰ - نكتفي هنا بقوله: "إن الحكومة الفرنسية لم تخصص موارد لتشجيع المستكشفين" (ص. 69) و"إن رني كايي سافر إلى السنغال سنة 1818 ولكن السفينة التي كانت تقله قدر لها أن تغرق عند شواطئ موريتانيا، ولم ينج المسافر المستكشف من الغرق إلا بأعجوبة" (ص. 70) [!]. إن السفينة التي يشير إليها المؤلف هي "لامديز" (La Méduse) الشهيرة وقد تحطمت في يوليو/تموز سنة

-جوزيفين كام، المستكشفون في إفريقيا، ترجمة وتعليق السيد يوسف نصر،
مراجعة محمد علي وقاد، دار المعارف، القاهرة، 1984، 360 ص.

وقد خصصت هذه المؤلفة الإنجليزية، بدورها، الغالبية العظمى من كتابها
للمستكشفين الإنجليز. وفي الصفحات القليلة التي تحدثت فيها عن رني كايي لم تكن
معلوماتها، هي الأخرى، دقيقة⁵¹، وكذلك الشأن بالنسبة لمعلومات المترجم والمعلق⁵².

1816. ولم يكن كايي ضمن ركابها بل كان على متن سفينة ترافقها لم تصب بأي ضرر. وعلى ما
يبدو فإن إسماعيل العربي اختلط عليه الأمر بشأن كايي وموليين، ذلك أن هذا الرحالة الأخير هو
الذي كان يوجد على متن السفينة المتحطمة. ومما يؤكد هذا الخلط الذي وقع فيه المؤلف ذكره لعنوان
رحلة كايي (ص.70):

Journal d'un voyage à Tombouctou et dans l'intérieur de l'Afrique

فهذا العنوان مركب من جزأين من عنواني رحلتي موليين وكايي وهما:

- ✓ Mollien, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique et aux sources du
Sénégal et de la Gambie,
- ✓ Caillié, Journal d'un voyage Tombouctou et Jenné dans l'Afrique
centrale.

⁵¹ - تقول المؤلفة على سبيل المثال: "إن رني كايي أجاد العربية، وعرف محتويات القرآن، وألم
بعادات المسلمين" (ص.145). وهذه المعلومات -التي لا نستبعد أن تكون متأثرة بما يختزنه الخيال
الشعبي البيضاوي من أساطير تتعلق بكايي- خاطئة تماما. إذ أن كايي نفسه لم يدع إجادة العربية ولا
معرفة القرآن.

⁵² - يجزم السيد يوسف نصر "أن رني كايي أرسلته الجمعية الجغرافية الفرنسية [ربما يتعلق الأمر
بالجمعية الجغرافية الباريسية!] إلى غرب إفريقيا، كي يصل إلى مدينة تنبكتو ويقوم بكشفها".
وحسب معلوماتنا فإن تلك الجمعية لم تقم صلات بكايي، بل اكتفت بالإعلان عن جوائز لأول
أوروبي يصل تنبكتو. راجع:

وبإيجاز فإن مجمل الدراسات العربية في هذا الموضوع تتسم بالشح والضحالة، الشيء الذي لا يبق لنا خيارا في الاعتماد على الدراسات الغربية التي لن تكون محايدة في جميع الحالات.

أما المصادر الأساسية التي اعتمدها فيمكن تقسيمها زمانيا إلى قسمين رئيسيين:

أ. المصادر السابقة للقرن التاسع عشر

لقد خصصنا الفصل الأول من هذا العمل للحديث عن هذه المصادر التي تضم، على الخصوص، مصادر عربية وبرتغالية وفرنسية:

1. مصادر عربية

تضم هذه المصادر أساسا كتب بعض الرحالة والجغرافيين العرب ممن زاروا المجال البيضاوي أو ممن اهتموا به خلال العصور الوسطى وبداية العهود الحديثة.

Edmé Jomard, Remarques et recherches géographiques sur le voyage de Caillié dans l'Afrique centrale, Imprimerie Royale, Paris, 1830, 406 p., pp. 358 - 359.

كما أن يوسف نصر في تعليقه على الفصل الخامس من كتاب المؤلفة يؤكد أن كايي بدأ رحلته إلى تينبكتو سنة 1827 من طنجة التي رجع إليها مباشرة بعد أن وصل إلى تينبكتو. ويدعم هذا الأستاذ رأيه الخاطئ ذلك بخريطة (ص. 165) توضح أن رحلة رني كايي تمت ذهابا وإيابا بين طنجة وتينبكتو!!

2. مصادر برتغالية

يشتمل هذا الجزء على كتابات بعض الأوربيين (خاصة البرتغاليين). وهي تغطي الفترة الممتدة من بداية الثلث الثاني من القرن الخامس عشر وحتى العقود الأولى من القرن السادس عشر الميلاديين.

3. مصادر فرنسية

وقد بدأت في الظهور أثناء القرن السابع عشر لتنتشر على الخصوص خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

ب. المصادر الفرنسية خلال القرن التاسع عشر

تعتبر هذه المصادر العمود الفقري لهذا العمل. وهي تقتصر على كتابات الرحالين والمستكشفين الفرنسيين الذين زاروا المنطقة على امتداد القرن التاسع عشر، ويمكن تقسيمها عموماً إلى نوعين:

1. مصادر غير منشورة

وتتمثل في الوثائق الأرشيفية وهي في غالب الأحيان على شكل تقارير خطية أو رحلات لم تنشر لحد الساعة كتقارير موليين وكايي وصوليبي وبلانشي عن رحلاتهم الاستكشافية.

2. مصادر منشورة

وتنقسم، هي الأخرى، إلى نوعين رئيسيين:

✓ رحلات وتقارير تم نشرها في شكل كتب مثل رحلات موليين، كايي وكروفل وشودو...إلخ.

✓ رحلات وتقارير منشورة في شكل مقالات مثل رحلات ماج، فينسان وبورل...إلخ.

وستنطرق إلى هذه المصادر جملة وتفصيلا في الفصلين الثاني والثالث من هذا العمل.

وقد رافقت إنجاز هذا العمل عراقيل وصعوبات متعددة تعلق بعضها بطبيعة المجال الموريتاني المدروس بينما ارتبط البعض الآخر بالمصادر الأساسية للموضوع وبصاحب البحث نفسه نرى من اللازم ذكر أهمها:

✓ طبيعة المجال الموريتاني الذي اخترناه حيزا مكانيا للدراسة، فهو يمثل نقطة لقاء وتداخل وتماس مع مجالات متعددة ومختلفة ك"الصحراء الكبرى" و"الصحراء الغربية" و"السودان الغربي" و"إفريقيا الغربية" و"إفريقيا الشمالية" و"المغرب العربي"..إلخ. ونتيجة لهذه الخصوصية فقد وجدنا أنفسنا مرغمين على التنقيب والبحث في الرحلات والاكتشافات التي اتجهت نحو الفضاءات السالفة الذكر بحكم ارتباطها وتداخلها مع مجالنا المدروس مما أخذ الكثير من وقتنا دون كبير استفادة في بعض الأحيان.

✓ تنائر مصادرنا وتشتتها الشيء الذي تطلب منا البحث في مراكز توثيق مختلفة⁵³ مع ما يرافق ذلك من أسفار ومشقات.

⁵³ - تطلب منا إنجاز هذا العمل القيام بالعديد من مهام البحث في الأرشيف الوطني السنغالي والأرشيف الوطني الفرنسي، فضلا عن بعض مراكز التوثيق في موريتانيا والجمهورية التونسية والمملكة المغربية.

✓ صعوبة الحصول على بعض المعلومات البيوغرافية المتعلقة ببعض الرحالين والمستكشفين موضوع الدراسة.

✓ محدودية التجربة في مجال البحث العلمي مما جعلنا، في بعض الأحيان، ننساق في متاهات جانبية، وهي إن ارتبطت ببعض جوانب البحث إلا أنها تبقى ثانوية، ولو تفتنا إلى ذلك، في الوقت المناسب، لاقتصدنا وقتا وجهدا نحن في أمس الحاجة إليهما.

✓ محاولتنا تعريف الأعلام المذكورة في المتن (موريتانية وأجنبية)، إذ أخذ هذا التعريف منا وقتا وجهدا كبيرين وأوشك أن يحول العمل إلى تحقيق بكل ما يرافق التحقيق من متاعب وصعوبات.

ولن ننهي هذا المدخل دون استسماح زملائنا الباحثين فيما قد يحتويه هذا العمل من نواقص وأخطاء معرفية ومنهجية متأتية -دون شك- من المستوى العلمي ومن عدم التوفر بعد على شروط المؤرخ المتمرس. ف- "كتابة التاريخ -كما يقول بول ين (Paul Veyne) - نشاط معرفي وليست فنا لكسب المعاش..."⁵⁴. وأخشى ما نخشاه أن يكون الحصول على الشهادة، خدمة لكسب المعاش قد حل ، في هذا العمل، محل مهمة المؤرخ الفعلية التي نأمل أن تسمح لنا الظروف مستقبلا بامتلاك مقوماتها المعرفية والمنهجية. وعندها سنحاول، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، أن نعود إلى هذا العمل لسد النواقص وتصحيح الأخطاء التي لا يسلم منها أي جهد بشري لا سيما إذا كان هذا الجهد بداية في مجال البحث العلمي.

⁵⁴ - " (...) Ecrire l'histoire est une activité de connaissance et non un art de vivre...", Paul Veyne, Comment on écrit l'histoire, Paris, Editions du Seuil, 1979, 242 p., p. 64.

الفصل الأول:

الرحلات الاستكشافية إلى المنطقة قبل القرن التاسع عشر

قبل تقديم نبذة عن الرحالين والمستكشفين الذين زاروا المنطقة قبل القرن التاسع عشر نرى من اللازم تحديد مفهومنا للمستكشف (أو المكتشف) وللرحلة، وبالتالي للاستكشافات والرحلات.

فالمستكشف حسب صاحب القاموس المحيط مشتقة من "استكشف عنه: سأل أن يكشف له عنه..."¹.

أما المكتشف بالنسبة لمؤلف المعجم الوسيط فهي مشتقة من "اكتشف الأمر: كشف عنه بشيء من الجهد"². ويضيف هذا المؤلف للمكتشف عنصر السبق إذ يقول: "اكتشف [مكتشف] الشيء: كشف عنه لأول مرة"³.

ويعرف المعجم روبرير المستكشف (Explorateur) بأنه "شخص يقوم باستكشاف بلد بعيد وعر الطريق أو غير معروف"⁴.

إن المستكشف (أو المكتشف)، على العموم، هو ذلك المسافر الذي يجوب منطقة من العالم ما تزال مجهولة بهدف اكتشافها.

أما المستكشف الأوروبي في سياقنا فهو ذلك الذي يتمكن من الوصول إلى منطقة لم يطأها قبله أي أوروبي آخر، منطقة ما تزال مجهولة بالنسبة للأوروبيين، وقد تمثل محاولة الوصول إليها أو عبورها خطراً على حياة ذلك المستكشف الأوروبي.

1 - الشيخ مجد الدين بن محمد الفيروزبادي، القاموس المحيط، 4 أجزاء، دار الفكر، بيروت، 1983، 395، 400، 404 و 416، ص، مادة كشف.

2 - إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، جزءان، المكتبة العلمية، طهران، د.ت.ا، 550 و 531 ص، مادة كشف.

3 - المرجع السابق، مادة كشف.

4 - المرجع السابق، مادة كشف.

وأما الرحالة حسب صاحب المعجم الوسيط "فهو الكثير الرحلة"⁵ والارتحال والترحل.

وبالنسبة للمعجم روبرير فالرحالة (Voyageur) "هو الشخص الذي يسافر لمشاهدة بلدان عديدة بهدف اكتشافها ودراستها"⁶. وإذا كانت بعض المعاجم الحديثة تورد، في بعض الأحيان، عبارتي مستكشف ورحالة مترادفتين، فإننا نعتبر على الأقل في ثنايا هذا العمل أن المستكشف هو الذي يستكشف منطقة جديدة كانت قبله مستعصية على نظرائه. أما الرحالة فهو ذلك المسافر الكثير الشغف بالأسفار والترحال والذي يزور مناطق عديدة من أجل وصفها ودراستها بغض النظر عن عنصر السبق. فقد يكون الرحالة مسكتشفاً، إذا كان يسير في مجال لم يكتشفه قبله أحد أقرانه. أما المستكشف فلا نعتبره رحالة إلا إذا امتهن الترحال والتنقل وقام بعدة أسفار من ضمنها على الأقل رحلة طويلة تستهدف وصف ودراسة المناطق المزورة. والرحالة المثالي هو ذلك المسكتشف الذي لا يدفعه الهم الإيديولوجي، وإنما ينتقل ويرتحل شغفا بالمعرفة وحباً للاطلاع وسعياً إلى التواصل مع الحضارات والمجتمعات الأخرى. إنه ذلك الذي يبحث عن ذاته بقدرما يبحث عن الآخرين.

وأما الرحلة فهي الانتقال، يقول ابن منظور⁷: "الترحل والارتحال: الانتقال، وهو الرحلة والرحلة". وطبعاً قد تكون الرحلة لأغراض تجارية أو سياسية أو ديبلوماسية أو عسكرية... إلخ.⁸

⁵ - إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، المرجع السابق، مادة رحل.

⁶ - Le voyageur: "Personne qui voyage pour voir de nombreux pays (dans le but de découverte, d'étude...)", voir, **Robert, Le Petit Robert**, op.cit.

⁷ - جمال الدين أبو الفضل ابن منظور، لسان العرب، أربعة أجزاء، إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرغشلي، دار لسان العرب، بيروت، 1970، الجزء الأول، مادة رحل.

⁸ - معن زيادة، "تقديم"، الفكر العربي المعاصر، العدد الحادي والخمسون، السنة التاسعة، يونيو/حزيران 1988، صص. 4-8، ص. 4.

وتعني الرحلة في ثنايا هذا العمل انتقال الإنسان من موطنه الأصلي إلى أقطار وبلدان بعيدة بغية ارتيادها فاكتشافها ثم وصفها. إنها من هذا المنطلق تفاعل بين الذات الواصفة (الرحالة) والآخر (الموصوف)، فهي إذن، محاولة لجمع بعض الانطباعات والتصورات العامة عن قوم آخرين، محاولة لتقديم صورة ما عن "الغير"، هذا "الغير" الذي ظل مصدرا لإثارة خيال وأحلام الإنسان الأوروبي الذي امتاز منذ بداية الفترة الحديثة بحب الاطلاع مدفوعا بروح المغامرة وبشغفه بالعلم والمعرفة التي هي كما يقال: "القدرة والسلطة" (le savoir c'est le pouvoir). ومن هنا تكون الكشوفات الأوروبية الحديثة ضربا من ضروب الوسائل الرامية إلى معرفة العالم قصد السيطرة عليه.

ومع ذلك فإن الرحلات تمثل نمطا من التفاعل والحركة، فهي انتقال من مكان إلى آخر ومخالطة ومعايشة لقوم آخرين بغية وصف حياتهم، كما أن حرص الرحالين على رصد وقائع حياة السكان اليومية في مجتمع معين وخلال فترة زمنية محددة قد أعطى للرحلات قيمة مصدرية مهمة بغض النظر عن موضوعية المعلومات المسجلة في تلك المصادر أو ذاتيتها.

فالالاتصال المباشر بالمكان والإنسان ومعاينة الظواهر الموصوفة من الشروط المساعدة على موضوعية وصدق الوصف، فقبل حوالي ألف سنة من الآن أدرك الرحالة والمؤرخ أبو الريحان البيروني أهمية المعاينة المباشرة حين افتتح أحد أهم مؤلفاته بقولته المشهورة: "إنما صدق القائل: ليس الخبر كالعيان، لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله"⁹.

وهكذا تستمد الرحلة أهميتها وقيمتها من اتصال الرحالة اتصالا مباشرا عن طريق "العيان" وليس عن طريق "الخبر" بوقائع الحياة اليومية موضوع الرحلة.

⁹ - أبو الريحان بن أحمد البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، ط. مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، 1958، ص. 1.

ولا تقتصر قيمة الرحلات على الارتباط بالجغرافيا ارتباطا يكاد يكون عضويا، وعلى كونها مصدرا تاريخيا بالغ الأهمية، بل إنها تتصل كذلك بعلم الاجتماع والفلسفة وعلم السياسة والتربية واللسانيات... الخ.¹⁰

إن ظاهرة الرحلة قديمة قدم البشرية ذاتها، فقد عرف الإنسان الرحلة والترحال منذ أقدم العصور. وعبر الرحلة اكتشف الإنسان تدريجيا موطنه وهو الكوكب الأرضي الذي منحه مجالا رحبا للتنقل والارتحال فمكّنه ذلك من ملاحظة انتشار البشر عبر مختلف بقاع المعمورة مع تنوع أجناسهم واختلاف أنماط حياتهم وصروف عيشهم.

وفي غياب مصادر تمكّنا الساعة من الحديث عن الرحلات الاستكشافية خلال العهود القديمة إلى المنطقة التي سميناها البلاد الموريتانية، وهي موضوع هذه الدراسة، فإننا نجد أنفسنا مرغمين على التركيز في هذا الفصل على رحالي العصور الوسطى والفترة الحديثة.

أولا. الرحلات إلى المنطقة قبل مجيء الفرنسيين

سنكتفي في هذا العنصر بتقديم لمحة عن الرحالين العرب والبرتغاليين الذين وصلوا البلاد أو تحدثوا عنها في الفترتين الوسطى والحديثة، بادئين بالرحالين والجغرافيين العرب.

أ. الرحالون العرب والريادة في العصور الوسطى

مثلت كتب الرحالين والجغرافيين العرب في العصور الوسطى (حسب التحقيب الأوروبي) مصدرا أساسيا من مصادر تلك الفترة وخاصة بالنسبة لمنطقتي

¹⁰ - معن زيادة، "تقديم"، مرسا، ص. 7.

بلاد السودان والصحراء الكبرى بما فيها البلاد الموريتانية، ذلك "أن القدماء كانوا يجهلون تقريبا كامل منطقة الغرب الإفريقي"¹¹.

ورغم الحضور الروماني في منطقة الشمال الإفريقي يبدو أن الرومان، وحتى القرن الثاني الميلادي، كانوا يجهلون المناطق الواقعة جنوب حدود إمبراطوريتهم.¹²

أما الحديث عن معرفة الأقاليم الصحراوية الداخلية من غربي القارة الإفريقية في تلك الفترة فهو مسألة، على ما يبدو، غير واردة إطلاقا، ذلك أن من بين المختصين بتاريخ المنطقة من يرى أننا لم نتأكد لحد الآن من معرفة ما إذا كانت إفريقيا الغربية قد تمّت ملامستها بالفعل حينئذ.¹³

وهكذا فإن الوصول الفعلي إلى هذه المنطقة الوعرة واختراقها لجمع المعلومات عن المكان والسكان، سينتظر الرحالين والجغرافيين العرب الذين قاموا بدور ريادي في فترة العصور الوسطى مقدمين للتاريخ البشري خدمات مهمة تمثلت في تسجيل وصيانة جزء كبير من التراث الجغرافي والتاريخي للعالم المعروف في ذلك الوقت، مما بوأهم مكانة بارزة ومنحهم تقديرا خاصا، "فمزيتهم الأساسية [حسب

¹¹ - راجع موني:

Raymond Mauny, "L'Ouest africain chez les voyageurs arabes du moyen âge", 1ère conférence internationale des africanistes de l'Ouest. Comptes rendus, t.-II, Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1951, 567 p., pp. 503-508, p. 503.

¹² - يقول موني: "إن الحدود الجنوبية للإمبراطورية الرومانية تمر جنوب سلا"، انظر:

Mauny, "L'Ouest africain chez les voyageurs arabes...", op.cit., p.

500.

¹³ - Idem

بيكر] تتجسد في كونهم استطاعوا حفظ جزء من تقاليد العصور القديمة في وقت كان فيه الغربيون غير قادرين على إدراك قيمتها"¹⁴.

وينوه موني (Mauny)، من جانبه، بالمصادر التي خلفها هؤلاء الرحالون والجغرافيون العرب معترفا بريادتهم، على الأقل، بخصوص تاريخ هذه المنطقة في الفترة الوسيطة، إذ يقول: "بيد أن المصادر العربية المكتوبة حول إفريقيا المدارية والغربية ذات أهمية جوهرية لأن العرب، بخلاف القدماء والأوروبيين في العصور الوسطى، كانت لهم معرفة عيانية بالمناطق الواقعة جنوب الصحراء"¹⁵. وهنا قد يتبادر إلى الأذهان سؤال يتعلق بالأسباب الكامنة وراء زيادة الجغرافيين والرحالين العرب في العصور الوسطى المشار إليها قبل حين.

لقد كانت الظروف العامة التي اكتنفت قيام الدولة الإسلامية وتطور تلك الدولة إلى إمبراطورية متسعة الأرجاء عاملا أساسيا شجع تلك الريادة ودعمها. فقد تفتن الخلفاء العباسيون بسرعة إلى ضرورة تنظيم فتوحاتهم ومعرفة الأمم التي وصلت إليها حدود إمبراطوريتهم، فبدأوا العمل على تنظيم شؤون تلك الإمبراطورية منشئين ديوانا خاصا بالبريد ومقيمين نقاطا بريدية عديدة ضمانا للربط والاتصال مع الأجزاء الهامشية الأكثر بعدا عن مركز دار الإسلام. وفضلا عن المردود النفعي لهذه الإجراءات كإعطاء دفع للعشور والخراج ومحاولة دعم رقابة الدولة الإسلامية التي أصبحت مترامية الأطراف، فإن الميل إلى الدراسات العلمية الذي بدأ في عهد الخليفة العباسي المنصور (136هـ/754م-158هـ/775م). قد تعمق أيام الخليفة المأمون (170هـ/786م-218هـ/813م).

¹⁴ - Baker, *Histoire des découvertes...*, op.cit., p. 52.

¹⁵ - Mauny, *Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen âge d'après les sources, la tradition et l'archéologie*, IFAN, Dakar, 1961, 587 p., p. 24.

هـ/833م.) الذي أنشأ ديوانا للترجمة عهد إليه بنقل أهم الآثار اليونانية إلى اللغة العربية.

وطبعا فإن انتشار الإسلام عبر المزيد من البقاع كان من العوامل التي شجعت الدراسات الجغرافية العربية فضلا عن المتاجرة مع المناطق المفتوحة. كما أن بعض العبادات الإسلامية كانت، هي الأخرى، حافزا في هذا المجال، ففريضة الصلاة تتطلب إقامتها معرفة الجهات للتوجه نحو الكعبة، وتأدية فريضة الحج تستدعي السفر إلى البلاد المقدسة. وحتى قبل قيام الدولة العباسية، فإن الطبيعة الكونية للرسالة الإسلامية المطلوب تبليغها للإنسان أينما كان، تحث على الرحلة والاجتهاد في معرفة مختلف التجمعات البشرية والطرق المؤدية إليها وطبيعتها مواطنها وكل ما من شأنه أن يساعد الفاتحين على الوصول إليها والتعامل مع سكانها.

وفضلا عن ذلك فإن منطقة السودان الغربي بحكم توفرها على مادتي الذهب والعبید كانت منطقة جاذبة، ومن الطبيعي إذن أن تثير اهتمام حكام الإمبراطورية الإسلامية أيام التوسع والفتوحات خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أهمية الدور الذي اضطلعت به هاتان المادتان في تلك الفترة. فالذهب ظل، على مر العصور، يحتل الصدارة في تغذية خزائن الدول والإمبراطوريات، وكان البحث عنه من دواعي العديد من الرحلات والبعثات الكشفية عبر مختلف بقاع المعمورة. ولأن هذه المنطقة كانت، أثناء العصور الوسطى، أهم مصدر للذهب¹⁶، فليس من المستبعد أن يكون

¹⁶ - حول أهمية ذهب السودان الغربي خلال الفترة الوسيطة تمكن مراجعة:

- ✓ Braudel, "Monnaies et civilisations: de l'or du Soudan à l'argent d'Amérique un drame méditerranéen", Paris, *Annales Economie Société et Civilisation* (Ann., Eco, Soc., Civ.), n°1, 1946, pp. 9-22,
- ✓ Bloch, "le problème d'or au moyen âge", Paris, *Ann. Eco. Soc. Civ.*, t.-V, 1933, pp. 1-37,
- ✓ Guy Lasserre, "L'or du Soudan", Notes et comptes rendus, *Cahiers d'Outre-Mer* (COM), n°4, première année, 1948, pp. 368-374.

البحث عن تلك المادة النفيسة وربط نوع من العلاقات مع منتجها ووسطائها من العوامل الكامنة وراء تنقلات بعض الرحالين والجغرافيين العرب في تلك الفترة. وإضافة إلى ما سبق فإن منطقة السودان الغربي كانت كذلك مصدرا للرقيق الذي مثل، بدوره، عنصرا بارزا في دعم الجيوش باكتتاب المزيد من الجند فضلا عن الاستخدام في بلاطات وحواشي السلاطين والأمراء.

وهكذا فإن جملة من العوامل السياسية والعسكرية والمالية والدينية تضافرت لدفع الجغرافيين والرحالين العرب والمسلمين إلى الترحال عبر مختلف أنحاء الإمبراطورية الإسلامية وتسجيل مشاهداتهم في آثار مثلت الينبوع الذي اعتمد عليه مختلف دارسي تلك الفترة إلى يوم الناس هذا.

وقد أدرك بعض الجغرافيين والرحالين حينئذ بعد هذا الجزء الهامشي من بلاد الإسلام الواقع في النواحي الجنوبية الغربية من الصحراء الكبرى ووعورة الطرق الموصلة إليه حيث يقول المقدسي في هذا الصدد¹⁷: "إنه بعيد الأطراف كثير المفاوز صعب المسالك كثير المهالك، وفي زاوية الإسلام موضوع وبعضه خلف البحر مقطوع، فلا فيه راغب ولا له ذاهب".

ويذهب ابن حوقل إلى القول بأن سكان بعض تلك الأصقاع الصحراوية لا يعرفون حتى بعض أنواع الأطعمة الشهيرة إذ يقول: "[...] وما عداه وأوغل في براري سجلماسة وأودغست ونواحي لمطة وتادمكة إلى الجنوب ونواحي فزان، ففيه مياه عليها قبائل من البربر المهملين الذين لا يعرفون الطعام ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئا من الحبوب. والغالب عليهم الشقاء والاتشاح بالكساء وقوام حياتهم باللبن واللحم"¹⁸.

17 - شمس الدين أبو عبد الله المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1906، ص.216.

18 - ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص.84.

ورغم بعدها ووعورة طرقها فإن هذه المنطقة حظيت بنصيبها من تلك الآثار، إذ وصل إليها أو اهتم بها بعض الرحالين والجغرافيين العرب كابن حوقل وابن بطوطة والوزان على سبيل المثال لا الحصر.

أما الأول، وهو من أهل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، فقد تجول بالصحراء الكبرى¹⁹ وزار مدينة أودغست سنة 340هـ/951م، ووصف المسالك والطرق وحدود ومواقع بعض المدن والمسافات بينها وتحدث عن السكان وبعض أنشطتهم وعاداتهم.

فضمن حديث هذا الرحالة عن مدينة أودغست يقول: "وأودغست مدينة لطيفة أشبه بلاد الله بمكة"²⁰ مشيراً إلى أن المسافة بين هذه المدينة وبين مدينة سجلماسة شهران.²¹

ويستعرض ابن حوقل معلوماته عن بعض ثروات المنطقة ومن أهمها الملح المستخرج من مملحة أوليل²² الواقعة على نحو البحر والتي تبعد عن أودغست مسافة شهر.²³

¹⁹ - رغم أن ابن حوقل يصرح بأنه زار أودغست، فإن بعض الكتاب يشك في زيارته للصحراء ويعتقدون أنه حصل على معلوماته عن المنطقة في سجلماسة.

²⁰ - ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، مصدر سابق، ص.91.

²¹ - المصدر السابق والصفحة ذاتها.

²² - سباح غنية بالملح تقع في أقصى الجنوب الغربي من البلاد الموريتانية قرب مصب النهر. وقد أسهمت هذه السباح إسهاماً في التجارة عبر الصحراء. راجع بهذا الخصوص:

✓ ابن حوقل، المصدر السابق، ص. 91.

✓ أبا الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت. 640هـ-1243م)، كتاب الجغرافيا،

حقيقته ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط.1، 1970، ص.262، ص.ص. 90 و 113.

✓ البكري، المغرب، مص. سا.، ص.171.

✓ ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت 1977، ص.283.

ويتحدث هذا الرحالة عن ملوك بلاد السودان وثرواتهم وعلاقاتهم ودور مادة الملح في تلك العلاقات والأهمية التي اكتسبتها أودغست من خلال هذه المادة: "وملك أودغست هذا يخالط ملك غانه، وغانه أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من الأموال والمدخرة من التبر [...] وحاجتهم إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام، فإنه لا قوام لهم إلا به وربما بلغ الحمل الملح [هكذا] في دواخل بلد السودان وأقصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار"²⁴.

وضمن حديثه عن قبائل صنهاجة الموجودة بين أودغست وسجلماسة تحدث ابن حوقل عن قبيلة مسوفة قائلا: "وبنو مسوفة قبيل عظيم من المقيمين بقلب البر على مياه غير طائفة، لا يعرفون البر ولا الشعير ولا الدقيق [...]، وأقواتهم الألبان وفي بعض الأوقات اللحم"²⁵. ويعدد هذا الرحالة جملة من خصال تلك القبائل. ف"فيهم البسالة والجرأة والفروسية على الإبل والخفة في الجري والشدة والمعرفة بأوضاع

✓ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، الجزائر، 1988، صص. 31-32
 ويعتقد معظم الباحثين اعتمادا على رأي المختار بن حامد الذي تدعمه نتائج البحث الأثري أن أوليل هي المملحة المعروفة باسم نتررت عند نهاية أفطوط الساحلي جنوبا. انظر:

- ✓ Jean Devisse, "Routes de commerce et d'échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée du XIème au XVIème siècles", Paris, *Revue d'Histoire Economique et Sociale* (RHES), n°1, 1972, pp. 51-56.
- ✓ Robert-Chaleix Denise, "Sel, coquillages et jarosite: à propos de la saline médiévale d'Awlil", *Journal des Africanistes*, t.-61, n°2, Paris, 1991, pp. 169-185, pp. 170 et suivantes.

²³ - ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، مص. سا، ص 91.

²⁴ - المصدر نفسه، ص. 98.

²⁵ - المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

البر وأشكاله والهداية فيه، والدلالة على مياحه بالصفة والمذاكرة، ولهم الحس الذي لا يدانيه في الدلالة إلا من قاربهم وسعى سعيهم"²⁶.

ويواصل ابن حوقل تعداد تلك الصفات: "[...] ولهم خلق تام وحول وجلد عام في نسائهم وفي رجالهم، ولم ير لأحدهم ولا لصنهاجة مذ كانت من وجوههم غير عيونهم، وذلك أنهم يتلثمون وهم أطفال وينشؤون على ذلك، ويدعون أن الفم سواة تستحق الستر كالعورة"²⁷.

ويتحدث هذا الرحالة عن حق العبور الذي تجنيه هذه القبائل على القوافل التجارية العابرة للصحراء إذ يقول: "[...] ولهم لوازم على المجتازين عليهم بالتجارة من كل جمل وحمل، ومن الراجعين بالتبر من بلد السودان وبذلك قوام بعض شؤونهم"²⁸.

وفي القرن الموالي (الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) نجد عند البكري معلومات عن المنطقة أكثر تنوعا ودقة في كتابه *المسالك والممالك* الذي يعتبره الاستاذ هشام جعيط "ذروة معرفتنا الجغرافية عن المغرب والسودان"²⁹. ورغم أن من بين الباحثين المختصين من يجزم بأن البكري لم يزر المنطقة³⁰ فإن كتابه اشتمل على معلومات ثمينة عن مختلف المسالك والطرق التجارية

26 - المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

27 - المصدر نفسه، ص.99.

28 - المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

29 - هشام جعيط، "المصادر المكتوبة السابقة للقرن السادس عشر"، ضمن: تاريخ إفريقيا العام، المجلد الأول (المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا)، نشر اليونسكو/جين أفريقيا، تورينو (إيطاليا)، 1983، 854، صص.103-125، ص.122.

30 - يعتقد موني أن البكري لم يزر منطقة الصحراء، بل نقل معلوماته عنها، وهي معلومات دقيقة ومستفيضة نسبيا حسب موني- عن مخبرين ثقة من التجار المغاربة جابوا تلك المنطقة، انظر بهذا الخصوص:

✓ Mauny, *Tableau...*, op.cit., p. 29.

العابرة للصحراء الكبرى والرابطة بين الشمال الإفريقي وإفريقيا جنوب الصحراء فضلا عن ذكر أسماء بعض مدن هذه المنطقة والمسافات بينها وسكانها والحديث عن ظهور حركة المرابطين بالبلاد الموريتانية الحالية. يقول البكري³¹: "وخلف بني لمتونه قبيلة من صنهاجة تسمى جداله وهم يجاورون البحر [المحيط الأطلسي] ليس بينهم وبينه أحد. وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين وأربعمائة بدعوة الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم وهم على السنة متمسكون بمذهب مالك بن أنس رضي الله عنه، وكان الذي نهج ذلك فيهم ودعا الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبد الله بن ياسين...".

وبعد استرسال مطول بشأن المرابطين³² يستعرض البكري بعضا من حيوانات المنطقة وأشجارها ومعادنها مشيرا خاصة إلى "[...] معدن للملح آخر عند

✓ Mauny, "L'ouest...", op.cit., pp. 505-506.

ويؤكد الاستاذ هشام جعيط عدم زيارة البكري للمنطقة، انظر: هشام جعيط، المرجع السابق، 122. ويشير البكري نفسه مرارا إلى أنه أخذ معلوماته (العائدة إلى ما قبل دولة المرابطين) من أرشيف قرطبة وبالذات من كتاب المسالك والممالك لمحمد بن يوسف الوراق المتوفى سنة 974 م. (البكري، المصدر السابق، ص. 158). أما المعلومات المتعلقة بأحداث القرن 5هـ-11م، فقد استقاها من تجار ذكر أسماءهم، كانوا يسافرون بين الأندلس والصحراء وبلاد السودان.

³¹ - البكري، المغرب...، مص. سا. ص. 164.

³² - البكري، المغرب، مص. سا. صص. 164-170. وبشأن المرابطين أيضا تمكن مراجعة:

✓ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 4 أجزاء، دار الثقافة، بيروت، ط. 3، 1983، ج. 4، صص. 7-28.

✓ علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973، 517 ص، صص. 120 وما بعدها.

✓ عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 7 أجزاء، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1391هـ- / 1971، ج. 6.

بني جداله بموضع يسمى ءاوليل على شاطئ البحر ومن هنالك تتحملة الرفاق أيضا إلى ما جاوره"³³.

ومن حيوانات المنطقة يذكر البكري "اللمط وهو دابة دون البقر والكباش الدمانية خلقها خلق الضأن إلا أنها أجمل وشعرها شعر الماعز لا أصواف لها وهي أحسن الغنم خلقا وألوانا، والإبل والأبقار والفنك"³⁴.

ويشير البكري إلى وجود جزيرة بالبحر قرب أوليل "معاش أهلها من لحوم السلاحف فهي أكثر شيء عندهم في ذلك البحر [...] ولهم أغنام ومواش وهذه الجزيرة مرسى من المراسي والطريق منها إلى نول على ساحل البحر لا يفارقه مسيرة شهرين"³⁵.

ويزودنا البكري بمعلومات متنوعة عن مدينة أودغست وحياتها الثقافية والاقتصادية المزدهرة نسبيا: "فهي مدينة كبيرة أهلة رملية [...] بها جامع ومساجد كثيرة أهلة في جميعها المعلمون للقرآن وحولها بساتين النخل ويزدراع فيها القمح بالفوس [الفؤوس] ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم وسائر أهلها يأكلون الذرة [...] وبها شجيرات تين يسيرة ودوال يسيرة أيضا وبها جنان حناء لها غلة كبيرة وبها أبار عذبة والغنم والبقر أكثر شيء عندهم يشتري بالمتقال الواحد عشرة أكباش وأكثر وعسلها أيضا كثير يأتيها من بلاد السودان وهم [سكان أودغست] أرباب نعم جزلة وأموال جليلة وسوقها عامرة الدهر كله لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه [...] وتبايعهم بالتبر وليست عندهم فضة وبها مبان حسنة ومنازل رفيعة"³⁶.

33 - أبو عبيد البكري، المغرب ...، مص. سا، ص. 171.

34 - المصدر السابق والصفحة ذاتها.

35 - المصدر السابق، صص. 171-172.

36 - المصدر السابق، ص. 158.

ويتناول البكري علاقات أودغست ومبادلاتها التجارية مع بلاد السودان والصحراء مؤكدا على أن ذهب أودغست "أجود ذهب أهل الأرض وأصحه".³⁷

ومع حلول منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، يصل المنطقة سنة 1352/729 أحد أعظم رحالي العصور الوسطى إن لم يكن أعظم رحالي كل العصور³⁸ وهو ابن بطوطة الذي اجتاز الصحراء الكبرى من سجلماسة إلى مالي³⁹ عبر تغازة وولاته⁴⁰ ليعود إلى المغرب عن طريق تنبكتو فكاو فتادمكه فتوات.

³⁷ - المصدر السابق، ص.159.

³⁸ - يقول موني ضمن حديثه عن الرحالة ابن بطوطة:

"La réalité de ses voyages est aujourd'hui reconnue par tous, plaçant notre auteur au rang des plus grands voyageurs du moyen âge et même de tous les temps", Mauny, **Tableau...**, op.cit., p. 35.

³⁹ - عاصمة إمبراطورية مالي.

⁴⁰ - إحدى المدن الموريتانية التاريخية يرجع البعض تاريخ تأسيسها إلى القرن الهجري الأول، غير أنها، على الأرجح، تأسست في القرن 6 هـ/ 13م. وكانت هذه المدينة بمثابة محطة متقدمة في التجارة عبر الصحراء على الطريق الغربي من المحور الأوسط المار بتغازة وتوات. كما كانت مركزا ثقافيا مهما لتبادل الطلاب والعلماء مع بلاد المغرب والمشرق. وابتداء من القرن السابع عشر، ومع تحول مراكز النقل والقرار إلى تنبكتو، بدأت أهمية وولاته تنقلص بالتدريج. وكان تأسيس النعمة في مطلع القرن التاسع عشر واختيار الإدارة الاستعمارية لها في مطلع القرن العشرين عاصمة جهوية عاملا إضافيا ساهم في تقليص أهمية وولاته ودفع سكانها إلى النزوح عنها. راجع:

✓ ابن بطوطة، **الرحلة...**، مص. سا، ص.660.

- ✓ Fevez le Capitaine, "Itinéraire de Oualata à El-Ksaïb", Gorée, *Bulletin du Comité des Etudes Historiques et Scientifiques de l'Afrique Occidentale Française* (BCEHSAOF), n°2, avril-juin 1922, pp. 241-250.

وقد تضمنت رحلة ابن بطوطة ملاحظات تفصيلية عن مدن المنطقة والسكان وعاداتهم والمناخ والمسالك والقوافل التجارية والبضائع المبادلة وأسعارها... إلخ.

وتهمنا على وجه الخصوص المعلومات التي دون هذا الرحالة عن مدينة ولاته وسكانها. يقول ابن بطوطة: "وصلنا إيولاتن [ولاته] في غرة شهر ربيع الأول بعد سفر شهرين كاملين من سجالماسه وهي أول عمالة السودان ونائب السلطان بها فربما حسين وفربا معناه النائب"⁴¹.

ويمضي الرحالة ابن بطوطة متحدثا عن زيارته لمدينة ولاته ومعاملة السكان له: "كانت إقامتي بإيولاتن نحو خمسين يوما وأكرمني أهلها وأضافوني منهم قاضيها محمد بن عبد الله بن ينومر وأخوه الفقيه المدرس يحيى. وبلدة إيولاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزرعون في ظلها البطيخ وماؤهم من أحساء بها ولحم الضأن كثير بها وثياب أهلها حسان مصرية وأكثر السكان بها من مسوفة ولتسانهم الجمال الفائق وهن أعظم شأنًا من الرجال"⁴².

ويستفيض ابن بطوطة في الحديث عن ثقافة وتقاليد سكان ولاته وهم "مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن، وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات"⁴³.

وقد استقبح هذا الرحالة عادة كانت حينئذ، وما تزال إلى يوم الناس هذا، شائعة لدى بيضان المنطقة وهي عدم تحجب النساء واختلاطهن بالمجتمع. يقول ابن بطوطة: "والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبية ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك"⁴⁴. وقد ذهب ابن بطوطة إلى اتهام قاضي ولاته ضمينا حين

41 - ابن بطوطة، الرحلة، مص. سا، ص. 660.

42 - ابن بطوطة، الرحلة، مص. سا، ص. 661.

43 - المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

44 - المصدر نفسه، ص. 662.

يقول: "دخلت يوما على قاضي إيولاتن بعد إذنه في الدخول فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيته ارتبت وأردت الرجوع فضحكت مني ولم يدركها خجل وقال لي القاضي: لم ترجع؟ إنها صاحبتني، فعجبت من شأنهما فإنه من الفقهاء الحجاج"⁴⁵.

ويورد ابن بطوطة حكاية أخرى مشابهة تؤكد عدم استيعابه تلك الخصوصية إذ يقول: "دخلت يوما على أبي محمد يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعدا على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد، وهما يتحدثان فقلت: من هذه المرأة؟ فقال: هي زوجتي. قلت وما الرجل الذي معها منها؟ فقال: هو صاحبها. فقلت له: أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع؟ فقال لي: مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها ولسنا [هكذا] كنساء بلادكم (التشديد منا). فعجبت من رعونته وانصرفت عنه ولم أعد إليه بعدها واستدعاني مرات فلم أجبه"⁴⁶.

وبغض النظر عن الملابس الموضوعية والإيديولوجية التي اكتنفت ظاهرة الحريم في الحواضر الإسلامية فإن إفلات المرأة في المدن الصحراوية من هذه الظاهرة يبدو أمرا طبيعيا بالنظر إلى مستوى العيش في هذه المدن من ناحية وإلى الخلفية الثقافية من جانب آخر، غير أن من الطبيعي أيضا ألا يتفهم ابن بطوطة غياب ظاهرة الحريم لدى بيضان الصحراء الموريتانيين وهو اللواتي الطنجي الذي تربى وعاش في المغرب وزار، وهو في طريقه إلى الحج، كلا من مصر وسوريا وفلسطين وهي أقاليم إسلامية تخضع فيها النساء لنظام الحريم الذي نشأ في الحواضر الإسلامية. ويخبرنا ابن بطوطة بأن أوضاع المنطقة كانت هادئة يسود فيها الأمن إبان زيارته لها، إذ يقول: "ولما عزمنا على السفر إلى مالي وبينها وبين إيولاتن مسيرة

45 - المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

46 - المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

أربعة وعشرين يوما للمجد اكتريت دليلا من مسوفة إذ لا حاجة إلى السفر في رفقة
لأمن تلك الطريق [التشديد منا] وخرجت في ثلاثة من أصحابي"⁴⁷.

ومع أن نهاية الفترة الوسيطة عرفت سلسلة من الأحداث المحلية والإقليمية والدولية من بينها تراجع الدور العربي الإسلامي مع بداية تفكك الإمبراطورية الإسلامية وبداية الصعود الأوروبي وما صاحب ذلك من تحول في الطرق التجارية وانحسار في الرحلات الجغرافية العربية وبدء الكشوفات الجغرافية الأوروبية خاصة البرتغالية بالسواحل المحيطة؛ مع كل ذلك فإننا نصادف، في الربع الثاني من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، واحدا من أبرز الرحالين العرب يزور المنطقة وهو الحسن بن محمد الوزان الملقب "ليون الإفريقي".
فقد اجتاز هذا الرحالة الصحراء مارا بتغازه ووادان⁴⁸ وتيشيت⁴⁹، فمارس التجارة صحبة قافلة تجارية "سالكا طريقا تجارية جديدة بين ولاته ومصر عبر تشاد لأن الطريق القديمة بين السودان ومصر عبر فزان متعطلة حينئذ جراء غارات النهابين الأعراب [?] في سواحل سرت"⁵⁰.

47 - المصدر السابق والصفحة ذاتها.

48 - إحدى المدن التاريخية الموريتانية تقع في منطقة آدرار بالشمال الموريتاني، ترجع الروايات التاريخية التي تبناها معظم الباحثين، تأسيسها إلى القرن السادس الهجري/الثالث عشر الميلادي، رغم أن من بين الباحثين من يفترض أنها تأسست سنة 1141م. وقد اضطلعت هذه المدينة بدور نشط في التجارة عبر الصحراء. وهي الآن عاصمة مقاطعة من مقاطعات ولاية آدرار. راجع: المصطفى بن احمدان، "مساهمة في كتابة تاريخ وادان منذ تأسيسها 1141 حتى نهاية القرن الثامن عشر"، مذكرة تخرج من المدرسة العليا للأساتذة والمفتشين، نواكشوط، 1985، 120 ص.

49 - مدينة تاريخية موريتانية، اضطلعت بدور مهم في التجارة عبر الصحراء بصفتها نقطة ربط في الطريق الواصل بين منطقتي السودان الغربي وشمال إفريقيا في فترة القرون الوسطى. وهذه المدينة الآن عاصمة مقاطعة إدارية تابعة لولاية تكانت الواقعة بوسط البلاد الموريتانية.

50 - Mauny, *Tableau géographique*, op.cit., p. 47.

وقد زدنا الوزن في كتابه وصف إفريقيا⁵¹ بمعلومات لا تقل أهمية⁵² عن معلومات سابقه سواء تعلقت بالمدن أو بالسكان ونشاطاتهم وتقاليدهم أو بالبلاد ومناطقها وحيواناتها ونباتاتها مشيرا إلى قساوة المناخ وشح المياه ففي صحراء زناته التي تمتد غربا من المحيط وشرقا حتى مملكة تغازه وجنوبا حتى بلاد السودان، وفي "مملكتي" ولاته وتنبكتو، تبلغ المسافات بين نقاط المياه 100 أو 200 ميل. وهذه المياه الوسخة والمرّة توجد في آبار عميقة جدا خاصة في الطريق بين سجلماسه وتنبكتو. ويتوقف الوزن كثيرا عند قساوة المناخ حيث الكثير من السكان يموت من الحر والعطش.⁵³

ويذكر هذا الرحالة وجود الكثير من الحيوانات المتوحشة والثعابين السامة بهذه الصحراء.⁵⁴

ويتحدث الوزن عن "مملكة" ولاته قائلا: "إن هذه المملكة [?] صغيرة وأوضاعها متوسطة مقارنة مع الممالك السودانية الأخرى فهي لا تمثل سوى ثلاث قرى كبيرة أكوأها متناثرة في بعض الواحات"⁵⁵.

ويؤكد هذا الرحالة أن سكان ولاته لطفاء جدا مع الأجانب وأن المدينة كانت تستقبل الكثير من تجار البربر إلا أن هؤلاء التجار بدأوا تدريجيا، ومنذ عهد سني علي، يهجرون ولاته ويتجهون إلى تنبكتو وكاو.⁵⁶

⁵¹ - Jean-Léon l'Africain, **Description de l'Afrique**, Nouvelle Edition traduite de l'Italien par A. Epaulard et annotée par A. Epaulard, Th. Monod, H. Lhote et R. Mauny, Paris, Adrien-Maisonneuve Editeur, 1956, 2 vol., 319 et 309 p.

⁵² - رغم أنه ألف كتابه في روما انطلاقا من الذاكرة مما جعل بعض معلوماته مشوشة.

⁵³ - Léon l'Africain, **Description de l'Afrique**, op.cit., p. 447.

⁵⁴ - Idem.

⁵⁵ - Ibid, p. 463.

⁵⁶ - Ibid, pp. 463 et suivantes.

ويشير ليون الإفريقي⁵⁷ إلى أن حياة سكان المدينة مشابهة لحياة سكان الصحراء المجاورين وأن لديهم كميات قليلة من الحبوب وأنهم يعانون من نقص في اللحوم ويعيشون حياة بؤس وشقاء. فهل ستختلف هذه الصورة في أعين البرتغاليين؟

ب. البرتغاليون والسبق إلى سواحل المنطقة

تمثل الآثار البرتغالية المكتوبة عن المنطقة باكورة "روايات الأوروبيين، وهي تبتدئ في القرن الخامس عشر بالنسبة للمناطق الساحلية وفي المناطق النهرية في نهاية القرن السابع عشر"⁵⁸.
لقد بدأت حركة الكشوفات الجغرافية الأوربية بالمنطقة منذ عهد الأمير هانري الملاح⁵⁹ (Henri le Navigateur). فقد شهدت أوروبا تنافسا كبيرا في مجال الملاحة البحرية والتسابق نحو اكتشاف المزيد من المناطق الجغرافية. واضطلعت السياسة التوسعية الأوربية بدور مهم في إذكاء تلك المنافسة بحثا عن الأسواق التجارية. فمنذ نهاية القرن الثالث عشر الميلادي بدأ الملاحون الأوروبيون وخاصة الإسبانيين والبرتغاليين يقومون بزيارات سريعة للسواحل الإفريقية المقابلة لجزر الكناري.⁶⁰

⁵⁷ - Ibid, p. 464.

⁵⁸ - أ. هريك، "المصادر المكتوبة بدء من القرن الخامس عشر" ضمن: تاريخ إفريقيا العام، المجلد الأول، مرسا، صص. 127-154.

⁵⁹ - هو هانري الملاح (1394-1460)، أحد الأمراء البرتغاليين. اشتهر بتشجيع الكشوفات الجغرافية عبر بحر المعمورة وخاصة بالسواحل الإفريقية.

⁶⁰ - راجع بهذا الشأن:

- ✓ Mauny, "Les navigations médiévales sur les côtes sahariennes antérieures à la découverte portugaise (1434)", Lisbonne, Centro de Estudos historicos Ultramarinos, 1960, pp. 85-91 .

وبحكم قربها من السواحل الإفريقية فإن هذه الجزر سهلت مهمة أولئك الملاحين المتمثلة في اكتشاف تلك السواحل والمتاجرة مع سكانها.⁶¹

وابتداء من مطلع القرن الخامس عشر الذي يسميه البعض "قرن الانتشار الأوروبي"⁶² أظهر البرتغاليون تفوقا على غيرهم من الأوروبيين في مجال اكتشاف المنطقة. فتعددت الرحلات البرتغالية إلى سواحل الصحراء الأطلسية.⁶³ وتمكن البرتغالي جيل أيانيس (Gil Eanes) سنة 1434 من الوصول إلى رأس بجدور⁶⁴ واجتيازه بنجاح فاتحا المجال أمام التوغل نحو الجنوب.

-
- ✓ De La Chapelle, "Esquisse d'une histoire du Sahara occidental", *Hespéris*, t.-XI, fascicule I-II, 1930, pp. 35-95, pp. 69 et suivantes.

⁶¹ - حول علاقات جزر الكنارى بالمنطقة، راجع:

- ✓ De La Chapelle, "Esquisse d'une histoire du Sahara", op.cit.
- ✓ Robert Ricard, "Recherches sur les relations des Iles Canaries et de la Barbarie au XVIe siècle d'après des documents inédits", *Hespéris*, t.-XXI, fascicules I-II, 1935, pp. 79-129, pp. 108-110.

⁶² - هشام جعيط، "المصادر المكتوبة..."، مر. سا. صص. 104-105.

⁶³ - راجع:

- ✓ Ricard, "Les Portugais et le Sahara atlantique au XVe siècle", *Hespéris*, t.-XI, fascicule I-II, 1930, pp. 97-110.
- ✓ Modat (Le Colonel), "Portugais, Arabes et Français dans l'Adrar mauritanien", Gorée, *BCEHSAOF.*, n°1, 1922, pp. 550-582., pp. 550-553.

⁶⁴ - رأس يقع إلى الجنوب الغربي من مدينة العيون بالساقية الحمراء على بعد حوالي تسعين كيلومترا شمال الرأس الأبيض (نواذيبو).

وبتشجيع من هانري الملاح تواصلت البعثات الكشفية البرتغالية نحو المنطقة حيث بلغ عددها بين سنتي 1441 و1446 خمس عشرة حملة بحرية أسفرت عن اكتشاف الرأس الأبيض سنة 1442 وجزيرة آركين⁶⁵ سنة 1443. وبعد اكتشاف آركين بثلاث سنوات بدأ البحارة البرتغاليون يرتادون الرأس الأبيض ثم احتلوا الجزيرة عسكريا وأقاموا فيها بعيد ذلك مركزا تجاريا لتسهيل مبادلاتهم التجارية مع البيضان.

ولنا أن نتساءل عن الأسباب التي جعلت البرتغاليين يسبقون غيرهم من الأوروبيين في التنافس على اكتشاف سواحل إفريقيا الغربية.

ولعل من أهم الأسباب التي تتبادر إلى الذهن هنا، كون البرتغال بحكم موقعها الجغرافي جعلت من البحر متنفسا مركزيا لطموحها، فهي معزولة عن أوروبا بجارتها الكبيرة إسبانيا مما يمنعها من محاولة التوسع في نطاق الصراع على المجال الحيوي داخل القارة الأوروبية. وهي من جهة ثانية لا تمتلك أي منفذ على البحر الأبيض المتوسط عكس إسبانيا وفرنسا.

⁶⁵ - جزيرة تقع بالساحل الأطلسي الموريتاني على بعد حوالي مائة وثلاثين كيلومترا إلى الجنوب من نواذيبو، ويبلغ طول هذه الجزيرة حوالي 7 كلم وعرضها حوالي 4 كلم. وتسمى آركين كذلك أكادير وأكادير دومه. وقد تنافست أمم أوروبية عديدة خلال القرون الماضية للسيطرة على هذه الجزيرة التي تعتبر مركزا للتبادل التجاري مع البيضان. للمزيد من المعلومات عن جزيرة آركين تمكن مراجعة:

- ✓ Delcourt, **La France et les établissements français au Sénégal entre 1713 et 1763**, mémoire de l'IFAN, n°17, Dakar, 1952, 432 p., p. 218.
- ✓ G. Fulcrand, "Exploration de la baie d'Arguin", Paris, *Revue Maritime et Coloniale* (RMC), t.-I, mai 1861, pp. 495-510.
- ✓ Th. Monod, "L'Ile d'Arguin (Mauritanie). Essai historique", Centro de Studos de Cartographia, Lisboa, 1983, p. 76.

ومن جهة أخرى فإن البرتغال كانت أثناء القرن الخامس عشر، شأنها في ذلك شأن إسبانيا، تعيش أوضاعا سياسية أكثر استقرارا من بقية الدول الأوروبية التي كانت حينئذ مشغولة بمشاكلها الخاصة. فضلا عن ذلك فإن سياسة هانري الملاح قد جعلت البرتغال تتبوأ مكانة السبق في حركة الكشوفات الجغرافية تلك. فقد جمع ذلك الأمير الملاح الذي يقال إنه لم يركب البحر إلا مرة واحدة⁶⁶، مختلف المعلومات الجغرافية والملاحية المتاحة في ذلك الوقت وكون مكتبة ضخمة تضم الكثير من الكتب الجغرافية والخرائط من مختلف أنحاء المعمورة، كما قرب العلماء والجغرافيين واعتنى بصناعة السفن حتى غدت البرتغال بفضلها تملك أسطولا حديثا يستطيع اقتحام البحار.⁶⁷

وبغض النظر عن العوامل والظروف التي جعلت البرتغاليين يسبقون غيرهم من الأوروبيين إلى اكتشاف المنطقة، فإن رحالي هذه الفترة قد خلفوا أولى المصادر الأوروبية المتعلقة بالتاريخ الموريتاني. فكاتب الحوليات البرتغالي المخبر (Chroniqueur) أيانيس دو زورارا (Gomes Eannes de Zurara) الذي أرخ للحملات البرتغالية في جزر الأطلسي وعلى سواحل إفريقيا الغربية بين سنتي 1434 و1448 ترك ضمن كتابه أخبار غينيا وصفا مهما وإن لم يكن مستقيضا لنمط حياة البيضان في منتصف القرن الخامس عشر.⁶⁸

⁶⁶ - سليم أنطون، "رحلة ماجلان حول العالم"، مجلة تراث الإنسانية، المجلد السادس، العدد الأول، 1968، صص. 73-89، صص 74-75

⁶⁷ - المرجع السابق، ص. 75.

⁶⁸ - Gomes Eanes de Zurara, **Chronique de Guinée**, préface et traduction de L. Bourdon et R. Ricard, Notes de Bourdon, E. Serra Rafols, Th. Monod, R. Ricard et R. Mauny, Dakar, IFAN, 1960, 301 p.

فالبيضان كما يوضح زورارا يعيشون تحت الخيام، وشغلهم الشاغل هو العناية بمواشيهم الكثيرة. والمدن قليلة في المنطقة وأهمها مدينة وادان المشهورة التي تضطلع بدور تجاري مهم في المنطقة.⁶⁹ ويستخدم هؤلاء البيضان الحمير لنقل السلاحف البرية الكثيرة التي يصطادونها ويتغذون بلحمها.⁷⁰ وتتركز أغذية البيضان على اللبن واللحم وعلى بعض الحبوب البرية التي يجنونها.⁷¹ ويشير هذا المستكشف إلى أن البيضان الذين يسكنون الساحل لا يتغذون إلا بالسّمك الذي يأكلونه نيئًا بعد تجفيفه ولا يشربون سوى الماء.⁷² ويذكر زورارا أن البيضان يمتلكون الأبقار والماعز والضأن والإبل وأن زعماءهم يقتنون الخيل مشيرًا إلى أن خيلهم وكلابهم تتغذى باللبن.⁷³ ويؤكد هذا المستكشف طبيعة الطعن والانتجاع التي تميز بيضان الصحراء المتنقلين دوماً بحثاً عن الماء والكلاب قائلاً: "إنهم لا يمكنون في المكان نفسه أكثر من ثمانية أيام"⁷⁴. ويستعرض زورارا بإسهاب سلسلة من المناوشات وقعت بين البيضان والبحارة البرتغاليين مشيرًا إلى أنها أسفرت عن أسر العديد من هؤلاء البيضان ونقلهم عبيداً إلى البرتغال.⁷⁵ ويوضح هذا المستكشف أن أهم البضائع التي يشتريها البرتغاليون من بيضان المنطقة هي: الذهب والعبيد.⁷⁶

⁶⁹ - Ibid, pp. 11 et suivantes.

⁷⁰ - E Almeida Castro, **Chroniques de Gomes Eannes de Azurara: la conquête de Ceuta. la découverte de la Guinée**, Paris, Editions du Charte, 1934, 200 p., p. 102.

⁷¹ - Ibid, p. 172.

⁷² - Ibid, p. 173.

⁷³ - Ibid, p. 172.

⁷⁴ - Ibid, p. 172.

⁷⁵ - Ibid, pp. 55-103.

وقد تحدث زورارا عن طيور المنطقة ونباتاتها وعادات سكانها في الضيافة مشيرا إلى أنهم يقدمون اللحم والماء قرى لضيوفهم.⁷⁷

وبعد مرور عقد من الزمن على تأليف كتاب زورارا يكتب الرحالة ألفيزي كا دا مستو (Alvise Ca Da Mosto) سنة 1462 رحلته التي نشرت تحت عنوان: *رواية رحلات ألفيزي كا دا مستو عبر الساحل الإفريقي*⁷⁸. وتضمنت هذه الرواية، بدورها، معلومات قيمة عن واقع المنطقة في تلك الفترة. وكان مستو قد زار الساحل الموريتاني أثناء رحلاته الإفريقية تلك مرتين. أما الأولى فتمت سنة 1445 وأما الثانية فكانت سنة 1456 وقد أرسى هذا المستكشف في أركين التي كانت في ذلك الوقت مركزا تجاريا حيويا، حيث أقام البرتغاليون تجارة نشطة مع البيضان.⁷⁹

ورغم أن مستو لم يبرح الساحل إلا أن معلوماته امتازت بالتنوع، فقد وصف حوض أركين والرأس الابيض مشيرا إلى أن هذه المنطقة تتوفر على مصائد سمكية كبيرة.⁸⁰ وذكر هذا المستكشف أن المياه العذبة شحيحة وأن السكان يعتمدون في غذائهم على التمور والشعير والألبان وأن لديهم الأبقار والأغنام بكميات قليلة لأن الأرض قاحلة.⁸¹

⁷⁶ - Ibid, p. 144.

⁷⁷ - Ibid, pp.144 et suivantes.

⁷⁸ - Alvise Ca Da Mosto, **Relation des voyages à la Côte occidentale d'Afrique d'Alvise Da Ca Da Mosto (1455-1457)**, publiée par M. Charles Schefer, Paris, Ernest Leroux, Editeur, 1895, 206 p.

⁷⁹ - Ancelle, **Les explorations...**, op.cit. , p. 18.

⁸⁰ - Ibid, p. 43.

⁸¹ - Ibid, p. 45.

وتحدث مستو عن وظيفة مدينة وادان في التجارة وعن المبادلات التجارية بين البيضان والبرتغاليين وبينهم وبين بلاد السودان وبلاد اليرير.⁸²

وفي مطلع القرن السادس عشر يزودنا كاتب حوليات آخر هو فالانتييم فرنانديس (Valentim Fernandes) بمصدر نشر تحت عنوان: وصف الساحل الإفريقي من سبته إلى السنغال 1506-1507⁽⁸³⁾. لا يقل أهمية عن المصدرين السابقين؛ بل إن تيودور مونو (Monod Théodore)⁸⁴ يعتبره "المصدر البرتغالي الأكثر شمولية مما هو متوفر لدينا الآن". ويؤكد أن "الصفحات المخصصة لأركين وللصحراء الموريتانية هي أكثر أجزاء هذا الكتاب طرافة".

ويذكر فرنانديس⁸⁵ أسماء أهم القبائل الحسانية الطاعنة في نهاية القرن الخامس عشر بالمجال البيضاني وهي من الغرب إلى الشرق: الودايه والبرايش والرحامنه وأولاد أعمار مشيرا إلى حروب مستمرة بين الودايه والبرايش ناجمة عن التنافس على الأتباع والمغارم التي تجبى عليهم.

وقد وصف هذا المستكشف البرتغالي، من جانبه، جزيرة أركين وضواحيها مؤكدا كثرة السمك بها.⁸⁶ وتحدث عن تجارة البيضان مع البرتغاليين معددا بضائع الطرفين: فالبرتغاليون يزودون البيضان بالأقمشة والسروج والعسل والفضة

⁸² - Ibid, pp. 44-45.

⁸³ - Valentim Fernandes, **Description de la Côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal (1506-1507)**. Introduction, texte portugais, traduction et notes de Pierre de Cenival et Théodore Monod, Paris, Librairie Larose, 1938, 216 p.

⁸⁴ - يقول تيودور مونو في مقدمته لهذا الكتاب:

"Les pages consacrées à Arguin et au désert mauritanien sont les plus originales de tout l'ouvrage", Fernandes, **Description de la Côte...**, op.cit., p. 12.

⁸⁵ - Fernandes, **Description de la Côte**, op.cit., pp. 66-69.

⁸⁶ - Ibid, p. 61.

والبهارات والقمح. وتتم مقايضة هذه البضائع بالعبيد والذهب والصبغ العربي وبيض النعام وجلد الظباء والإبل والبقر والغنم.⁸⁷ واستعرض فرنانديس أدوات الصيد التقليدي والتجارة المحلية والزراعة والري واصفا السكان ومساكنهم وملابسهم وأغذيتهم وطرق تحضيرها وأنشطتهم المختلفة... إلخ.⁸⁸

فبخصوص التجارة تناول فرنانديس استخراج البيضان للملح والمتاجرة به، إذ يقول: "على بعد فرسخين من هذا الجبل [كدية اجل] يوجد الملح الذي يستخرج ويصدر إلى وادان وتبكتو. ويبيع الحمل [من الملح] بمئقال ونصف في وادان ويبيعه أهل وادان بمئقالين ونصف وربما ثلاثة مئاقيل في بعض الأحيان"⁸⁹.

ويتحدث كاتب الحوليات البرتغالي هذا عن مدن المنطقة ودورها التجاري وفي مقدمتها "وادان وهي مدينة يسكنها أربع مائة شخص، وهي أهم مدن المنطقة نظرا لوظيفتها التجارية الخاصة، فهي مركز لإعادة تصدير الملح القادم من [سبخة] اجل⁹⁰ الذي ينقل من وادان إلى تيشيت التي تبعد عنها [مسيرة] سبعة أيام"⁹¹. ويضيف فرنانديس "أن الملح يباع في تيشيت بأضعاف ثمنه في وادان (سبعة مئاقيل) مشيرا إلى أن تجار ولاته، وهي مدينة كبيرة جدا [?] تبعد ثمانية أيام عن تيشيت، يأتون إلى هذه المدينة بحثا عن الملح الذي ينقل أيضا من ولاته إلى تبكتو

⁸⁷ - Ibid, pp. 61-63.

⁸⁸ - bid, pp. 53 et suivantes.

⁸⁹ - Ibid, p. 79.

⁹⁰ - مملحة تقع في الجزء الشمالي الغربي من البلاد الموريتانية على بعد حوالي 30 كلم من مدينة الزويرات العاصمة الحالية لولاية تيرس زمور. وقد لعبت هذه المملحة دورا كبيرا في عمليات التبادل التجاري بالمنطقة أثناء القرون الماضية.

⁹¹ - Fernandes, op.cit., p. 83.

وهي مهمة وتقع على ضفة النيل [?] وتستمد أهميتها من كونها مركزا لتجارة الذهب المصدر شرقا وغربا"⁹².

وفيما يتعلق بالزراعة، يتحدث فرنانديس⁹³ عن ممارسة هذا النشاط الاقتصادي "في جبل بافور [آدرار] حيث يزرع السكان الحبوب في الواحات عن طريق الري" محددًا موسم الحصاد بشهر مارس/آذار ومستعرضًا طريقة طحن الحبوب بواسطة الرحي الصخرية.

ويؤكد هذا المؤرخ البرتغالي أن الشعير ينمو في واحات آدرار في ظروف مشابهة لنمو القمح والذرة تحت ظل النخيل. ويصف فرنانديس الحقول "فهي مسيجة بجذوع النخيل [سعف] وفي وسط الحقل يوجد بئر لري المزروعات ويتم جلب المياه من قاع البئر عن طريق مرفاع"⁹⁴ خاص"⁹⁵.

ويضيف فرنانديس أن تمور آدرار من أجود أنواع التمور في العالم "غير أن العرب [البيضان] يحطمونها"⁹⁶ قبل النضج"⁹⁷.

هكذا إذن فإن شهادات التجار والمستكشفين البرتغاليين الذين زاروا الشواطئ الموريتانية والمنطقة الواقعة بين آرकिन ووادان أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين تسمح بامتلاك تصور ولو غائم عن سكان تلك المناطق البيضانين ومجالهم الجغرافي فألى أي حد سينجح الفرنسيون، وقد تمكنوا في النهاية

⁹² - Ibid, pp. 84-85.

⁹³ - Ibid, p. 81.

⁹⁴ - يسمى هذا المرفاع المنزف ويدعونه محليا "أشلال".

⁹⁵ - ما تزال ممارسة النشاط الزراعي في الواحات الموريتانية إلى اليوم تتبع هذا النمط في الغراسة وفي الزراعة تحت ظلال النخيل وذلك بعد مضي حوالي أربعة قرون من الزمان على تأليف كتاب فرنانديس.

⁹⁶ - شير فرنانديس إلى عادة جني البلح قبل أن يصبح تمرا.

⁹⁷ - Fernandes, op.cit., pp. 81-82.

من الاستئثار بالمنطقة، في تعميق معلوماتنا عن هؤلاء السكان ومحيطهم الطبيعي والاقتصادي والاجتماعي؟

ثانيا. الرحلات الفرنسية قبل القرن التاسع عشر

يعتبر القرن السابع عشر قرن المركاتيلية وما صاحبها من نشاط رأسمالي في ظل الدولة وظهور شركات تجارية أوروبية متعددة ركزت اهتماماتها على التبادل مع مناطق ما وراء البحار. وبالطبع فإن الفرنسيين لم يكونوا بمنأى عن تلك الحركة التجارية التي ستأخذ في نهاية المطاف بعدا استعماريًا.

أ. بدايات الوجود الفرنسي

بدأ الوجود الفرنسي الفعلي بالمنطقة منذ الربع الثاني من القرن السابع عشر حينما شجع الكاردينال ريشليو⁹⁸ (Le cardinal A.J. de Richelieu) الشركات المركاتيلية الفرنسية سنة 1626 على التمركز في شبه جزيرة سين-لوى السنغالية⁹⁹.

⁹⁸ - الكاردينال ريشليو (1585-1642)، رئيس وزراء لويس الثالث عشر. اشتهر بالصراع ضد البروتستانتين والسعي إلى إخضاع النبلاء وهو مؤسس الأكاديمية الفرنسية.
⁹⁹ - راجع بخصوص التنافس الاستعماري في المنطقة:

- ✓ Ancelle, **Les explorations...**, op.cit., pp. 24 et suivantes .
- ✓ René Chudeau et Abel Gruvel, **A travers la Mauritanie Occidentale (de Saint-Louis à Port-Etienne)**, Paris, Larose, 2 tomes, volume premier: partie générale et économique (1909), 280 p. et volume second: partie scientifique (1911), 383 p., volume premier, pp. 9 et suivantes ;
- ✓ L. Gillier, le Commandant, **La pénétration en Mauritanie**, Paris, Paul Geuthner, 1926, 359 p., pp., 67 et suivantes.

ومن أهم تلك الشركات الشركة النورماندية لاستغلال تجارة السنغال وتضم تجمعاً من تجار مدينتي روان (Rouen) ودييب (Dieppe) الفرنسيين، وتتوفر هذه الشركة على امتيازات ملكية خاصة.

وكان الهولنديون في تلك الفترة أصحاب السيادة في المنطقة بحكم سيطرتهم على مركزي آركين وروفيسك¹⁰⁰ (Rufisque) وجزيرة كوري¹⁰¹ (Gorée). وقد جعلتهم هذه السيطرة المتأنية من قوتهم البحرية يتحكمون في المناطق الواقعة بين آركين وروفيسك مما مكنهم من استقطاب جل التجارة في تلك المناطق وبالتالي تفليس الشركة الفرنسية السالفة الذكر.

غير أن الفرنسيين لم يقبلوا الاستكانة لسيطرة الهولنديين تلك، فقد تابع كولبير¹⁰² (Jean-Baptiste Colbert) سياسة سلفه ريشليو وسعى إلى الرفع من شأن الفرنسيين بالمنطقة لإخراجهم من الوضعية السيئة التي كانوا يوجدون فيها مما أدى إلى موجة من الحروب الهولندية الفرنسية بالمنطقة استمرت من 1667 إلى 1678 تاريخ استيلاء الفرنسيين على آركين وتشريع ذلك الاستيلاء بموجب اتفاقية نيميك¹⁰³

¹⁰⁰ - مركز تجاري سنغالي بالساحل الأطلسي يقع شرقي داكار على مقربة منه. وهو الآن مدينة وميناء لتصدير الفستق. وقد تصارع الفرنسيون والهولنديون والإنجليز خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للسيطرة على هذا المركز.

¹⁰¹ - جزيرة صغيرة بالساحل السنغالي تقع قبالة داكار، احتلها الهولنديون سنة 1619 وانتزعا منها الفرنسيون سنة 1677 حيث أصبحت من أهم المراكز الفرنسية بسواحل إفريقيا الغربية، اتخذت هذه الجزيرة مركزاً لتجميع الزنوج قبل نقلهم أرقاء إلى العالم الجديد. راجع:

Robert, (sous la direction de), **Le Petit Robert 2, Dictionnaire universel des noms propres alphabétique et analogique**, Paris, 1981.

¹⁰² - جان-باتيست كولبير (1619-1683)، أحد أبرز وزراء ومستشاري لويس الرابع عشر. اشتهر كولبير خاصة بتشجيع الصناعة والتجارة في نطاق السياسة المركاتيلية.

¹⁰³ - مدينة هولندية على الضفة الغربية للراين وقعت فيها سلسلة من الاتفاقيات بين الفرنسيين وعديد من الدول الأوروبية سنتي 1678-1679 تكس تفوق فرنسا وتجسد أوج عهد لويس الرابع عشر.

(Nimègue)، بل إن طموح كولبير كان يتجاوز الاهتمام بالمناطق الإفريقية المتاخمة للأطلسي ومصب نهر السنغال، إذ بدأ يفكر مبكرا في بلوغ المناطق الداخلية الصحراوية والسودانية.

فقد شعر كولبير، منذ القرن السابع عشر، إثر اطلاعه على تقرير للوالي الفرنسي على السنغال، بأهمية منطقة السودان الغربي فرسم مشروعا للوصول إلى مدينة تنبكتو عن طريق السنغال.¹⁰⁴

وقد نال ذلك المشروع موافقة الملك لويس الرابع عشر (1638-1715) لكن الظروف المحلية والدولية لن تسمح بتنفيذه إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.¹⁰⁵

وبما أن الوجود الفرنسي خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر كان هشاً حتى في منطقة مصب نهر السنغال وعلى الساحل الأطلسي فلم يكد يمر عقد من السنين على انتزاع الفرنسيين لمركز أركين من الهولانديين سنة 1678 حتى تمكنت هولاندا من استرجاعه مع مرسى بورتانديك¹⁰⁶ (Portendick) من أيدي الفرنسيين

¹⁰⁴ - Henri-P. Eydoux, *L'exploration du Sahara*, Paris, Gallimard, 1938, 242 p., pp. 21-22.

¹⁰⁵ - راجع الفصل الثاني من هذا العمل ص. 106 وما بعدها.

¹⁰⁶ - مرسى ومحطة للتبادل أنشأها الهولانديون في الربع الأخير من القرن السابع عشر وأطلقوا عليها اسم "porto d'Haddi" (ميناء هدي) بن أحمد بن دامان أمير الترارزه في ذلك الحين. فبعد أن أبعد الفرنسيون الهولانديين من ميناء أركين سنة 1778 اتجه الهولانديون جنوباً ليؤسسوا هذا الميناء حفاظاً على مصالحهم التجارية في المنطقة وظلوا يتبادلون مع البيضان طيلة الثلث الأول من القرن الثامن عشر في مركز بورتانديك الذي يسميه البيضان "مرسى جور" أو "انجيل". راجع:

Albert Leriche, "Terminologie géographique maure", Saint-Louis, *Etudes Mauritanienes*, n°6, Centre IFAN-Mauritanie, 1955, pp. 1-73, p. 51.

انظر أيضاً: الخريطة رقم 2 ضمن ملحقات هذا العمل.

سنة 1688 مما ألحق أضرارا كبيرة بالمصالح التجارية الفرنسية بالمنطقة، ودفع بالتالي الفرنسيين إلى التفكير في تكثيف حضورهم إصرارا على كسب الرهان نهائيا في المنطقة.

ولأن التفكير في بلوغ المناطق الداخلية الإفريقية يتطلب من بين أمور أخرى اكتشاف تلك المناطق وجمع المعلومات المتعلقة بها لضمان نجاح تلك المهمة الصعبة، فإن من الطبيعي أن ينشغل الفرنسيون بهذه العملية.

وحسب المعطيات المتوفرة لدينا الآن فإن بول أمبير (Paul Imbert) قد يكون أول فرنسي يصل المجال الموريتاني ويتجول عبره، وذلك بعد أن نجا من غرق سفينته بالشواطئ الموريتانية سنة 1630 ووقع أسيرا في قبضة البيضان. وعلى ما يبدو فإن هذا الفرنسي ربما يكون كذلك أول أوروبي يصل إلى مدينة تنبكتو.¹⁰⁷ غير أنه لم يسجل رحلاته وتطوافه بالصحراء فقد توفي وهو ما يزال في الأسر.

وفي نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر بدأت أولى محاولات الفرنسيين الفعلية للوصول إلى المجال الموريتاني، أو ملامسته على الأقل، وذلك مع السيد دو لاكورب¹⁰⁸ (Sieur de La Courbe) وخاصة مع أندري برو¹⁰⁹ (André Bruë).

¹⁰⁷ - Chudeau et Gruvel, **A travers la Mauritanie Occidentale (de Saint-Louis à Port-Etienne)**, Paris, Larose, 2 t., vol.premier: Partie générale et économique (1909), 280 p. et vol.second: Partie scientifique (1911), 383 p., t.-I, p. 25.

¹⁰⁸ - السيد دو لاكورب: تولى قيادة مستعمرة السنغال بين 1688 و1690 للمرة الأولى وخلال سنتي 1709 و1710 للمرة الثانية.

¹⁰⁹ - أندري برو (1654-1738)، شغل منصب مدير مستعمرة السنغال من سنة 1697 إلى 1702 وخلال سنتي 1709 و1710، راجع:

Prevost, **Dictionnaire de la Bibliographie**, op.cit., t.-6, 1956, p. 473.

أما الأول فقد تجول في منطقة الساحل المحيطية وفي مصب نهر السنغال ونشرت رحلته تحت عنوان *رحلة السيد لاكورب الأولى إلى الساحل الإفريقي خلال 1685*¹¹⁰. وقد تضمنت معلومات¹¹¹ مستفيضة عن تقاليد وعادات البيضان وعلاقتهم بالزنوج وعن التبادل التجاري بالمنطقة وخاصة تجارة الصمغ العربي. ففي محطة لو دزير¹¹² (Le Désert) يشير السيد لاكورب إلى أنه اشترى سبعة ثيران من تجار البيضان وجمع معلومات تتعلق بالطريقة التي يعلفون بها خيولهم، فهم يعطونها أعشابا خاصة، كما يقدمون لها اللبن ودقيق الذرة.¹¹³

وفي محطة تريي روج¹¹⁴ (Terrier Rouge) يذكر هذا الفرنسي أن قافلة بيضانية جاءت لبيع أربعين ثورا ومائة رأس من الغنم مشيرا إلى أن حيوانات

¹¹⁰ - Sieur de La Courbe, **Premier voyage du Sieur de La Courbe, fait à la Coste d'Afrique en 1685**, publié par P. Cultru, Paris, Edouard Champion et Emile Larose, 1913, 319 p.

¹¹¹ - تمكن مراجعة هذه المعلومات في الفصل الرابع من رحلة لاكورب المشار إليها في الإحالة السابقة، صص. 125-182.

¹¹² - مركز تجاري يقع على الضفة اليمنى للنهر، كان بيضان الترازه يستخدمونه في التبادل السنوي مع التجار الفرنسيين بالسنغال. وقد ظهرت تسمية هذه المحطة التجارية في الكتابات الفرنسية عن المنطقة منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر. وتوجد أطلال هذه المحطة - التي تسمى محليا "تكشكمه" ويسمونها الفرنسيون أحيانا محطة الترازه (Escale des Trarza) - حاليا على بعد حوالي 10 كلم شمال غربي مدينة روصو عاصمة ولاية الترازه. انظر: الخريطة رقم 1 ضمن ملحقات هذا العمل. وراجع:

David, **Journal d'un voiage fait en Bambouc en 1744**, publié par A. Delcourt, Société Française d'Histoire d'Outre-Mer, Paris, 1974, 303 p., pp. 229-230.

¹¹³ - La Courbe, **Premier voyage...**, op.cit., p. 127.

البيضان التي يتاجرون بها في هذه المحطة حيوانات جيدة زهيدة الثمن وأن لحمها لذيذ الطعم¹¹⁵.

ويضيف لأكورب قائلاً: "إن تجار البيضان رغبوا في بيعي نعامتين جميلتين وأعطوني ثمانية من بيض النعام وهو لذيذ جدا وكل بيضة منه تكفي لغذاء ثمانية أشخاص" [?] ¹¹⁶.

ويتحدث هذا الإداري الفرنسي عن تجارة الصمغ ودور قبيلة إيدوالحاج¹¹⁷ الزاوية فيها مشيراً إلى أن الصمغ يجمع من مناطق تبعد مائة فرسخ¹¹⁸. ويضيف بأن

114 - إحدى أقدم المحطات التجارية بمنطقة النهر، إذ يتحدث عنها جانكين الذي زار المنطقة في نهاية العقد الرابع من القرن السابع عشر. وكانت تستخدم مركزاً للتبادل التجاري مع بيضان البراكه. ويعتقد أن أطلال هذه المحطة توجد على بعد بضعة عشرات من الكيلومترات -نحو عالية النهر- من محطة بودور. انظر: الخريطة رقم 1 من ملحقات هذا العمل. وراجع:

Adama Gnokane, **La politique française sur la rive droite du Sénégal: Le Pays Maure 1817-1903**, thèse pour l'obtention de doctorat du 3ème cycle, Université Paris I Sorbonne, 1986-1987, 294 p., p. 66, note n° 53.

¹¹⁵ - La Courbe, **Premier voyage**, op.cit., p. 137.

¹¹⁶ - Idem.

¹¹⁷ - إحدى قبائل الزوايا المهمة كان لها تأثير كبير في المنطقة قبيل وأثناء القرن التاسع عشر، إذ أقامت مبكراً علاقات تجارية مع الفرنسيين المتمركزين في السنغال واضطلعت بدور كبير في التبادل التجاري معهم، إذ كان لها مرساها التجاري الخاص بها (Escale de Darmancour)، وهو يبعد حوالي 100 كلم من مدينة سين-لوي. وقد ساهمت هذه القبيلة في خفارة السفن وتأمين المبادلات، ومقابل ذلك قدم لها التجار والولاة الفرنسيون بشكل مستمر نصيباً من الضرائب العرفية. راجع:

- ✓ Delcourt, *La France et les établissements...*, op.cit., p. 229.
- ✓ Mohamed Saïd Ould Ahmedou, "Le Trarza et ses relations commerciales avec la colonie du Sénégal de 1858 à 1904", mémoire de maîtrise, Université de Dakar, 1984-1985.

البيضان يسكنون تحت الخيام متحدثا عن غارات النهب التي يقوم بها حسان ومشيرا إلى أنهم يحترمون الزوايا ويخافون من "بركتهم". ويصف لأكورب استقباله للأمير الترازه هدي بن أحمد بن دامن¹¹⁹ والفرح الذي قابل به ذلك الأمير تسلمه للهدايا العرفية¹²⁰ (Coutumes) المقدمة من قبل الفرنسيين.¹²¹

وأما أندري برو فقد قام بمحاولات جدية لفرض وتعزيز الوجود الفرنسي في المنطقة، أثناء فترتي إقامته بالسنگال في نهاية القرن السابع عشر وفي مطلع القرن الثامن عشر، "مذلا بفضل مهارته جل العقبات، ومرسيا قواعد شبه صلبة للتبادل التجاري بين الفرنسيين وسكان المنطقة"¹²². وقد دشّن أندري برو مجهودات خاصة هدفها الوصول إلى أرض البيضان وربط علاقات تجارية معهم. وتجول كثيرا في

118 - الفرسخ: (Lieu): أربعة كلومترات تقريبا. انظر: جبور عبد النور وسهيل إدريس، المنهل قاموس فرنسي عربي، دار العلم للملايين ودار الآداب، بيروت، 1986، 1098 ص.

119 - ثاني أمراء الترازه تولى قيادتهم أثناء حرب شريبه بالجنوب الغربي الموريتاني. وقد توفي هذا الأمير -على الأرجح- في العشرية الأخيرة من القرن الثامن عشر.

120 - إتوات عرفية كان الفرنسيون يمنحونها للزعماء المحليين مقابل تسهيل وتأمين المبادلات التجارية في المنطقة. وتدفع هذه الضرائب في شكل حوائج مختلفة يأتي في مقدمتها القماش الغيني الأزرق (guinée) والأسلحة (البنادق والبارود). ويعود العمل بهذه الضرائب في المنطقة إلى وقت مبكر من المعاملات مع الأوروبيين، إذ يشير إليها سنة 1638 كلود جاتكان (Claude Jannequin) الذي زار سنة 1638 محطة بودور (Escale de Podor). راجع:

Claude Jannequin, **Le voyage de Lybie du Sénégal**, Genève, Stlakiné, 1980, 228 p., p. 60.

¹²¹ - Sieur de La Courbe, **Premier voyage ...**, op.cit., pp. 157-158.

¹²² - C. A. Walckenaer, **Histoire générale des voyages, ou nouvelle collection des relations de voyages par mer et par terre en différentes parties d'Afrique depuis 1400 jusqu' à nos jours**, Paris, Lefevre H. Fournier, 1826-1831, 21 tomes, t.-V, 501 p., p. 3.4-

منطقة حوض نهر السنغال فزار مراكز التبادل التجاري في منطقة النهر ساعيا إلى إقامة محطات قارة للتبادل مع البيضان من أجل جذب البضائع التي كانوا يتبادلونها مع زوج فوته وكذلك مع الهولانديين بالمراكز الأطلسية.

وقد زودنا الأب لابات¹²³ (Le Père Labat) الذي زار أركين في مطلع القرن الثامن عشر بمعلومات مفصلة عن رحلات أندري برو ومحاولاته تلك ضمن مؤلفه *رحلة جديدة إلى إفريقيا الغربية*¹²⁴.

وقد تضمن هذا المصدر أحاديث متناثرة عن البيضان وأنشطتهم التجارية خاصة وعلاقاتهم مع الهولانديين ومع الزوج المجاورين. كما اشتمل على وصف لمنطقة حوض النهر وإمكانياتها الاقتصادية والتجارية. وتحدث الأب لابات عن الصراعات الفرنسية الإنجليزية الهادفة إلى الاستئثار بتجارة الصمغ البيضاني في مركزي بورتانديك وأركين مؤكدا أن الحروب بين هاتين الأمتين قد ألحقت أضرارا جسيمة بالمصالح الفرنسية في المنطقة.¹²⁵

ويتناول هذا الفرنسي العلاقات التي ربطت الأمير التروزي علي شنظوره¹²⁶ مع أندري برو الذي تلقى رسالة من ذلك الأمير يؤكد فيها رغبة

¹²³ - الأب لابات (1663-1738)، رجل أدب ودين، درس على الخصوص الفلسفة والرياضيات، كتب مذكراته ومذكرات أشخاص آخرين من بينهم أندري برو. راجع بشأنه:

Anonyme, **Hommes et destins**, op.cit., t.-2, v.-II, 1977, pp. 421-426.

¹²⁴ - Le Père J-B. Labat, **Nouvelle relation de l'Afrique occidentale**, Paris, Théodore le Gras, 1728, 5 tomes, 346, 376, 387, 392 et 404 p.

¹²⁵ - Ibid, p. 93.

¹²⁶ - هو علي شنظوره بن هدي بن أحمد بن دامن: تولى إمارة الترارزه من 1114هـ/1703 إلى 1139هـ/1727م، ويعتبر المؤسس الفعلي للإمارة وهو واحد من أعظم أمرائها. رحل إلى المغرب سنة 1719 طالبا عون السلطان مولاي إسماعيل لمساعدة الترارزه على التخلص من أولاد دليم والبراكه. وهو من أول الأمراء الذين أقاموا علاقات تجارية منتظمة مع الأوروبيين بالسواحل الموريتانية. وقد عرف كيف يستفيد من تناقض مصالح هؤلاء الأوروبيين وخاصة الفرنسيين والبريطانيين والهولانديين.

الترارزه¹²⁷ في توطيد علاقاتهم مع الفرنسيين ويخبره بالحرب التي يخوضها حينئذ ضد البراكنه¹²⁸.

127 - تطلق تسمية الترارزه على فضاء جغرافي وبشري بسطت عليه ذرية تروز بن هداج سلطتها الأميرية منذ القرن السابع عشر. ويمتد هذا الحيز الجغرافي الذي يعرف بمنطقة الترارزه بالجنوب الغربي من البلاد الموريتانية، ويضم هذا المجال العديد من المجموعات السكانية البيضانية والسودانية تخضع لنفوذ المجموعة التروزية المتكونة جينيالوجيا، على العموم، من عدة قبائل هي: أولاد أحمد بن دامن الذين يحتكرون السلطة الأميرية وأولاد دامن وأولاد البوعليه ولعلب وعزونه. راجع:

✓ Abdel Wedoud Ould Cheikh, **Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale. Essai sur quelques aspects du tribalisme**, thèse pour le doctorat en sociologie, Université Paris-V, 1985, 3 vol., 1056 p., pp. 247-296.

✓ Paul Marty, **L'Emirat des Trarza**, Paris, Larose, 1919, 483 p.

✓ محمد المختار ولد السعد، "الإمارات والمجال الأميرية البيضانية خلال القرنين 18 و19 الميلاديين (إمارة الترارزه نموذجاً)"، *حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية*، جامعة نواكشوط، العدد الثاني، 1990، صص. 36-64.

128 - تسمية تطلق كما هو الشأن بالنسبة للترارزه- على مجال جغرافي وبشري سيطرت عليه ذرية بركني بن هداج منذ بداية القرن السابع عشر. ويمتد هذا المجال في الأجزاء الجنوبية من البلاد الموريتانية خاصة بمحاذاة النهر. ويضم هذا المجال العديد من المجموعات السكانية البيضانية والسودانية الخاضعة لنفوذ المجموعة البركنية التي تتألف جينيالوجيا من ثلاثة بطون كبرى هي: أولاد عبد الله وأولاد أحمد وليتامه (اليتامي). لمزيد من المعلومات تمكن مراجعة:

✓ Ould Cheikh, **Nomadisme, Islam et Pouvoir**, op. cit., pp. 297-311;

✓ Paul, Marty, **Etudes sur l'Islam et les tribus maures. Les Brakna**, Paris, Editions Ernest Leroux, 1921, 398 p;

✓ سعد بوه بن احماده، "لمحة عن تاريخ إمارة البراكنه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر"، مذكرة تخرج، المدرسة العليا للأساتذة والمفتشين، نواكشوط، 1985، ص. 87.

وكان حامل تلك الرسالة مكلفا بأن يخبر أندري برو بأن الفرصة مناسبة له كي يقدم للأمير علي شنظوره بعض الدعم من الذخيرة.¹²⁹ ومع ذلك بقيت معلومات الفرنسيين المتعلقة بالمنطقة جزئية وسطحية لأن رحالي القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر لم يتجاوزوا شواطئ المحيط الأطلسي وضايف نهر السنغال، ولأن النفوذ الفرنسي في المنطقة، رغم مجهودات أندري برو وسين-روبير¹³⁰ (Saint-Robert) وبيير دافيد¹³¹ (Pierre David) من بعدهما، ظل هشاً إلى حد بعيد. فلم تكن فرنسا في أوائل القرن الثامن عشر تمتلك على الضفة اليمنى للنهر سوى مركز واحد هو محطة "لو دزير" التي بنى فيها أندري برو مركزاً صغيراً محصناً، لكن هذا المركز لم يصمد طويلاً.¹³² وترجع هشاشة الوجود الفرنسي بالمنطقة، من بين أمور أخرى، إلى الحروب الخاسرة التي خاضتها فرنسا حينئذ مما أضعف مكانتها لصالح منافستها

¹²⁹ - Labat, **Nouvelle relation de l'Afrique...**, op.cit., t.-1, p. 185.

¹³⁰ - تولى خلافة أندري برو في إدارة الشركة الهندية بغرب إفريقيا (La Compagnie des Indes) فأظهر عجزاً كبيراً مما جعل الشركة تعزله في إبريل 1723 وتعين محله بير دافيد. راجع: Walckenaer, **Histoire générale des voyages...**, op.cit., t.-5, p. 4.

¹³¹ - أحد مستخدمي الشركة (La Compagnie des Indes) وقد شغل بين سنتي 1746-1742 منصب الوالي الفرنسي المكلف بالقلاع والجزر والمراكز التجارية والمسكن. توفي بباريس قبيل الثورة الفرنسية، راجع حوله:

Christian Schefer, **Instructions générales données de 1763 à 1870 aux gouverneurs et ordonnateurs des établissements français en Afrique occidentale**, Paris, Librairie Ancienne Honoré Champion Edouard Champion, 2 vol., t.-I : 1763-1831 (1921), 457 p., t.-II, (1927) 1870-1831 : 685p. t.-II, p. 644 .

¹³² - Edouard Barthelemy, **Notice historique sur les établissements français des côtes occidentales d'Afrique (1364-1840)**, Paris, Arthus Bertrand, 1848, 90 p., p. 51.

هولاندا وبريطانيا العظمى التي استولت على المستعمرات الفرنسية بالمنطقة سنة 1758. غير أن الفرنسيين قد انتهزوا فرصة انشغال الحكومة البريطانية في حروب استقلال الولايات المتحدة ليسترجعوا سين-لوي من البريطانيين في مطلع سنة 1779.¹³³

وابتداء من تلك السنة ستستقبل المنطقة رحالين ومستكشفين فرنسيين بلغ عددهم تسعة خلال فترة ثقل عن عقد من الزمن. ذلك أن فرنسا على ما يبدو بدأت انتهاج سياسة مضاعفة الرحلات إلى المنطقة بغية جمع مختلف المعلومات حولها وذلك لتمكين الفرنسيين من مواجهة خصومهم الأوروبيين خاصة منهم البريطانيين والهولانديين، ومن ثم الانفراد بموارد المنطقة التجارية واحتكار تجارة الصمغ وهو الرهان الذي كان وراء حروب الصمغ التي واجه فيها الفرنسيون الهولانديين خلال الربع الأول من القرن الثامن عشر ثم البريطانيين خلال الربع الثاني من القرن نفسه.¹³⁴

فجراء تصديرها للصمغ العربي أصبحت البلاد الموريتانية تحتل مكانة بارزة في السياسة الاستعمارية الأوروبية. يقول أندري دلكور في هذا المجال: "إن السيطرة على الشاطئ الموريتاني الممتد من الرأس الأبيض إلى مصب نهر السنغال كانت، أثناء النصف الأول من القرن الثامن عشر في ميدان السياسة الاستعمارية بإفريقيا، أحد الأهداف الأساسية لفرنسا وهولاندا وبريطانيا، وهي الدول الأوروبية العظمى الثلاث التي كانت تتقاسم وقتها التجارة البحرية وصناعة النسيج"¹³⁵.

¹³³ - Ibid, p. 9.

¹³⁴ - Delcourt, La France et les établissements..., op. cit., p. 180.

¹³⁵ - Idem

وكان ألكسندر لو براسور¹³⁶ (J.A. Le Brasseur) هو أول هؤلاء المستكشفين التسعة، وقد شغل ابتداء من سنة 1774 منصب الحاكم العام في جزيرة كوري. وأثناء خدمته في السنغال زار الساحل الأطلسي الموريتاني وحوض النهر سنة 1778 وترك مذكرات نشرت لأول مرة سنة 1977.¹³⁷

وقد تضمنت هذه المذكرات نبذا موجزة ومهمة في الوقت نفسه عن البيضان وأنشطتهم وخاصة منها تجارة الصمغ التي أشار إلى أن أمما أوروبية عديدة تتنافس للاستحواذ عليها. كما تحدث لو براسور في مذكراته عن كل من الترارزه والبراكنه.¹³⁸

ووصف هذا الإداري حروب الأمير التروزي علي الكوري¹³⁹ ضد إمارة البراكنه. وضمن استعراضه لأنشطة البيضان التجارية أشار إلى أن البراكنه يزودون

¹³⁶ - جوزف ألكسندر لو براسور (1745-1794): عين سنة 1774 إداريا عاما في جزيرة كوري السنغالية مما مكّنه من التجول في منطقة الساحل الأطلسية وحوض نهر السنغال قبل مقتله سنة 1794 أثناء أحداث الثورة الفرنسية. راجع:

Schefer, **Instructions générales**, op.cit., t.-II, p. 660.

¹³⁷ - Joseph-Alexandre Le Brasseur, "Détails historiques et politiques, mémoire inédit (1778)", présenté et publié par Charles Becker et Victor Martin, BIFAN, Série B., t.-39, n!1, 1977, pp. 81-132.

¹³⁸ - Ibid, p. 91.

¹³⁹ - أمير الترارزه (1185-1200/1771-1786)، عرفت فترة حكمه موجات من الحروب بين أولاد أحمد بن دامان وأبناء عمومته أولاد دامان. كما خاض هذا الأمير حروبا ضد إمارة البراكنه المجاورة وضد زنوج النهر.

محطة بودور¹⁴⁰ (Podor) ببيضائع تجارية تشتمل خاصة على الصمغ العربي والذهب والرقيق والعاج.¹⁴¹

وفي 23 مايو/أيار من السنة نفسها (1778) تحطمت بالسواحل الأطلسية الموريتانية سفينة "لو مارين" (Le Marin) الفرنسية فوق ركابها أسرى حوالي شهرين لدى مجموعة من صيادي إيمراكن¹⁴² البيضانين.

وقد زار هؤلاء الأسرى جزيرة تيدر¹⁴³ وميناء بورتانديك واجتازوا الساحل الموريتاني من الرأس الأبيض إلى سين-لوي. وكان من بينهم قس يدعى السيد كليكور¹⁴⁴ (Glicourt D. Sieur de) خلف رحلة نشرت لأول مرة سنة 1979 تحت

¹⁴⁰ - محطة تجارية بناها الفرنسيون، في حدود منتصف القرن الثامن عشر على الضفة الجنوبية للنهر، كانت مركزا أساسيا للتبادل التجاري بين الفرنسيين في السنغال والبراكته. وتبعد هذه المحطة حوالي 40 كلم إلى الجنوب من سيلبابي عاصمة ولاية كيديماغة الحالية. انظر الخريطة رقم 2 ضمن ملحقات هذا العمل.

¹⁴¹ - Le Brasseur, *Détails historiques...*, op.cit., p. 92.

¹⁴² - مجموعة حرفية بيضانية تكاد تكون الوحيدة التي احترفت الصيد البحري على الساحل الأطلسي الموريتاني. وبخصوص هذه المجموعة تمكن مراجعة:

- ✓ Revol, "Etude sur les fractions d'Imraguen de la Côte mauritanienne", Gorée, BCEHSAOF, t.-XX, 1937, pp. 179-224.
- ✓ Thomas, "Les Imraguens de Mauritanie", mémoire du Centre des Hautes Etudes Africaines et Malgaches (CHEAM), sans date.

¹⁴³ - جزيرة تقع بالساحل الأطلسي الموريتاني في منتصف المسافة تقريبا بين نواكشوط ونواذيبو. وتحكي بعض الروايات أن هذه الجزيرة أوت أول رباط انطلقت منه دعوة المرابطين خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي على يد عبد الله بن ياسين. راجع الفصل الرابع من هذا العمل، ص. 000 الإحالة رقم 11.

¹⁴⁴ - ليكور دو مينيك دو (1741-1807)، راجع:

Anonyme, **Hommes et destins**, op.cit., t.-I, pp. 179-180.

عنوان رحلة السيد كليكور بالساحل الغربي لإفريقيا خلال سنتي 1778-1779¹⁴⁵)، تحدث فيها عن أسر أولئك الفرنسيين ومعاناتهم أثناءه، ومعاملة البيضان لهم واصفا حياة هؤلاء السكان.

وفي السنة الموالية (1779) وصل رحالة فرنسي آخر إلى المنطقة يدعى دومنيك لاميرال (Dominique Lamiral). وقد مارس هذا الرحالة التجارة بالسنگال وتجول في منطقة حوض النهر وزار محطات التبادل النهرية البيضانية وتحدث عن مشاهداته في كتاب نشر سنة 1789 تحت عنوان *إفريقيا والشعب الإفريقي من منظور جميع روابطهم مع تجارتنا ومستعمراتنا*¹⁴⁶ ضمنه حديثا مستقيضا عن البيضان وحياتهم وأنشطتهم المختلفة.

وقد أعجب دومينيك لاميرال ببساطة حياة بيضان الصحراء المتنقلين وأكد أنهم أكثر شعوب العالم حرية.¹⁴⁷ واستعرض التنظيم القبلي مشيدا ببساطة زعماء القبائل مشيرا إلى أن شيخ القبيلة ليس هو الذي يقرر الحرب أو السلم، بل إن تلك الأمور تناقش علنا ويتخذ قرار بالإجماع بشأنها بواسطة الهتاف وأن الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة يشاركون في مناقشة تلك القضايا ويقدمون في بعض الأحيان بشأنها آراء سديدة.¹⁴⁸

¹⁴⁵ - Glicourt Dominique Sieur de, **Voyage du Sieur de Glicourt à la Côte Occidentale d'Afrique pendant les années 1778-1779**, publié par Pierre Lintingre, Dossier Africain, n°3, supplement de la Revue Afrique Documents, n°84, 1966, Dakar, 171 p.

¹⁴⁶ - Dominique Lamiral, **L'Afrique et le peuple africain considérés sous tous les rapports avec notre commerce et nos colonies**, Librairie au Palais Royal, Paris, 1789, 399 p. Voir encore, Walckenaer, **Histoire générale des voyages**, op. cit., t.-V, pp. 203-231.

¹⁴⁷ - Ibid, pp. 118 et suivantes.

¹⁴⁸ - Ibid, p. 130.

وضمن حديثه عن أنشطة البيضان الاقتصادية ذكر لاميرال أنهم يمتلكون أعدادا هائلة من قطعان الماشية. كما اشتمل كتابه على معلومات كمية عن تجارة الصمغ البيضانية مع الأوروبيين.¹⁴⁹

وفي شهر يناير سنة 1784 غرقت بالشواطئ الموريتانية سفينة "الصديقان" (Les Deux Amis) الفرنسية وكانت متجهة إلى السنغال فأسر البيضان اثنين ممن كانوا على متنها هما صونى¹⁵⁰ (Saugnier) وفولى¹⁵¹ (Andrien Jacques Follie). وقضى هذان الفرنسيان حوالي ثلاثة أشهر في الأسر منتقلين عبر الصحراء مع البيضان الطاعنين ذهابا وإيابا.

وقد خلف هذان الفرنسيان مصدرين¹⁵² تحدثا فيهما عن تفاصيل غرق سفينتهما وأسر بيضان الصحراء لهما وعن هؤلاء البيضان وظروف عيشهم وطرق تعاملهم مع المجال الذي يعيشون فيه. فشغل البيضان الشاغل حسب صونى هو

¹⁴⁹ - Ibid, pp. 128 et suivantes

¹⁵⁰ - صونى (1754-?)، راجع حوله:

- ✓ Anonyme, **Hommes et destins**, op.cit., t.-7, 1986, pp. 427-429.
- ✓ M. Barbier, **Trois Français au Sahara**, Paris, L'Harmattan, 1984, 215 p., pp. 28, 93 et ss.

¹⁵¹ - أندريان-جاك فولى (1746-1803)، راجع حوله:

- ✓ Anonyme, **Hommes et destins**, op.cit., t.-VII, 1986, pp. 191-192.
- ✓ Barbier, **Trois Français au Sahara**, op.cit., pp. 29, 51 et suivantes.

¹⁵² - هذان المصدران هما:

- ✓ Andrien-Jacques Follie, **Mémoire d'un Français qui sort de l'esclavage**, Amsterdam et Paris, 1785, 95 p,
- ✓ Saugnier, **Relation de plusieurs voyages à la côte d'Afrique, à Maroc, au Sénégal, à Gorée et à Galam**, Paris, J. P. Roux et Cie, 1792, 237 p.

العناية بحيواناتهم، وتغذية هؤلاء القوم تعتمد على اللبن والحبوب التي يشترونها من جيرانهم.¹⁵³

ويتحدث هذا المستكشف عن مكانة الأسلحة عند بيضان الصحراء، فهم يفضلونها على أفخر الملابس مشيراً إلى أن "ثراء العربي وأمنيته الأولى الحصول على بندقية ممتازة وخنجر جيد [...] فالأسلحة عندهم تعتبر زخرفاً وزينة وهم يحرصون على جعل بنادقهم في أوعية جلدية خاصة لحمايتها من الصدأ ولكي تبقى في حالة جيدة. وهم يفضلون الأسلحة على ثيابهم من قماش غيني أزرق [154] وملابس صوفية وملابس من جلد الماعز"¹⁵⁵.

ويشير صونبي إلى جلد وصبر هؤلاء السكان إذ يقول: "مهما بلغت الخسائر التي تلحق العربي فإنه لن يشتكي أبداً، إذ هو أسمى من البؤس والشقاء، وبوسعه أن يتحمل بصبر وأناة الجوع والعطش والمتاعب"¹⁵⁶. فكيف سيتعامل الفرنسيون مع هؤلاء السكان الذين يمجدون السلاح ويمتازون بالقوة والجلد؟

ب. محاولات الاستئثار

عرفت الرحلات الاستكشافية الغربية طفرة في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر فتعددت وتنوعت حتى أوشتت أن تشمل مختلف بقاع المعمورة. وإلى جانب الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية تمكن الإشارة إلى

¹⁵³ - Saignier, *Relation de plusieurs voyages...*, op.cit., p. 60.

¹⁵⁴ - نسيج قطني يسمى محلياً "النيله" ويسميه الفرنسيون "La guinée"، ربما لأنهم كانوا يستخدمونه منذ القرن السابع عشر وسيلة للتبادل مع الغينيين (Les Guinéens) وغيرهم من سكان المنطقة.

¹⁵⁵ - Saignier, *Relation de plusieurs voyages*, op.cit., p. 60.

¹⁵⁶ - Ibid, p. 63.

الدوافع العلمية، إذ أن تعدد الرحلات في ملتقى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يعتبر مظهراً من مظاهر الثورة الغربية في ميدان المعرفة.¹⁵⁷ فمع إطلالة 1785 تعرف الرحلات الفرنسية إلى المنطقة قفزة لم يسبق لها مثيل، إذ يصل إليها في هذه السنة وحدها أربعة مستكشفين فرنسيين. ويدعى أول هؤلاء المستكشفين الفرنسيين الأربعة جان-باتيست دوران¹⁵⁸ (Jean Baptiste Durand)، وقد زار منطقة حوض نهر السنغال في إبريل/نيسان 1785 وتجول في محطات التبادل النهريّة. وقد تحدث في رحلته¹⁵⁹ بإسهاب كبير عن سكان منطقتي البراكنه والترارزه الموريتانيتين مبرزاً العلاقات التي ربطته ببعض أمراء تينك الإماراتين¹⁶⁰. وقد خصص هذا المستكشف الجزء الثالث والأخير¹⁶¹ من

¹⁵⁷ - ميشال فوكو، *حفريات المعرفة*، ترجمة سالم يفوت، الدار البيضاء، 1986، الطبعة الأولى، 203 ص.

¹⁵⁸ - جان-باتيست دوران (1742-1812)، أول مدير لشركة السنغال، سافر إلى سين-لوي في مارس/آذار 1785 فتجول في المنطقة بحكم طبيعة وظيفته. راجع:

Prevost, *Dictionnaire*, op.cit., t.-12, 1970, pp. 466-467.

¹⁵⁹ - J.-B.-L. Durand, *Voyage au Sénégal, ou Mémoires historiques, philosophiques et politiques sur les découvertes, les établissements et le commerce des Européens dans les mers de l'Océan Atlantique, depuis le Cap-Blanc jusqu'à la rivière de Serre-Lionne*, suivis de la relation d'un voyage par terre de l'île Saint-Louis Galam et du texte de trois traités de commerce faits par l'auteur avec les princes du pays, Paris, Henri. Agasse, Imprimeur-libraire, 1802, 2 vol., 359 et 383 p.

¹⁶⁰ - Durand, *Voyage*, op.cit., vol.-2, pp. 120 et suivantes.

¹⁶¹ - Durand, *Atlas pour servir au voyage du Sénégal*, Paris, Henri Agasse, 1802, 67 p.

رحلته لنشر النصوص العربية والفرنسية للاتفاقيات التي أبرمها مع زعماء الترارزه والبراكنه ودارمانكور¹⁶² (Darmankour).

ويتحدث هذا الرحالة عن العلاقات والروابط بين البيضان وجيرانهم الزنوج قائلًا: "إن مجموعات من قبيلة دارمانكور [إدوالحاج] متمركزون منذ أمد بعيد على الضفة اليسرى لنهر السنغال في مملكة كايور¹⁶³ [Cayor]. وهؤلاء البيضان المنمون والمزارعون يمتلكون العبيد ويعيشون في ود مع الزنوج"¹⁶⁴. ويضيف هذا المستكشف الفرنسي¹⁶⁵ "أن بيضانا آخرين يوجدون بمملكة جولوف¹⁶⁶ (Djolofo) وهم مثل الأولين رعاة ومزارعون. كما أن بعض الأسر الزنجية تعيش في أمن على الأرض البيضانية في الجزء المجاور لبحيرة كايار¹⁶⁷". ويؤكد دوران ما ذهب إليه بعض أسلافه بشأن مقدرة البيضان على تحمل المشاق والجوع والعطش.¹⁶⁸ وفي يوليو/تموز من السنة نفسها غرقت بجزيرة أركين، قرب الرأس الأبيض بالشواطئ الموريتانية، سفينة فرنسية متجهة إلى السنغال.

¹⁶² - تسمية دارمنكو أطلقها زنوج النهر على قبيلة إيدوالحاج البيضانية الزاوية المشار إليها في الصفحة الإحالة رقم 117 من هذا الفصل. وقد حرف الفرنسيون هذه التسمية إلى دارمنكور.

¹⁶³ - منطقة من بلاد السنغال تقع بين سين-لوي وداكار. راجع:

Schefer, *Instructions générales...*, op.cit., t.-II, p. 643.

¹⁶⁴ - Durand, *Voyage au Sénégal...*, op.cit., vol.-2, p. 60.

¹⁶⁵ - Ibid, vol.- 2, pp. 60-61.

¹⁶⁶ - منطقة جغرافية تقع في وسط البلاد السنغالية، عرفت ميلاد مملكة جولوف المهمة التي بسطت سلطتها على مختلف أرجاء السنغال قبل أن تتمزق وحدتها أواخر القرن السادس عشر الميلادي/العاشر الهجري وتنشطر إلى ممالك صغيرة هي والو، كايور وباول.

¹⁶⁷ - بحيرة تقع في منطقة الترارزه كانت تغمرها المياه معظم أيام السنة حتى بدايات هذا القرن وهي منطقة زراعية ورعوية بدأ السكان استصلاحها وبنيت على ضفتها مدينة الركيز التابعة إداريا لولاية الترارزه.

¹⁶⁸ - Durand, *Voyage au Sénégal...*, op.cit., vol.- 2, p. 95.

وكان من بين ركاب تلك السفينة أحد عمال إدارة البحرية الفرنسية يدعى بيير ريمون دو بريسون¹⁶⁹ (Pirre Raymond de Brisson) الذي أسره البيضان وبقي في الأسر أربعة عشر شهرا متجولا مع قبائل بيضانية متعددة حيث زار العديد من مناطق المجال البيضاني ومارس أنشطة عديدة من ضمنها رعي المواشى. وقد نشر بريسون بعد عودته إلى فرنسا كتابا¹⁷⁰ عن البيضان وصروف حياتهم وعن تجربته في الأسر لديهم. وامتاز دو بريسون عن نظرائه السابقين بشدة التحامل على البيضان.¹⁷¹ ويمكن تفسير ذلك التحامل بطول بقائه في الأسر وقساوة الظروف الطبيعية وشظف حياة السكان والأعمال التي أرغموه على القيام بها أثناء فترة الأسر.

أما ثالث هؤلاء المستكشفين فهو كزافيي كوليري¹⁷² (Xavier Golberrey) الذي وصل المنطقة في خريف السنة نفسها في إطار رحلاته عبر غربي إفريقيا التي استغرقت ثلاث سنوات. وقد زار هذا الرحالة بدوره مناطق حوض نهر السنغال وعلى الخصوص محطات التبادل النهرية. كما ضمن رحلته¹⁷³ معلومات متشعبة عن

¹⁶⁹ - بيير ريمون دو بريسون (1745-1820)، راجع:

✓ Anonyme, **Hommes et destins...**, op.cit., t.-7, 1986, pp. 96-98.

✓ Barbier, **Trois Français...**, op.cit., pp. 37-39, 197 et suivantes.

¹⁷⁰ - Brisson, **Histoire du naufrage...**, op.cit.

¹⁷¹ - Ibid, pp. 160 et suivantes.

¹⁷² - كزافيي كوليري (1742-1822)، راجع حوله:

Prevost, **Dictionnaire...**, op.cit., t.-16, 1985, p. 515.

¹⁷³ - Xavier Golberry, **Fragments d'un voyage en Afrique, fait pendant les années 1785, 1786 et 1787 dans les contrées occidentales de ce continent, comprises entre le cap Blanc de Barbarie et le cap de Palmes**, Paris-Strasbourg, Treuttel et Wrtz libraires, 1802, 2 vol., t.-premier 511 p. et t.-second 522 p. Voir aussi: Walekenaer, op.cit., t.-v, pp. 315-477.

السكان مخصصا الفصلين الخامس والسادس منها للحديث عن محطات التبادل وجني الصمغ العربي وأسعاره وبيعه والأتاوات التي يقدمها الأوروبيون للبيضان.¹⁷⁴ وتحدث كولبري كذلك عن الصحراء الكبرى وسكانها البيضان وأصولهم.¹⁷⁵ وضمن حديثه عن طباع السكان تحامل كولبري على البيضان "لأن سمّتهم [كما يقول] هي الغدر والندالة"¹⁷⁶. ووصف هذا الرحالة الملاحم العامة للبيضان من حيث البشرة والمحييا والهيئة مستعرضا تقاليدهم وعاداتهم وحرفهم¹⁷⁷. كما تناول ثروة هؤلاء السكان الحيوانية "فهم يمتلكون خيلا عتاقا وأغناما وأبقارا كثيرة"¹⁷⁸. وأدرك كولبري دور الجمل في حياة هؤلاء البدو، فخصص الفصل السادس من رحلته للحديث عن الجمال.¹⁷⁹ ويعتبر جيوفروا آخر واحد من رحالي القرن الثامن عشر يزور منطقة حوض نهر السنغال قبيل اندلاع الثورة الفرنسية وانشغال فرنسا بمشاكلها الداخلية فترة من الزمن. فقد تجول في المنطقة بين سنتي 1785 و1788. وخلف هذا الرحالة كسابقيه مؤلفا¹⁸⁰ تضمن بعض المعلومات عن أهم القبائل البيضانية في المنطقة.¹⁸¹ وأكد جيوفروا تمركز ونفوذ البيضان على الضفة اليسرى للنهر مشيرا إلى وجود بيضان يعملون مستشارين في ديوان دامل¹⁸² كايور حيث يقول: "إننا نصادف

174 - Ibid, p. 86.

175 - Ibid, pp. 295-301.

176 - Ibid, p. 303.

177 - Ibid, pp. 304-319.

178 - Ibid, pp. 321-325.

179 - Ibid, pp. 337-366.

180 - Villeneuve Geoffroy, *L'Afrique ou histoire...*, op.cit.

181 - Ibid, pp. 213 et suivantes.

دائما بعض العرب [البيضان] في السنغال"¹⁸³، ويضيف: "إن بعض هؤلاء البيضان حضروا المفاوضات التي أجريتها مع دامل كايور بشأن توقيع اتفاقيات مع الفرنسيين بغية منح شبه جزيرة الرأس الأخضر لفرنسا"¹⁸⁴.

ومع قيام الثورة الفرنسية سنة 1789 ستتوقف -ولو إلى حين- الرحلات الفرنسية نحو المنطقة جراء انهماك فرنسا في مشاكلها الخاصة. تلك المشاكل التي ستشجع الإنجليز على الاستيلاء من جديد على سين-لوي والاحتفاظ بها حتى سنة 1817 رغم أن اتفاقيات 1814-1815 نصت على إعادة السنغال إلى الفرنسيين الذين لن يستأنفوا رحلاتهم إلى المنطقة إلا سنة 1816 بعد نهاية الحروب النابوليونية. ورغم مجهودات الفرنسيين الهادفة إلى اكتشاف المنطقة فقد بقيت مغلقة أمامهم. واقتصرت رحلاتهم خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، عموماً، على زيارة الهوامش وخاصة منها الشاطئ الأطلسي وحوض نهر السنغال ومراكز التبادل النهرية.

كما بقيت معلوماتهم عن هذا المجال سطحية وغير دقيقة تركز على تجارة الصمغ في غالب الأحيان. بل إن بعض رحالي القرن الثامن عشر ربما يكون قد اكتفى بتكرار واجترار المعطيات الواردة في الرحلات السابقة التي يمكن اعتبارها في الجملة إطلالة خارجية على المنطقة.

ولا يقتصر ذلك الأمر على المجال الموريتاني، بل يمكن تعميمه على مجمل المناطق الإفريقية الداخلية حيث يلاحظ أنسيل (Ancelle) جهل الأوروبين بالمنطقة ولا سيما الأعماق الشيء الذي "دفعهم في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع التاسع

¹⁸² - تسمية تطلق على ملوك كايور بالسنغال. انظر: أحمد سالم بن باكا، كتاب تاريخ بلاد الترارزه، مخطوط.

¹⁸³ - Villeneuve Geoffroy, *L'Afrique ou histoire...*, op.cit., t.-1 , p. 142.

¹⁸⁴ - Ibid, t.-2 , pp. 35 et suivantes.

عشر إلى مضاعفة الرحلات العلمية [185] فقد كانوا حتى ذلك الوقت يجهلون تقريبا نهر الكونغو ويعتبرون نهري السنغال وغامبيا رافدين من روافد نهر النيل¹⁸⁶.

ويشير جيرار لكرك (Leclerc) إلى سطحية معرفة الأوروبيين للقارة الإفريقية خلال تلك المرحلة من التاريخ حين يقول: "فحتى نهاية القرن الثامن عشر لم تكن المعلومات عن داخل القارة وافية بما فيه الكفاية. لقد كانت المعلومات المتعلقة بهذا الجزء من العالم سطحية جدا ولم تتجاوز موضوعين اثنين: معرفة الشاطئ الإفريقي بمحاذاة الطرق التجارية، والتسجيل الوصفي للعادات والتقاليد التي تبدو غريبة، هذا إلى جانب التركيز على المعتقدات الغيبية المثيرة"¹⁸⁷.

أما كفال¹⁸⁸ (Gaffaral)، فيؤكد "أن وضعية اكتشافات القارة الإفريقية في مطلع القرن التاسع عشر لم تكن أكثر تطورا مما كانت عليه أثناء القرن السادس عشر. فلم تكن تتوفر بخصوص القارة الإفريقية إلا على المعلومات التي قدمها الملاحون البرتغاليون حينئذ. ولم يسجل أي اكتشاف يذكر منذ ذلك الوقت، بل إن الخرائط الأكثر إتقانا وجودة كانت تلك التي أنجزها دوليل¹⁸⁹ (Guillaume Delisle)

¹⁸⁵ - ليس إلى البلاد الموريتانية طبعاً.

¹⁸⁶ - Ancelle, op.cit., p. 44.

¹⁸⁷ - جيرار لكرك، الانترو ولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1990، بيروت، ط.2، 240 ص، ص.17.

¹⁸⁸ - Gaffaral, op.cit., p. 184.

¹⁸⁹ - كيوم دوليل (1675-1726)، أحد أبرز الجغرافيين والكارتوغرافيين في عصره. أنجز العديد من الخرائط لأوروبا وآسيا وإفريقيا. وقد حصل سنة 1718 على لقب الجغرافي الأول للملك. راجع:

Paul Robert, *Le Petit Robert 2, Dictionnaire universel...*, op.cit.

وأنفيل¹⁹⁰ (Jean Baptiste d'Anville)، وهي خرائط مشحونة نوعا ما في المناطق الساحلية و فارغة في المناطق الداخلية".

ويذهب كوستاف فاللا (Gustave Vallat) إلى أبعد من ذلك مبالغا في حادثة اكتشاف القارة الإفريقية حينما يقول: "يمكننا إذن الجزم بأن اكتشاف القارة السوداء، وأعني بها الداخل الإفريقي لم يتم إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"¹⁹¹. ويمضي فاللا مؤكدا فكرته تلك: "فقبل حوالي خمسين سنة [1850] كانت أعماق القارة الإفريقية مجهولة تماما حيث نلاحظ في الخرائط الأكثر دقة مساحات شاسعة بيضاء تمتد من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر لتمثل الصحراء [الكبرى] والسودان [الغربي] وهي مناطق كنا نعتبرها موحشة"¹⁹².

ويضيف هذا المؤلف بخصوص جهل الأوروبيين للمناطق الإفريقية الداخلية: "لم تكن لدينا أبسط فكرة عن سكان هذه المناطق المهمين وذلك رغم رحلة مواطننا كايي إلى تنبكتو واحتلالنا للجزائر"¹⁹³.

ويسير أيدو (Eydoux) في المنحى نفسه عندما يقول: "إن معلومات المؤرخين والجغرافيين الإغريق والرومان والرحالين العرب في العصور الوسطى شكلت قبل مائة وخمسين سنة من الآن [1938] الأساس من معرفتنا لإفريقيا الداخلية، فالاكتشاف الممنهج للصحراء الكبرى الذي لم يبدأ إلا أثناء القرن التاسع عشر، لم يكتمل إلا الآن"¹⁹⁴. فما هي مكانة البلاد البيضانية ضمن هذا "الاكتشاف الممنهج" للصحراء الكبرى الذي بدأ فقط أثناء القرن التاسع عشر؟

¹⁹⁰ - جان-باتيست دانفيل (1697-1782)، أحد الجغرافيين والكارتوغرافيين الفرنسيين الكبار ألف العديد من الكتب والأطالس وخلف آلاف الخرائط المحفوظة بالمكتبة الوطنية في باريس. راجع:

Paul Robert, *Le Petit Robert 2, Dictionnaire universel...*, op.cit.

¹⁹¹ - Vallat, op.cit., pp. 11-12.

¹⁹² - Ibid, p. 9.

¹⁹³ - Ibid, p. 10.

¹⁹⁴ - Eydoux, op.cit., pp. 11-12.

الفصل الثاني: في الرحلات الاستكشافية الفرنسية (الفرنسيون داخل المجال البيضاني أثناء القرن التاسع عشر)

فور انتهاء الحروب النابليونية استأنف الفرنسيون مهماتهم الاستطلاعية نحو القارة الإفريقية، التي غدت تستحوذ على المزيد من اهتمامات الأوربيين في مجال الاكتشافات الجغرافية. ولئن كانت مناطق أحواض الأنهار (النيل، الكونغو، النيجر، السنغال... إلخ) قد استقطبت، في البداية، جل اهتمامات المستكشفين والرحالين الأوربيين عموماً، والفرنسيين على الخصوص، فإن المناطق الداخلية الإفريقية، ومن ضمنها البلاد الموريتانية، حظيت بدورها بدرجة لا بأس بها من حركة الاكتشافات تلك وخاصة منها الفرنسية.

وسنحاول في هذا الفصل استعراض البعثات والرحلات الاستكشافية التي وصلت المجال الموريتاني أو لامسته أثناء القرن التاسع عشر، مصنفة الرحالين والمستكشفين الفرنسيين خلال ذلك القرن، ومبرزين أهم مراحل اكتشاف هذا المجال وأهم نتائج تلك الاكتشافات. لكن سؤالا يتبادر إلى الذهن حول أهم دواعي هذه الرحلات الاستكشافية الفرنسية.

أولاً. أسباب الرحلات الاستكشافية الفرنسية

يمكن تقسيم دواعي وأسباب هذه الرحلات إلى نوعين أساسيين يتعلق أولهما بالرحالين والمستكشفين أنفسهم بينما يرتبط الثاني بالتطورات الحاصلة في أوروبا.

أ. الدوافع المتعلقة بالرحالين والمستكشفين

تختلف دواعي وأهداف الرحلات باختلاف أصحابها والجهات التي تقف وراءهم. فمن بين الرحالين من تدفعه المغامرة نحو ارتياد المجهول واكتشاف الغريب والخروج على المؤلف، ومنهم من يحركه البحث عن مصادر الثروة والمال ويدفعه السعي إلى تحصيل المكاسب المادية من وراء المتاجرة أو للحصول على جائزة معينة.

ومن بين المستكشفين والرحالين كذلك من تحدوه دواعي دينية واضعا على عاتقه مهمة التبشير لنشر عقيدته عبر المزيد من البقاع المكتشفة، ومنهم من يقوده الفضول المعرفي وخدمة العلوم والجغرافيا إلى محاولة ملء الفراغات التي كانت إذ ذاك تميز المناطق الداخلية من القارة الإفريقية. ومن بينهم أخيرا من تغريه نزعة سياسية استعمارية فيسعى إلى ارتياد مناطق جديدة خدمة لتجارة بلده أو سعيا إلى جمع المعلومات المختلفة عن المناطق المزورة، تمهيدا للسيطرة عليها وإخضاعها، وتطبيقا للقولة الشهيرة "تجب معرفة الناس للسيطرة عليهم وقيادتهم".

وانطلاقا من الأهداف والدواعي العامة السابقة الذكر، فإننا نجد من بين المستكشفين والرحالين رجال علم ودين وطو افين من هواة الأسفار والارتحال وآخرين استهوتهم المغامرة ودفعتهم المخاطرة ساعين إلى إمطة اللثام عن أحوال السكان والبلدان.

وتنطبق هذه الأهداف العامة على المستكشفين والرحالين الأوربيين الذين "تركزت معظم مجهوداتهم في القرن الماضي على القارة الإفريقية انطلاقا من محاور اهتمامات مختلفة كإشباع الفضول العلمي والتبشير الديني ومكافحة العبودية والغزو والاستعمار"¹.

¹ - Michel Mourre, **Dictionnaire encyclopédique d'histoire**, Paris, Bordas, Nouvelle édition, 1986, 8 v., t.-3., découverte, p. 1338.

ونجد من بين المستكشفين المستكشف المحترف، وهو في سياقنا ذلك الذي يتبنى الترحال هواية ويقوم بعدة رحلات كبرى فيستحق بذلك أن يسمى رحالة. كما نجد منهم المستكشف بالصدفة وهو الذي يأتي للاستكشافات صدفة كالناجى من تحطم سفينة أو الواقع في الأسر أو المأمور من طرف قائده العسكري أو مسؤوله الإداري بالقيام باكتشاف منطقة ما. وكثيرا ما تكون الاكتشافات "المأمورية" مخصصة لخدمة أغراض تجارية أو سياسية.

كما أن الأهداف السابقة تنطبق كذلك على المستكشفين الفرنسيين بمن فيهم أولئك الذين توجهوا نحو البلاد الموريتانية في القرن التاسع عشر والذين أحصينا منهم تسعة عشر فردا² من بينهم المدنيين المغامرون والضباط العسكريون والعلماء والمستخدمون التجاريون حسبما يتضح من الجدول رقم 1.

ويمكن تصنيف هذه الجماعة إلى مستكشفين متمرسين (مدنيين وعسكريين)، وقد سميهم "رحالين محترفين" لامتهانهم الترحال وحبهم الأسفار، ولأنهم قاموا بعدة رحلات من ضمنها على الأقل واحدة مهمة. وتضم هذه الفئة من المدنيين كلا من موليين، كايي، رافل، باني، ابن المقداد، دولس، صولبي، بلانشي، كروفل وشودو. أما من العسكريين فلا تضم سوى الضابط البحري ماج ذلك أن هذا الضابط، بالإضافة إلى رحلته عبر البلاد الموريتانية، قام كذلك برحلة طويلة داخل السودان الغربي نشرت سنة 1868 تحت عنوان: *رحلة إلى السودان الغربي (السنغامبيا النيجر)*³.

² - لقد تعمدنا عدم إدماج الفرنسيين الأربعة: فيدرب (Faidherbe) وكوبولاني (Coppolani) وفريرجان (Frèrejaen) وكورو (Gouraud)، رغم اهتمامهم بالبلاد الموريتانية. ذلك أن الأول لم يطل المجال الموريتاني، بينما انصبت جل انشغالات الثلاثة الأخيرين على عمليات إخضاع البلاد سياسيا وعسكريا.

3 - Eugène Mage, **Voyage dans le Soudan occidental (Sénégal-Niger) 1863-1866**, Paris, Hachette, 1868, 693 p.

أما الفئة الثانية فقد اعتبرنا أصحابها مجرد "مستكشفين" لأنهم حسب معلوماتنا الراهنة اقتصروا على القيام بمهمات استكشافية محدودة لم ينجزوا أثناءها رحلة طويلة، ولأنهم جاءوا إلى الاستكشاف مأمورين لا محترفين. ويندرج ضمن فئة المستكشفين هذه من العسكريين: كايي، فلكران، فينسان، بورل وعلي صل، ومن المدنيين: صولير، دوني وفابير.

ولقد كان السفر إلى المستعمرات بالنسبة للمدنيين، في غالب الأحيان، مدخلا إلى الرحلات الاستكشافية. فالمستعمرات تجذب بعض الشباب ممن أصبحوا يملون الحياة الرتيبة في أوروبا. كما أن الشباب مهيوون أكثر من غيرهم للارتقاء في المجهول والمغامرة والاندفاع وتحدي المخاطر لأن ذلك يتطلب طموحا وصلابة يتوفران خاصة لدى هذه الفئة.

وهكذا نجد موليين وكايي يسافران إلى السنغال سنة 1816 للعمل في ما وراء البحار وعمر الأول إذ ذاك عشرون سنة بينما لم يتجاوز الثاني السادسة عشرة. كما أن رافانيل، بدوره، بدأ العمل في ما وراء البحار وهو في السادسة عشرة من العمر، في حين سافر صولير إلى الجزائر سنة 1865 للعمل بها مستخدما تجاريا وعمره وقتها ثلاث وعشرون سنة.

وليس من الغريب أن يكون سفر هؤلاء الشباب الأربعة إلى الخارج وعبورهم للبحار والمحيطات وزيارتهم لمناطق جديدة بالنسبة لهم قد ساهم في توجيههم هذه الوجهة، ليصبحوا رحالين متمرسين، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك شغفهم المبكر بالرحلات ومطالعتها، مما ولد لديهم رغبة محاكاة أصحاب تلك الرحلات.

وإذا كانت المغامرة وارتياح المجهول والبحث عن الثراء واللجوء إلى ما وراء البحار فرارا من الحياة الروتينية في أوروبا، عوامل تخص الرحالين والمستكشفين أنفسهم، فإن أسبابا تتعلق بالأوضاع العامة في أوروبا بشكل عام وفي فرنسا بشكل خاص، قد تضافرت لتدعم العوامل السابقة الذكر مشجعة الرحلات الاستكشافية.

ب. الدوافع المتصلة بالتطورات في أوروبا

لقد كان للثورة الصناعية دور كبير في هذه الأسباب التي يمكن اعتبار أكثرها صلة بموضوعنا تلك المتعلقة بتطور وسائل النقل والمواصلات وتحسن تقنيات النشر والطباعة وظهور الجمعيات الجغرافية واستفحال حركة التوسع الاستعماري.

1. تطور وسائل النقل والمواصلات

لقد مثل استخدام الطاقة البخارية في تحريك آلات المصانع وفي تسيير القاطرات والسفن إنجازا كبيرا من إنجازات الثورة الصناعية. وقد شجع هذا التطور على مد آلاف الكيلومترات من السكك الحديدية محدثا قفزة كبرى في مجال المواصلات البرية.

ولم تبق المواصلات البحرية بمنأى عن هذه التطورات إذ أن توليد الطاقة البخارية كان قد مكن من استخدامها في مجال تسيير السفن والبواخر وفي صناعتها أيضا. فعرفت المواصلات البحرية وثبة لا تقل أهمية عن ما عرفته المواصلات البرية. وتطورت تقنيات ووسائل صناعة السفن حيث رأت النور سفن وبواخر تسيير بالقوة البخارية وتتسع لآلاف المسافرين وباستطاعتها نقل عشرات آلاف الأطنان. كما أن استخدام الطاقة البخارية المتولدة من الفحم والطاقة الكهربائية المتولدة من البترول شجع تطور الصناعات الحديدية فبدأ الحديد يحل تدريجيا محل الخشب في صناعة السفن. وأخذت السفن الجديدة، وهي أكثر مقدرة على مواجهة الكوارث المناخية، تحل محل السفن الشراعية، فبات الربط بين مختلف أنحاء المعمورة يتم بصورة أكثر سرعة وفي ظروف أكثر أمانا.

وكان من الطبيعي أن يساهم تطور وسائل النقل في أوروبا وشيوع انتشار الآلة البخارية وكذلك استخدام الكهرباء والبترول ومشتقاته واختراع المحرك ذي الاحتراق الداخلي في تشجيع وتسهيل حركة الكشوفات الجغرافية وبالتالي الرحلات الاستكشافية.

2. الطباعة

ومن التطورات الناجمة عن الثورة الصناعية أيضا ما يرتبط بوسائل وتقنيات الطباعة والنشر. إذ انتشرت المطابع وأدخلت تحسينات تقنية مهمة على الطباعة. كما تطورت صناعة الورق والحبر. وقد أدى كل ذلك إلى تخفيض تكاليف الطباعة وانتشارها مما سهل وسرع نشر الكتب والجرائد والمجلات.

وقد سارعت البورجوازية بتقديم الدعم للمؤلفين والأدباء مشجعة نشر وتعميم أفكارهم الداعية إلى التجديد والتغيير لأن ذلك يتطابق وفلسفة تلك الطبقة وطموحاتها، وهي طبقة صاعدة تسعى إلى تبوؤ المكانة التي يخولها لها امتلاك ناصية العلم والسيطرة على الموارد الاقتصادية.

وقد استفادت كتابات الرحالين والمستكشفين من هذه الوضعية، فتم الإسراع بنشرها لتتلقفها الأيدي وتتداولها بسرعة مما منحها شعبية كبيرة وربط بالتالي الرأي العام الغربي بالمستكشفين والرحالين. فرحلة موليين سنتي 1818-1819 تم نشرها في السنة الموالية⁴، ثم نشرت للمرة الثانية سنة 1822.

كما أن رحلة كايي عبر الصحراء التي استمرت من 1824 إلى 1828 قد نشرت سنة 1830؛ وكذلك الشأن تقريبا بالنسبة لمختلف الرحلات والتقارير الاستكشافية، فهي إما أن تنشر في شكل مؤلف مطبوع أو في إحدى المجلات المتخصصة التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر وتضاعفت على الخصوص في النصف الثاني من ذلك القرن، وذلك بتشجيع ودعم من الجمعيات الجغرافية.

⁴ - Gaspard-Théodore Mollien, **Voyage dans l'intérieur de l'Afrique et aux sources du Sénégal et de la Gambie, fait en 1818 par ordre du Gouvernement français**, Paris, Imprimerie de Madame Veuve Courcier, 1820, 2 t., 337 et 319 p. Deuxième Edition, Paris, 1822, Arthus Bertrand, 2 t., 415 et 352 p.

3. الجمعيات الجغرافية

بدأت هذه المؤسسات في الظهور خاصة منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر⁵ وكما يتضح من تسمياتها فإن هذه الجمعيات التي أسسها بعض العلماء والباحثين والساساة كانت تهتم في المقام الأول بالدراسات والكشوفات الجغرافية عبر مختلف بقاع المعمورة وذلك حسبما يقال لملء الفراغات الموجودة حتى ذلك الحين خاصة في العديد من المناطق الإفريقية الداخلية.

وبعد هزيمة فرنسا سنة 1871 في حربها مع ألمانيا، يبدو أن استيقاظ الشعور القومي ربما بدافع الثأر قد ولد موجة جديدة من الجمعيات الجغرافية في مختلف المدن الفرنسية. وكان لظهور الجمعيات الجغرافية المختلفة كذلك، دوره في دفع حركة الكشوفات الجغرافية تلك. فقد اضطلعت هذه الجمعيات بدور مزدوج حيث دعمت واحتضنت المستكشفين والرحالين، وبالذات أولئك المستكشفين المحتم لين وهم الشباب المولعون بالرحلات والأسفار.

وقد تمثل ذلك الدعم والاحتضان في تقديم التمويلات اللازمة لبعض المستكشفين والرحالين وفي تخصيص بعض الجوائز المالية لمن يسبق إلى اكتشاف منطقة ما⁶، فضلا عن تزويد الرحالين والمستكشفين بالتوجيهات والإرشادات اللازمة، وبالأدوات العلمية الضرورية.

وقد ساهمت هذه الجمعيات مساهمة فعالة، طوال القرن التاسع عشر، في تغطية أنباء الكشوفات الجغرافية فباتت تقارير ورحلات وأنباء المستكشفين تصل

⁵ - راجع بهذا الخصوص:

Dominique Lejeune, *Les sociétés de géographie en France et l'expansion coloniale au XIXème siècle*, Paris, Albin Michel, 1993, 236 p.

⁶ - خصصت الجمعية الجغرافية الباريسية جائزة عشرة آلاف فرنك لأول أوربي يصل تنبكتو ويعود منها ببعض المعلومات المهمة. راجع بهذا الخصوص:

Jomard, *Remarques et recherches...*, op.cit., pp. 355-357.

القراء في فرنسا فور انتهاء الرحلة. وهكذا لم يكد باني مثلاً ينهي رحلته بين السنغال والمغرب عبر الأراضي الموريتانية سنة 1850 ويقضي أربعة أشهر في فرنسا حتى نشرت المجلة البحرية⁷ نص رحلته تلك. وبالطبع فإن ما انطبق على باني ينطبق على غيره من المستكشفين. فرحلة الضابط ماج إلى تكانت⁸ التي انتهت سنة 1860 نشرت في السنة نفسها⁹، وكذلك الشأن بالنسبة لرحلتي بورل¹⁰ (Bourrel) وفينصان¹¹ (Vincent) وغالبية الرحالين والمستكشفين الآخرين. وكانت هذه الجمعيات تتلقف تقارير ورحلات المستكشفين وتسارع إلى نشرها في المجالات المتخصصة التي كانت تصدر في ذلك الوقت.

4. المجالات

⁷ - Léopold Panet, "Relation d'un voyage du Sénégal Soueira (Modagor)", Paris, *Revue Maritime (RM)*, novembre 1850, pp. 379-445 et décembre 1850, pp. 473-554.

⁸ - هضبة مرتفعة نسبياً تتوسط البلاد الموريتانية، تحيط بها حافات شديدة الانحدار من أغلب الجهات. وكانت منطقة تكانت أثناء القرن التاسع عشر مجالاً لسيطرة إمارة إدوعيش. وتكانت الآن إحدى الولايات الموريتانية وعاصمتها مدينة تجكجه.

⁹ - Mage, "Voyage au Tagant (Afrique centrale)", Paris, *Revue Algérienne et Coloniale (RAC)*, t.-III, (juillet-décembre), 1860, pp. 1-29.

¹⁰ - Dominique Bourrel, "Voyage dans le pays des Maures Brakna, Rive droite du Sénégal (juin-octobre 1860)", Paris, *RMC*, t.-second, (septembre) 1861, pp. 510-545 et octobre 1861, pp. 11-77.

¹¹ - Henri Vincent (Capitaine d'Etat-Major):

✓ "Voyages d'exploration dans l'Adrar (Sahara occidental)", Paris, *RAC*, 3ème série, n°4, octobre 1860, pp. 445-494

✓ "Voyage et expédition au Sénégal et dans les contrées voisines. Voyages dans l'Adrar et retour à Saint-Louis", Paris, *Revue Tour du Monde*, 1860, pp. 17-33 et pp. 49-64.

ليس من الغريب أن تتصادف بداية فترتنا المدروسة (1816) ومجيء الرحالتين موليين وكايي مع صدور إحدى أهم تلك المجلات وهي "حوليات الرحلات"¹². لكن أهم تلك المجلات تبقى "مجلة الجمعية الجغرافية الباريسية"¹³ التي بدأت الظهور بعيد ذلك بقليل (1821).

وفي بداية العقد السادس من القرن، وهي الفترة التي اعتبرناها منعرجا في تاريخ الاكتشافات بالمنطقة (القفزة المنسقة 1859-1862)، برزت إلى الوجود مجلتان لا يقل دورهما، في هذا المجال، عن دور المجلتين السابقتي الذكر. وهاتان المجلتان هما "حول العالم"¹⁴ و"المجلة الجغرافية"¹⁵. كما لا يقل شأن "المجلة الاستعمارية"¹⁶ عن شأن المجلات السالفة الذكر. وكانت تلك المجلة قد بدأت في الظهور منذ سنة 1843 وأخذت تسميات متعددة على مدار القرن فاصبحت تدعى "المجلة الجزائرية الاستعمارية"¹⁷ بين سنتي 1859 و 1860 ف "المجلة البحرية الاستعمارية"¹⁸ بين سنتي 1861-1895 ثم "المجلة البحرية" سنة 1896.

وقد أصدرت غالبية الجمعيات الجغرافية مجلات خاصة بها على غرار مجلة الجمعية الجغرافية الباريسية. ويمكن أن نذكر منها مثلا لا حصرا:

- ✓ الجمعية الجغرافية لمدينة ليون (Lyon) وقد أصدرت مجلتها سنة 1874؛
- ✓ الجمعية الجغرافية لمدينة مارسيليا (Marseille) وقد أصدرت مجلتها سنة 1877؛

¹² - Annales des Voyages (1816-1865).

¹³ - Bulletin de la Société de Géographie de Paris (1821-1865).

¹⁴ - Tour du Monde (1860-1914).

¹⁵ - Revue Géographique (1861-1875).

¹⁶ - Revue Coloniale (1843-1859).

¹⁷ - Revue Algérienne et Coloniale (1859-1860).

¹⁸ - Revue Maritime et Coloniale (1861-1895).

✓ الجمعية الجغرافية لمدينة مونتبليي (Montpellier) وقد أصدرت مجلتها سنة 1878؛

✓ الجمعية الجغرافية لمدينة روشفور وقد أصدرت مجلتها سنة 1879؛

✓ الجمعيات الجغرافية لمدن ناننت (Nantes)، تولوز (Toulouse) وليل (Lille) وقد أصدرت مجلاتها سنة 1882.

وقد ساهمت مختلف هذه النشريات، بدورها، في تغطية وتشجيع حركة الاكتشافات التي أصبحت خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر مسألة تسابق مع الزمن بغية بسط السيطرة الاستعمارية على المنطقة.

5. التوسع الاستعماري

ومن أهداف الرحلات الاستكشافية الفرنسية خاصة أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر يمكن أن نذكر دراسة السكان والمكان وجمع مختلف المعلومات عن المنطقة خدمة للسياسة الاستعمارية التي انتهجتها فرنسا في ذلك الحين. وهي السياسة الطامحة إلى السيطرة على البلاد الموريتانية بغية ربط المستعمرات الفرنسية جنوب وشمال هذه المنطقة.

فدراسة السكان استهدفت سبر أغوار المجتمع البيضاني لمعرفة مكوناته ونقاط ضعفه بحثاً عن منفذ يمكن الفرنسيين من النفاذ إلى نقاط الضعف تلك لتفكيك هذا المجتمع من الداخل ولإبعاد أية مقاومة من شأنها أن تواجه بجدية مشاريع إخضاع البلاد الموريتانية للاستعمار الفرنسي.

وفي ذلك النطاق عزف الفرنسيون على وتيرة الصراعات العرقية مقسمين البيضان إلى عرب وهم "محاربون" و"نهايون" يرفضون التعاون مع السلطات الفرنسية وبربر وهم "مسالمون" و"معرضون للإبادة" ويقبلون التعاون مع الفرنسيين.

وقد بالغ الفرنسيون في التركيز على تفكك المجتمع البيضاني والاضطراب السائد داخله وعجز الأمراء وشيوخ القبائل عن توفير الأمن والاستقرار؛ كل ذلك خدمة لتهيئة الرأي العام الفرنسي وإقناعه بقبول الإقدام على عملية غزو البلاد الموريتانية وتحمل ما قد يتطلبه ذلك من الخسائر البشرية والمادية.

أما دراسة المكان فقد سعت، في المقام الأول، إلى جمع ما يمكن جمعه من معلومات عن الطرق والمسالك والمواقع الاستراتيجية لتمرکز ومرابطة الوحدات العسكرية الفرنسية في المستقبل. ويرتبط بهذه المسألة التنقيب عن المياه وتحديد مواقعها نظراً لدورها في تموين أية بعثة أو فرقة عسكرية تنوي عبور المجال البيضاني. واهتمت هذه الدراسة كذلك بالموارد الاقتصادية للمنطقة وخاصة ثروتها المعدنية المحتملة.

ويدخل في نطاق الرحلات الاستكشافية ذات المرامي الاستعمارية محاولات الفرنسيين عبور المجال البيضاني للربط بين السنغال والجزائر والمغرب سعياً إلى تعزيز الوجود الاستعماري الفرنسي وإلى مواجهة محاولات التوسع الإنجليزية والإسبانية في المنطقة.

وإذا كانت هذه العوامل المختلفة قد شجعت ودفعت حركة الاستكشاف تلك، فإن ذلك لا يلغي الصعاب والعراقيل التي واجهها أولئك المستكشفون وهم يجوبون مناطق يشكل الدين والتاريخ، فضلاً عن الجغرافيا حواجز منيعة تفصلهم عن أرضها وسكانها.

ثانياً. العراقيل

تنوعت العراقيل والعقبات التي اعترضت الرحالين الفرنسيين وهم يحاولون النفاذ إلى الصحراء الموريتانية. ومن تلك العراقيل ما هو طبيعي مرتبط بالموقع وبمعالم سطح الأرض الموريتانية وتكويناتها، ومنها ما هو سوسيو/ثقافي متأث من طبيعة المجتمع البيضاني نفسه.

أ. العوائق الطبيعية

تكاد المنطقة تكون محمية من الناحية الطبيعية. وكما يقول أيدو (Eydoux):
"فإن سواحلها الأطلسية القاحلة وغير المضيافة كانت على مر العصور مقبرة
للبواخر"¹⁹. فكم من سفينة جنحت وتحطمت على هذه السواحل فهلك ركبها أو وقعوا
في أسر القبائل البيضانية.²⁰ فهذه السواحل مثلت دور الحارس الأمين للمنطقة من
جهة الغرب.

وحتى القرن الخامس عشر كان الأوروبيون يخشون المخاطرة في هذه
السواحل التي تمتاز بقوة التيارات المائية وقلة الأماكن الملائمة لرسو السفن، إذ يذكر
فرنانديس مخاوف الملاحين البرتغاليين والإسبان من اجتياز رأس بجدور، لأن من
اجتازه لن يعود، فقد كانوا يعتقدون "أنه لا يوجد بشر وراء هذا الرأس، ولا مكان
مأهول، ولا أشجار، ولا أعشاب خضراء"²¹.

ويشير كاتب الحوليات البرتغالي هذا إلى "أن التيارات المائية قوية إلى درجة
أن أي سفينة مرت من هناك [تجاوزت رأس بجدور جنوباً] لن تتمكن من العودة"²².
أما اختراق الصحراء الكبرى من الشمال فتصاحبه من جانب ثان صعوبات
طبيعية أهمها ندرة (إن لم نقل انعدام) المياه وقساوة المناخ حيث ترتفع درجة الحرارة
لتصل حدا لا يستطيع الأوروبيون تحمله إلا بشق الأنفس، إذ تتجاوز الخمسين درجة في
بعض الأحيان. هذا فضلا عن عزلة المناطق الداخلية وبعدها وصعوبة التنقل عبر
المنطقة لانعدام الطرق الآمنة والمعروفة.

¹⁹ - Eydoux, **L'exploration...**, op.cit., p. 12.

²⁰ - راجع الفصل الأول من هذا العمل.

²¹ - Fernandes, **Description de la Côte...**, op.cit., p. 41.

²² - Fernandes, **Description de la Côte...**, op.cit., p. 43.

وطبيعي أن يكون هذا المناخ و بالا على المستكشفين الأوروبيين ذلك "أن رياح السموم التي تهب في إفريقيا وصحاريها القاحلة حيث لا ماء ولا مرعى، والعواصف الهوجاء قد أهلكت معظم الرحالين الذين حاولوا اجتياز هذه القارة"²³. فد"الصحراء [كما يقال] تفترس من لا تعرفه".

وإذا حاول الأوروبيون النفاذ إلى داخل الصحراء الكبرى عن طريق الأنهار (السنغال، النيجر، الكونغو... إلخ.)، فإن عوامل طبيعية أخرى تقف لهم بالمرصاد. فأحواض تلك الأنهار مملأى بالبرك القذرة والمياه الملوثة وبالتالي بالحشرات الضارة والجراثيم والميكروبات التي تسبب أمراضا قاتلة كحمى الملاريا والحمى الصفراء والإسهال... إلخ.

وعندما نأخذ الحمى لوحدها مثلا فإن الدور الذي لعبته في عرقلة الاكتشافات في إفريقيا حسب ما يرى إيبر ديشان (Hubert Deschamps) كان أهم من الأدوار التي لعبتها السيول العارمة والحيوانات المفترسة والنبال المسمومة. فنسبة 87% من مرافقي مانغو بارك²⁴ (Mungo Park) هلكوا متأثرين بالحمى قبل الوصول إلى نهر النيجر.²⁵

وقد ظلت الحمى حتى منتصف القرن التاسع عشر تفتك بالأوروبيين الذين قد تسول لهم أنفسهم التوغل في إفريقيا. ولن تكف إفريقيا عن أن تكون "مقبرة للرجل الأبيض"، إلا حينما استخدم الدكتور وليام بالفور بايكي (William Balfour Baikie) الكينين للمرة الأولى في سنة 1854 أثناء رحلته إلى النيجر.²⁶

²³ - Mageau, op.cit., **Introduction de Paul Gaffarel**, p. 8.

²⁴ - مانكو بارك (1771-1806)، طبيب جراح ومستكشف اسكوتلاندي. قام بمهمتين استكشافيتين لنهر النيجر، أولاهما خلال سنتي 1795 و1797، والثانية بدأت سنة 1805 وتوفي أثناءها في بوسا بنيجيريا.

²⁵ - Deschamps, **L'Europe découvre...**, op.cit., p. 249.

²⁶ - R. Hall, **Découverte de l'Afrique**, traduit de l'Anglais par S. Dubois, Paris, Librairie Larousse, 1971, 160 p., p. 95.

ويجزم الرحالة موليين²⁷ في مقدمة رحلته بأن المناخ ألد عدو يواجه زائر المناطق الإفريقية الداخلية. ولم يكن المستكشفون الغربيون عرضة لمواجهة الظروف الطبيعية القاسية فقط، بل إن التعامل مع السكان المحليين كان، في بعض الأحيان، أدهى وأمر.

ب. العوائق السوسيوثقافية

تضافرت جملة من العوامل الثقافية والبشرية بعضها يتعلق بالدين والبعض الآخر باللغة. وقد مثلت هذه العوائق حواجز ساهمت في غلق إفريقيا أمام التوغل الأوروبي. "فالإفريقيون كانوا دائما يخشون الاتصال بالأوروبيين الذين لا يمثلون في نظر الأفارقة [كما يقول ماجو] سوى تجار سيستغلونهم وصيادي بشر سيبيعونهم. ومع الأسف [يضيف ماجو] فقد كان لتخوفاتهم تلك ما يبررها"²⁸.

ومما زاد الأمر تعقيدا بالنسبة للتوغل الأوروبي داخل الصحراء الإفريقية "كون هذه المنطقة محاطة من جميع الجهات ببلدان اعتنقت شعوبها الإسلام ومن منطلق التزمتم [?] والخوف من الغزاة واجهت تلك الشعوب الأوروبيين ممثلة عقبات كأداء لم تمكن إزاحتها إلا باستخدام العنف"²⁹. ويدعم كافارل هذا الرأي مؤكدا "أن هذا الحقد [حقد الأفارقة على الأوروبيين?] نما أيضا مع انتشار الإسلام في إفريقيا. فهذا الإسلام مثل بالفعل وما يزال يمثل في الوقت الراهن سدا منيعا أمام إدخال الحضارة [!] الأوربية إلى القارة السمراء"³⁰.

²⁷ - Mollien, *Voyage* ..., op.cit., p. VII.

²⁸ - Mageau, op.cit., p. 9.

²⁹ - Eydoux, op.cit., pp.12-13.

³⁰ - Mageau, op.cit., p. 9.

وهذا ما جعل جل الأوربيين الذين يحاولون دخول المنطقة يتظاهرون باعتناق الإسلام وبالانتماء إلى أصول شرقية مخافة التعرض للتهلكة كما سنرى بعد حين. ومع ذلك فإن اكتشاف الصحراء كلف أوروباً نسبة مرتفعة من الخسائر البشرية الناجمة عن مقاومة السكان. "فحوالي نصف الرحالين الكبار الذين حاولوا استكشاف تلك الصحراء قد اغتيلوا من طرف السكان المحليين"³¹.

وفضلاً عن الحواجز الطبيعية والدينية فقد مثلت اللغة بدورها عقبة أمام المستكشفين الفرنسيين الذين يجهلون في غالبيتهم اللغة العربية، مما جعل تفاهمهم مع السكان البيضان مسألة مستعصية. ولم تسلم محاولات تجاوز هذا الحاجز (عن طريق اكتتاب مترجمين من السود) من الكثير من التعثر ذلك أن أكثرية أولئك المترجمين في معظم الحالات لا يتقنون العربية في أي مستوى من مستوياتها، بل إن بعضهم لا يجيد الفرنسية ذاتها³².

ولتذليل هذه العراقيل حاول الفرنسيون أحياناً التكيف مع الخصائص المحلية للبيضان. فهذا البارون روجي³³ (le Baron J.François Roger) الوالي الفرنسي على

³¹ - Eydoux, op.cit., p. 21.

³² - لم تكن غالبية المترجمين السنغاليين الذين اكتتبتهم الإدارة الفرنسية بالسنغال في ذلك الوقت تتقن العربية ولا الفرنسية، مما انعكس أحياناً على دقة وصحة الوثائق المترجمة. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن اثنين من أفراد أسرة ابن المقداد (التي احتكرت وظيفة الترجمة للولاة الفرنسيين على السنغال منذ منتصف القرن التاسع عشر) هما عبد الله سك ودود سك، قد عينا مترجمين لدى الوالي الفرنسي العام وهما يجهلان -وقت تعيينهما- اللغة الفرنسية. راجع:

Bou El Mogdad, *Notes autobiographiques de Doudou Seck*, 35 p.

³³ - البارون روجي (1787-1849)، شغل منصب الوالي الفرنسي على السنغال بين سنتي 1821 و1827. وبعد عودته تابع اهتمامه بشؤون المستعمرات حيث شغل منصب رئيس لجنة الجزائر والمستعمرات بالبرلمان الفرنسي ونائب رئيس الجمعية الجغرافية الباريسية.

السنغال يقترح إرسال كل من رني كايي وليوبولد باني إلى بلاد البيضان لتعلم العربية والتقاليد المحلية قبل القيام برحلتيهما عبر الصحراء البيضانية.

كما أن الجنرال فيدرب اختار من بين مستطلعيه عبر المجال الموريتاني ابن المقداد وعليها صل وهما سنغاليان مسلمان. ويقرر بعض الفرنسيين على ما يبدو الذهاب في اللعبة إلى النهاية إذ يتظاهر بعض المستكشفين الفرنسيين عبر هذا المجال باعتناق الإسلام مدعيا الانتماء إلى أصول عربية إسلامية (كايي، باني، ودولس... إلخ).

ولعل عدم إرسال الفرنسيين لأي مستكشف مبشر أثناء القرن التاسع عشر إلى بلاد البيضان كان شكلا من أشكال التكيف مع "تزمت" البيضان وتشبثهم بمعتقداتهم. فإلى أي حد نجحت سياسة التكيف تلك عبر مختلف مراحل اكتشاف المجال الموريتاني؟

ثالثا. مراحل اكتشاف المجال البيضاني

لقد ارتأينا تقسيم الاكتشافات الفرنسية داخل المجال البيضاني أثناء القرن التاسع عشر إلى ثلاث مراحل رئيسية لكل منها مميزات خاصة. وسنتطرق إلى هذه المراحل بنوع من التفصيل.

أ. مرحلة المحاولات الفردية المعزولة

تمثل هذه المرحلة الفترة التمهيديّة للاكتشافات الفرنسية داخل البلاد الموريتانية أثناء القرن التاسع عشر.

وقد جرت هذه المحاولات الفردية الخجولة أثناء النصف الأول من ذلك القرن، وقام بها في الغالب بعض الأفراد المغامرين الذين تحركهم أساسا مآرب ورغبات شخصية. ولم تتجاوز هذه المحاولات الفردية، على العموم، الأطراف الهامشية الجنوبية للمجال الموريتاني أي ضفة نهر السنغال والمناطق المحاذية لها.

ويفسر آنسيل³⁴ قلة الاكتشافات ومحدوديتها في هذه الفترة بكون الحكومة الفرنسية لم تقدم لها أي نوع من الدعم أو التشجيع.

وكان أول مستطلي القرن التاسع عشر الفرنسيين هؤلاء هو كاسبار-تيودور موليين³⁵ (Gaspard-Théodore Mollien) الذي نجا من حادثة تحطم سفينة لامديز (La Méduse) الفرنسية على السواحل الأطلسية الموريتانية جنوب الرأس الأبيض في يوليو/تموز 1816، حيث تمكن من الوصول إلى سين-لوي. وخلال سنة 1817 تنقل هذا الرحالة بين محطات التبادل النهرية والسواحل الأطلسية لجمع معلومات عن حياة السكان البيضان.

وبعد مرور بضع سنوات على زيارة موليين للمنطقة يصل رحالة فرنسي ثان هو رني كايي (René Caillié) "ولد كيجه"³⁶ في صيف سنة 1824 إلى منطقة البراكه الواقعة بالجنوب الموريتاني ويقضي فيها حوالي تسعة أشهر متنقلا من مكان إلى آخر عبر تلك المنطقة متظاهرا باعتناق الدين الإسلامي وساعيا إلى تعلم اللغة العربية ومبادئ ذلك الدين. وكل ذلك خدمة لمشروع طموح ظل يراوده منذ بدأ مطالعة

³⁴ - Ancelle, op.cit., pp. 99-100.

³⁵ - سنعود إلى الحديث عن هذا الرحالة في الفصل الموالي من هذا العمل.

³⁶ - نسج الخيال الشعبي حول شخصية رني كايي (René Caillié) المعروف محليا بـ"ولد كيجه النصراني" العديد من الأساطير، منها ما يتناول شخصيته الخارقة وطموحه الجامح إلى ارتياد المجهول الذي دفعه إلى إرسال مبعوثين يستطلعون له أعماق المحيط الأطلسي، فذهبوا مضرب مثل لمن لايعود: "مراسيل (رسل) ولد كيجه". ومن تلك الأساطير أنه أتقن اللهجة المحلية حتى بات يقرض الشعر الشعبي، وبلغ في العلم بالشرعية مبلغا أم معه الناس مدة شهر رمضان قبل أن يودعهم مستشهدا بقول خليل: "وبطلت باقتداء بمن بان كافرا". حول الحكايات عن ولد كيجه يمكن الرجوع إلى:

Marcel Chailley (Commandant), "Ould Keje", Bulletin de correspondance saharien, n°5, 1950, pp. 1-6.

كتب الرحلات ألا وهو الوصول إلى مدينة تنبكتو. ويعتبر كايي أول فرنسي وربما أول أوربي يأتي ليقيم طواعية³⁷ بين صفوف القبائل البيضانية. وكانت رحلة كايي داخل البراكنه تمهيدا للرحلة الطويلة التي سيقوم بها عبر الصحراء الكبرى والتي ستجعله أول أوربي يصل إلى تنبكتو ويعود منها سالما. وبعد مغادرة كايي لمنطقة البراكنه ستتوقف محاولات اكتشاف المجال الموريتاني عقدين من الزمن (1824-1843)، الأمر الذي قد يكون عائدا إلى انشغال الفرنسيين بغزو الجزائر والسيطرة عليها. ولن تستأنف هذه المحاولات إلا خلال العقد الخامس من القرن التاسع عشر على أيدي مستكشفين أقل مغامرة واحترافا ممن سبقوهم.

ورغم أن الإدارة الفرنسية بالسنغال أصبحت أكثر اهتماما بالرحلات الكشفية من ذي قبل، فإن صفة المحاولات الفردية المعزولة ظلت تنطبق حسب اعتقادنا على هذه المحاولات الجديدة التي دشنها مقدم مشاة البحرية جان-فرانسوا كايي³⁸ (Jean-François Caille) الذي قضى جل حياته في السنغال شاغلا وظيفيا وإدارية وسياسية متعددة حيث أسندت إليه سنة 1832 مهمة الإشراف على محطات التبادل النهرية وكلف سنة 1840 بإدارة مكتب الشؤون الخارجية، وتولى مرتين في 1846 و 1847 منصب الوالي الفرنسي (وكالة) على السنغال.

³⁷ - لقد عاش بعض الأوروبيين فترات من الزمن بين صفوف القبائل البيضانية، وذلك أثر تحطم السفن التي كانت تقلهم ووقوعهم أسرى بين أيدي تلك القبائل، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

Paul Imbert, Dominique Sieur de Glicourt, Adrien-Jacques Follie, Saugnier et Pierre-Raymond de Brisson

راجع بخصوص أسر هؤلاء الفرنسيين ومعاملة البيضان لهم الفصل الأول من هذا البحث.
³⁸ - جان-فرانسوا كايي (1799-1847)، وقد اعتمدنا في معلوماتنا بشأنه فضلا عن مؤلفيه المذكورين وملفه الأرشيفي على:

Schefer, *Instructions générales*, op.cit., t.-II, p.638.

وفي أكتوبر/تشرين الأول سنة 1843 قام هذا الضابط بمهمة استطلاعية في حوض نهر السنغال زار خلالها خاصة منطقة الترارزه الموريتانية وجمع بعض المعلومات حول السكان ونمط حياتهم وذلك قبل وفاته سنة 1847 عن عمر يناهز ثمانا وأربعين سنة متأثرا بالمalaria وهو برتبة مقدم وحاصل على وسام الشرف الاستحقاق.

وتتجلى أهمية التقريرين المنشورين في نهاية تلك المهمة: "ملاحظات حول شعوب موريتانيا وبلاد الزنوج المتاخمين لنهر السنغال"³⁹ و"جدول إحصائي حول نهر السنغال"⁴⁰ في كونهما يشتملان على أولى المعطيات الكمية عن سكان منطقتي الترارزه والبراكه الموريتانيتين.

ولئن كنا نجهل لحد الساعة المصادر التي استقى منها الضابط كاي معطياته الكمية تلك والطريقة التي جمعها بها⁴¹ ونشك بالتالي في صحتها أو دقتها على الأقل، فإننا نعتبرها إيدانا بتدشين العناية بالمعطيات الكمية البالغة الأهمية في الدراسات التاريخية المعاصرة حتى ولو كانت تلك المعطيات الكمية تقريبية وغير يقينية.

³⁹ - Jean-François Caille (Lieutenant-Colonel d'Infanterie de marine), "Notes sur les peuples de la Mauritanie et de la Nigritie, riverains du Sénégal", *Revue Coloniale*, Paris, t.- IV, 3ème série, (sept.) 1846, pp. 1-10.

⁴⁰ - J.-F. Caille (Lieutenant-Colonel d'Infanterie de Marine), "Tableau statistique du fleuve du Sénégal, dressé en 1843 par le Commandant Caille, attaché à l'état-major de la Colonie", Paris, *Revue Coloniale*, 2ème série, t.- VI, de janvier juin, 1851, pp. 5-19.

⁴¹ - لا نستبعد أن يكون إشراف الضابط كاي على مصلحة محطات التبادل النهرية ومكتب العلاقات الخارجية بالمستعمرة قد ساعده على جمع هذه المعلومات، لكن ذلك لا يمنعنا من التحفظ بشأن دقة وصحة تلك المعطيات التي سنعود إليها في أماكن أخرى من هذا العمل.

ومبعث شكنا هو كون الضابط كاي لم يتجاوز منطقة حوض نهر السنغال وبعض أجزاء منطقتي الترارزه والبراكه المتاخمتين لها⁴² وهو بالتالي لم يتم بإحصاءات ميدانية⁴³ جديرة بهذا الاسم داخل المنطقتين تمكنه من جمع الأرقام التي نشرها.

كما أن طبيعة المجتمع البيضاني المسلم المحافظ وموقفه المعادي لـ"النصارى" لم تكن لتسمح لهذا الضابط بالحصول على تلك المعلومات المفصلة نسبيا في ذلك الوقت. فالرحالة كاي الذي تظاهر بالإسلام وأقام بين صفوف البيضان وادعى أنه من أصل مصري بقي دائما مثار شك لدى هؤلاء السكان الذين اتهموه أكثر من مرة بأنه جاسوس لـ"النصارى" جاء ليحمل إليهم أسرار البلاد والعباد.⁴⁴ فإذا كانت "المجتمعات ترغب دائما في إخفاء ما تصنعه وما هي عليه"⁴⁵، فإن ذلك ينطبق أكثر على المجتمع البيضاني التقليدي المحافظ.

ويعتبر هذا الضابط الفرنسي كما ذكرنا في المقدمة أول من أطلق تسمية موريتانيا (Mauritanie) على سكان المنطقة البيضان.

⁴² - J.-F. Caille (Capitaine du 3ème régiment de l'infanterie de la marine, Président de la commission d'exploration), **Voyage d'exploration au Sénégal (décembre 1839- février 1840)**, ANFCAOM, Série géographique: Afrique, Sous-Série: Sénégal et Dépendances-III, Explorations et Missions:- Sénégal et Dépendances-III/5-d, 15 p., p. 3.

⁴³ - رغم أن هيئة تحرير المجلة التي نشرت التقرير الأخير أشارت إلى أن هذه المعطيات قد جمعت في عين المكان.

⁴⁴ - René Caillié, op.cit., t.-1, pp. 90-91.

⁴⁵ - بول باسكون، "مقابلة مع بول باسكون"، ضمن "ملف بول باسكون وعلم الاجتماع القروي"، بيت الحكمة، العدد 3، 1986، الدار البيضاء، 120 ص، ص.15.

وفي السنة الموالية جاء دور رحالة آخر هو آن رافنل⁴⁶ (Anne Raffene) الذي التحق بالبحرية سنة 1825 بصفته موظفا صغيرا بعد أن عجز عن مواصلة دراساته. وفي سنة 1842 حول إلى السنغال حيث كلفه حاكمها بوي ويومز⁴⁷ (Louis Edouard Bouet Willaumez) بالقيام بمهمة استكشافية في حوض نهر السنغال قادتة إلى محطات التبادل، فزار مركزي باكل⁴⁸ (Bakel) وبودور النهريين مما مكنه من جمع بعض المعلومات عن البيضان وعلاقتهم بالزنوج. وقد نشرت رحلة رافنل تلك سنة 1846 بعنوان "رحلة داخل إفريقيا الغربية"⁴⁹.

⁴⁶ - آن رافنل (1809-1858)، وقد أتمدنا في معلوماتنا حوله فضلا عن رحلتيه المذكورتين على المصادر والمراجع التالية:

- ✓ Raffene, **Rapport autographe**, ANFCAOM: Série géographique: Sénégal et Dépendances-III-6 , 12 p .,
- ✓ Ancelle, **Les explorations au Sénégal** , op.cit., p. 105;
- ✓ Deschamps, **L'Europe découvre...**, op.cit., pp. 64-70;
- ✓ Anonyme, **Hommes et destins...**, op.cit., t.-1, 1977, pp. 502-503.

⁴⁷ - لوي أدوارد بويويومز (1808-1871)، أحد ضباط البحرية الفرنسيين الساميين، شغل وظيفة الوالي الفرنسي على السنغال سنتي 1842 و1843. راجع:

- ✓ Schefer, **Instructions générales**, op.cit., t.-II, p. 635;
- ✓ Etienne Taillemte, **Dictionnaire des marins français**, Paris, Editions Maritimes et d'Outre-Mer, 1982, 357 p., p. 42.

⁴⁸ - مركز عسكري وإداري وتجاري أسسه الفرنسيون سنة 1818 على ضفة نهر السنغال في منطقة كيديماغه الحالية. وقد أصبح ابتداء من 1821 مركز التبادل الرئيسي مع مجموعة إدوعيش البيضانية. انظر الخريطة رقم 2 من ملحقات هذا العمل.

⁴⁹ - Anne Raffene, **Voyage dans l'Afrique occidentale, exécuté en 1843 et 1844**, Paris, Arthus Bertrand, Editeur, 1846, 512 p.

وفي سنة 1847 كلفت وزارة البحرية الفرنسية رافنل بمهمة جديدة تتمثل في عبور القارة الإفريقية من الغرب إلى الشرق لاكتشاف منابع النيل الأبيض. وإنجاز هذه المهمة الصعبة قدمت له الوزارة مبلغ 24000 فرنك. كما زودته أكاديمية العلوم بتعليمات واضحة تتمثل في وصف التقاليد والمؤسسات والأجناس والأراضى ونباتاتها، وأعطته بعض الأدوات الضرورية (بوصلات، مقاييس، خرائط... إلخ). وتم نشر هذه الرحلة تحت عنوان: "رحلة جديدة إلى بلاد الزنوج، مشفوعة بدراسات حول مستعمرة السنغال وبوثائق تاريخية، جغرافية وعلمية"⁵⁰ وهي تتقاطع مع الرحلة الأولى في الكثير من المعطيات بحكم التطابق والتداخل الجغرافي. ويصنف رافنل سكان المناطق التي زارها ثلاث طوائف هي:

- ✓ المسلمون: وهم البيضان وفلان بوندو⁵¹ وساراكولي⁵² غلام.
- ✓ اللامبالون: وهم الماندينغ وخاسونكي⁵³.
- ✓ الوثنيون: وهم البنبارا في كارطه⁵⁴ والماندينغ في بامبوك.

⁵⁰ - Raffenel, *Nouveau voyage dans le pays des nègres, suivis d'études sur la Colonie du Sénégal et de documents historiques, géographiques et scientifiques*, Paris, Imprimerie et librairie centrales des chemins de fer, 1856, 2 t., 512 et 456 p.

⁵¹ - منطقة سودانية تقع بين نهرى السنغال والنيجر وتحدها منطقة فوتا تورو من الجنوب ومنطقة بامبوك من الشرق وكيدماغه من الشمال ونهر غامبيا من الغرب.

⁵² - إحدى مجموعات السونينكي، وبالتالي فهم فرع من الماندينغ، ويتمركز الساراكولي في المناطق الساحلية المحاذية للحدود الموريتانية المالية.

⁵³ - تسمية قديمة تطلق على أقوام من الزنوج يقطنون بأعالي نهر السنغال في منطقة تسمى أيضا بهذا الاسم.

⁵⁴ - منطقة جغرافية تقع في شمال جمهورية مالي، عاصمتها مدينة نيورو المالية الحالية.

ويبدو الطابع السياسي⁵⁵ لهذه الرحلة بارزا عندما يقدم هذا الرحالة اقتراحات محددة بشأن الموقف الذي يجب انتهاجه من هذه الجماعات السكانية المختلفة. وتتلخص تلك المقترحات في:

- ✓ عدم الضغط على السكان أو السيطرة عليهم قسرا؛
- ✓ انتهاج سياسة الاستقطاب،
- ✓ الاعتماد على الوثنيين واللامبالين،
- ✓ إرسال المبشرين إلى المنطقة.

وإذا كان المستكشف السابق (الضابط كاي) قد سبق الإداري الفرنسي كوبولاني إلى إطلاق تسمية موريتانيا على المنطقة التي نتناولها بالدرس كما أشرنا إلى ذلك سابقا، فإن رافنل قد سبق، هو الآخر، كوبولاني إلى فكرة الدمج التي ستشكل في مطلع القرن العشرين حجر الزاوية في سياسة ذلك الإداري الهادفة إلى إخضاع البلاد الموريتانية.

وعلى ما يبدو فإن السياسة سيكون لها حضور أكثر بروزا في المهمات الاستكشافية بالمنطقة ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر. فقد طرحت منذ ذلك الوقت مشكلة الربط بين المستعمرتين الفرنسيتين السنغالية والجزائرية، ذلك الربط الذي يتطلب المرور بالأراضي الموريتانية ويستدعي بالتالي اكتشاف تلك المنطقة الصحراوية التي ما يزال الفرنسيون يجهلون لها ولا يعرفون ما قد تخبئه من مخاطر

⁵⁵ - رغم أن موريس دو لافوس يخلو له القول: "إن هذه المهمات [الاستكشافية] لم يكن لها أي طابع سياسي، إذ اقتصر على جمع المعلومات"، انظر:

Maurice Delafosse, *L'Afrique Occidentale française*, in *Collection Histoire des colonies françaises et de l'expansion de la France dans le monde* (G. Hanotaux et A. Martineau), t.-IV, Paris, Plon, 1931, 611 p., p. 255.

وأهوال، وما قد تكتنزه من خيرات وموارد اقتصادية محتملة. فأشكالية عبور الصحراء البيضاوية لربط السنغال بالجزائر قد بدأت بالفعل تشغل بال بعض الساسة الفرنسيين.

ففي رسالة موجهة إلى وزير البحرية في 1848/11/27 نجد البارون روجي وهو وال سابق على السنغال، ويشغل حينئذ منصب نائب رئيس الجمعية الجغرافية الباريسية ورئيس لجنة الجزائر والمستعمرات بالبرلمان الفرنسي يقول: "إن القيام برحلة استكشافية بغية معرفة وسائل الربط برياً بين الجزائر والسنغال ستكون له أهمية بالغة للتجارة والعلوم والسياسة معاً"⁵⁶.
وقد وجد البارون روجي ضالته المفقودة لحل معضلة الربط بين هاتين المستعمرتين، حيث اقترح على الوزير تكليف ليوبولد باني⁵⁷ (Léopold Panet) وهو سنغالي/ فرنسي (هجين) بالقيام بهذه المهمة الصعبة.

⁵⁶ - Léopold Panet, **Voyage dans l'intérieur de l'Afrique** 1850, ANFCAOM.: Série Missions, Carton 1.

⁵⁷ - ليوبولد باني (1820-1859)، وقد أعتدنا في معلوماتنا المتعلقة بشأن هذا الرحالة فضلا عن رحلته وملفه في مركز أرشيف ما وراء البحار على مجموعة من المراجع من أهمها:

- ✓ Ancelle, **Les explorations au Sénégal**, op.cit., pp. 105-107 .
- ✓ Chailley, **Les grandes missions françaises**, op.cit., p. 103
- ✓ Deschamps, **L'Europe découvre...**, op.cit., pp. 151-153
- ✓ Anonyme, **Hommes et destins**, op.cit., t.-V, 1984, pp. 430-432.
- ✓ Broc, **Dictionnaire illustré...**, op.cit., p. 249-250.
- ✓ Robert Cornevin ,
- ✓ "Léopold Panet (1820-1859), premier explorateur du Sahara mauritanien et premier écrivain africain de langue française", Dakar, BIFAN, Série B, t.-XXX, n°3, juillet 1968, pp. 1243-1255.

وبرر البارون روجي اقتراحه ذلك بأن: "ليوبولد بانى يعرف القليل من العربية الدارجة [الحسانية]، وبإمكانه أن يتكلم تلك اللغة بسهولة إذا قضى شهرين في أحد مخيمات الزوايا حيث سيتعلم السلوك والتقاليد⁵⁸] المطلوبة كي لا يثير تخوف وانزعاج القبائل البيضانية التي سيقابلها أثناء تلك الرحلة"⁵⁹.

وكان البارون روجي متحمسا لهذا المشروع، فلم ينتظر جواب وزير البحرية، بل بدأ مناقشته مع بانى الذي أبدى استعدادا وارتياحا لهذه المهمة. كما ناقش البارون مشروعه هذا مع وزير الحربية الذي كان بدوره "يعلق آمالا كبيرة على هذا المشروع ويؤكد استعداده لدعمه بالوسائل المتوفرة"⁶⁰.

وبالفعل فقد كلف بانى رسميا بتلك المهمة وحصل على مساعدات من لدن وزارتي البحرية والدفاع والجمعية الجغرافية الباريسية والوالي الفرنسي على السنغال شارل بودين⁶¹ (Charles Baudin)، مما مكنه من تشكيل قافلة مرافقة تضم اثني

-
- ✓ "Léopold Panet (1820-1859), Indigène sénégalais, Premier explorateur du Sahara occidental. Chevalier de la Légion d'Honneur", Paris, Revue des Membres de la Société d'Entraide de la Légion d'Honneur, n°106, février 1990, pp. 12-16.

⁵⁸ - نشير إلى أن هذا البارون روجي كانت له علاقة بإرسال كايى إلى البراكنه سنة 1824 ليتعلم العربية ومبادئ الدين الإسلامي قبل رحلته المنتظرة إلى تنبكتو. وكان روجي وقتئذ يشغل منصب الوالي الفرنسي على السنغال. راجع الفصل الثالث من هذا العمل.

⁵⁹ - ANFCAOM: Série: Missions, Carton 1: **Voyage de M. Panet dans l'intérieur de l'Afrique**, 1850, dossier Panet.

⁶⁰ - ANFCAOM: Série: Missions, Carton 1: **Voyage de M. Panet dans l'intérieur de l'Afrique**, 1850, 18 p., (dossier Panet).

⁶¹ - شارل بودين (1784-1854)، أحد ضباط البحرية الفرنسية، شغل منصب الوالي الفرنسي على السنغال مرتين أولاها سنة 1847 والثانية بين سنتي 1848 و1850، راجع حوله:

عشر شخصا وثلاثين جملا محملة بالبضائع والمؤن فضلا عن اقتناء بعض الأدوات العلمية الضرورية.⁶²

وإذا قارنا هذا السخاء الذي قابلت به الإدارة الفرنسية في منتصف القرن التاسع عشر باني دعما للقيام برحلته عبر الصحراء بما قوبل به كايي قبل ذلك بربع قرن من تسويق الإدارة الفرنسية ومماطلتها ورفضها لتمويل أو دعم رحلته إلى تنبكتو⁶³ رغم تأكيد على الفوائد التجارية التي ستسفر عنها تلك الرحلة، أدركنا أن تغييرا مهما في موقف تلك الحكومة من الرحلات الاستكشافية بدأ يبرز إلى حيز الوجود.

وبما أن باني هجين الأصل والبشرة (ملون) ويتكلم العربية الدارجة فقد تمكن سنة 1850 من عبور الصحراء الموريتانية مقيما شهرا بمدينة شنقيط⁶⁴ ورابطا بين السنغال والصويرة (موكادور) بالمغرب الأقصى، وهو أمر لن يتمكن أي فرنسي خالص البشرة والأصل واللغة من القيام به قبل بداية القرن العشرين.

Etienne Taillemite, **Dictionnaire des marins français**, Paris, Editions Maritimes et d'Outre-Mer, op.cit., pp. 25-26.

⁶² - Broc, **Dictionnaire illustré...**, op.cit., pp. 249-250.

⁶³ - راجع الفصل الثالث من هذا العمل.

⁶⁴ - تختلف الروايات حول تاريخ تأسيس هذه المدينة، فالشائع عند أهلها أن تاريخ تأسيسها بموقعها الحالي يرجع إلى سنة 660هـ/1260م، وأنها امتداد لمدينة قديمة عرفت باسم "أبير" أسست بدورها سنة 160هـ/777م. واختلفت الروايات الغربية بشأن تاريخ تأسيس المدينة بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر الميلاديين، إلا أن الباحث الإنجليزي نوريس قد مال إلى أقدمية تأسيس المدينة. اضطلعت هذه المدينة، كغيرها من المدن التاريخية الموريتانية، بدور بارز في التجارة عبر الصحراء. وجراء هذا الدور والإشعاع الثقافي الذي ميز مدينة شنقيط أخذت البلاد كلها فترة من الوقت اسم هذه المدينة فأصبحت تعرف ببلاد شنقيط نسبة إلى شنقيط المدينة. انظر:

H. T., Norris "The history of Shinqit, according to the Idaw Ali tradition", *BIFAN*, t.-XXIV, Série B, 1962, pp. 393-411.

ففي سنة 1913 لم يستطع الكولونيل موري⁶⁵ (Mouret) وهو على رأس فرقة عسكرية مهمة إلا بعناء كبير أن يسلك الطريق الذي سلكه باني قبل ذلك بنيف وستين سنة، وذلك خلال حملة خاطفة قام بها ذلك الضابط في منطقة الصحراء الغربية.⁶⁶

ومع تظاهر باني باعتناق الإسلام، ومعرفته السطحية (طبعاً) للغة العربية فإن رحلته عبر الصحراء لم تخل من العراقيل والمضايقات، إذ ن هبت قافلته جزئياً وتعرض للضرب والشتم والشك في صدق إسلامه. كما أرغم على تغيير خط رحلته فتوجه إلى الجنوب المغربي بدل التوجه إلى الجزائر حسبما كان مقرراً في الأصل. وقد نشرت رحلة باني في السنة التي تمت فيها وذلك تحت عنوان: "قصة رحلة من السنغال إلى الصويرة"⁶⁷.

ورغم ضحالة هذه الرحلة من الناحية الجغرافية والعلمية فإنها تتضمن معلومات مفيدة حول المنطقة التي اجتازها الرحالة وإمكانياتها التجارية. وإذا اعتبرنا رحلة باني حالة استثنائية وربطاً بين هذه المرحلة والمرحلة الموالية يمكننا الجزم بأن مرحلة المحاولات الفردية المعزولة والبطيئة هذه قد غلب عليها المستكشفون المدنيون (أربعة أخماس) المغامرون والباحثون عن إشباع رغبة شخصية في الترحال أو المغامرة من أجل الكسب والتحصيل⁶⁸.

⁶⁵ - أحد الضباط الفرنسيين، شغل منصب مفوض الحكومة العام في موريتانيا وتولى سنة 1913 قيادة حملة عسكرية داخل الصحراء أغار خلالها على مركز الشيخ ماء العينين باسماره. راجع:

Gillier, **La pénétration en Mauritanie**,... op.cit., pp. 228 et suivantes.

⁶⁶ - H.-P. Eydoux, op.cit., p. 195.

⁶⁷ - Panet, "Relation d'un voyage...", op.cit.

⁶⁸ - كان كايي يبحث عن جائزة الجمعية الجغرافية الباريسية، كما كان باني يسعى إلى تشجيع تلك الجمعية فضلاً عن الحصول على وظيفة دائمة.

ومع ذلك فإن هاجس التجارة⁶⁹ وخدمة المصالح التجارية الفرنسية باكتشاف مسالك تجارية جديدة والمزيد من الموارد الاقتصادية، كان محسوسا ملموسا عند مختلف رحالي هذه المرحلة التي تركزت باستثناء رحلة باني حول المناطق المحاذية للنهر.

ولهذا التركز بالمناطق الهامشية ما يبرره. ففرنسا التي استعادت للتو سيطرتها على السنغال تسعى إلى دعم وتثبيت نفوذها في حوض النهر قبل أن يمتد ذلك النفوذ إلى الشواطئ الأطلسية الموريتانية التي واجه الفرنسيون فيها خلال العقود الماضية منافسة هولندية وبريطانية شديدة سعيا إلى السيطرة على مركزي آركين وبورتانديك الأطلسيين بغية الاستحواذ على التبادل التجاري مع البيضان.

ومن جهة أخرى فإن الكارثة التي أصابت سفينة لامديز سنة 1816 بالساحل الموريتاني قد تكون سببا في جعل الفرنسيين وربما الأوروبيين عموما يهربون من السواحل الأطلسية الموريتانية فترة من الزمن استمرت حتى تعيين فيدر⁷⁰ (Louis Faidherbe Léon César) واليا على السنغال سنة 1854 حيث دشن ذلك الوالي

⁶⁹ - نجد ذلك الهاجس عند مختلف مستكشفي هذه المرحلة.

⁷⁰ - الجنرال فيدر (1818-1889)، يعتبر هذا الضابط من أكثر الفرنسيين اهتماما بنشر الاستعمار الفرنسي في م-نطقة السنغاميا والصحراء الكبرى. فبعد أن بدأ خدمته بالجزائر (1842-1847, 1849-1852) حول إلى السنغال سنة 1852 ليعين حاكما فرنسيا على السنغال بين سنتي 1854-1861 للمرة الأولى وبين سنتي 1863-1865 للمرة الثانية. وفي نطاق مساعيه لنشر السيطرة الفرنسية أشرف هذا الوالي على العديد من البعثات الكشفية إلى المنطقة وتصارع مع السكان المحليين وخاصة البيضان وسعى إلى تنظيم شؤون مستعمرة السنغال. راجع حوله:

- ✓ Faidherbe, **Notice sur la Colonie du Sénégal et sur les pays qui sont en relation avec elle**, Paris, Bertrant, 1859, 100 p.
- ✓ Broc, **Dictionnaire illustré...**, op.cit., pp. 137-138.
- ✓ Chailley, **Les grandes missions françaises**, op.cit., pp. 41 et ss
- ✓ Deschamps, **L'Europe découvre...**, op.cit., pp. 147 et suivantes.

مرحلة جديدة من الاستكشافات في منطقة السنغامبيا وداخل الأراضي الموريتانية،
مرحلة جرت بشكل أكثر سرعة وتنظيماً من المرحلة السابقة.

ب. مرحلة القفزة المنسقة أو الاستطلاع العسكري (1859-1862)

إذا كانت المرحلة السابقة قد امتدت طوال النصف الأول من القرن وجرت
بشكل بطيء، معزول وغير منتظم، كما احتل فيها المدنيون الصدارة، فإن هذه
المرحلة كانت عكسا لذلك تماما، إذ سيطر فيها العسكريون.
ويجد وصفنا لهذه المرحلة بـ "القفزة المنسقة" مسوغه في الكثافة والتنسيق
الذين تمت بهما، حيث شكّلت قطيعة مفاجئة مع المرحلة السابقة لها إذ لم يستغرق
امتدادها الزمني سوى أربع سنوات (1859-1862) فهي تمثل قفزة خاطفة ولكنها في
الوقت نفسه منسقة وموجهة من قبل الإدارة الفرنسية في السنغال.

وترتبط هذه المرحلة بالجنرال فيدرب الذي شغل منصب الوالي الفرنسي على
السنغال للمرة الأولى بين سنتي 1854-1861 وانصبت مجهوداته على السعي إلى
تغيير شروط وطرق التبادل مع السكان المحليين خاصة الترارزه الذين يعتبرهم
روجي باسكيي (Roger Pasquier) "القوة المهيمنة في المنطقة حينئذ إذ يهددون
استقلال البراكنه ويعتبرون منطقة والو⁷¹ ملكية لهم ويحاولون عن طريق أحدهم
تسيير سياسة كايور"⁷².

⁷¹ - تسمية تطلق أصلا باللغة الولفية على السهل الفيضي الممتد على ضفتي نهر السنغال. ومع أن
هذه التسمية تشمل كل المنطقة التي تغمرها فيضانات النهر سنويا إلا أن الاستعمال المحلي محضاها
للضفة اليسرى السنغالية، بينما أخذت تسمية "شمامه" تلتصق بمنطقة الضفة اليمنى الموريتانية.

⁷² - Roger Pasquier, *Le Sénégal au milieu du XIXème siècle. La crise économique et sociale*, thèse pour l'obtention de Doctorat Es lettres, Paris IV-Sorbonne, 1987, 5 vol., 2397 p., t-3, p. 1180.

وقد وصف فيدرب، بعيد وصوله إلى السنغال، تلك الهيمنة قائلا: "إن الترارزه يضربون من حولنا [يعني الفرنسيين في السنغال] طوقا خانقا"⁷³. وهكذا فإن أولى الأولويات هي إزاحة ذلك الطوق، لأن "هيمنة البيضان [على السنغال] لم تعد محتملة في وقت يضاعف فيه تجار الميترو ول مجهوداتهم لتوسيع نشاطهم التجاري حتى يشمل كل السنغال"⁷⁴، وذلك بهدف إخراج هذه المستعمرة من حالة الركود التي عرفتھا طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر. فتطور مستعمرة السنغال التي تضم أساسا بالإضافة إلى سين-لوي وكوري، بعض محطات التبادل على النهر والتي كانت تدار بشكل رديء من طرف الولاية الثلاثين الذين تعاقبوا عليها خلال الفترة الممتدة من 1817 إلى 1854 مرتبط في الأساس بحرية العبور وبالتالي بإخضاع البيضان والفلان وهي المهمة المركزية الملقاة على عاتق الجنرال فيدرب.⁷⁵

⁷³ - تقرير مدير الهندسة الحربية فيدرب بتاريخ 3 يوليو/تموز 1854، راجع:

Faidherbe, **Rapport de M. le directeur du génie**, 3 juillet 1854, ANFCAOM, Sénégal et Dép.- IV-19: Expansion territoriale et politique indigène (1840-1854), chemise 19 b, , 6 p., p.2.

⁷⁴ - Pasquier, op.cit., p. 1181.

⁷⁵ - راجع بهذا الخصوص:

- ✓ Vivien de Saint-Martin, "Le Sénégal. Les progrès de notre colonie depuis 1854. Le Gouverneur Faidherbe", *L'Année géographique*, 1ère année, 1863, Paris, Hachette, pp. 92-96 .
- ✓ Xavier Yakono, **Histoire de la colonisation française**, Paris, collection: que sais-je ?, 5ème Edition, 1988, 127 p., p.39.
- ✓ Faidherbe, **Notice sur la colonie du Sénégal et sur les pays ...**, op.cit.

ولإنجاز تلك المهمة خاض فيدرب حروبا متعددة في المنطقة مكنته من تدعيم النفوذ الفرنسي وتوقيع اتفاقيات⁷⁶ مع الزعامات المحلية تتنازل بموجبها عن الكثير من السلطة والصلاحيات التي كانت تمارسها في السابق. وقد أثارت سياسة فيدرب تلك إعجاب مختلف الأوساط السياسية الفرنسية، بل إن بعض الأوساط العلمية لم تخف الترحيب والتأييد بهذه السياسة. فها هو فيفين دو سين مارتين (Vivien de Saint Martin)، وهو نائب رئيس المؤسسة الجغرافية الباريسية، ينوه بتلك السياسة قائلا: "إن حملة الإجراءات الذكية والصارمة تلك قد جعلت مستعمرتنا السنغالية في وضعية متميزة لم تصل إليها منذ زمن بعيد"⁷⁷.

أما الأستاذ الجامعي بول كافارل (Paul Gaffarel)، فيشيد، من جانبه، بإجراءات فيدرب تلك تحت عنوان جانبي هو "طرد البيضان" (من السنغال طبعا) معتبرا سياسة فيدرب تلك "سياسة حازمة ووطنية [?] انتهجت الهجوم بدل الدفاع لتضع حدا للتنازلات المؤسفة السابقة. وقد تمكنا [يضيف كافارل] بفضل هذه السياسة،

⁷⁶ - من أهمها تلك الموقعة مع إمارتي الترازه والبراكنه. راجع بهذا الشأن:

Archives Nationales du Sénégal (ANS), Série G: Politique et administration générale, sous-série 9 G: Affaires politiques et administrations musulmanes:

- ✓ 9G-6: **Traités avec les Trarza** (1810-1893), pièce n° 20, 20 mai 1858,
- ✓ 9G-7:
- ✓ **Traités avec les Brakna** (1819-1886).

⁷⁷ - Vivien de Saint-Martin, "Le Sénégal....", op.cit., p. 96.

ليس فقط من البقاء أسيادا في المناطق المحتلة من طرف قواتنا، بل من وضع حد للتبعية المذلة⁷⁸ التي قبلناها حتى ذلك الحين"⁷⁹.
ويعتبر موريس دولافوس (Maurice Delafosse): "أن أولى محاولات اكتشاف موريتانيا قد جرت في عهد فيدرب شأنها في ذلك شأن إلغاء الضرائب العرفية"⁸⁰.

وبعد أن أصبحت وضعية الفرنسيين في المنطقة أحسن، بالمقارنة مع السابق، بدأ الجنرال فيدرب حملة الاكتشافات التي ميزت الفترة/القفزة هذه والتي نحن بصدد الحديث عنها. فاختار لها مجموعة ممن يثق فيهم من الرجال معظمهم من الضباط العسكريين.

وقد أراد الجنرال فيدرب لهذه الحملة الاستكشافية أن تغطي مختلف مناطق المجال الموريتاني فكلف الملازم الأول البحري ايجن ماج⁸¹ (Mage) بالتوجه في شتاء 1860-1859 إلى منطقة تكانت الواقعة في وسط موريتانيا وذلك مرورا بمنطقتي كيديماغه⁸² والعصابه⁸³. وقد ختم ماج مهمته تلك بتقرير نشر بعد عودته من

78 - يشير افارال هنا إلى قبول الفرنسيين لبعض أشكال تبعية بلاد السنغال للبيضان وإلى الأتاوات والرسوم التي كان الفرنسيون حتى ذلك الوقت يقدمونها لهؤلاء البيضان مقابل تأمين التجارة بالمنطقة.

79 - Paul Gaffarel, **Histoire de l'expansion coloniale**, op.cit., p. 75.

80 - Delafosse, **L'Afrique Occidentale française...**, op.cit., p. 255.

81 - سنتحدث عنه في الفصل الموالي وسنعود إلى رحلته في أماكن أخرى من هذا العمل.

82 - منطقة تقع بالوسط الجنوبي من البلاد الموريتانية بين وركول والعصابه وأفطوط. وهي تمثل نقطة تقاطع بين الحدود الموريتانية السنغالية المالية.

83 - منطقة جغرافية تقع بالوسط الجنوبي للبلاد الموريتانية وهي الآن ولاية موريتانية عاصمتها مدينة كيفه، ويحد هذه الولاية الحوض الغربي شرقا، وتكانت شمالا، والبراكنه غربا وكيديماغه جنوبا.

الرحلة ببضعة أشهر تحت عنوان: رحلة إلى تكانت [84] (إفريقيا الوسطى) [85] سنرجع إليه بعد حين.
وكلف فيدرب ضابط الهندسة البحرية فلكران⁸⁶ (G. Fulcrand) بمهمة مماثلة بالساحل الأطلسي الموريتاني وخاصة منطقة آركين لمعرفة إمكانية تنفيذ فكرة تراود هذا الوالي بشأن بعث ذلك الميناء ليستعيد نشاطه من جديد.
وقد درس فلكران بمساعدة مرافقه الضابط البحري أوب⁸⁷ (Aube) منطقة خليج آركين ووضعها لها خريطة مفصلة. ولم تكن نتائج هذه المهمة تخدم فكرة فيدرب المتعلقة بإحياء آركين. فقد أكد الضابط فلكران في تقريره الذي نشر في السنة الموالية

⁸⁴ - Mage, "Voyage au Tagant (Afrique centrale)", op.cit.

⁸⁵ - إن قول ماج بأن منطقة تكانت الموجودة بوسط البلاد الموريتانية تقع في وسط القارة الإفريقية، وتبني هيئة تحرير المجلة التي نشرت رحلته لهذا الخطأ دون تصحيحه، برهان آخر على أن الأوروبيين كانوا حتى بداية العشرين الثانية من القرن التاسع عشر يجهلون الكثير من المعطيات الجغرافية المتعلقة بالمنطقة.

⁸⁶ - لم نتمكن من الحصول على أية معلومات بيوغرافية عن هذا المستكشف. فالمراجع التي اعتمدها لم تذكره، بما فيها الموسوعة الاستعمارية والبحرية ومعجم البحارة الفرنسيين:

✓ Anonyme, **Encyclopédie Coloniale et Maritime**, AOF., Paris, 1949, 2 vol., 391 et 400 p .

✓ Taillemite, **Dictionnaire des marins...**, op.cit.

كما أننا لم نعثر له على ملف خاص به في الأرشيف السنغالي. أما ملفه في أرشيف ما وراء البحار فلا يشمل إلا على تقرير عن مهمته المشار إليها آنفا:

Fulcrand, **Rapport de mission**, ANFCAOM., Série: Missions, op.cit., Carton 1: Chemise 1: Mission de Fulcrand et Aube, 1860.

⁸⁷ - هـ. - تيوفيل أوب (1826-1890) H.-Théophile Aube، أحد ضباط البحرية الفرنسيين الساميين، شغل منصب وزير البحرية سنة 1886. انظر:

Taillemite, **Dictionnaire des marins français**, op.cit., p. 16.

تحت عنوان: *استكشاف خليج آر كين*⁸⁸ استحالة إحياء ذلك الميناء لأن الوصول إليه بات مع مر الزمن أمرا متعذرا إن لم يكن مستحيلا، حتى ولو تعلق الأمر بسفن متوسطة الحمولة. وبالمقابل اقترح هذا الضابط إقامة منشآت مرفئية بمنطقة الرأس الأبيض لتعويض آر كين.

وأوفد فيدرب ضابطا آخر هو نقيب الأركان العامة هانري فينصان⁸⁹ (Henri Vincent) إلى منطقة آدرار بالشمال الموريتاني وذلك عبر مناطق الترارزه وإينشيري⁹⁰ وتيرس⁹¹. وقد استغرقت رحلة هذا الضابط، الذي يرافقه المترجم ابن المقداد وأربعة جنود وخادم، سبعين يوما قطع أثناءها حوالي ألفي كلم. واتصل هذا المستكشف بأمير

⁸⁸ - G. Fulcrand (Capitaine de génie), "Exploration de la baie d'Arguin", Paris, *Revue Maritime et Coloniale*, t.-I, mai 1861, pp. 495-510.
⁸⁹ - هانري فينصان (?-?)، لم نعثر خلال تنقيبنا في الأرشيفين الفرنسي والسنغالي على ملف خاص بهذا الضابط، كما أن مختلف المراجع والمصادر التي تحدثت عن رحلته لم تزودنا بأية معلومات حول حياته، راجع:

- ✓ Ancelle, **Les explorations au Sénégal**..., op.cit., pp. 118 et ss ;
- ✓ Chailley, **Les grandes missions** ..., op.cit., p. 108;-Gillier, **La pénétration**..., op.cit., pp. 76-79;
- ✓ Deschamps, **L'Europe découvre**..., op.cit., pp. 154- 155;
- ✓ Broc, **Dictionnaire illustré**..., op.cit., pp. 325-326.

⁹⁰ - منطقة سهلية تحدها تفلّى من الجنوب وأكثر من الغرب وأمسكه من الشمال والدخينه من الشرق. للمزيد من المعلومات، راجع امحمد بن أحمد يوره، *إخبار الأخبار بأخبار الآبار*، ترجمة بول مارتني، تحقيق أحمد ولد الحسن، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، 1992، ص. 124، ص. 44.

⁹¹ - منطقة فسيحة تقع في شمال البلاد الموريتانية وفي الصحراء الغربية وهي تمتد من اينال في الجنوب إلى الكرب في الشمال، تتخللها بعض الهضاب والكثبان والوهاد. انظر: محمد البيدالي، *نصوص من التاريخ الموريتاني*، مص. سا، ص. 120، إحالة رقم 24 من عمل المحقق.

الترارزه محمد الحبيب⁹² وبأمير آدرار ولد عيده⁹³ وبالعديد من القبائل الحسانية والزاوية والتابعين. كما زار سبخة اجل وأنجز إحدى أولى خرائط البلاد الموريتانية. غير أن أمير آدرار لم يكتف بمنع فينصان من دخول مدينتي أطار⁹⁴ عاصمة الإمارة وشنقيط العاصمة التاريخية للبلاد، بل احتجزه بضعة أيام مما حال دون مواصلة رحلته نحو مدينة تيشيت التاريخية والعودة إلى السنغال عن طريق تكانت فياكل فيودور فسين-لوي كما كان مقررا.⁹⁵ وقد نشرت رحلة فينصان بعد عودته بثلاثة أشهر تحت عنوان: *رحلة استكشافية داخل آدرار*⁹⁶. كما أعيد نشرها في السنة نفسها.⁹⁷

وتحدث فينصان في رحلته تلك عن أوضاع المنطقة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وتوقف خاصة عند مواردها الاقتصادية وإمكانيات التبادل التجاري معها

⁹² - هو محمد الحبيب بن أمير بن المختار: أمير الترارزه (1245-1277/1829-1860) يعتبر أعظم أمراء الترارزه إن لم يكن أعظم أمراء البلاد الموريتانية، فقد عرفت الإمارة في عهده توسعا مهما، إذ قاوم التوغل الفرنسي بالمنطقة فارضا نفوذا قويا على منطقة حوض النهر بما فيها الضفة اليسرى. هزمه الجنرال فيدرب سنة 1858 بعد حرب استمرت أربع سنوات استهدفت بسط النفوذ على المنطقة فأرغم على توقيع اتفاقية 20 مايو/أيار 1858 التي تعترف بالسيطرة الفرنسية على المنطقة.

⁹³ - هو أحمد بن سيد أحمد أمير آدرار المعروف بولد عيده نسبة إلى أمه أو ظنره، توفي سنة 1860/1277 وقد مثلت فترة حكمه مساهمة متميزة في توطيد إمارة أهل يحيى بن عثمان بأدرار. واعترافا بهذا الدور حمل أمراء هذه الإمارة من بعده لقبه (ولد عيده).

⁹⁴ - مدينة موريتانية تروي بعض الروايات أنها بنيت لأول مرة غربي البطحاء في أواخر القرن التاسع الهجري وهي الآن عاصمة ولاية آدرار الموريتانية. راجع: المختار بن حامد، الموسوعة، الجزء الجغرافي، مر. سا، ص. 207.

⁹⁵ - Vincent, "Voyage d'exploration ...", op.cit., p. 94.

⁹⁶ - Ibid

⁹⁷ - Vincent, "Voyage et expédition au Sénégal...", op.cit.

مؤكدًا: "أن إقامة مركز تجاري في أركين كفيل بأن يجتذب إلينا [يعني الفرنسيين في السنغال] نهائيا تجارة الجزء الغربي من الصحراء"⁹⁸.

وضمن الحملة المنسقة نفسها أرسل فيدرب الملازم الأول البحري دومنيك بورل⁹⁹ (Dominique Bourrel) إلى منطقة البراكنه للقيام بدراساتها ولتوطيد العلاقات والروابط التجارية والسياسية مع الإمارة البركنية. وبدأت رحلة ذلك الضابط يوم 12 يوليو/تموز لتنتهي في 14 من أكتوبر/تشرين الأول 1860 أي أنها استغرقت ثلاثة أشهر تجول خلالها في مختلف أنحاء منطقة البراكنه وزار خاصة بحيرة ألاك¹⁰⁰ والأودية المنحدرة من هضبة تكانت.

ونشرت رحلة هذا المستكشف تحت عنوان: *رحلة داخل بلاد بيضان البراكنه (الضفة اليمنى لنهر السنغال)*¹⁰¹. وضمن هذا المستكشف رحلته تلك معلومات مهمة عن منطقة البراكنه وعن سكانها وتاريخهم وأنشطتهم المختلفة.

⁹⁸ - Vincent, "Voyage d'exploration ...", op.cit., p. 93.

⁹⁹ - دومنيك بورل (1833- ?)، لم تتمكن من الحصول على المعلومات البيوغرافية الكافية حول هذا المستكشف لا في ملفه الخاص ولا في المراجع التي تحدثت عن رحلته وأهمها:

- ✓ Ancelle, **Les explorations...**, op.cit., pp. 162 et suivantes ;
- ✓ Gillier, **La pénétration...**, op.cit., p. 85 ;
- ✓ Deschamps, **L'Europe découvre...**, op.cit., p. 154 ;
- ✓ Broc, **Dictionnaire illustré...**, op.cit., p. 46.

¹⁰⁰ - بحيرة تقع في الوسط الجنوبي من البلاد الموريتانية على مقربة من مدينة ألاك العاصمة الحالية لولاية البراكنه.

¹⁰¹ - Bourrel, "Voyage dans le pays des Maures Brakna...", op.cit.

ومع أن الأمير البركني سيدي علي¹⁰² الذي تربطه إذ ذاك علاقات ودية مع الفرنسيين قد وفر لبورل ظروفًا طيبة فإن قيمة المعلومات التي عاد بها هذا المستكشف لم تسم إلى أهمية وتنوع المعلومات التي عاد بها الضابط فينصان من منطفة أدرار الموريتانية.

ولكي تتم تغطية بقية المجال البيضاني بعث الوالي فيدرب مستكشفا إلى المناطق الواقعة بالشرق الموريتاني هو الملازم علي صل¹⁰³ (Alioune Sall)، وهو سنغالي انخرط في الجيش الفرنسي واندمج بكل معاني الكلمة في خدمة الفرنسيين بالسنغال مكرسا حياته لخدمتهم مما جعلهم يعتبرونه فرنسيا كباقي الفرنسيين. وقد غادر علي صل سين-لوي في يوليو/تموز سنة 1860 ليعود إليها في أكتوبر/تشرين الأول 1862⁽¹⁰⁴⁾ بعد رحلة استغرقت ثمانية وعشرين شهرا.

وكما كان المستكشف ليوبولد بانى وهو سنغالي/فرنسي قد اختتم المرحلة الأولى (مرحلة المحاولات الفردية المعزولة) فإن سنغاليا آخر كان آخر مستكشفي المرحلة الثانية وهو ابن المقداد¹⁰⁵.

¹⁰² - سيدي علي الثاني بن أحمد الأول أمير البراكنه من (1275-1311/1858-1893) كانت علاقته طيبة على العموم بالفرنسيين الذين أيده ضد إدوعيش وأغروه بالتدخل لصالح حليفهم أمير الترارزه أحمد سالم بن علي ضد عمه ومناقسه على كرسي الإمارة أعمر سالم بن محمد الحبيب.

¹⁰³ - لنا عودة إلى هذا المستكشف في الفصل الموالي من هذا العمل.

¹⁰⁴ - Broc, **Dictionnaire illustré**..., op.cit., p. 2.

¹⁰⁵ - هو الحاج المختار بن المقداد (?-1882)، وحوله تمكن مراجعة:

- ✓ Bou El Mogdad, Voyage de Bou El Mogdad à travers le Sahara, ANFCAOM, Série: Géographique: Afrique, Sénégal et Dépendances-III/8, 1861, 13 p.;
- ✓ Chailley, **Les grandes missions françaises**, op.cit., p.103 ;
- ✓ Deschamps, **L'Europe découvre**..., op.cit., p. 155 ;

وقد قضى ابن المقداد، وهو سنغالي مسلم، فترة من بداية حياته في منطقة الترازه بالجنوب الغربي الموريتاني ليتعلم العربية ومبادئ الدين الإسلامي. وعند رجوعه إلى سين-لوي أصبح مساعدا لقاضي تلك المدينة ثم مترجما رئيسا لدى الإدارة الفرنسية في السنغال التي تفتنت للمكانة المهمة التي تحظى بها أسرة ابن المقداد عند السنغاليين والموريتانيين معا، فمنحتها عناية خاصة¹⁰⁶ واعتمدتها جسرا للاتصال مع السكان المحليين ومع البيضان أيضا. وفي هذا النطاق رافق ابن المقداد الضابط فينصان خلال رحلته إلى آدرار سنة 1860. كما قام هو نفسه سنة 1861 برحلة عبر البلاد الموريتانية استهدفت الربط بين السنغال والمغرب وجمع ما أمكن من معلومات عن طرق ومسالك المنطقة وإمكانياتها التجارية وبضائعها المتجهة نحو الشمال.¹⁰⁷

-
- ✓ Ancelle, **Les explorations au Sénégal...**, op.cit., pp.143 et ss ;
 - ✓ Mohamedou Ould Mohameden, "Les tentatives de pénétration française dans le Pays Maure à travers le rapport de mission de Bou El Mogdad en 1894 au Tagant", Maçadir, Cahier des sources de l'histoire de la Mauritanie, n°1, Universités de Provence et de Nouakchott, Aix-en-Provence, 1994, pp. 79-99, p. 80.

¹⁰⁶ - عندما توفي ابن المقداد سنة 1882 عينت الإدارة الفرنسية ابنه عبد الله سك مترجما محله. وفور اغتيال هذا الأخير سنة 1887 شغل أخوه دود سك ذلك المنصب وشارك في العديد من المهمات الاستطلاعية داخل موريتانيا. راجع مقالنا: "ابن المقداد ومهمته في تكانت"، *حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية*، جامعة نواكشوط، العدد 5، نواكشوط، 1996، صص. 86-121، صص. 89-88.

¹⁰⁷ - ANFCAOM, Série: Missions: Carton 113: Projet de voyage entre le Sénégal et l'Algérie, 1860, 3 p., p. 1, (dossier Bou El Mogdad).

ولا نستبعد أن تكون معاملة البيضان للمستكشفين فينصان وماج اللذين تعرضا للنهب ومنعا من دخول المدن الموريتانية (أطار وشنقيط بالنسبة لفينصان وتجكجه¹⁰⁸ وتيشيت بالنسبة لماج)، قد جعلت الجنرال فيدرب يختار ابن المقداد السنغالي المسلم الذي يتقن العربية وتربطه علاقات طيبة مع البيضان، ليستطيع من خلاله الحصول على المعلومات التي عجز ضابطاه عن جمعها وخاصة منها تلك المتعلقة بالمدن التجارية الموريتانية وعلاقتها مع المغرب والسودان الغربي.

وقد غادر ابن المقداد سين-لوي يوم 10 ديسمبر/كانون الأول سنة 1860 صحبة قافلة متجهة إلى أدرار وهو في طريقه إلى المغرب فالحجاز لتأدية فريضة الحج بعد أن منح مؤونة تكفيه لمدة شهرين. وقد بذل الجنرال فيدرب قصارى جهده ليساعد ابن المقداد على القيام بهذه المهمة المزدوجة والتي ستمكنه، من جهة، من اجتياز الصحراء لجمع معلومات قد تفيد الفرنسيين، كما أنها ستساعده، من جهة أخرى، على الحج، وبالتالي على حمل لقب الحاج لموازنة نفوذ بعض رجال الدين من أمثال الحاج عمر الفوتي¹⁰⁹ الذين يعارضون الوجود الفرنسي بالمنطقة ويدعون إلى الحرب المقدسة ضد الفرنسيين.¹¹⁰

108 - مدينة تقع على ضفة بطحاء وادي تجكجه بتكانت، أسستها مجموعة من قبيلة إدو علي عند خروجهم من شنقيط سنة 1070هـ/1659-1660م. وهذه المدينة أصبحت قاعدة إقليم تكانت مع تضاول إشعاع مدينة تيشيت، وهي الآن العاصمة الإدارية لولاية تكانت. راجع: ✓ سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم، **صحيحة النقل في علوية إدو علي وبكرية محمد قل،** ترجمة وتحقيق نوريس في:

✓ Norris, "The history of Shinqit...", op.cit.

✓ مجهول، **حوليات تجكجة،** تحقيق عائشة بنت ديدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط، 1990، 67 ص.

109 - هو الشيخ عمر بن سعيد تال الفوتي مجاهد وصوفي خلف شيخه محمد الغالي أبا عبد الله الشريف الحسني المغربي في الطريقة التجانية. قاد الحاج عمر جهادا دؤوبا لإقامة دولة إسلامية في فوتا ولتوحيد السودان الغربي ضد الاستعمار الأوروبي. وقد توفي سنة 1280هـ/1864 وهو يكافح لتحقيق أهدافه تلك. راجع عنه:

وقد عبر ابن المقداد منطقة الترارزه مارا بالعديد من قبائلها والتقى بأمرها الجديد سيدي بن محمد الحبيب¹¹¹ الذي خلف أباه بعد أن اغتيل قبل ذلك ببضعة أشهر.¹¹²

وبما أن الأوضاع مضطربة وقتها في آدرار إثر مقتل الأمير أحمد ولد عيده وصراع أبنائه على خلافته، فقد اضطر ابن المقداد والقافلة المرافقة له إلى العدول عن التوجه إلى مدينة أطار وهضبة آدرار كما كان مقررا، فساروا نحو منطقة تيرس ليتابع منها ابن المقداد رحلته إلى المغرب حيث وصل الصويرة (موكادور) يوم 6 مارس/آذار 1861. وقد نشرت رحلة ابن المقداد وهي آخر رحلات هذه المرحلة بعد ذلك بشهرين تحت عنوان: *رحلة برية بين السنغال والمغرب*¹¹³.

وإذا قارنا هذه المرحلة بسابقتها اتضح لنا حدوث بعض التطور في عملية اكتشاف البلاد الموريتانية، فقد تم الانتقال من زيارة المناطق الهامشية (على ضفاف

-
- ✓ David Robinson, **La guerre sainte d'al-Hajj Umar. Le Soudan occidental au milieu du XIXe siècle**, Paris, Karthala, 1988, 413 p.
 - ✓ Yves-J. Saint-Martin, **L'Empire toucouleur (1848-1897)**, Paris, le Livre Africain, 1970, 192 p.

¹¹⁰ - Gillier, **La pénétration...**, op.cit., p. 80.

¹¹¹ - سيدي بن محمد الحبيب أمير الترارزه (1871-1860/1288-1277) خلف أباه بعد أن أخذ ثأره، تمكن من المحافظة على نوع من الاستقرار والسلم كما حاول مقاومة النفوذ الفرنسي في المنطقة، راجع:

Marty, **L'Emirat des Trarza**, op.cit., pp. 123-124.

¹¹² - كان ابن المقداد قد التقى بالأمير التروزي محمد الحبيب قبل اغتياله بفترة وجيزة عندما مر بالترارزه خلال مارس/آذار 1860 صحبة المستكشف فينصان السابق الذكر.

¹¹³ - Bou El Mogdad, "Voyage par terre entre le Sénégal et le Maroc", Paris, *Revue Maritime et Coloniale*, 1er semestre, mai 1861, pp. 477-494.

النهر أساسا) إلى اكتشاف المناطق الداخلية والتوغل فيها مسافات بعيدة نسبيا وعبر مسالك متعددة.

وقد أسفرت هذه الحملة عن جمع بعض المعلومات المهمة عن البلاد الموريتانية وسكانها، فضلا عن رسم بعض الخرائط الجزئية¹¹⁴ لهذه البلاد. كما تحول الاهتمام بالتجارة من هاجس ثانوي إلى هم مركزي، فمسالك وطرق التجارة والمدن التجارية الموريتانية والإمكانيات التجارية لمختلف أنحاء البلاد والتبادل التجاري بينها وبين جيرانها الشماليين (المغرب والجزائر)، وبينها وبلاد السودان، كانت الشغل الشاغل لمستكشفي هذه المرحلة وحجر الزاوية في التعليمات التي تلقوها من الإدارة الفرنسية في السنغال قبل مغادرتهم لمركز سين-لوي.

وقد تجاوز الأمر الاهتمام بالتجارة إلى العناية بالظروف السياسية للبلاد الموريتانية التي بدأ التفكير في إخضاعها يبرز إلى الوجود تحضيرا وضمانا للربط بين المستعمرتين الفرنسيتين الشمالية (الجزائر) والجنوبية (السنغال). يقول فيفيين دو سينمريتين بهذا الخصوص: "لقد أصبحنا أصحاب الأمر والنهي في الجزائر والسنغال. وإذا نجحت جهودنا الحالية الهادفة إلى ربط هاتين المستعمرتين المهمتين بطريق آمن ودائم سيصبح كل شمال غربي إفريقيا في قبضتنا"¹¹⁵.

ولئن كان المستكشفون المدنيون (المغامرون) قد سيطروا خلال المرحلة الأولى، فإن مكتشفي هذه المرحلة باستثناء ابن المقداد هم ضباط عسكريون، لذلك فاككتشافاتهم جاءت تنفيذا لأوامر عسكرية وسياسية تلقوها من قادتهم، فهي استطلاعات عسكرية تنتزل في إطار الاستكشافات المأمورية وليست بالدرجة الأولى استجابة لرغبات شخصية.

¹¹⁴ - نشير على الخصوص إلى خرائط ماج، فينسان وبورل.

¹¹⁵ - Vivien de Saint-Martin, "Le Sénégal...", op.cit. , pp. 95- 96.

ورغم هذا التطور الحاصل في اكتشاف البلاد الموريتانية فإن "القفزة المنسقة" هذه لم تسفر عن النتائج التي توخاها منها الجنرال فيدرب، فالمدن الموريتانية التجارية بقيت موصدة أمام المستكشفين الفرنسيين، إذا استثنينا مرور باني بمدينة شنقيط وزيارة علي صل لمدينة ولاته. غير أن السماح لهذين المكتشفين بدخول المدينتين ربما يكون متأتيا من كون الأول وإن كان سنغاليا/فرنسيا (هجيناً) قد تظاهر بأنه مسلم منحدر من أصول تركية ومن أن الثاني كان بالفعل سنغاليا مسلماً.

كما أن الاتفاقيات التجارية التي كان فيدرب يطمح إلى أن يوقعها المستكشفون مع بعض الأمراء وزعماء القبائل البيضانية¹¹⁶ بهدف جذب التجارة البيضانية المتجهة إلى الشمال نحو السنغال لم يكتب لها أن ترى النور حينئذ.

ولم تسفر هذه الحملة أيضاً عن ربط السنغال بالجزائر، ذلك الربط الذي بدأ التخطيط له منذ نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر مع رحلة ليو ولد باني، وهو الربط الذي يستخلص ماج "أن تحقيقه الآن [1860] عن طريق بلاد البيضان مسألة تكاد تكون مستحيلة"¹¹⁷.

وبعد سنة 1861 توقفت الاكتشافات الفرنسية داخل المجال الموريتاني لمدة عقدين من الزمن. ويعود هذا التوقف الذي لم يقتصر على البلاد الموريتانية، بل شمل العديد من المناطق الإفريقية الأخرى، إلى أن الإمبراطورية الفرنسية الثانية قد بدأت تأخذ طريقها نحو الإنحطاط فبات اكتشاف المناطق المجهولة والمنعزلة من إفريقيا مسألة ثانوية مقارنة مع إنقاذ عرش نابليون الثالث من الإنهيار والسقوط في وقت بدأت فيه جارتا فرنسا (ألمانيا وإيطاليا) تتجزان وحدتيهما الترابيتين مع ما يمثل ذلك من مخاطر وتهديدات لفرنسا.

¹¹⁶ - شكلت تلك الاتفاقيات محور توجيهات الجنرال فيدرب لمختلف مستكشفي مرحلة "القفزة المنسقة" هذه.

¹¹⁷ - Mage, "Voyage au Tagant...", op.cit., p.

وكان ظهور بسمارك (Bismarck) وتزعمه لمسار توحيد ألمانيا من أهم العوامل التي عجلت باضمحلال نظام نابليون الثالث في فرنسا. فقد قاد ذلك المسار إلى اندلاع الحرب البروسية الفرنسية سنة 1870 تلك الحرب التي انتهت سنة 1871 بهزيمة فرنسا هزيمة شنعاء وإعلان بسمارك للإمبراطورية الألمانية. وجراء ذلك أصبح بسمارك مصدر قلق لمختلف الدول الأوروبية "ففي كل هذه الدول أصبحت مشكلة العلاقات مع الإمبراطورية الألمانية مركز اهتمامات الحكام فالجميع يرقب [يخشى] بسمارك"¹¹⁸.

ونتيجة لهزيمة فرنسا تلك، فقد احتل الألمان بعض أراضيها وفرضوا عليها تعويضات مالية تبلغ 5 مليارات فرنك¹¹⁹. كما عرفت أوضاعها الداخلية موجة من الاضطرابات والفوضى وانعكس ذلك على مستعمراتها في إفريقيا فتوقفت موجة اكتشافات تلك القارة، وهي الموجة التي كان يغذيها ويوجهها الجنرال فيدربر في منطقة السنغامبيا والبلاد الموريتانية، والتي كانت تتجه صوب مجاري نهري السنغال والنيجر ونحو الصحراء الموريتانية.

ولن يستأنف الفرنسيون اكتشافاتهم تلك في المنطقة إلا مع مطلع الثمانينيات عندما عين بريير دو ليل¹²⁰ (Brière De L'Isle) واليا على السنغال وهو واحد من

¹¹⁸ - Pierre Renouvin, **Histoire des relations internationales: le XIXème siècle, de 1871 à 1914: l'apogée de l'Europe**, Paris, Hachette, 1959, t.-VI, 402 p., p. 26.

¹¹⁹ - Jean-Baptiste Duroselle, **L'Europe de 1815 nos jours: vie politique et relations internationales**, Paris, Nouvelle Clio, PUF, 1988, 419 p, p. 138.

¹²⁰ - بريير دو ليل (1827-1896)، بعد تخرجه من سين-سير (Saint-Cyr) شغل وظائف عديدة في الجيش الفرنسي قبل أن يعين في منصب الوالي العام على السنغال من 1876 إلى 1881. راجع حوله:

Anonyme, **Hommes et destins...**, op.cit., t.-IV, 1981, pp. 130-133 .

أقوى خلفاء الجنرال فيدر ب. وسيعمل هذا الوالي الجديد عبر مرحلة جديدة على استئناف حركة الكشوفات الجغرافية داخل الصحراء الموريتانية وفي منطقة السودان الغربي على العموم.

ج. مرحلة الاكتشافات "المتخصصة" (1880-1909)

تمتد هذه المرحلة على مدى ثلاثة عقود من الزمن أي من 1880 تاريخ استئناف الاكتشافات عبر المجال الموريتاني إلى سنة 1909 وهو التاريخ الذي اعتبرناه حداً لنهاية فترتنا المدروسة.

وتختلف هذه المرحلة عن سابقتها ب بروز الطابع السياسي جلياً جراء السياسة الجديدة للدولة الاستعمارية الأوروبية. يقول مونوار: "إن المكتشفين اليوم لم يعودوا أولئك الرحالين الذين يجوبون العالم تدفعهم المغامرة بهدف اجتياز الكثير من البقاع والمرور بأماكن لم تطأها أقدام قبلهم. فمجهوداتهم الآن تنحصر في هدف واحد ألا وهو التركيز على دراسة هذه المنطقة أو تلك من بقاع الأرض بحكم ارتباطها بمصالح الدولة التي ينتمون إليها [خط التشديد منا]"¹²¹.

وهكذا فابتداءً من الربع الأخير من القرن التاسع عشر ارتبطت الاكتشافات بالسياسة وأصبحت مكرسة تقريباً لخدمة الأغراض السياسية للدولة المعنية مما يحد من موضوعيتها وقيمتها التاريخية. "فبقدر ما أصبحت الاكتشافات منذ سنة 1870 أكثر علمية برزت كذلك نزعتها القومية وأصبحت أقل موضوعية ما دامت تسبق في غالب الأحيان الاستيلاء على المستعمرات"¹²².

¹²¹ - Charles Maunoir et H. Duveyrier, "Revue géographique 1888", Paris, *Tour du Monde*, t.-I, 1er semestre, 1888, pp. 417- 424, p. 417.

¹²² - Noma Broc, "Les explorateurs français...", op.cit., p. 239.

ولئن جرت الاكتشافات بوتيرة بطيئة جدا خلال المرحلة الأولى (خمسة مكتشفين طوال نصف قرن من الزمان)، وسريعة جدا أثناء المرحلة الثانية (ستة مكتشفين خلال أربع سنوات)، فإن اكتشافات هذه المرحلة قد توزعت بشكل متساو تقريبا على مدى الثلاثين سنة حيث نجد ثلاثة مكتشفين خلال العقد الأول من هذه الفترة هم بول صوليبي (Paul Soleillet)، وشارل صولير (Charles Soller) وكامي دولس (Camille Douls)، ومستكشفين اثنين خلال العقد الثاني هما ليون فابير (Léon Fabert) وكاستون دوني (Gaston Donnet)، وثلاثة مستكشفين في العقد الأخير منها وهم بول بلانشي (Paul Blanchet)، ورني شودو (René Chudeau) وأبل كروفل (Abel Gruvel).

وتبدأ هذه المرحلة في مطلع سنة 1880 برحلة قام بها بول صوليبي¹²³ وهو كما سنرى من الرحالين المتمرسين الذين شغفوا منذ صغرهم بالتنقل والترحال. وتكتسي هذه الرحلة¹²⁴ أهمية خاصة بالنسبة لنا فهي تمثل تقاطعا وتزاوجا بين نمطين من الرحلات إذ تأتي تلبية لرغبة شخصية في التنقل والترحال وهي من هذه الزاوية رحلة "اختيارية" غير أنها في الوقت نفسه تمثل انصياعا لمهمة رسمية كلفت بها الحكومة الفرنسية ذلك الرحالة. ومن هذا المنطلق يمكن اعتبارها أيضا من الرحلات "المأمورية".

أما ثاني مستكشفي هذه المرحلة فهو صولير¹²⁵ وهو مختص بالشؤون الصحراوية. ويبدو من خلال ملفه الأرشيفي¹²⁶ أنه أقام فترة من الزمن في المغرب الأقصى وشغل وظيفة مراسل جريدة الزمن (Le Temps) الفرنسية.

123 - سنتحدث عن حياة هذا الرحالة بالتفصيل في الفصل الموالي من هذا العمل.

124 - سنعود إلى هذه الرحلة في أماكن متعددة من هذا العمل.

125 - رغم تنقيبنا في الأرشيفين الفرنسي والسنغالي لم نتمكن من معرفة تاريخ ميلاد أو وفاة هذا المستكشف الذي اعتمدنا على المراجع التالية بشأنه:

وكان صولير عضوا في المجلس الأعلى للمستعمرات. وقد شغلت قضايا مصائد السمك بالمناطق الساحلية المغربية والموريتانية والسنغالية اهتمامه أكثر من غيرها.

وفي مطلع سنة 1887 كلفته الحكومة الفرنسية بمهمة استكشافية في الجنوب المغربي وعلى السواحل الأطلسية الموريتانية فزار على الخصوص الرأس الأبيض وخليج وجزر آرकिन وتيدره وكيجي¹²⁷.

وقام صولير في السنة الموالية بمهمة في السنغال¹²⁸ قادته أيضا إلى السواحل الموريتانية واستهدفت، هي الأخرى، دراسة الموارد الاقتصادية للمنطقة وإمكاناتها التجارية.

وتتضمن تقارير صولير عن مهماته تلك ومدخلته أمام الجمعية الجغرافية والتجارية الباريسية بعنوان: *قوافل السودان الغربي ومصائد سمك آرकिन*¹²⁹ معلومات

-
- ✓ **Mission de M. Soller en 1888 au Sénégal, en Adrar, pays des Maures, pour établir des relations commerciales avec le Maroc et le Sahara Occidental.**, 13 p., ANFCAOM, Série Missions, Carton 18
 - ✓ **Mission accordée à Soller pour aller au Sénégal et dans l'Adrar.**, ANFCAOM, Série géographique: Afrique, Sén. et Dép.-III-10, 2 p
 - ✓ Charles Soller, "Les caravanes du Soudan occidental et les pêcheries d'Arguin", Paris, *Bulletin de la société de géographie commerciale de Paris*, t.-X, n° 3, 1888, pp. 280-287.
 - ✓ Broc, **Dictionnaire illustré**..., op.cit., p. 305.

¹²⁶ - Mission accordée Soller ..., op.cit.

¹²⁷ - مجموعة جزر بالساحل الأطلسي الموريتاني.

¹²⁸ - Mission de Soller..., op.cit.

¹²⁹ - Soller, "Les caravanes du Soudan...", op.cit.

مهمة عن المنطقة. وقد ركز صولير في المداخلة المذكورة على جزيرة أركين وأهميتها الاقتصادية والروابط التجارية التي ارتأت ضرورة إقامتها بين تلك المنطقة والسودان الغربي، وذلك بهدف تغيير وجهة القوافل التجارية المسافرة من أدرار وتنبتو إلى الجنوب المغربي ثم جذبها إلى جزيرة أركين خدمة للمصالح التجارية الفرنسية.¹³⁰

ويعتبر صولير من أوائل من تظن من الفرنسيين للثروة السمكية الهائلة للمنطقة فاقترح ضرورة استغلالها.¹³¹ يقول هذا المستكشف متحدثاً عن مزايا جزيرة أركين والثروة السمكية في المنطقة: "ميزة أخيرة تمتاز بها أركين تتمثل في كونها مهياة لأن تصبح مركزاً رئيسياً آمناً ومناسباً لاستغلال الصيد في منطقة من أشرى مناطق العالم سمكا"¹³².

ويأتي في الرتبة الثالثة من مرحلة الاكتشافات المتخصصة هذه، المستكشف كامى دولس¹³³ (Camille Douls) الذي اهتم بالأسفار منذ صباه.

¹³⁰ - Ibid , pp. 286-287.

¹³¹ - Ibid, op.cit., p. 287.

¹³² - Idem

¹³³ - كامى دولس (1864-1889)، بخصوص حياة ورحلات هذا المستكشف تمكن مراجعة:

✓ Camille Douls,

○ "*Voyages d'exploration travers le Sahara Occidental et le Sud Marocain*", Paris, Bulletin de la société de géographie de Paris, t.-IX, 1888, pp. 437-479.

○ "*Cinq mois chez les Maures nomades du Sahara Occidental*", Paris, Tour du Monde, t.-I., 1888, pp. 117-224 .

✓ Prevost, **Dictionnaire**..., op.cit., t. XI, 1967, pp. 678-679.

✓ Broc, **Dictionnaire illustré**..., op.cit., p. 114-115.

وتسهيلا لزيارة الصحراء الكبرى واكتشاف مجاهلها، قضى دولس فترة من الوقت في الجزائر لتعلم بعض مبادئ الإسلام واللغة العربية. وبما أن محاولات الوصول إلى هذه الصحراء عن طريق الجنوب المغربي والجزائري قد باءت كلها بالفشل، مثل محاولات دخولها من السنغال، فقد ارتأى هذا الرحالة المغامر أن يدخلها من السواحل الأطلسية، فاتجه في ديسمبر/كانون الأول 1886 إلى جزر الكناري بحثا عن سفينة تنزله مقابل الساحل الصحراوي. وبعد صعوبات جمة نجح دولس في إيجاد سفينة تقبل إنزاله بالسواحل الموريتانية حيث تعرض للنهب والتعذيب من قبل جماعة من قبيلة أولاد دليم أوشكت أن تقتله. إلا أن ترديده آيات قرآنية وادعاه بأنه مسلم من أصول جزائرية، قد أنقذا حياته.

ومع ذلك فقد بقي موضع ريبة أولئك البيضان الذين عرضوه على الشيخ ماء العينين¹³⁴. وبعد أن حفظ دولس الفاتحة وكتب اسمه بالعربية أمام هذا الشيخ، أمر هذا الأخير بفك القيد عنه وبأن يعاد إليه ما اغتصب من أمتعه.¹³⁵ ويعتبر دولس من المستكشفين القلائل الذين نجحوا نسبيا في الاندماج ببيضان الصحراء الغربية إلى درجة أن سيده¹³⁶ قبل أن يزوجه إحدى بناته فانتهم دولس هذا القبول، متذرا بالسفر إلى تركيا بحثا عن مهر خطيبته¹³⁷ وذلك ليتمكن من مغادرة المنطقة حيث استطاع الوصول إلى مراكش عن طريق الزمور والساقية الحمراء بعد الكثير من المعاناة.

¹³⁴ - هو الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن مامين القلومي (1830-1910) أحد أقطاب الطريقة القادرية، جاهد باستماتة ضد التوغل الفرنسي في المنطقة، ترك العديد من التأليف في مواضيع مختلفة.

¹³⁵ - Douls, "Cinq mois chez les Maures...", op.cit., p. 204.

¹³⁶ - كانت بعض المجموعات البيضاء تستعبد الأسرى الفرنسيين.

¹³⁷ - Douls, "Voyages d'exploration..." op.cit., p. 463.

وفي سنة 1888 كلف دولس بمهمة رسمية تتمثل في ربط مراكش بتنكيكو عن طريق توات وتافاللت. غير أن أدلاءه من الطوارق اغتالوه في فبراير/شباط سنة 1889 قبل أن يكمل مهمته تلك، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة. ورغم أن غالبية تجوال هذا المستكشف تركزت في الصحراء الغربية والجنوب المغربي، إلا أنه زار هوامش المجال الموريتاني وخاصة منطقتي تيرس وأدرار، فزودنا بمعلومات متنوعة لا تخلو من دقة عن المنطقة وسكانها، واصفا رحيل مخيمات البيضان وثرواتهم وطرق معيشتهم فضلا عن وسائل الزينة والألعاب والتسلية عندهم.¹³⁸

وإذا كان العقد قبل الأخير من القرن قد عرف مجيء الرحالتين صوليبي وصولير وهما مهتمان بالشؤون الصحراوية والقضايا التجارية بالإضافة إلى دولس، فإن البلاد الموريتانية استقبلت خلال العقد الأخير من القرن مكتشفين اثنين وهما الصحافيان ليون فايبر و استون دون ي، فكان هذا العقد إذن وربما صدفة عقد الصحافيين.

أما الصحافي/المكتشف الأول فهو ليون فايبر¹³⁹ (Léon Fabert). وكان صحفيا في جريدة لو فيكارو (Le Figaro). وقد زار الجنوب الغربي الموريتاني عدة

¹³⁸ - Douls, " Cinq mois...", op.cit., p. 205.

¹³⁹ - ليون فايبر (1848-1896)، وحوله يمكن الرجوع إلى:

- ✓ Léon Fabert ,
 - Missions dans le pays des Maures (1889-1892), ANFCAOM, Série Missions, Carton 3,
 - Note sur une mission l'Ile et au Banc d'Arguin., 18 janvier 1889, 1801-1889, ANFCAOM, Série Missions, Carton 3, 7 p.,
 - Rapport de mission d'exploration au Sahara occidental (Adrar 1891), 10 juin 1892, Carton 4, 18 p.,

مرات في نهاية القرن التاسع عشر مكلفا من طرف السلطات الفرنسية بدراسة تلك المنطقة في نطاق تحضير بسط السيطرة الفرنسية عليها بشكل تدريجي. وكان فابير قد أرسل إلى المنطقة للمرة الأولى سنة 1889 للقيام بمهمة في السواحل الجنوبية الغربية الموريتانية بمحاذاة الترارزه. وقد قادته تلك المهمة على الخصوص إلى منطقة حوض آركين فأكد على أهمية الثروة السمكية للمنطقة وعلى المزايا التي ستمنحها للفرنسيين عند استغلالها.¹⁴⁰ ويعدد هذا المستكشف¹⁴¹ ميزات حوض وجزيرة آركين وهي:

- ✓ سهولة رسو السفن
- ✓ كثرة السمك
- ✓ توفر السباخ لمعالجة السمك.

وابتداء من سنة 1891 عاد هذا المستكشف إلى المنطقة للقيام برحلات داخل البلاد الموريتانية فتمكن من عبور مناطق الترارزه وإينشيري وزيارة بعض أجزاء أدرار.

وقضى فابير ستة أشهر متجولا عبر الصحراء الموريتانية لي ضمن رحلته التي نشرت تحت عنوان: "رحلة داخل بلاد الترارزه والصحراء الغربية"¹⁴² بعض المعلومات عن سكان المنطقة وتضاريسها. وقد ركز هذا المستكشف خاصة على الأهمية السياسية والعسكرية والدينية لمنطقة أدرار الموريتانية¹⁴³ حيث أجرى اتصالات مع الشيخ سعد بوه¹⁴⁴ مكنته من

○ Note, Série géographique: Sénégal et Dép.-III/13, 2 p.,

✓ Prevost, **Dictionnaire**..., op.cit., t.-XIII, 1975, 368-369;

✓ Broc, **Dictionnaire illustré**..., op.cit., p. 137.

¹⁴⁰ - Fabert, Note sur une mission..., op.cit.

¹⁴¹ - Ibid..., op.cit., p.5.

¹⁴² - Fabert, "Voyage dans le pays des Trarza et dans le Sahara Occidental", BSGP, t.-XIII., 1892, pp. 375-392.

الحصول على موافقة أمير آدرار أحمد بن سيدي أحمد ولد عيده¹⁴⁵ على توقيع اتفاقية تعاون مع الفرنسيين.¹⁴⁶

ومن جهة أخرى فقد ألح فابير على ضرورة تمركز فرنسي قوي وسريع على الشاطئ الأطلسي الموريتاني وذلك لإفصال المحاولات الإسبانية في وادي الذهب والبريطانية في الطرفاية (رأس جيبي).¹⁴⁷ ويكاد هذا الرحالة يمثل الاستثناء الذي يؤكد القاعدة؛ ذلك أنه كان المستكشف الفرنسي الوحيد الذي زار البلاد أثناء القرن التاسع عشر دون أن يتعرض للنهب.

وأما الصحفي المستكشف الثاني فهو كاستون دوني¹⁴⁸ (Gaston Donnet) الذي امتهن الصحافة سنة 1885 ولما يتجاوز الثامنة عشرة من العمر، ليختص في

¹⁴³ - Fabert, Rapport de mission, 10 juin 1892, 18 p.

¹⁴⁴ - الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل بن مامين القلبي (ت. سنة 1917)، من أعيان البلاد الموريتانية، وأحد أبرز مشايخ الطريقة القادرية. تجاوز نفوذه موريتانيا حيث يوجد له أتباع كثر في غرب إفريقيا، خاصة في السنغال.

¹⁴⁵ - هو أحمد بن سيدي أحمد بن أحمد بن سيدي أحمد بن عيده الذي شغل منصب أمير آدرار سنة 1891 حتى وفاته سنة 1898 عندما سقطت عليه داره حيث كان خصومه من أولاد غيلان يحاصرونه. وقد امتازت مدة حكمه بالكثير من الاضطرابات الداخلية إلى حد جعل أمدمو مامادو با يلقبه بأمير الحرب، راجع:

A. M. BA, "Un émir de la guerre en Adrar: Ahmed Ould Sid Ahmed (1891-1899)", Paris, *Renseignements Coloniaux*, n°10, 1930, pp. 589-594.

¹⁴⁶ - *Projet de traité entre la France et l'Adrar*, ANFCAOM: Série: mission-4, 4 pièces.

¹⁴⁷ - Fabert, "Voyage dans le pays des Trarza...", op.cit., p.

¹⁴⁸ - كاستون دوني (1867-1908)، راجع حول هذا الرحالة فضلا عن رحلته المشار إليها:

✓ Gaston Donnet :

مجال الريبورتاجات الاستعمارية. وبالإضافة إلى رحلته عبر الصحراء الموريتانية سنة 1894 قام دوني سنة 1899 برحلة داخل الصين. وفي مطلع هذا القرن تجول في دول عديدة من أمريكا اللاتينية.

وقد كلفته وزارتا المستعمرات والتربية سنة 1893 بالقيام بمهمة في الصحراء تستهدف دراسة وسائل وطرق الدخول إلى الصحراء الموريتانية. وقبل أن يتوجه إلى سين-لوي بالسنغال التي سيبدأ منها رحلته في اتجاه المغرب عبر آدرار تابع دوني دروسا خاصة في مركز تابع لمتحف تاريخ العلوم الطبيعية.

ويقوم هذا المركز الذي دشن في 25 إبريل/نيسان 1893 بتقديم دروس مكثفة ومعقدة لصالح الأشخاص الراغبين في القيام برحلات أو اكتشافات جغرافية، أو أولئك الذين سيرسلون في مهمات من هذا النوع بغية تحضيرهم لتلك المهمات الاستكشافية.

وكان مقررا أن يجتاز دوني في تلك الرحلة منطقة الترازه ويتعرف على آدرار ويتجول في المراكز الإسبانية بوادي الذهب ثم يتوجه بعد ذلك إلى تيندوف ووادي درعه. وهو برنامج طموح على ما يبدو آنذاك.

وقد غادر دوني مركز سين-لوي في إبريل 1894 فمر بمنطقة الترازه التي نصحه أميرها أحمد سالم بن علي بن محمد الحبيب¹⁴⁹ بانتظار الشتاء للالتحاق بإحدى القوافل التجارية المتجهة إلى وادي الذهب. غير أن هذا المستكشف أصر على

○ Projet de voyage au Sahara, ANFCAOM., Série géographique, Afrique III-18e, 3 p.,

○ Rapport de voyage, Afrique III-25 d, 11 p.,

✓ Broc, **Dictionnaire illustré**..., op.cit., pp. 112-113.

¹⁴⁹ - أحمد سالم بن علي بن محمد الحبيب: أحد أمراء الترازه، خاض صراعا مع عمه أمير سالم بن محمد الحبيب للفوز بالإمارة وتمكن بفضل دعم الفرنسيين له من انتزاع كرسي الإمارة من عمه سنة 1891 والاحتفاظ بها إلى وفاته سنة 1905.

مواصلة الرحلة صحبة زميله الفرنسي هانري بونيفال¹⁵⁰ (Henri Bonnival) ومرافقيهما الخمسة.

وعند ما وصل إلى بورتانديك أرغم على ترك جماله واللجوء إلى المحيط ليعبر بعض المسافة في قارب تهربا من نهب القبائل البيضانية.

وقد زار الرحالة منطقة آرين ومراكز الصيد التقليدي فيها. وهناك أعاد من جديد تنظيم قافلته وواصل رحلته البرية بيد أنه تعرض للنهب ففقل راجعا إلى سين-لوي التي وصلها في يوليو/تموز 1894 بعد ما عاناه من مرض وجوع وإعياء.

ولئن حاول دوني في رحلته التي نشرت تحت عنوان: "مهمة في الصحراء الغربية، من السنغال إلى تيرس"¹⁵¹ إبراز العناية بالأوضاع الطبيعية للمنطقة وسكانها فإن حجر الزاوية في اهتماماته كان إظهار المخاطر التي يمثلها الوجود الإسباني في وادي الذهب والإنجليزي في الجنوب المغربي على المصالح الفرنسية بالمنطقة.

وقد أكد دوني كما فعل نظيره وسلفه فايبر على ضرورة الإسراع "ببسط النفوذ الفرنسي على الشاطئ الموريتاني لنحول إليه [كما يقول] دون كبير عناء الثروات الطبيعية التي تنتجها الواحات الكبرى"¹⁵².

والظاهر أن القيمة العلمية لرحلة دوني محدودة جدا. فرغم محاولاته وضع حدود لبعض الإمارات والمناطق والقبائل، على الخريطة إلا أن خريطته تلك ملأى بالنواقص والأخطاء.¹⁵³ كما أن معلوماته حول المناطق الطبيعية توحى بأنه لم يزر

¹⁵⁰ - لم نتمكن من الحصول على معلومات بشأن هذا الفرنسي الذي كان يرافق دوني ولا بشأن مرافقيهما الخمسة المذكورين.

¹⁵¹ - Gaston-Henri-Pierre Donnet, **Une mission au Sahara Occidental, du Sénégal au Tiris**, Paris, Augustin Challamel, Editeur, 1896, 88 p.

¹⁵² - Donnet , op.cit., p. 4.

¹⁵³ - تمكن مراجعة تلك الخريطة في بداية رحلته وقد أشار فيها إلى الحدود الشمالية لإمارة الترارزه وإلى هوامش المناطق التي تسكنها قبيلة أولاد دليم.

بعض تلك المناطق أو لم يجد الوقت الكافي ولا القدرة والكفاءة على تأملها وتسجيل خصوصياتها وإنما اكتفى بجمع معلومات حولها من بعض المراجع السابقة. وربما يعود تدنى قيمة رحلته من الناحية العلمية إلى صغر السن وعدم التخصص ومحدودية الاستفادة من التدريب السابق الذكر.

ومع مطلع القرن العشرين تبرز الأهمية التي بدأت فرنسا تمنحها لاكتشاف ودراسة المجال الموريتاني. وستجسد تلك الأهمية في اختيار الأشخاص الذين سوف تسند إليهم تلك المهمة. فلم تعد دراسة البلاد الموريتانية لتوكل إلى هواة مهتمين بالصحراء كصوليي وصولير ولا إلى صحفيين مثل دوني وفابير، وإنما أصبحت مسألة من الأهمية والخطورة بحيث لا يمكن إسنادها إلا لشخصيات أكثر خبرة وتخصصا ودراية بمختلف مجالات الدراسة والعلم. فكان هذا العقد عقد العلماء والباحثين الأكاديميين. وقد زار المنطقة الموريتانية أثناءه ثلاثة من أولئك الباحثين هم بلانشي، كروفل وشودو.

أما أولهم فهو بول بلانشي¹⁵⁴ الشاب الجامعي الطموح الذي تحصل على التبريز في التاريخ وأصبح في وقت وجيز أحد المهتمين بتاريخ الشمال الإفريقي والصحراء الكبرى مما هياه لأن ي ختار للعديد من المهمات العلمية في الجنوب التونسي والجزائري فضلا عن مهمته في البلاد الموريتانية سنة 1900⁽¹⁵⁵⁾ هذه المهمة التي انتهت في مدينة أطار بنهب قافلته وأسره مع مرافقيه مدة ثمانية وسبعين يوما.¹⁵⁶

154 - سنتحدث عن هذا الرحالة في الفصل الموالي من هذا العمل.

155 - لنا عودة إلى تلك الرحلة في مختلف فصول هذه الدراسة.

156 - للمزيد من المعلومات راجع: الفصل الثالث من هذا العمل.

وبعد المصير المأساوي لبعثة بلانشي تلك ستتوقف عمليات الاستكشاف عقدا من السنين جراء انهماك الفرنسيين في عملية إخضاع البلاد عسكريا، على أن تستأنف سنة 1909 مع الرحلة التي سنختتم بها هذا الفصل وهي رحلة مشتركة قام بها في السنة نفسها أستاذان جامعيان هما كروفل وشودو.
وقد استهدفت دراسة منطقة الشواطئ الموريتانية من سين-لوي إلى بورأتين (نواذيبو حاليا) دراسة علمية معمقة تشمل البنية الجيولوجية والتضاريس والمناخ والثروات الاقتصادية.

أما أول هذين الأستاذين فهو الرحالة أبل كروفل¹⁵⁷ (Abel Gruvel) الذي أصبح أستاذا للعلوم بجامعة بوردو بعيد مناقشة أطروحته المتعلقة بعلم الحيوانات سنة 1893 ثم عين في السنة الموالية مسؤول الأشغال التطبيقية في قسم علم الحيوانات بكلية العلوم في تلك الجامعة التي أنشأ بها مختبرا ومجلة متخصصة.
وفي سنة 1903 بدأ اهتمامه بدراسة الأسماك على سواحل إفريقيا الغربية فاقترح مشروعا لتنظيم مهمة لدراسة الأسماك واستغلالها الصناعي في منطقة حوض أركين.
وبدعم من الجمعية الجغرافية لمدينة بوردو والحكومة العامة في إفريقيا الغربية وصل كروفل سنة 1905 إلى سين-لوي ليبدأ حملة استكشافية لدراسة منطقة الساحل الغربي الإفريقي الواقعة بين الرأس الأبيض وسين-لوي.

¹⁵⁷ - أبل كروفل (1870-1941)، يمكن الرجوع بشأنه إلى:

- ✓ Prevost, **Dictionnaire...**, op.cit., t.-XVI, 1985, p. 13 ;
- ✓ Broc, **Dictionnaire illustré...**, op.cit., p.168.

وفي السنة نفسها حول هذا المستكشف إلى إفريقيا الغربية ليكلف بمهمة دراسة وتنظيم مصائد أسماكها. فنشر سنة 1908 دراسة بعنوان: *مصائد أسماك سواحل السنغال والأنهار الجنوبية*¹⁵⁸.
وقد اهتم كروفل بدراسة الثروات السمكية على الشواطئ الساحلية الموريتانية والعلاقة بين تطوير الصيد التقليدي وتوفير السباح الملحية.¹⁵⁹
وكان هذا الأستاذ الباحثة من المنظرين والمخططين لإنشاء مركز بورأتان (نواذيبو). وخدمة لمخططه القاضي بإنشاء هذا المركز اقترح كروفل على الوالي الفرنسي العام على السنغال الجنرال روم¹⁶⁰ (Roume) أن يسمح له بالقيام برحلة علمية على طول الشاطئ الموريتاني محددًا للوالي أهداف الرحلة والوسائل الضرورية لإنجازها.
وقد وافق الوالي على مشروع كروفل ورصد له الإمكانيات المالية والبشرية اللازمة مما ساعد على إنجاحه.

¹⁵⁸ - Abel Gruvel, **Les pêcheries des côtes du Sénégal et des rivières du Sud**, Paris, Augustin Challamel, Editeur, 1908, p.145.

¹⁵⁹ - بهذا الخصوص تمكن مراجعة:

Abel Gruvel,

- -"Création d'un centre de pêche dans la presqu'île du Cap Blanc", communication au congrès de la pêche maritime, Bordeaux, 18 septembre 1907;
- -"L'industrie frigorifique et la pêche sur les côtes de la Mauritanie", congrès frigorifique, Paris, 10 octobre 1908.

¹⁶⁰ - روم (1858-1941)، شغل منصب الحاكم الفرنسي في السنغال بين 1902 و1908، راجع حوله:

Anonyme, **Hommes et destins**,... op.cit., t.-V, 1984, pp. 484-486.

وأما الأستاذ الثاني فهو الجيولوجي رني شودو¹⁶¹ (René Chudaeu) الذي تخرج من مدرسة المعلمين العليا سنة 1887. وابتداء من سنة 1890 أصبح مدرسا في جامعة بزانشون (Besançon). وفي سنة 1896 حصل على دكتوراه الدولة في العلوم مما مكنه من التدريس في جامعة الجزائر والقيام خلال سنتي 1905-1906 بسلسلة من الرحلات العلمية في الجنوب الجزائري قادته إلى السنغال عبر تشاد والنيجر. وبعد أن عين ملحقا بوزارة المستعمرات عهد إليه بالعديد من المهام أشهرها الرحلة العلمية التي قادته صحبة زميله كروفل عبر الشاطئ الموريتاني حيث غادرا سين-لوي صحبة مرافقيهما¹⁶² في يناير/كانون الثاني سنة 1908 في مهمة غطت الساحل الموريتاني من نجاكو¹⁶³ إلى بورأتان (نواذيبو). وقد درس هذان الباحثان، دراسة متخصصة، المناطق المزورة من مختلف الأوجه ونشرا تلك الدراسة تحت عنوان: *عبر موريتانيا الغربية من سين-لوي إلى*

¹⁶¹ - رني شودو (1864-1921) Chudeau René وبخصوصه تمكن العودة إلى:

- ✓ Anonyme, **Hommes et destins...**, op.cit., t.-I, 1975, pp.146-147 ;
- ✓ Prevost, **Dictionnaire...**, op.cit., t.-VIII, 1959, p. 1299.

¹⁶² - كانت ترافق هذين الباحثين بعثة تضم كلا من:

- ✓ النقيب برجي (Le Capitaine Berger)؛
- ✓ مير (Mere)؛
- ✓ مهوست (Meheust)؛
- ✓ المساعد لارموير (L'Adjudant Larmoyer)؛
- ✓ انديل (Vandel).

¹⁶³ - مركز يقع في أقصى نقطة جنوبية من الساحل الأطلسي الموريتاني بمصب نهر السنغال على بعد حوالي خمسة كيلومترات من مدينة سين-لوي السنغالية. وهو الآن مركز إداري تابع لمقاطعة كرمسين بولاية الترارزه. انظر: الخريطة رقم 3، من هذا العمل.

بورأتين¹⁶⁴ وهي تقع في مجلدين يحتوى أولهما على الجزء العام والاقتصادي من الدراسة بينما يشتمل المجلد الثاني على الجزء المتعلق بالدراسة العلمية للمنطقة. ويلخص الباحثان أهمية هذه الرحلة قائلين: "لقد تمكنا من بدء الجرد المعمق للمناطق المجاورة سواء من الناحية العلمية أو الجغرافية أو الاقتصادية، وذلك لأن لدينا وسائل لا يتوفر عليها، غالبا، الضباط والإداريون ولأننا جينا كل تلك المناطق بسير متأن بما فيه الكفاية"¹⁶⁵.

وبعيد هذه المهمة المشتركة سيقوم الجيولوجي شودو لوحدته بمهمة عبر الصحراء الموريتانية¹⁶⁶ بهدف تعميق بعض جوانب الدراسة السابقة ودراسة بعض المناطق الجديدة خاصة في مجالات الجيولوجيا وعلم النبات وعلم الحيوان. ويمتاز هذا البحث بأنه من رواد وضع خريطة جيولوجية لمنطقة الصحراء الكبرى. وبشكل عام، فقد أسفرت هذه المرحلة عن قطع خطوات مهمة نحو دراسة المنطقة دراسة معمقة. ذلك أن جيل المتخصصين والعلماء (الأساتذة الجامعيين) الذي

¹⁶⁴ - Chudeau et Gruvel, *A travers la Mauritanie...*, op.cit.

¹⁶⁵ - Idem, p. 39.

¹⁶⁶ - راجع بهذا الخصوص:

René Chudeau:

- "Observations géographiques sur la Mauritanie occidentale", Paris, *La Géographie*, juillet 1909, pp. 1-8;
- "Les ressources agricoles de la Mauritanie", Paris, *BSGCP*, t.-XXXIV, 1912, pp. 305-314;
- "Rapport de mission en Mauritanie, 1910-1911", **Rapports et documents**, n°88 du 18 octobre 1913, *Supplément au Journal Officiel d'Afrique Occidentale Française*, pp. 1-29.

احتل الصدارة خلال العشرية الأخيرة من هذه المرحلة كان يتوفر على المؤهلات الكفيلة بإنجاز مثل تلك الدراسة.

وإذا كانت الظروف العامة للمنطقة لم تساعد مستكشفي هذه المرحلة الأوائل على القيام بالمهام المنوطة بهم، فإن إخضاع أجزاء من البلاد في مطلع القرن العشرين قد سهل مهمة شودو وكروفل التي توجت هذه المرحلة، مما أعطى للدراسة التي أنجزتها تلك البعثة قيمة كبيرة.¹⁶⁷ فالبعثات العلمية خاصة تلك التي قام بها شودو أعطت، حسب تعبير أ. سكان¹⁶⁸ (E. Segand)، أسس معرفة الفرنسيين الحالية بالأرض الموريتانية.

ومما يؤخذ على اكتشافات هذه المرحلة كونها تركزت على محور يغطي مناطق الترارزه وإينشيري وآدرار وتيرس، ويهمل المناطق الوسطى والشرقية من البلاد، الأمر الذي قد يعود إلى اهتمام الفرنسيين المتزايد بشأن السكة الحديدية المزمع إقامتها بين السنغال والجزائر عن طريق منطقة آدرار الموريتانية، فضلا عن استفحال لتنافس بين الدول الاستعمارية (فرنسا، بريطانيا وإسبانيا) على مصالحها في المنطقة. وإذا كانت مجهودات الفرنسيين قد انصبت أثناء المرحلة الأولى (مرحلة المحاولات الفردية المعزولة) على الاهتمام بالتجارة، وتمركزت خلال المرحلة الثانية (القفزة المنسقة) حول محاولات الوصول إلى المدن الموريتانية التاريخية، وتوقيع اتفاقيات تجارية مع زعماء البيضان، فإن المرحلة الثالثة هذه مثلت فعليا بداية الدراسة الميدانية والمتشعبة للبلاد الموريتانية.

¹⁶⁷ - نأمل أن تسمح لنا الظروف مستقبلا بتناول تلك الدراسة في حيز زمكاني يتناسب وحجمها وقيمتها العلمية.

¹⁶⁸ - E. Segand, "Choses de Mauritanie", *La géographie*, t.-LXII, n° 5-6, 1934, pp. 217-242, p. 236.

فالبحث عن الثروات المتنوعة (نترات الصوديوم، الذهب، مصائد الأسماك، الموارد المائية... إلخ) بات الشغل الشاغل لجل مستكشفي هذه المرحلة. كما أن دراسة الخط الحديدي الذي سيربط بين الجزائر والسنغال عبر موريتانيا وجدواه الاقتصادية، كان لها حضور متميز أثناء مرحلة الاكتشافات المتخصصة هذه. وكذلك الشأن بالنسبة لبروز التنافس الاستعماري في المنطقة، حيث أن ثلاثة¹⁶⁹ من مستكشفي هذه المرحلة أكدوا على ضرورة بسط السيادة الفرنسية على البلاد الموريتانية إبعادا للخطر الإنجليزي والإسباني المخيمين على تخومها الشمالية الغربية. وربما يكون هذا التنافس الاستعماري من العوامل التي جعلت جل اكتشافات هذه المرحلة تتركز في النواحي الغربية من البلاد الموريتانية.

وهكذا فإن أهداف الاستكشافات الفرنسية قد تطورت تدريجيا على مدى القرن التاسع عشر من السعي أولا إلى ربط علاقات تجارية مع السكان في المراكز الهامشية (النهرية والمحيطية) خلال النصف الأول من القرن، إلى محاولات الوصول سلميا إلى المدن التجارية البيضانية في منتصف القرن (حملات فيدربر أثناء القفرة المنسقة) خدمة للمبادلات التجارية؛ ثم إلى السعي الحثيث إلى جرد ثروات البلاد بغية استغلالها والدعوة الصريحة للسيطرة عليها خلال العقدين الأخيرين من القرن وما تلا ذلك من إرسال بعثات استكشافية مسلحة في مطلع القرن العشرين، أي في الفترة التي بدأ فيها احتلال الفرنسيين للمناطق الجنوبية من البلاد الموريتانية. فإلى أي مدى عكست نصوص هؤلاء الفرنسيين تلك الهموم؟

¹⁶⁹ - هؤلاء الثلاثة هم: فابير، صولير ودوني المشار إليهم سابقا.

الفصل الثالث

رحلات فرنسية إلى البلاد الموريتانية أثناء القرن التاسع عشر

أمام تعدد وتنوع كتب المستكشفين والرحالين الفرنسيين المتعلقة بالبلاد الموريتانية ارتأينا انتقاء مدونة (Corpus) تركز عليها هذه الدراسة. ذلك أنه يكاد يكون من المستحيل أن يستوفي بحث بحجم وإمكانيات بحثنا هذا دراسة كل الآثار التي تحدثنا عن أصحابها وقدمناها بنوع من الإيجاز في الفصل السابق.

ولا يعني اختيارنا لعينة من تلك الآثار إهمال بقيتها، بل إننا سنستخدم تلك المصادر ونوظفها حسب الاقتضاء في مختلف مراحل هذه الدراسة التي سترتكز أساساً، ومن منطلق منهجي بحث، على العينة المختارة.

وقد واجهتنا إشكالية اختيار مستعصية. فهل ننتقى مستكشفين عاشوا في الفترة الزمنية نفسها لدراسة مواقفهم من مختلف القضايا والحقائق أم نختر آخرين عاشوا على امتداد القرن كله لمحاولة متابعة واستخراج التطور الحاصل عبر الزمن سواء تعلق ذلك التطور بالمستكشفين أنفسهم أم بالسياسة الفرنسية في المنطقة أم بالمسائل والأوضاع التي يصفونها؟ وكيف يمكن للمدونة المختارة أن تغطي المجال البيضاني الموصوف كله؟ أسئلة متعددة اعترضت سبيلنا ونحن بصدد فرز النماذج التي سنعتمد عليها في دراستنا لأحوال المجتمع البيضاني أثناء القرن التاسع عشر.

وبعد التمعن في مختلف تلك التساؤلات، ومع اقتناعنا بصحة مقولة فرنان برودل (Fernand Braudel) "إن الاختيار في بعض الأحيان يكون اعتباطياً"¹، ارتأينا انتقاء نصوص المدونة معتمدين على مجموعة من المعايير اعتبرناها أساسية.

أولاً. معايير اختيار نصوص المدونة

لقد حاولنا أن نخضع النصوص المختارة لجملة من المعايير من بينها أربعة رئيسية هي:

أ. معيار زمني

وقد أردنا من خلال هذا المعيار أن تستجيب عينتنا المختارة لمتطلب زمني تمليه تغطية القرن كله. كما وضعنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذا المعيار مع التصنيف التطوري عبر الزمن الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق عندما وزعنا الاكتشافات الفرنسية خلال القرن المدروس على ثلاث مراحل هي:

✓ مرحلة النصف الأول من القرن التاسع عشر (1816-1850)

✓ مرحلة المنعطف (1859-1862)

✓ مرحلة العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين (1880-1909).

¹ - Braudel, *Ecrits sur l'histoire*, Paris, Flammarion, 1969, 314 p.

وقد اخترنا على الأقل مكتشفين من كل واحدة من هذه المراحل. فبالنسبة للمرحلة الأولى وقع الاختيار على الرحالتين مولين (Mollien) الذي زار منطقة حوض نهر السنغال سنة 1818 وكايي (Caillié) الذي تجول في منطقة البراكنه الواقعة في الجنوب الموريتاني في نهاية الربع الأول من القرن وبالتحديد في نهاية 1824 وبداية 1825.

أما مرحلة المنعطف فقد أخذنا نموذجاً لها الضابط البحري ايجن ماج (Mage) الذي قام في نهاية 1859 ومطلع 1860 برحلة إلى منطقة تكانت، والملازم الأول علي صل الذي تجول في المناطق الوسطى والشرقية من البلاد بين سنتي 1860 و 1862.

ومن رحالي الفترة الثالثة والأخيرة أنتقينا صولبي (Soleillet) الذي زار منطقة آدرار الواقعة بالشمال الموريتاني في بداية 1880، وكذلك الرحالة بلانشي (Blanchet) الذي مر بالمنطقة خلال سنة 1900. ويأتي هذا الاختيار فضلاً عن المعيار الزمني استجابة لمبرر نوعي سنتحدث عنه بعد قليل.

ب. معيار جغرافي

توخينا من خلال هذا المعيار أن تغطي المدونة المنتقاة مختلف مناطق المجال البيضاني المدروس والذي حددناه سابقاً. وقد اعترضتنا بهذا الخصوص عقبة تمثلت في عدم توازن التوزيع الجغرافي للرحلات الاستكشافية داخل التراب الموريتاني ذلك أن الأغلبية الساحقة² من هذه الرحلات تركزت في المناطق الجنوبية

² - راجع الجدول رقم 2: الرحلات الفرنسية داخل المجال الموريتاني أثناء القرن التاسع عشر والخريطة رقم 3: مرحلة الاكتشافات المتخصصة ضمن ملحقات هذا العمل.

الغربية وإلى حد ما الوسطى والشمالية أي في شريط يغطي، ولو بدرجات متفاوتة، مناطق الترازه وإينشيري وأدرار وتيرس والبراكنه بينما لم تستقبل المناطق الأخرى (الحوضان³، العصابة، وتكانت) سوى رحلات قليلة جدا.

وعلى العموم فإن النماذج المختارة تتوزع على مختلف مناطق البلاد، فقد غطت رحلة كايي منطقة البراكنه الواقعة في جنوب البلاد. كما قام الضابط ماج بالتجول في منطقة تكانت الواقعة بوسط البلاد واجتاز، وهو في طريقه إليها، مناطق كيديماغه والعصابة كما مر، وهو في طريق العودة إلى السنغال، بمنطقتي العصابة وكوركول⁴.

وقد غطت رحلة الملازم الأول علي صل⁵ المناطق الوسطى والشرقية من البلاد، إذ زار مناطق البراكنه وتكانت والعصابة والحوضين مارا بمدينة ولاته وباسكنو⁶.

³ - الحوضان (أو الحوض الشرقي والحوض الغربي): منطقة سهلية تقع بالجنوب الشرقي الموريتاني. تحدها منطقة أوكار من الشمال ومنطقة أفله من الغرب وجمهورية مالي من الشرق والجنوب. وكان الحوض أثناء القرن التاسع عشر مجالا لسيطرة مشيخة أولاد مبارك. ويضم الحوض الآن ولاية الحوض الشرقي وعاصمتها النعمة وولاية الحوض الغربي وعاصمتها العيون.

⁴ - منطقة تقع بالجنوب الغربي الموريتاني مما يلي نهر السنغال، تخترقها بعض روافد نهر السنغال، مما جعلها منطقة زراعية مهمة. وهي الآن ولاية موريتانية عاصمتها مدينة كيهدي.

⁵ - لقد أدرجنا عليا صل وهو سنغالي مسلم ضمن الرحالين الفرنسيين، وذلك لكونه انخرط في الجيش الفرنسي وانهمك في خدمة الفرنسيين الذين أصبحوا يعتبرونه فرنسيا، فضلا عن كون رحلته تأتي في نطاق مأمورية فرنسية.

⁶ - لدة في منطقة الحوض الشرقي قرب الحدود مع جمهورية مالي على بعد حوالي 200 كلم إلى الجنوب الشرقي من مدينة النعمة عاصمة ولاية الحوض الشرقي الحالية. انظر الخريطة رقم 7: (خط سير المستكشف علي صل أثناء تجواله بالمناطق الوسطى والشرقية من البلاد الموريتانية بين سنتي 1860 و1862).

وعبر الرحالة صولبي، من جانبه، مناطق الترازه وإينشيري وتيرس في نطاق رحلته داخل الصحراء الموريتانية.

أما الرحالة بلانشي فقد مر، هو الآخر، بمنطقتي الترازه وإينشيري وهو متجه إلى مدينة أطار ضمن رحلته إلى آدرار التي وقع اختيارنا عليها استجابة لمعيار نوعي.

ج. معيار نوعي

يرتبط هذا المعيار بطبيعة ونوعية المستكشفين أنفسهم (الوظيفة، التخصص... إلخ). فقد رأينا في الفصل السابق أن من بين هؤلاء الفرنسيين الرحالة المتمرس والمستكشف والمغامر والضابط العسكري والموظف الإداري البسيط والباحث المتخصص. ولذلك حاولنا أن نضع النصوص لذلك التنوع.

فجاء اختيارنا موليين وكايي بصفتهما رحالتي مغامرين. إذ نجد الأول بعد أن تأمل جميع العقبات، "مصمما على تذليلها أو الهلاك"⁷ في حين أصر الثاني على القيام برحلته الشهيرة إلى تنبكتو "وحيدا وبلا امكانيات ودون أي دعم أو مساندة لا من الحكومة الفرنسية ولا من ممثليها في السنغال"⁸. فهما يمثلان جيل المغامرين من المستكشفين الفرنسيين.

أما الضابط البحري ماج والملازم الأول علي ص ل فيمثلان جيل الضباط العسكريين في هذه العينة. إذ تأتي رحلتاهما استجابة لأوامر مسؤولهما الجنرال فيدرب الوالي الفرنسي على السنغال (رحلات مأمورية). وهي تدخل في نطاق سلسلة

⁷ - Mollien, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique, op.cit., t.-I, p. 27.

⁸ -

من الاستكشافات والاستطلاعات أشرف عليها ذلك الوالي ضمن السياسة الفرنسية الجديدة في المنطقة.

وأما صوليى فيمثل جيل الرحالين المسالمين. فقد سلك طريق فتح الصحراء سلميا خدمة للمصالح الفرنسية. وهذا الرحالة المتمرس يمكن اعتباره نقطة لقاء بين النموذجين السابقين. إذ تستجيب رحلته لرغبة ذاتية خاصة تملئها، من جهة، هواية الترحال والأسفار التي رافقته منذ الصغر، ومن جهة أخرى، تأتي تلك الرحلة استجابة لمهمة كلفته بها الإدارة الفرنسية في نطاق مشاريعها التوسعية في المنطقة (الربط بين الجزائر والسنغال ودراسة إمكانيات إقامة سكة حديدية عابرة للمنطقة لذلك الغرض).

ويستجيب اختيار بلانشي لرغبتنا في تمثيل جيل العلماء والباحثين في هذه العينة. فهو أستاذ جامعي وبحاتة أركيولوجي ولذلك انتقينا ممثلا للعلماء. ومن منطلق كفاءاته العلمية واهتماماته أيضا تم اختياره للقيام بمهمته تلك في منطقة أدرار الموريتانية.

د. معيار الانشغالات

ويتعلق هذا المعيار بمحاور اهتمامات أصحاب العينة أنفسهم. فالرحالون موليين وكايبى وعلي صل اهتم وا أساسا بحياة السكان وأنشطتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، بينما استقطبت الظروف الطبيعية للمنطقة من تضاريس (مرتفعات، سهول، أودية وكثبان.. إلخ) ومناخ (حرارة، أمطار.. إلخ) ونقاط مياه وطرق، جل انتباه الضابط البحري ماج؛ في حين ركز الرحالة صوليى على دراسة الغطاء النباتي (الأشجار، الأعشاب..) والتربة.

أما بلانشي فقد اعتنى خاصة بالثروات الطبيعية للمنطقة (المناجم، السباخ، والتربة..إلخ).

وقد يكون من الشيق أن تشتمل هذه المدونة على أحد رجال الدين المبشرين الذين نشطت بعثاتهم التبشيرية ممهدة ومواكبة للظاهرة الاستعمارية في تلك الفترة، غير أن تنقيبنا في مراكز التوثيق التي استطعنا ارتيادها لم ي مكننا من العثور على ممثل لفئة المبشرين تلك. فانطلاقا من المعلومات المتوفرة لدينا إلى حد الآن، لا يوجد أي مبشر ضمن من زاروا البلاد الموريتانية أثناء القرن التاسع عشر من المستكشفين والرحالين الفرنسيين.

ولعل هذا الأمر عائد إلى إدراك الكنيسة لمدى تشبث البيضان بدينهم وتمسكهم الصارم به مما يجعل إرسال المبشرين إليهم عديم الجدوى فضلا عما قد يلحقه بأولئك المبشرين من أضرار قد تكون جسيمة.

وبالطبع فإن اختيار هؤلاء المستكشفين الستة لا يعني إطلاقا، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، الإبعاد الكلي لبقية مستكشفي القرن، بل إننا سنوظف رحلات المستكشفين الآخرين كلما رأينا ذلك ضروريا، خصوصا حين يتعلق الأمر بتعويض نقص أو ملء فراغ أو تصحيح أو دعم أو نفي مسألة أو رأي لدى أحد أصحاب عينتنا المختارة الذين يتعين تخصيص فقرة من هذا الفصل للتعريف بهم.

ثانيا. أصحاب النصوص المختارة

سنقدم في هذا الجزء جملة من المعلومات البيوغرافية المتعلقة بحياة وسير الرحالين الذين اخترنا نصوصهم مرتكزا للدراسة.

وتكمن أهمية هذه المعلومات الجيوغرافية، وخاصة ما تعلق منها بالعوامل المؤثرة في حياة هؤلاء الرحالين ومستوياتهم الدراسية والفكرية، في كونها تساعد على فهم آثار أصحابها ومواقفهم من مختلف القضايا المثارة. ذلك أن "الرصيد المعرفي في الرحلة يختزن ضمناً ثقافة المؤلف"⁹. لذلك فأبي قراءة للرحلة لا تنطلق من خلفيات هذا الرصيد ي خشى عليها السقوط في التبسيطية التي تأخذ بالمسببات دون الأسباب فتسلب الظواهر ترابطها المنطقي، وتفقد بالتالي صفة القراءة الناقدة.

وقد تتبادر إلى الذهن هنا ملاحظة تتعلق بعدم توازن المعلومات التي تقدمها المصادر والمراجع عن هؤلاء الرحالين، ففي حين تمدنا الوثائق بمعلومات متنشعبة وغزيرة عن كل من كايي وماج وصولي، نجد معطياتها المتعلقة بالرحالة علي صل متوسطة الوفرة، بينما لا تقدم إلا معلومات قليلة نسبياً عن الرحالة موليين. أما المعطيات المتعلقة بالرحالة بلانشي فهي شحيحة؛ لذلك فلا مناص من أن تأتي معلوماتنا متفاوتة الوفرة عن هؤلاء الرحالين الذين سنستعرض حياتهم حسب التسلسل الزمني.

أ. موليين: ملامسة الهوامش

ولد كاسبار-تيودور موليين¹⁰ (Gaspard-Théodore Mollien) سنة 1796 في أسرة ميسورة الحال. فأبوه كان محامياً وقد شغل منصب مفوض لدى برلمان باريس. وهو من عائلة الكونت موليين وزير الخزانة في ظل حكم نابليون الأول.

⁹ - عمر أفا، "طنجة من خلال رحلة أحمد بن اطوير الجنة الشنقبي في القرن التاسع عشر"، ضمن: طنجة في التاريخ المعاصر (1800-1956)، الرباط، 1991 صص. 165-186، ص. 174.

¹⁰ - اعتمدنا حول هذا الرحالة على المصادر والمراجع التالية:

وقد أعتنت هذه الأسرة بتربية ودراسة ابنها كاسبار موليين الذي حصل ل
بسرعة ثقافة واسعة فأصبح مغرما بالرحلات والأسفار لكثرة مطالعته عن مغامرات
الرحالين.

وعندما بدأت الإمبراطورية الأولى تتخبط في المشاكل التي أدت في النهاية
إلى سقوطها تغيرت وضعية أسرة موليين التي أصبحت بعد رغد العيش تعاني ضائقة
مالية أرغمت هذا الشاب على العمل مستخدما في قطاع البحرية.

وفضلا عن إسهام هذه المهنة في تسوية بعض المشاكل المالية لموليين
وأسرته¹¹ فإنها مثلت بالنسبة إليه معبرا نحو تحقيق طموحاته في التنقل والترحال، إذ
نجده يبارح فرنسا سنة 1816 متوجها إلى السنغال على متن سفينة "لامديز" التي
ستنجح بالسواحل الموريتانية مخلفة كارثة مأساوية سيكون من حسن حظ موليين
الخروج منها سالما حيث استطاع بجهد جهيد الوصول إلى سين-لوي صحبة بعض

-
- ✓ ANFCAOM, Série géographique: Afrique, Rapport autographe, op.cit.,
 - ✓ ANS, Séries B: Correspondances générales (1779-1895),
 - ✓ Mollien, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique..., op.cit.,
 - ✓ Ancelle, Les explorations au Sénégal, op.cit., pp. 63- 70,
 - ✓ Deschamps, L'Europe découvre..., op.cit., pp. 64-70,
 - ✓ Broc, Dictionnaire illustré..., op.cit., pp. 234-235,
 - ✓ Marty, "Un centenaire colonial. La découverte des sources de la Gambie et du Sénégal, Mollien (1818-1819)", Paris, Revue de l'Histoire des Colonies Françaises (RHCF), 1er trimestre, 1921, pp. 53-98.

¹¹ - اقتطع موليين مبلغ 375 فرنكا فرنسيا سنويا من راتبه الزهيد لوالدته وذلك قبيل توجهه إلى السنغال، راجع: ملف موليين:

ANFCAOM, Série géographique: Afrique..., op.cit., p. 2.

الناجين الآخرين وذلك بعد عدة أيام من السير على الأقدام والمعاناة المضنية من العطش والجوع والحرارة الشديدة أثناء فصل الصيف وتحت شمس يوليو/تموز الصحراوية الحارقة.

ومثل اجتياز موليين للساحل الأطلسي الموريتاني وهو في طريقه إلى سين-لوي أول اتصال له بالبيضان وملازمة لهوامش مجالهم الجغرافي. غير أن بقايا كوابيس وأهوال مأساة "لامديز" وانشغال موليين ومرافقيه بوسائل مواجهة متطلبات الطريق الشاق نحو سين-لوي قد شغلته عن تسجيل بعض الملاحظات والانطباعات عن حياة أولئك البيضان¹² لذلك عزم هذا الرحالة على التجول بالمنطقة من جديد وفي ظروف أكثر ملاءمة.

وبالفعل لم تكد تمضي سنة على مقامه في السنغال حتى تجول بين الساحل الأطلسي الموريتاني ومحطات التبادل النهرية حيث يقايس البيضان منتوجاتهم (وخاصة الصمغ العربي) بالبضائع الأوروبية.

وكان تجوال موليين بهوامش المجال البيضاني نوعا من جس النبض سيغير أثره محور واتجاه رحلاته المستقبلية في إفريقيا. يقول موليين: "عندما ذهبت لزيارة المناطق الداخلية لإفريقيا الغربية كنت أتصور مشروعا يتمثل في عبور الأصقاع التي اجتازها مونكو بارك من جديد، لكنني سرعان ما اقتنعت [13] باستحالة القيام بكشوفات في تلك المنطقة، وحتى مجرد عبورها، فصممت على شق طريق جديد مواز لخط الهاجرة [14] الزوالي"¹⁵.

¹² - Mollien, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique, op.cit, t.-I.

¹³ - ربما يكون اقتناع موليين باستحالة عبور الصحراء الكبرى في ذلك الحين متأثرا من إدراكه لكون البيضان ليسوا بعد مستعدين للسماح لأي "نصراني" بدخول مجالهم الجغرافي.

¹⁴ - يعني بموازة خطوط الطول.

¹⁵ - Mollien, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique, op.cit, t.-I, p. viij.

ولتنفيذ مشاريعه الجديدة رجع موليين إلى باريس في أواخر 1817 طالباً السماح له بالقيام برحلة تستهدف اكتشاف منابع السنغال وغامبيا والنيجر، وباحثاً عن الدعم اللازم لذلك.¹⁶

غير أنه وجد حكومة لويس الثامن عشر منهكة في مشاكلها الخاصة فقرر قطع إجازته وقفل راجعاً إلى السنغال رغم إلحاح ومعارضة والدته¹⁷ وذلك ليطلب من فلوريو¹⁸ (Benjamin Fleuriu Aimé) الوالي الفرنسي (وكالة) على السنغال مد يد العون لدعم الرحلة المزمع أن تقوده في نهاية المطاف إلى منابع السنغال وغامبيا.

وفي سنة 1823 قام الرحالة موليين بسلسلة من الرحلات في العالم الجديد قادته خاصة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وباناما وكولومبيا التي عاد منها إلى فرنسا ليلتحق سنة 1824 بوزارة الخارجية حيث عين ملحقاً فقطصلاً في هايتي سنة 1828 ثم قنصلاً عاماً في بورتو برينس سنة 1831 وفي هافانا سنة 1834 وفي كراكاس سنة 1840 قبل أن يحال إلى التقاعد في 1848⁽¹⁹⁾، ويعود إلى الترحال مرة أخرى إذ قام سنة 1856 برحلات جديدة عبر الهند والصين قبل أن يعتزل في مدينة نيس

¹⁶ - لقد أعلن موليين استعداده لتمويل نصف تكاليف الرحلة، راجع:

-ANS, Séries B, 2 B 3 bis: lettres du Gouverneur au Ministre, op.cit.

-Marty, "Un centenaire colonial...", op.cit. p. 60.

¹⁷ - لقد بذلت هذه الوالدة قصارى جهدها لمنع ابنها من الرجوع إلى السنغال وصدته عن مشاريعه المتعلقة بالاستكشاف في أعماق الصحراء. وحتى بعد توجهه إلى السنغال فإن تلك الوالدة واصلت مساعيها لدى الوزير ولدى الوالي من أجل تحويل ابنها إلى فرنسا متذرة بحالته الصحية السيئة وربما تكون تخوفاتها متأية من مأساة "لامديز"، السابقة الذكر. راجع ملف موليين:

ANFCAOM., Série géographique: Afrique..., op.cit.

¹⁸ - فلوريو (1785-1838)، أحد ضباط البحرية الفرنسية (نقيب بحري)، شغل وظيفة الوالي الفرنسي وكالة على السنغال بين سنتي 1817 و1818، راجع حوله:

Schefer, Instructions générales..., op.cit., t.-second, p. 648.

¹⁹ - Schefer, Instructions ... op.cit., tome second, p. 665.

(Nice) حيث توفي سنة 1873 مخلفا عدة آثار من أهمها بالنسبة لبحثنا هذا رحلته في إفريقيا المنشورة سنة 1820 تحت عنوان: "رحلة إلى قلب إفريقيا ومنابع السنغال وغامبيا"²⁰.

ب. كايي ومحاولات التقمص

يعتبر رني كايي²¹ (René Caillié) الرحالة الوحيد بين نظرائه الذي خلف لنا في مقدمة رحلته معلومات بيوغرافية حول سيرته الذاتية. يقول كايي بشأن تاريخ ولادته: "ولدت سنة 1800 (22) بقرية موزي (Mauzé) بمقاطعة دو سيفر (Deux

²⁰ - Mollien, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique..., op.cit.

²¹ - اعتمدنا حول هذا الرحالة بالإضافة إلى رحلته المصادر والمراجع التالية:

-Jomard, Remarques et recherches géographiques..., op.cit.,

-Ancelle, Les explorations au Sénégal, op.cit., pp. 70-95,

-Gros, Nos explorateurs ...op.cit., pp. 3-12,

-Chailley, Les grandes missions ... op.cit., pp. 35-40,

-Deschamps, L'Europe découvre...op.cit., pp. 98 et suivantes,

-Anonyme, Hommes et destins, .op.cit., t.-1, 1975, pp. 115-118,

-Broc, Dictionnaire illustré...op.cit., pp. 64-65,

-Jean-Maurice Biziere et autres, Dictionnaire de la biographie. Le XIXème siècle, Paris, Armand Colin, 1994, t.-5, 252 p., p. 43.

²² - يبدو أن المصادر قد اختلفت في تحديد سنة ميلاد كايي. فبينما يحددها هو بسنة 1800 (ص.

41) نجد دوموجو Demougeot يجعلها سنة 1798. راجع:

Antoine Demougeot, René Caillié (1798-1838), col. les Grands Coloniaux, Ed. L'Empire français, Paris, 1948, 154 p., p. 1.

(Sèvres) من أسرة فقيرة. وفقدت لسوء الحظ والدي وأنا ما أزال صبيًا فاقترتص تعليمي على الدروس المجانية التي تقدم في مدرسة قرينتنا²³. ثم يضيف أنه عندما تعلم القراءة والكتابة بدأ يتدرب على مهنة²⁴ سرعان ما أخذ يمقتها جراء مطالعته للرحلات. تلك المطالعة التي كانت تحتل كل أوقات فراغه وتثير خياله إلى درجة بدأ يحس معها بشعور داخلي يدفعه إلى الترحال ويوحى إليه بأنه سيشتهر باكتشاف عظيم.²⁵

ويبدو أن كايي قد أخفى ربما عمداً عن القراء بعض المعلومات المتعلقة بنشأته وهي معلومات قد يكون لها أثر في رسم بعض معالم شخصيته ومستقبله وأهمها أن والده كان خبازاً ومدمناً على تعاطي المشروبات الكحولية وأنه تعرض للإدانة بالأعمال الشاقة بتهمة السرقة.²⁶

وهكذا فإن هذا الصبي، المنحدر من أصول فلاحية فقيرة والذي فقد والديه ولما يتجاوز الحادية عشرة من العمر سد أمامه باب التعليم، كان معرضاً للضياع والتشرد. وقد وجد في مطالعة الرحلات والكشوفات الجغرافية مجالاً لتخفيف همومه ونسيان أحزانه وميداناً يسعى فيه إلى تحقيق ذاته أو يمكنه، على الأقل، من الهروب والابتعاد عن تلك الظروف القاسية التي يعيشها.

وربما كانت وفاة والده في السجن من أكثر تلك الظروف قساوة ووقعا في نفس الطفل الذي يبدو أن مطالعته تلك ولدت لديه الأمل إذ يقول: "لم أفقد أية لحظة من

أما جل المصادر والمراجع الأخرى فترجع ميلاد كايي إلى سنة 1799. والطريف أن صفحة الغلاف الأخيرة من طبعة كايي التي اعتمدنا تذكر أنه مولود سنة 1799 بينما يذكر كايي نفسه في الصفحة 41 من الطبعة نفسها أنه مولود سنة 1800.

²³ - Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p. 41.

²⁴ - لم يشأ كايي أن يبوح بطبيعة تلك المهنة وهي العمل مساعداً لإسكافي.

²⁵ - Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p. 42.

²⁶ - Deschamps, L'Europe découvre ..., op.cit., p. 99.

اللحظات الأمل في اكتشاف بعض المناطق المجهولة من إفريقيا؛ ومن ثم أصبح الوصول إلى تنبكتو شغلي الشاغل وهدف جميع مجهوداتي. فصممت على أن أصل تلك المدينة أو أموت"²⁷.

وفي صيف 1816 عندما توجه أسطول بحري صغير بقيادة الكولونيل شمالترز إلى سين-لوي لاسترجاع السنغال من الإنجليز، تمكن كايي من السفر على متن إحدى قطع ذلك الأسطول كخادم لأحد الضباط.

وعندما وصل كايي إلى سين-لوي أراد أن يبدأ تنفيذ مشروعه بالتوجه إلى داخل الصحراء نحو تنبكتو غير أن بعض الأشخاص المهتمين به وخاصة الضابط كافو²⁸ (Gavot) تمكنوا ولو مؤقتاً من صده عن هذا المشروع.

وبمساعدة من هذا الضابط توجه كايي إلى أرخبيل الأنتيل بالمحيط الأطلسي حيث حصل على عمل متواضع (مساعد تجاري) وذلك بفضل توصيات جاء بها من السنغال. غير أنه لم يمكث في ذلك العمل سوى ستة أشهر لأن شغفه بالرحلات استيقظ من جديد عندما قرأ رحلة²⁹ المستكشف الإنجليزي مانكو بارك فعاوده الأمل بالنجاح في تحقيق مشروعه القديم ففعل راجعا إلى بوردو ليغادرها في نهاية 1818 متوجها من جديد إلى السنغال لالتحاق ببعثة استكشافية إنجليزية يتولى قيادتها الميجر

²⁷ - Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p. 41.

²⁸ - لم تتمكن من العثور على أية معلومات بخصوص هذا الضابط رغم مجهوداتنا في الأرشيفين السنغالي والفرنسي غير أن كايي أتى عليه كثيرا مشيرا إلى أنه تمكن بفضل من السفر مجانا على متن سفينة متوجهة إلى كوادلوب وذلك لإشباع رغبته في الترحال.

²⁹ - ترجمت هذه الرحلة إلى الفرنسية ونشرت مرات عدة آخرها:

Mungo Park, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique, Paris, Maspéro, 1980, 355p.

كراي³⁰ (Gray) كانت تحاول النفاذ إلى المناطق الإفريقية الداخلية عبر منطقة بوندو غير أن مصير تلك البعثة لم يكن أحسن من مصير سابقتها³¹ التي قادها الميجر الإنجليزي بدى (Peddie).

ولم يجن كاي من سفره الطويل والشاق مع البعثة الإنجليزية عبر السنغال وغامبيا سوى الإرهاق المضني والمرض إذ أصيب بملاريا أو شكت أن تقضي عليه.

ولكي يستعيد صحته لم يجد بدا من مغادرة السنغال إلى فرنسا لقضاء فترة استراحة ونقاهاة طويلة نسبيا استمرت حتى سنة 1824 ليعود للمرة الثالثة إلى السنغال وهو ما يزال يفكر في مشروع الرحلة داخل القارة الإفريقية. ذلك المشروع الذي "لا يمكن لأية عقبة أن تحول دونه خاصة وأنا [كاي طبعاً] أجد على رأس مستعمرة السنغال البارون روجي، وهو الذي يعول عليه، لفلسفته وفكره المستتير، في احتضان وحماية كل الأعمال والمحاولات العظيمة"³².

³⁰ - الميجر كراي (Gray) طبيب عسكري إنجليزي كان ملحقاً بالبعثة الإنجليزية بقيادة الميجر دي (Peddie) التي كلفتها الحكومة البريطانية سنة 1816 باكتشاف منطقة حوض النيجر. وفي 1818 اسندت قيادة تلك الحملة إلى الميجر كراي هذا.

³¹ - فشلت هاتان البعثتان البريطانيتان رغم الامكانيات الهائلة التي وضعتها الحكومة البريطانية تحت تصرفهما. ويعود فشلهما إلى أن سكان منطقتي فوتا جالون وبوندو المسلمين لم يكونوا إذ ذاك مستعدين للسماح للإنجليز المسيحيين بعبور المنطقتين. راجع بهذا الشأن:

William Gray et F. Dochard, Voyage dans l'Afrique occidentale pendant les années 1818, 1819, 1820 et 1821 depuis la rivière de Gambie jusqu'au Niger, Traduit de l'anglais par Mme Charlotte Huguet, Paris, Avril de Gastel, 1826, 319 p.

³² - Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p. 59.

غير أن البارون روجي لم يستجب لإلحاح كايي على بدء مشروعه الطموح، بل اكتفى بمنحه كمية من البضائع التجارية للذهاب بها إلى منطقة البراكنه "بغية تعلم العربية والطقوس الدينية لدى البيضان وذلك للتمكن لاحقا من خداع غيرتهم اليقظة والوصول بسهولة إلى داخل القارة الإفريقية"³³.

ولكن لماذا تم اختيار البراكنه كمنطقة يتمرن فيها كايي على طرق التعامل والتكيف مع الصحراء وسكانها؟

يورد أندري لاماندي (André Lamandé) وجاك نانتي (Jacques Nanteuil) ثلاثة عوامل قد تساعد على فهم هذا الاختيار³⁴.

أولها أن كايي سيجد بين هؤلاء السكان البيضان المنغلقيين أمام أية تأثيرات أوروبية مجالا للملاحظة أكثر خصوبة من مجال زواج كايور الذين يعتبرون حسب دينك المؤلفين أنصاف متحضرين [?].

وثاني تلك العوامل هو أن العربية التي يتكلمها سكان البراكنه تعتبر، في إفريقيا، لغة عالمية وبالتالي فإن تعلمها لا غنى عنه لإنجاز الرحلة التي ينوي كايي القيام بها عبر الصحراء الإفريقية.

وأما ثالث تلك العوامل فهو أن كايي وربما البارون روجي كذلك يرى أنه من الضروري، قبل بدء الرحلة الطويلة، تعلم القرآن والشعائر والمعتقدات الإسلامية ليضمن تصديق الحجة (الذريعة) التي سيتبناها³⁵ خلال رحلته الشاقة.

³³ - Ibid, t.-1, pp. 59-60.

³⁴ - André Lamandé et Jacques Nanteuil, René Caillié vainqueur de Tombouctou, Paris, Librairie Plon, 1928, 284 p., pp. 95-96.

³⁵ - تتلخص تلك الرواية في أنه مولود في مصر من أسرة عربية وأن فرنسيين شاركوا في حملة نابليون على مصر عادوا به إلى فرنسا وهو حينها ما يزال صبيا وأن سيده الفرنسي أرسله في بعثات

أما دموجو³⁶ (Demougeot) فيؤكد أن "حسن نوايا الأمير البركني³⁷ آنذاك تجاه الفرنسيين له علاقة باختيار البراكنه مكانا لتعلم رنى كايى العربية والتظاهر باعتناق الإسلام".

وقد يكون استبعاد احتمال إرساله إلى الترازه له صلة بسوء علاقات الفرنسيين مع أميرها أمير بن المختار³⁸ جراء معارضته لمشاريع الاستعمار الزراعي الذي كانت الإدارة الفرنسية بالسنغال تحاول تجربته في منطقة والو. وقد حارب الأمير أمير الفرنسيين حينئذ وسعى إلى توحيد سكان منطقة النهر ضدهم، مما تسبب في إفشال تلك المشاريع.³⁹

وبالفعل فقد اتجه كايى في صيف 1824 إلى منطقة البراكنه حيث قضى تسعة أشهر ونصفا بين السكان قبل أن يعود في أغسطس/آب 1825 إلى سين-لوي طالبا من

تجارية إلى السنغال وأعتقه مكافأة على خدماته. وبما أنه استعاد حريته، فهو يسعى في العودة إلى مصر للقاء أهله والعودة إلى دينه.

³⁶ - Demougeot, op. cit., p. 30.

³⁷ - هو أحمدو (الأول) بن سيدي علي، شغل منصب أمير البراكنه بين 1818-1841. ورغم أنه شارك مرات إلى جانب الترازه في حرب الفرنسيين، إلا أن علاقاته بهم كانت أكثر ودية.

³⁸ - هو أمير ولد المختار ولد الشرقي ولد علي شنظوره أمير الترازه من 1800 إلى 1829 استفاد من التنافس بين الإنجليز والفرنسيين وتزعم عمليات إفشال الاستعمار الزراعي الفرنسي في حوض نهر السنغال.

³⁹ - بخصوص مشاريع الاستعمار الزراعي في منطقة حوض نهر السنغال ودور هذا الأمير التروزي في إفشالها تمكّن مراجعة:

- ✓ Monserat, Mémoire inédit de Monserat sur l'histoire du Nord du Sénégal de 1818 à 1839, publié et commenté par Boubacar Barry, BIFAN, Série B., t.-XXXII, n°1, janvier 1970, pp. 1-43;
- ✓ Boubacar Barry, Le royaume du Waalo, le Sénégal avant la conquête, Paris, Editions Karthala, 1985, 421 p.

الوالي الفرنسي منحه مبلغ 6000 فرنك لشراء قطيع من المواشي وعبدین تمهيدا للعودة من جديد إلى البراكنه ومن هناك إلى منطقة آدرار التي سينحني منها شرقا في طريقه إلى مكة بحجة الذهاب إلى الحج فيمر بمدينتي ولاته وتنبكتو لجمع كل المعلومات التي قد تهم التجارة والجغرافيا ثم يعود إلى أوروبا عن طريق مصر.⁴⁰

بيد أن هذا المشروع الطموح لم يجد أذنا صاغية من الوالي الفرنسي مما جعل رني كايي يضطر إلى السفر نحو السيراليون باحثا عن مساعدة حاكمها الإنجليزي تشارلز تورنير (Charles Turner) الذي استقبله بحفاوة وأسند إليه مهمة الإشراف على معمل للصباغة.

وفي السنة الموالية عين حاكم بريطاني جديد على السيراليون هو السير نيل كام بيل (Sir Nill Campbell) فطلب منه كايي مبلغ 6000 فرنك لتمويل رحلته الطويلة نحو تنبكتو فرد عليه ذلك الحاكم بأن الميجر البريطاني لينغ⁴¹ (Laing) الذي يسعى للوصول إلى تلك المدينة من الشمال يجب ألا ينتزع منه شرف السابق إلى ذلك الاكتشاف.⁴²

وحيثما استقال كايي من وظيفته متخذا قراره الصارم بالقيام برحلته وحيدا ودون مساعدة أي كان واعتمادا على موارده الشحيحة التي لا تتجاوز 2000 فرنك كان قد اقتصدها خلال السنوات الماضية.⁴³

⁴⁰ - Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p. 186.

⁴¹ - هو مستكشف اسكوتلاندي عهد إليه بمغادرة طرابلس الغرب لاكتشاف تنبكتو والتجول داخلها ووصف هذه المدينة ومنطقتها. وقد تمكن هذا الشاب الإن ليزي، بعد معاناة من الوصول إلى تنبكتو في إبريل/نيسان 1826 ليغادرها في سبتمبر/أيلول من السنة نفسها متوجها إلى أروان. إلا أن جماعة من قبيلة البرابيش البيضانية قتله على مقربة من تنبكتو.

⁴² - Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p. 190.

⁴³ - Idem

ولا نستبعد أن يكون السعي إلى الكسب المادي قد لعب الدور الفعال في قرار كايي بالإقدام على هذه المغامرة دون مساعدة. ذلك أن الجمعية الجغرافية الباريسية كانت قد أعلنت سنة 1824 عن جائزة تبلغ 2000 فرنك ستمنح لأول رحالة فرنسي أو أوروبي يصل مدينة تنبكتو عن طريق السنغامبيا ويعود منها بمعلومات قيمة تخدم الجغرافيا بمختلف فروعها وتتعلق بالسكان وأعرافهم وتاريخهم وحضارتهم ولغاتهم ودينهم.⁴⁴

وقد أضيفت إلى مبلغ تلك الجائزة الأصلي مبالغ أخرى منها 2000 فرنك من طرف وزارة البحرية الفرنسية و2000 فرنك من لدن وزارة الخارجية و 1000 فرنك من قبل وزارة الداخلية. كما زادت الجمعية الجغرافية الباريسية مبلغ ألفين آخرين مضافة بعض الشروط الجديدة.⁴⁵

ومع الإعلان عن هذه الجائزة نجد كايي يتحدى جميع العراقيين والصعوبات قائلا: "سوف أحصل على تلك الجائزة حيا أو ميتا. وإذا قدر أن أموت في سبيلها تعباً وضئياً فإن أختي ستنالها من بعدي"⁴⁶.

⁴⁴ - يشترط في الحصول على هذه الجائزة تقديم ملاحظات موضوعية ويقينية عن موقع المدينة والمجاري المائية المحاذية لها والتجارة التي تعتبر تلك المدينة مركزا لها بالإضافة إلى إعطاء المعلومات الأكثر دقة حول المناطق الممتدة من تنبكتو إلى تشاد، انظر:

Jomard, Remarques et recherches..., op.cit, pp. 358 - 359.

⁴⁵ - Ibid, pp. 355-357.

⁴⁶ - Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p. 90.

وبالفعل فقد نجح كايي، بعد رحلة طويلة ملأى بالمعاناة والعذاب والمرض، في الوصول إلى مدينة تنبكتو يوم 20 إبريل/نيسان 1828 ليقضي ثلاثة عشر يوماً في تلك المدينة التي طالما أثارت فضول الأوربيين وألهبت خيالهم. ثم واصل الرحلة التي ستقوده يوم 7 سبتمبر/أيلول من السنة نفسها إلى مدينة طنجة المغربية التي توجه منها في طريق عودته إلى فرنسا حيث دخل ميناء تولون (Toulon) يوم 8 أكتوبر/تشرين الأول 1828.

وبعد مرور حوالي شهرين على عودة كايي إلى فرنسا منحت الجمعية الجغرافية الباريسية في 5 ديسمبر/كانون الأول الجائزة الكبرى بمبلغ 10.000 فرنك. كما حصل على وسام الشرف الاستحقاق بالإضافة إلى معاش⁴⁷ من الحكومة الفرنسية⁴⁸. ثم عين في السنة الموالية على رأس الممثلة الفرنسية التي كان مقرراً أن تفتح في باماكو سنة 1829 قبل إلغاء فتحها في السنة نفسها⁴⁹. فبقي في فرنسا حتى وفاته سنة 1838.

ج. ماج وتدشين التوغل في أرض البيضان

ولد إيجن-أبدون ماج⁵⁰ (Mage Eugène Abdon) يوم 30 يوليو/تموز 1837 في باريس من أسرة بوجوازية ميسورة الحال. فهو من هذه الزاوية عكس الرحالة

⁴⁷ - Une pension.

⁴⁸ - Gros, Nos explorateurs ... op.cit., p. 12

⁴⁹ - ANFCAOM, Série géographique: Afrique, Sénégal et Dépendances-III/5-d: Notes sur René Caillié, 3 p

⁵⁰ - استقينا معظم معلوماتنا المتعلقة بحياته من المصادر والمراجع التالية:

✓ ANS:

- -Séries B: Correspondances générales;

السابق كايي تماما. فقد كان أبوه مديرا لمدرسة ثانوية خصوصية فأعطى عناية خاصة لتنشئة ودراسة ابنه الذي تابع دروسا تحضيرية للمدرسة البحرية (Ecole navale) ابتداء من أكتوبر/تشرين الأول سنة 1849 ولما يبلغ وقتها الثالثة عشرة من العمر. ثم نجح في مسابقة تلك المدرسة سنة 1850 ليبدأ في خريف السنة نفسها تكوينها بحريا قاسيا استغرق سنتين على متن باخرة التدريب (Vaisseau/Ecole) "الو بوردا" (Le Borda).

وقد أنهى ماج تكوينه البحري الصعب بنجاح ليغادر باخرة التدريب/المدرسة تلك في نهاية يوليو/تموز 1852 في انتظار تعيينه ملازما بحريا.

وقد طلب الملازم ماج، استجابة لرغبته ولرغبة أسرته التي تود له أن يخوض عباب البحار والمحيطات البعيدة كي يصلب عوده ويتعمق تكوينه، أن يحول إلى الخدمة في الفرقاطة "لافورت" (La Forte) التي كانت حينها تستعد للإبحار نحو شواطئ المحيط الهادي الأمريكية الجنوبية. وتمت تلبية طلبه فأبحر في تلك السفينة

-
- Série D: Opérations militaires;
 - Série G: Politique et administration générale;
 - ✓ ANFCAOM: Série géographique: Sén. et Dép.-III-9: Rapports autographes, op.cit. ;
 - ✓ Mage, -"Voyage au Tagant (Afrique centrale)", op.cit. ;
 - ✓ Voyage dans le Soudan occidental, op.cit.;
 - ✓ Broc, Dictionnaire illustré ..., op.cit, pp. 214-215. ;
 - ✓ Taillemite, Dictionnaire des marins..., op.cit. p. 222;
 - ✓ Ancelle, Les explorations., pp. 178 et suivantes;
 - ✓ Anonyme, Hommes et destins,...op.cit., t.-I, pp. 413- 416;
 - ✓ Gillier, La pénétration., pp. 88-92;
 - ✓ Deschamps, L'Europe découvre..., op.cit., pp. 153-154.

يوم 2 ديسمبر/كانون الأول 1852 إلى يرو حيث انضمت إلى سفن فرنسية كانت تستعد لاحتلال جزيرة كاليديونيا الجديدة.

ثم نقل ماج من القاعدة البحرية الفرنسية في المحيط الهادي ليعمل في سفن لنقل الجنود قبل أن يرسل إلى بحر البلطيق للمشاركة في حرب القرم وحصار خليج فينلاندا أثناء صيف 1855 وذلك في نطاق تلك الحرب التي قدم أثناءها خدمات مهمة خاصة في مجال ترجمة الإنجليزية.

وفي نهاية تلك الحرب تمت ترقية ماج فمُنح رتبة ملازم بحري أول ابتداء من فاتح سبتمبر/أيلول 1855 قبيل إكماله الثامنة عشرة. وإذا كان هذا العمر الزمني مبكرا بالنسبة لتلك الرتبة العسكرية، فإن ماج، على ما يبدو، قد استحقها من خلال تكوينه ومثابرتة وانضباطه.⁵¹

وفي السنة الموالية حول الملازم البحري الأول ماج إلى القاعدة البحرية الفرنسية بالسواحل الغرب إفريقية التي تغطي في ذلك الوقت المنطقة الممتدة من السنغال إلى الغابون.

وقد عمل بعض الوقت بسواحل تلك المنطقة قبل أن يعود إلى جزيرة وري مركز القيادة الفرنسية في غرب إفريقيا وهو مصاب بحمى ملاريا أقعدته ليعالج في المركز الصحي بالجزيرة قبل أن يمنح عطلة نقاهة يقضيها في فرنسا التي كان سيتوجه إليها عبر مركز سين-لوي. غير أنه شعر بتحسن صحته فطلب البقاء في إفريقيا.

وقد بادر الوالي الفرنسي على السنغال الجنرال فيدرب إلى الاستجابة لرغبة ماج فقرر الاحتفاظ به في السنغال معللا ذلك في رسالة موجهة إلى القائد الأعلى

⁵¹ - راجع الملاحظات التقويمية التي حصل عليها ماج من قبل رؤوسيه في الصفحات الموالية.

للبحرية في جزيرة وري، قائلا: "إن الملازم البحري الأول ماج المتجه إلى فرنسا في إجازة نقاهة قد تحسنت صحته الآن أكثر، وقد طلب مني الاحتفاظ به في المستعمرة. وبما أن قيادة أركان بحريتنا ناقصة، ونظرا لأنني كتبت مؤخرا للوزير أطلب منه بعض الضباط البحريين، فإني أتشرف أن أبلغكم أنني انتهزت الرغبة الطيبة لدى ماج للاحتفاظ به في السنغال. وستجدون صحبة هذه الرسالة قرار إنزاله من السفينة"⁵².

ولا نستبعد أن يكون فدرب، الذي يعد العدة للقيام بحملة استطلاعات واستكشافات في المنطقة، قد أغرى الضابط البحري ماج بالبقاء في السنغال لتوظيف حماس وحيوية ذلك الشاب في مشاريعه التوسعية.

ولهذا فإن ماج جاء إلى السنغال في اللحظة المناسبة تماما. ومما يدعم افتراضنا ذلك أن الجنرال فيدرب، وهو الشخصية الأولى في مستعمرة السنغال، قد اطلع على نجاح ماج في مختلف المهام التي أسندت إليه خلال سنوات خدمته في سواحل غرب إفريقيا وذلك من خلال الملاحظات التقويمية التي حصل عليها ذلك الضابط الشاب من لدن قاداته.

وكان ماج يؤدي بنجاح مختلف المهام التي تسند وقتئذ إلى ضباط البحرية. فشغل وظيفة قائد سفينة وضابط وحدات وحكما في النزاعات التجارية وسفيرا مفاوضا لدى الزعماء المحليين.

⁵² - ANS, Série B: Correspondances générales (1779-1895), Sous-série 3 B 1 à 3 B/99: Correspondances départ du Gouverneur du Sénégal toutes personnes autres que le Ministre (1788-1893): 3 B/82: Correspondance avec les arrondissements et les chefs de postes (1854-1858), 1 registre, 438 p., lettre du 22/04/1858.

وقد انتزع هذا الضابط الشاب إعجاب وتقدير مسؤوليه. فوصفه النقيب البحري فالون (Vallon) بأنه "ضابط ذكي مهذب يتقن الرسم"⁵³. وأكد العقيد البحري بروتى⁵⁴ (Auguste-Léon Protet) تلك الأوصاف قائلاً: "إن هذا الضابط الشاب ذكي جدا ويتوفر على أكبر استعداد ويرى أنه يعمل بجد وإتقان"⁵⁵.

وسواء ثبت احتمال إغراء فيدرب للضابط ماج بالبقاء في السنغال أم لا، وبغض النظر عما يثيره رفض ذلك الشاب للعودة إلى فرنسا ليقضي فيها فترة راحة ونفاهة من تساؤلات؛ فإن الشيء الوحيد المؤكد، هو عزم فيدرب على استغلال مواهب هذا الضابط الحيوي إلى حد بعيد.

وهكذا، فخلال سنتي 1858-1859 ساهم ماج إلى جانب الجنرال فيدرب في عمليات محاربة بعض جيوب مقاومة التوسع الفرنسي في المنطقة. وتعتبر حملة سين سالوم⁵⁶ واحتلال مركز كمو⁵⁷ في صيف 1859 من أبرز تلك العمليات. وخلال حملة

⁵³ - ANFCAOM: Sénégal et Dép., op.cit. , dossier Mage.

⁵⁴ - بروتى (1808-1862)، أحد ضباط البحرية الفرنسية، شغل منصب والي السنغال سنة 1850.

⁵⁵ - ANFCAOM., Sénégal et Dép., op.cit.

⁵⁶ - منطقة سنغالية استمدت تسميتها من نهري سين وسالوم اللذين يخترقانها، ويتعلق الأمر هنا بسلسلة من المعارك دارت خلال سنة 1859 في تلك المنطقة بين قوات الحاج عمر الفوتي وفرقتين فرنسيتين يتولى الجنرال فيدرب قيادة إحداهما في حين أسندت قيادة الوحدة الثانية إلى الرائد فارون Faron، راجع:

-ANS, Série D: Affaires militaires (1763-1920), Sous-série 1 D: Opérations militaires, Sénégal et Dépendances (1823-1894):

-1D-14: Expédition de Guemou sous le commandement du chef de bataillon Faron contre El Hadj Omar, 3 p., 1859;

-1D-15: Expédition de Sine-Saloum contre Maba, 13 p., 1859.

سين سالوم تمكن ماج من تخليص فيدرب وجنوده من وضعية حرجة جدا وخطيرة عندما نجح في إيصال المؤن إليهم ليلا وهم يوشكون على الهلاك عطشا وجوعا.⁵⁸

وقد زادت هذه العملية إعجاب فيدرب بالضابط الشاب وبشجاعته وصلابته الجسمية فرشحه للحصول على وسام الشرف الاستحقاقى لكن ذلك الترشيح لم يلق أذانا صاغية إلا عندما أعاد ماج، من جديد، إظهار مؤهلاته العسكرية أثناء احتلال مركز مو الذي كانت تحميه فرقة بقيادة سييري آدم نجل الحاج عمر.

فقد أشاد قائد تلك الحملة الرائد فارون (Faron)، في تقريره، بالضابط ماج وخصاله الحربية⁵⁹ فساعد ذلك فيدرب على أن يحصل له، هذه المرة، على وسام الشرف بتاريخ 21 12 1859.⁶⁰

وفي الشهر نفسه أوفد فيدرب الضابط ماج في مهمة استكشافية إلى منطقة تكانت الموريتانية⁶¹ استغرقت 45 يوما وقطع خلالها 800 كلم في منطقة كانت مجهولة بالنسبة للفرنسيين. وربما يكون ماج أول أوروبي يصل هذه المنطقة التي ستبقى أربعين سنة بعد وصوله إليها مغلقة أمام الفرنسيين.

⁵⁷ - مركز يقع على بعد عدة كيلومترات جنوب غربي مدينة سيلبابي الحالية، اتخذها الحاج عمر الفوتي محطة لإمداد وتموين قواته أثناء مواجهته للفرنسيين بالمنطقة. وقد تمكنت قوات الجنرال فيدرب من الاستيلاء على مركز كمو وتحطيمه سنة 1859، مقابلة مع الأستاذ ديفيد روبنسون، بمدينة أكس-أن-بروفانص، أغسطس/آب 1994.

⁵⁸ - ANS., Série D, Sous-série 1 D-15, Campagne de Sine, mai 1859.

⁵⁹ - ANS., Série D: Opérations militaires, Sous-série 1 D-14: Expédition de Guemou, 1859, 3 p., p. 2.

⁶⁰ - ANFCAOM. , Dossier Mage.

⁶¹ - لنا عودة إلى هذه الرحلة في أماكن متعددة من هذا العمل.

ولم تخل رحلة ماج إلى منطقة تانت من مغامرة، خاصة أنه لم يتظاهر باعتناق الإسلام مثلما فعل كايي إبان رحلته داخل منطقة البراكنه. كما أن ماج لم يكن مثل نظيره ينصان الذي توجه إلى آدرار في الفترة ذاتها لأن هذا الأخير كان مرفوقا بأبن المقداد وهو الشخصية السنغالية التي تتمتع بتقدير واحترام البيضان وبالتالي فإن وجوده إلى جانب ينصان يشكل مستوى ما من الحماية.

أما توجه ماج إلى تكانت وسعيه إلى الوصول إلى مدن تجكجه وتيشيت وولاته فيمكن اعتباره محاولة شجاعة للتوغل في المناطق البيضانية الداخلية سبقت أوانها وبالتالي فليس من المتوقع أن تسفر عن النتائج المتوخاة منها.

وعندما عاد الضابط ماج إلى السنغال من رحلته إلى تكانت، استفاد من فترة هدوء سياسي في منطقة النهر ليقوم سنة 1860، وهو ممتط صهوة حصانه هذه المرة، بمهمة استطلاعية في مجرى السنغال الأعلى⁶²، وهي مهمة ستخدم رحلته الطويلة في السودان التي سنتحدث عنها بعد حين.

وبعد أربع سنوات وتسعة أشهر من الخدمة المتواصلة في سواحل غرب إفريقيا ومحاولات التوغل في المناطق الداخلية، توجه ماج في شهر نوفمبر/تشرين الثاني 1860 إلى فرنسا ليعوض عطله الماضية ف قضى فيها أربعة أشهر عاد بعدها إلى السنغال في إبريل/نيسان 1861 فوجد ظروفًا جديدة في المستعمرة لا تخدم طموحه ورغبته في مواصلة الرحلات الاستكشافية. ذلك أن الوالي الفرنسي الجديد العقيد البحري برنار جوركييري⁶³ (Bernard Jaureguiberry) كان منشغلا في تصفية الحسابات مع المقربين من سلفه الجنرال فيدراب.

⁶² - ANS. Série G., Sous-série 1 G-32: Missions de Mage et voyage à Ségou (1860-1864), 40 p., Lettres de Mage, 20 / 03 et 21/ 04/1860.

⁶³ - برنار جوركييري (1847-1863)، ضابط سام في البحرية الفرنسية، عين واليا على السنغال من 1861 إلى 1863.

وكان من الطبيعي أن تشمل تلك الإجراءات الرحالة ماج الذي انتهز الوالي الجديد سوء تفاهم معه ليقبله من قيادة قطعته البحرية ويعيده إلى فرنسا ويضعه تحت تصرف الوزير حيث حول إلى مركز الخرائط والخطط التابع لوزارة البحرية حتى مايو/أيار 1863 تاريخ تعيين فيدر، من جديد، واليا على السنغال.

وقد سارع فيدر بطلب ماج إلى الوزارة، وذلك لاستخدامه في عمليات استئناف الرحلات الاستكشافية التي كانت قد بدأت في تلك المستعمرة منذ عدة سنوات تحت إشرافه وبمشاركة الضابط البحري ماج نفسه.

وقد استجابت وزارة البحرية لطلب فيدر فحولت إليه ماج الذي وضع "خارج الإطار" ليكون تابعا للوالي مباشرة ودون المرور بقائد البحرية.

وبرفقة فيدر عاد ماج إلى السنغال في صيف 1863 صحبة زميل له هو الجراح البحري لويس كينتين (Louis Quintin) الذي سيرافقه خلال رحلته عبر السودان وهي الرحلة التي ستدوم واحدا وعشرين شهرا ونصف الشهر. وبعد العودة من هذه الرحلة الطويلة حول ماج، من جديد، إلى مركز الخرائط والخطط بوزارة البحرية ليحرر رحلته تلك وينجز الرسوم والخريطة المرفقة بها فكافأته الجمعية الجغرافية الباريسية بميدالية ذهبية.

وفي 18 نوفمبر/تشرين الثاني 1869 توفي الرحالة ماج إثر تحطم وغرق السفينة التي كان يقودها بسواحل بريست (Brest) وعمره إذ ذاك اثنتان وثلاثون سنة خلفا الأثرين المشار إليهما سابقا.

د. علي صل: أسلوب جديد في الاستكشاف

كان فشل النقيب البحري ماج ونقيب الأركان العامة فينصان في دخول المدن الموريتانية كافيا لجعل الجنرال فيدرب يغير أساليب تعامله مع المنطقة وسكانها. فلم تكذ تمضي بضعة أشهر على عودة ماج من تكانت وفينصان من أدرار بعد أن نهبا ومنعا من دخول المدن الموريتانية حتى قرر فيدرب استخدام مستكشفين سنغاليين ممن برهنوا على إخلاصهم لفرنسا بغية التمكن من دخول تلك المدن واجتياز المجال البيضاني ومن ثم ربط السنغال بالجزائر والمغرب الأقصى.

وكان أول أولئك السنغاليين هو الملازم علي صل⁶⁴ (Alioune Sall) المولود بين سنتي 1830 و1832 من أسرة سنغالية (ولفية) مسلمة. وكان والده ماكودي صل (Macodé Sall) زعيما محليا وواحدا من أكبر التجار بمنطقة السنغال الأعلى، وقد دخل بحكم مركزه في علاقات مع الفرنسيين نمت بالتدرج لتقود إلى إدخال ابنه علي صل في الجيش الفرنسي كجندي ضمن "القوات المحلية".

⁶⁴ - اعتمدنا حوله المراجع والمصادر التالية:

- ✓ ANFCAOM., Série Missions, Carton 1, Dossier Alioune Sall:
 - chemise n°1: Correspondances;
 - chemise n°2: Notes, arrêtés et décisions;
 - chemise n05: Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration dans l'intérieur de l'Afrique, (1860-1862), 46 p.;
- ✓ Regnault, (Lieutenant de Vaisseau), "Relation abrégée du voyage d'Alioune Sal", Paris, Nouvelles annales des voyages, 1864, pp. 179-229;
- ✓ Prevost, **Dictionnaire...**, op.cit, t. deuxième, 1984, p. 41;
- ✓ Anonyme, **Hommes et Destins**, op.cit., t.-V, 1984, pp. 492-493;
- ✓ Gillier, **La pénétration en Mauritanie...** op.cit., pp. 86 et suivantes;
- ✓ Deschamps, **L'Europe découvre...**, op.cit., pp. 155-156.

وقد أبلى هذا الجندي بلاء حسنا خلال معارك فبراير/شباط 1855 بين قوات فيدربر وفرسان المقاومة في منطقة كايور.⁶⁵ وتقديرا لهذا البلاء منحه الوزير كاتب الدولة للبحرية والمستعمرات جائزة ذهبية⁶⁶. كما رقي في أكتوبر/تشرين الأول 1856 إلى رتبة ملازم⁶⁷.

ويتضح من ملف علي صل بمركز أرشيف ما وراء البحار أن الفرنسيين "أعجبوا بإخلاصه وشجاعته"⁶⁸ فأصبحوا يقدرونه تقديرا خاصا ويعتبرونه مواطنا فرنسيا من الدرجة الأولى. ونظرا لخبرته المعقدة بشؤون المنطقة ومعرفته بالعربية والبربرية والعديد من اللغات الإفريقية، فقد أصبح علي صل مستشارا مرموقا بمكتب الشؤون المحلية بمستعمرة السنغال⁶⁹، فأظهر الكثير من الطاعة والإخلاص للفرنسيين الذين استخدموه في العديد من المهمات العسكرية والسياسية، ليس في مختلف نواحي السنغال وفي منطقة حوض النهر فقط، بل في أعماق البلاد الموريتانية.

فعلى الصعيد العسكري ساهم علي صل بنشاط وحيوية في عمليات إخضاع منطقة السنغامبيا التي تزعمها الجنرال فيدربر في نهاية خمسينيات وبداية ستينيات القرن التاسع عشر.

⁶⁵ - Archives Nationales de France: Centre des Archives d'Outre-Mer, Série: Missions: Carton 1, chemise n°2: décisions, arrêtés et notes, note du 25 mars 1855.

⁶⁶ - ANFCAOM., Série Missions, Carton1: chemise n°2, arrêté du 22/03/1855.

⁶⁷ - ANFCAOM, Série Missions, Carton-1, chemise n°2, arrêté du 13/10/1855.

⁶⁸ - ANFCAOM., Série Missions, Carton 1: chemise n°1, lettre du 10/04/1855 et chemise n°2, arrêté du 22/03/1855.

⁶⁹ - Anonyme, **Hommes et Destins**, op.cit., t.-V, 1984, p. 493.

وعلى المستوى السياسي استخدم علي صل مرات عديدة سفيرا ممثلا للطرف الفرنسي في المفاوضات مع الزعماء المحليين بمنطقة السنغامبيا؛ تلك المفاوضات الخاصة بالمبادلات التجارية بالمنطقة وبكمية ونوعية الهدايا المقدمة إلى أولئك الزعماء.

وكان إخلاص علي صل للفرنسيين وتجربته خلال المفاوضات السابقة الذكر، فضلا عن إسلامه ومعرفته للعربية، عوامل تضافرت لتجعل الجنرال فيدرب يختاره لتحقيق ما عجز عنه الضباط الفرنسيون؛ ألا وهو دخول المدن الموريتانية واجتياز الصحراء لجمع المعلومات المساعدة على ربط الجزائر والسنغال أهم مستعمرتين فرنسييتين بالمنطقة.

وتقضي التعليمات التي تلقاها علي صل من الجنرال فيدرب بأن يمر بمنطقة البراكنه ليضع حدا للصراعات التي تمزق تلك الإمارة قبل أن يتوجه إلى تكانت ثم الحوضين لزيارة مدينة ولاته التي سيسافر منها إلى مدينة تنبكتو حيث سيلتحق بقافلة مغربية لتوصله إلى مدينة توات.⁷⁰

وقد غادر علي صل بودور في 12 يوليو/تموز 1860 صحية الملازم الأول البحري دومينك بول⁷¹، متجها إلى منطقة البراكنه حيث مكث ثلاثة أشهر محاولا تنفيذ المهمة الأولى في مأموريته وهي التوسط في النزاع السياسي الدائر حينها بين

⁷⁰ - ANFCAOM, Série Missions, Carton 1, chemise n°3, Voyage d'exploration dans l'intérieur de l'Afrique, op.cit

⁷¹ - وهو مبعوث إلى منطقة البراكنه كما أوضحنا سابقا. راجع: Bourrel, "Voyage ...", op.cit., p. 512.

أولاد نغماش⁷² وأولاد السيد⁷³ ويذكر علي صل أن سفارته تلك تكلفت بالنجاح، حيث أصلح ذات بين الفئتين المتصارعتين في البراكنه.⁷⁴

ومن البراكنه توجه علي صل إلى تكانت المرحلة الثانية من مهمته ساعيا وراء كسب ود الأمير بكار ولد اسويد أحمد⁷⁵ وتوطيد الصلات مع إمارة إدوعيش⁷⁶ ثم دخول مدن المنطقة لجمع المعلومات اللازمة.

72 - الفرع الأكبر من الأسرة الأميرية في البراكنه وينتسبون إلى نغماش بن محمد بن عبد الله بن كروم بن ملوك بن بركني. وهم الذين أسسوا الإمارة واحتفظوا بزعامتها حتى بداية الثلث الأخير من القرن الثامن عشر حيث انتقلت إلى أبناء عمومته أولاد السيد.

73 - الفرع الأصغر من الأسرة الأميرية في البراكنه. وينتسبون إلى أبيهم السيد بن محمد بن عبد الله. وقد انتقلت إليهم الإمارة في عهد المختار بن أغريش بن سدوم بن السيد المتوفى سنة 1180هـ - 1766، وتمكنوا من الاحتفاظ بها حتى احتلال فرنسا للبلاد.

74 - A. Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., p. 3.

75 - أحد أعظم وأقوى أمراء إدوعيش، وربما البلاد الموريتانية قاطبة. تجاوز نفوذه مجموعة أبكاك ليصبح في بعض الأحيان زعيما لإيدوعيش قاطبة. وقد تمكن من السيطرة على محطة باكل (Bakel) النهرية والحصول منها على امتيازات كثيرة ساعدته في كسب المزيد من السمعة واكتتاب المزيد من الأنصار. وكان يمارس نفوذا قويا على بعض المنافذ الداخلية لحوض نهر السنغال الأعلى. تصدى بكار في أخريات أيامه للتوغل الفرنسي في البلاد واستشهد سنة 1905 وهو يحارب الفرنسيين.

76 - مجموعة صنهاجية تكاد تكون الوحيدة التي تمكنت من تأسيس إمارة غير مغربية بمنطقة تانت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ومن الناحية الجينئالوجية ينقسم إدوعيش عموما إلى بطون كبرى من أهمها: أبكاك وشراتيت. للمزيد من التفاصيل راجع:

-بابه بن الشيخ سيدي، إمارتا إدوعيش ومشطوف، دراسة وتحقيق إزيد بيه بن محمد محمود، نواكشوط، 1992. 292 ص.

- ✓ Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir..., op.cit., pp. 327-339,
- ✓ Pierre Amilhat, "Petite chronique des Idouaich, héritiers guerriers des Almoravides sahariens", Paris, Revue des Etudes Islamiques, n°1, 1937, pp. 41-130.

وخدمة لإنجاز مهمته هذه أكد علي صل للأمير بكار بن سويد أحمد أنه تخلى منذ زمن بعيد عن خدمة "النصارى" وأنه ذهب إلى مكة مؤدياً فريضة الحج⁷⁷، غير أن الأمير بكار الذي لم يصدق تلك المزاعم قد أرغم الرحالة على أن يطلب له من سين-لوي هدايا ثمينة فضلاً عن تلك التي أهدها إياها عند مقدمه والمتمثلة في 60 كرو⁷⁸ من الذهب.⁷⁹

ولكي يحد علي صل من شكوك الأمير بكار، تزوج في تكانت⁸⁰، إلا أن جميع تصرفاته ظلت محل ريبية، فبقي مراقباً وأصبح شبه سجين لدى ذلك الأمير حتى جاءت الفرصة السانحة حين توجه بكار على رأس جيشه إلى أدرار لدعم سيدي أحمد بن عيده⁸¹ فانتهز علي صل غياب الأمير ليهرب من تكانت بادئاً سلسلة من التنقلات والترحال قادته على التوالي إلى ولاته والنعمه⁸² وأراوان وباسكنو التي تم فيها التعرف عليه لتعقله فرقة من جنود الحاج عمر الفوتي كانت وقتها بالمنطقة.

وفي الاستجواب اعترف علي صل بأنه كان في الماضي يخدم الفرنسيين بالسنگال إلا أنه عدل منذ زمن بعيد عن تلك الخدمة وأكد أنه الآن ذهب للحج وأن لديه

⁷⁷ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., p. 3.

⁷⁸ - يبدو أن "كرو" (Gros) مقياس لوزن الذهب كان شائع الاستخدام في تلك الفترة لدرجة أن اثنين من أصحاب المدونة (علي صل وبول صولبي) ذكرا هذا المقياس في أماكن مختلفة من نصيهما.

⁷⁹ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., p. 4.

⁸⁰ - لم تمكننا مصادرنا بعد من الحصول على معلومات إضافية بشأن هذا الزواج، راجع:

Alioune Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., p. 5.

⁸¹ - هو محمد بن أحمد بن سيدي أحمد الذي خلف أباه سنة 1860/1277. وقد مد إليه أخواله إدوعيش يد العون في بدايات صراعه مع إخوته على خلافة أبيهم.

⁸² - مدينة موريتانية يرجع تأسيسها حسب الروايات الشائعة إلى سنة 1808، وهي الآن عاصمة ولاية الحوض الشرقي.

"كتابة من شيخ تندغه⁸³ الجليل محمذن فال بن متالي⁸⁴ تثبت تتلمذه على ذلك الشيخ⁸⁵ وغيرته على الإسلام.⁸⁶

ولم يكد سكان باسكنو يسمعون تأكيدات علي صل أنه تتلمذ على الشيخ محمذن فال بن متالي حتى سعوا إلى تخليصه من أسر الجنود فدفعوا مبلغ 500 كرو من الذهب فداء له.⁸⁷

غير أن الجنود رفضوا تلك الفدية مشككين في صحة مزاعمه وكبلوه بالسلاسل مصرين على الذهاب به إلى الحاج عمر قائلين: "إن الحاج عمر لن يتردد في منحه قيادة فرقة من جيشه للاستفادة من تجاربه إذا تثبت دعاويه، وفي هذه الحالة فإن الجهاد المقدس أكثر ترتبا من الحج"⁸⁸.

83 - إحدى أهم القبائل الزاوية وأقدمها في منطقة الجنوب الغربي الموريتاني. تنحدر من أصول مرابطية. راجع، المختار بن حامد، الموسوعة، ج.11، مرقون، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، ص. 1 وما بعدها.

84 - هو محمذن فال بن متالي التندغي (ت.1288هـ/1871م) أحد علماء منطقة ال بله بالجنوب الغربي الموريتاني، كان له وزن علمي وديني كبير. خلف مؤلفات في العديد من فروع الثقافة العربية الإسلامية. تمكن مراجعة ترجمته في أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط، مر. سا، صص. 344-343.

85 - لم تمكن مصادرنا بعد من التأكد من صحة تتلمذ علي صل على الفقيه محمذن فال بن متالي غير أن معرفة علي صل المحتملة للبربرية التي كانت مجموعات تندغه تتحدثها في ذلك الوقت، قد ترجح صدق ادعائه.

86 - Alioune Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., p. 7.

87 - 87 - Ibid, p. 7.

88 - 88 - Ibid, p. 9.

وفي الطريق تمكن علي صل بمساعدة زعيم أهل الطالب مصطفى⁸⁹ من الاختفاء في جبل مدة ثلاثة أيام ثم الفرار عبر الصحراء حيث أوشك أن يموت عطشا لولا أن تداركته قافلة من قبيلة لقلال⁹⁰ فأنقذت حياته⁹¹، ليتابع طريقه عائدا إلى مركز باكل ومنها إلى سين-لوي التي وصلها يوم 23 ديسمبر/كانون الأول 1862⁽⁹²⁾ بعد رحلة استغرقت تسعة وعشرين شهرا ذاق خلالها عذاب الأسر وعانى الجوع والعطش.

ويبدو أن تلك المعاناة أثرت كثيرا على صحة علي صل إذ قضى فترة من الزمن بعد عودته إلى السنغال وهو يعاني المرض جراء تبعات الرحلة.

وقد ظل علي صل على إخلاصه للفرنسيين حتى آخر أيامه، ففي سنة 1863 عندما جهز الجنرال فيدرب وحدة عسكرية تحت قيادته المباشرة لبناء قلعة في منطقة كايور، أصر علي صل رغم مرضه الشديد على أن يشارك في تلك الوحدة. وقد استجاب فيدرب لرغبة علي صل الذي سار بالفعل ضمن الفرقة العسكرية لكن وطأة المرض اشتدت عليه فلفظ أنفاسه الأخيرة وهو محمول إلى سينلوي للعلاج مخلفا تقريرا عن مهمته التي سنتطرق إليها في مكان آخر من هذا الفصل.

89 - بطن من بطون قبيلة لقلال البيضانية، انظر: المختار ولد حامد، موسوعة حياة موريتانيا (الجغرافيا) مر. سا، ص. 59.

90 - لقلال أو لقلال إحدى أهم القبائل الزاوية، ينتسبون إلى أبي بكر الصديق، ويتمركزون أساسا في الحوضين والعصابه وأدرار. راجع: ابن الحاج إبراهيم، صحيحة النقل في علوية إدوعل وبكرية محمد قل، مص. سا.

91 - Deschamps, L'Europe découvre..., op.cit., p. 156.

92 - Broc, Dictionnaire illustré..., op.cit., p. 2.

هـ. صولبي: فشل أحلام "فتح" الصحراء سلميا

ولد بول صولبي⁹³ (Paul Soleillet) في 29 إبريل/نيسان 1842 بمدينة نيم (Nîmes) من أسرة ميسورة الحال، فقد كان أبوه يشغل منصب مسؤول الضرائب غير المباشرة في مدينة مونبليي، كما أن أمه تنحدر من أسرة "نيمية" عريقة متخصصة في تجارة الأثاث والمجوهرات. أما خاله فقد تمكن من أن يصبح نقيب المحامين في مدينة نيم، ثم نائبا في البرلمان سنة 1871.

وقد انتقل صولبي مع أسرته إلى مدينة أفينيون (Avignon) لمتابعة تعليمه الإعدادي والثانوي، حيث كان يحظى برعاية وعناية والديه اللذين حرصا على إعداده إعدادا جيدا، مما جعله ينبغ في بعض المواد كالفسفة والتاريخ والجغرافيا ويحصل على جوائز تقديرية من المدرسة.⁹⁴

⁹³ - اعتمدنا في معلوماتنا حوله على المصادر والمراجع التالية:

-ANFCAOM, Série: Missions, Carton 2: Rapport à Monsieur Le Ministre des Travaux Publics sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, décembre 1879-mai 1880, 154 p.;

-Broc, Dictionnaire illustré...op.cit, pp. 303-304 ;

-Deschamps, L'Europe...op.cit., pp. 167-168;

-Chailley, Les grandes missions...op.cit., p. 47;

-Gros, Nos explorateurs en Afrique...op.cit., pp. 249-260;

-Barnel, Biographie de Paul Soleillet in: Jules Gros, Nos explorateurs en Afrique...op.cit, pp. VII-XXXIV;

-J. Valette, "Pénétration française au Sahara et exploration: le cas de Paul Soleillet", Paris, Revue française d'histoire d'Outre-Mer, t.-XVII, n° 248-249, 3ème et 4ème trimestres, 1980, pp. 253-267.

⁹⁴ - Barnel, Biographie..., p. XIII, in Gros, Nos explorateurs, op.cit ,

ولكي يضمن والده مستقبل ابنه المهني قبله مستخدماً بلا أجرة في إدارة الضرائب في محاولة على ما يبدو لتحضيره كي يخلف أباه في الوظيفة حسب تقليد شائع حينذاك في الجنوب الفرنسي.⁹⁵ وقد وقع بول صولبي مبكراً في حب فتاة من أسرة مرموقة فتزوجها بتشجيع من والده.

وفي هذه الفترة بدأ صولبي يطالع كتب الرحلات ويدون معلومات عن القارة الإفريقية التي أخذ يشغف بالتجوال داخلها.

وفجأة توفيت زوجته الشابة أثناء النفاس ودون أن ي نقذ جنينها مما سبب له نوبة من الانفعال والأسى دفعته إلى فترة من الانطواء والانعزال والتأمل فاندفع من جديد إلى مطالعة المزيد من الرحلات ربما لنسيان مأساته فبدأ الحنين إلى الأسفار يعاوده ويغريه بمغادرة البلاد.

وفي محاولة لإبعاد صولبي عن متاعب الأسفار ومخاطر المغامرات، ولمساعدته على نسيان مأساه حصل له والده على وظيفة مستخدم رسمي بإدارة الضرائب غير المباشرة وحوله إلى باريس لعل تغيير الجو يثنيه عن مشاريع الأسفار التي بدأت تسيطر عليه. غير أن باريس ومحاسنها والوظيفة ومردوديتها لم تكن لتتسي صولبي خطه المستقبلية؛ بل إنه، وهو الشغوف بالمطالعة والمتعود على الاستقلالية، سارع إلى الاستقالة من الوظيفة الجديدة ليتفرغ للتتقيب في كتب الرحلات عما يشبع شهيته اللامحدودة في هذا المجال.

وعند ذلك بدأ الوالد يستجيب لطموحات ابنه، سعياً منه إلى ضمان مستقبل هذا الابن، فجعله شريكا لصاحب مؤسسة لصناعة الملابس وتطريزها بالذهب والفضة حسب الذوق المشرقي، وذلك لتصديرها إلى أقطار الشمال الإفريقي.

⁹⁵ - Valette, "Pénétration française au Sahara...", op.cit., p. 254.

وفي سنة 1865 بعثت تلك الشركة صولبي إلى الجزائر وعمره إذ ذاك حوالي ثلاث وعشرين سنة.

وخلال سنتي 1865 و1866 تولى صولبي بيع الملابس لصالح الشركة المذكورة في الجزائر. غير أن نشاطاته التجارية لم تتكلل بالنجاح إذ أصيبت الشركة بالإفلاس إلا أن صولبي لبي رغبة شخصية ملحة في التجوال داخل الجزائر كما زار المغرب وتونس. فألف تلك المناطق وسكانها المسلمين إلى درجة أننا نصادفه سنة 1867 يعالج المرضى التونسيين المصابين بالكوليرا بحماس ودون الاكتراث لآراء من حذروه من تعريض نفسه مجانا لمخاطر ذلك الوباء، ونصحوه باتباع الحيطة والتوجه فورا إلى فرنسا. وعكسا لذلك فإن صولبي أصر على إسعاف المرضى ومواساة ذويهم، وقد وجد في هذا النشاط فرصة للتعرف أكثر على عادات ونمط حياة السكان.⁹⁶

وخلال إسعاف أولئك المرضى تعرف صولبي على فتاة فرنسية كانت تشارك في عمليات الإسعاف وهي ابنة مترجم البعثة (La Légation) الفرنسية في تونس التي ستصبح زوجة صولبي وأم أبنائه.

وعند اندلاع الحرب الفرنسية البروسية سنة 1870 سارع صولبي إلى التطوع للدفاع عن بلاده المهددة حيث شارك في معارك عديدة وحصل على رتبة عريف. وقد خلفت هزيمة فرنسا مرارة عميقة في قلبه زادت حدتها إصابته بمرض أو شك أن يقضي عليه.⁹⁷

وفور تماثله للشفاء استأنف التخطيط لمشاريعه المتعلقة بالوصول إلى المناطق الداخلية الإفريقية. ففي سنة 1872 اختط لنفسه هدف فتح إفريقيا الغربية أمام التجارة

⁹⁶ - Barnel, Biographie..., p. XIII, in Gros, Nos explorateurs..., op.cit ,

⁹⁷ - لم تزودنا مصادرنا بمعلومات مفصلة حول ذلك المرض.

الفرنسية متوجها في هذا النطاق إلى الجزائر حيث قام بأول رحلة له عبر الصحراء الجزائرية خلال سنتي 1872 و1873 زار أثناءها الأغواط وجبل عمور ووحدات مزاب ثم عاد إلى مدينة الجزائر وهو مصمم أكثر على مواصلة رحلاته عبر الصحراء الكبرى خدمة لهدفه السالف الذكر، والذي تعتبر خطوته المقبلة الوصول إلى عين صالح، أحد مراكز العلاقات والروابط التجارية مع بلاد السودان.

وخدمة لهذا الهدف توجه صولبي إلى باريس ساعيا وراء الحصول على دعم رسمي أو لدى إحدى الهيئات الخصوصية المهمة. لكن جميع محاولاته في فرنسا بهذا الخصوص باءت بالفشل فاستنتج أن الأذان الصاغية لمشاريعه متوفرة في الجزائر أكثر مما هي متوفرة في فرنسا، فقفل عائدا إلى الجزائر حيث تمكن من إقناع غرفتها التجارية بمنحه مساعدة لتمويل رحلته إلى عين صالح التي توجه إليها في مطلع 1874 ووصلها يوم 6 مارس/آذار من السنة نفسها عبر ورغله ثم عاد منها حيث استقبل بحفاوة في الجزائر. وقد نشرت رحلة صولبي تلك تحت عنوان "رحلة داخل إفريقيا الغربية"⁹⁸.

وبعد تمكنه من الوصول إلى عين صالح بدأ ينظر لمشروع ربط مستعمرتي الجزائر والسنغال بخط حديدي يعبر منطقة الصحراء وبلاد السودان رابطا بين هذا الخط ومستقبل فرنسا في بلاد السودان، حيث نشر سنة 1876 كتابه المعنون "مستقبل فرنسا في إفريقيا"⁹⁹.

وبالطبع فإن إقامة مثل ذلك الخط تتطلب اكتشاف المنطقة لتحديد الأماكن التي يمكن أن يمر منها. لذلك رجع صولبي من جديد إلى فرنسا باحثا عن تمويل رحلة استكشافية بين المستعمرتين الفرنسيين. وشرح مشاريعه الطموحة جاب صولبي عدة

⁹⁸ - Paul Soleillet, Voyage dans l'Afrique occidentale: l'Algérie, Mzab, Tildikelt, Paris, Challamel, 1877, 280 p.

⁹⁹ - Paul Soleillet, L'Avenir de la France en Afrique.

مدن فرنسية مقدما سلسلة من المحاضرات¹⁰⁰ تحت رعاية الجمعيات الجغرافية والغرف التجارية في كل من أفنيون وليون وباريس ومارسيليا ونيم وتولوز ومونبيلي وروان.

ولم يقتصر هذا الرحالة على المدن الفرنسية، بل إنه زار خدمة لمشروعه ذلك كلا من إسبانيا وهولندا وبلجيكا التي استقبله ملكها ليوبولد الثاني بحفاوة وأعجب به. كما كان استقبال الجمعية الجغرافية الهولندية وطلبة جامعة ليد (Leyde) له حارا هو الآخر.

وتمثل المحور الذي ارتكزت عليه محاضرات واتصالات صولبي تلك في تقديم تقرير عن تجواله بإفريقيا وخاصة رحلته إلى عين صالح وضرورة ربط الجزائر بالسنغال بواسطة خط حديدي كشرط ضروري لجعل تجارة الصحراء والسودان المتجهة نحو طرابلس تغير مسارها لتتوجه إلى الجزائر.

وقد بدأت حملة صولبي هذه تؤتي أكلها إذ حصل عن طريق أحد أصدقائه على وظيفة مراسل لجريدة مونتيير إنيفرسيل (Moniteur Universel)، كما تمكن الأدميرال توماسي (Thomasset) رئيس جمعية الدراسات الاستعمارية والبحرية من إقناع تلك الهيئة بتمويل رحلة ينوي صولبي القيام بها نحو السنغال.

وفور مجيئه إلى سين-لوي استقبل الرحالة استقبالا وديا من قبل الوالي الفرنسي بريير دو ليل (Brière de L'Isle) الذي منحه مساعدة مالية لتغطية رحلته نحو بلاد السودان، تلك الرحلة التي بدأها في إبريل/نيسان سنة 1878 متجها نحو

¹⁰⁰ - من بين تلك المحاضرات واحدة قدمها صولبي في 3 يناير/كانون الثاني 1876 بمدينة روان تحت عنوان: "السكة الحديدية بين الجزائر وسين-لوي عبر تنبكتو". راجع:

ANFCAOM, mission 2/2, dossier Paul Soleillet, Imprimerie de Léon Brière, Rouen, 1876.

النيجر الأعلى عبر السنغال سالكا طريقا مختلفا عن ذلك الذي سلكه الرحالة ماج أثناء رحلته السابقة الذكر عبر بلاد السودان.

ورغم أن صولبي لم يتمكن من تجاوز سكو فإن الإدارة الفرنسية في السنغال اعتبرت أن رحلته¹⁰¹ تلك قد تكلفت بالنجاح وأنها تستحق التشجيع لذلك صادق مجلس إدارة المستعمرة على منحه عونا بمبلغ عشرين ألف فرنك مساهمة في تمويل رحلة ينوي القيام بها السنة الموالية نحو تيشيت وولاته وتنيكتو.¹⁰²

وبعد استراحة قصيرة في سين-لوي، لالتقاط الأنفاس والعلاج، قفل الرحالة صولبي راجعا إلى فرنسا حيث استقبل في مختلف المدن الفرنسية التي زارها استقبالا حارا أشرفت عليه الجمعيات الجغرافية لتلك المدن وأجرى اتصالات متعددة مع بعض الشخصيات العلمية والسياسية¹⁰³.

¹⁰¹ - نشرت هذه الرحلة تحت عنوان:

Paul Soleillet, Les voyages et découvertes de Paul Soleillet dans le Sahara et le Soudan, racontés par lui-même, rédigés sur ses mémoires, notes et carnets de voyages... par Jules Gros, Paris, M. Dreyfus, 1881, 241 p .

¹⁰² - ANFCAOM, mission, 2/2, dossier Paul Soleillet, op.cit.

¹⁰³ - نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- Jules Ferry,
- Ferdinand de Lesseps,
- Léon Gambetta,
- M. Levasseur,
- Jean-Bernard Jaureguiberry,
- Gorges Perin.

وقد تركزت تلك الاتصالات حول تقديم تقرير عن رحلته بين سين-لوى وسكو فضلا عن شرح مشاريعه المستقبلية وخاصة ما يتعلق منها بالسكة الحديدية العابرة للصحراء والتي ستربط بين الجزائر وسين-لوى.

وعلى ما يبدو فإن الإدارة الفرنسية بدأت تهتم بصوليى ومشاريعه أكثر، فقد تم تشكيل لجنة فنية عليا لدراسة مشروع السكة الحديدية المقترحة وعين صوليى عضوا في تلك اللجنة.

كما أن جيل فري (Jules Ferry) وزير التهذيب استقبل صوليى وسلمه أوسمة المجمعين¹⁰⁴. ومنحته هذه الوزارة كذلك مساعدة مالية مساهمة في تمويل رحلته المقبلة نحو منطقة آدرار الموريتانية.

وفي مطلع 1880 وصل صوليى إلى سينلوى للمرة الثانية لبدء رحلة تستهدف ربط الجزائر بالسنغال عن طريق مدن تيشيت وولاته وتنبكتو، ولدراسة الظروف الملائمة لإقامة السكة الحديدية. غير أن هذه الرحلة¹⁰⁵ لم تحقق أهدافها جراء تعرض الرحالة للنهب على مقربة من مدينة أطار بالشمال الموريتاني أثناء ربيع 1880، مما أرغمه على العودة مسرعا إلى سينلوى ثم التوجه إلى فرنسا لتحضير الظروف الملائمة لاستئناف الرحلة من جديد. وبعد إجراءات تمهيدية في فرنسا عاد الرحالة صوليى المرة الثالثة إلى السنغال لمتابعة محاولاته السابقة عبور المنطقة والوصول إلى الجزائر.

وفي هذه الأثناء، وخدمة لمشروع السكة الحديدية العابرة للصحراء، عهدت الحكومة الفرنسية إلى ضابطين ساميين بالقيام بعمليات استطلاعية في المنطقة.

¹⁰⁴ - Les palmes d'officier d'académie.

¹⁰⁵ - سنعود إلى هذه الرحلة في مختلف فصول هذا العمل.

فقد غادر الضابط فلاتيز¹⁰⁶ (Paul Flatters) ورغلة في نهاية 1880 صعبة ثمانية فرنسيين وفرقة حراسة من السكان المحليين متجهين نحو الجنوب في محاولة لعبور الصحراء. وفي فبراير/شباط 1881 اغتال الطوارق ذلك الضابط وغالبية مرافقيه قرب بئر الغرامة بالجنوب الجزائري.

أما البعثة الأخرى وكانت برئاسة النقيب جوزيف كاليني¹⁰⁷ (Joseph Gallieni) الذي يشغل حينئذ منصب مدير الشؤون السياسية بمستعمرة السنغال فقد توجهت إلى بلاد السودان لمتابعة اكتشاف حوض النيجر، ولتحديد الأماكن التي ستمر بها السكة الحديدية المحتملة. وقد تعرض ذلك الضابط وثلاثة من مرافقيه للأسر إذ قام أحمدو نجل الحاج عمر¹⁰⁸ باعتقالهم فترة من الزمن.

وبالطبع، فقد دفع المصير الذي تعرضت له هاتان البعثتان السلطات الفرنسية إلى الشك في جدوائية إرسال مستكشفين منعزلين إلى المنطقة.

وبينما كان صوليبي يستعد للانطلاق نحو الصحراء الموريتانية لإكمال مهمته السابقة فوجئ بمجموعة من العسكريين تقتحم غرفته في مركز باكل وتلقي عليه

¹⁰⁶ - بول فلاتيز (1832-1881)، ضابط فرنسي، حول بعد تخرجه من سين-سير (Saint-Cyr) سنة 1853 إلى الجزائر حيث بدأ اهتمامه بالصحراء وبالسودان الغربي. وقد عين سنة 1879 عضواً في لجنة السكة الحديدية العابرة للصحراء التي شغلت بال بعض المسؤولين الفرنسيين في ذلك الحين.

¹⁰⁷ - جوزف كاليني (1849-1916)، بدأ هذا الضابط الخدمة في السنغال سنة 1876، وفي سنة 1879 استخدمه الوالي الفرنسي على السنغال في العمليات الكشفية بالمنطقة. وفي سنة 1880 عهد إلى جوزف كاليني بمهمة مستعصية حينئذ تتمثل في اكتشاف واختراق الضفة اليسرى لنهر النيجر.

¹⁰⁸ - هو أحمدو بن الحاج عمر الفوتي (1249-1833/1315-1897) وخليفته على عرش دولة سكو.

القبض تنفيذًا لقرار من الوالي الفرنسي على السنغال بريير دو ليل الذي كرم صولبي في السابق والذي يصدر اليوم أمرا باعتقاله وطرده¹⁰⁹ من السنغال إلى فرنسا!.

وكان الوالي بهذا الإجراء ينتهز فرصة "ذهبية" للتخلص من ذلك المستكشف "المسالمة" الذي يعارض "فتح" الصحراء عن طريق العنف. ذلك أن صولبي قد تجرأ على أن ينتقد علنا سلوك النقيب كاليني أثناء مهمته السابقة الذكر متهما إياه بأنه لم يفشل فقط في مهمة فنية وإنما كذلك في مهمة سياسية تمثلت في محاولة توحيد الدويلات الإفريقية ضد أحمدو، ولم يكن إلا التحقير حيث احتجز ولم يطلق سراحه إلا مقابل فدية مالية.¹¹⁰

وعلى ما يبدو فإن الوقت لم يعد وقت تمجيد دعاة التوسع السلمي في الصحراء وإنما أصبح وقت تكريم الضباط الذين "سيفتحون" عنوة هذه المنطقة الصعبة.

وبعد عودته إلى فرنسا أصبح صولبي يعيش ظروفًا مادية صعبة¹¹¹ أرغمته على قبول الخدمة في شركة فرنسية تحاول حينئذ ربط علاقات تجارية مع إقليم الشوابة بجنوب الحبشة، فبعثته هذه الشركة إلى تلك المنطقة. وأثناء خدمته في تلك الشركة التقى صولبي سنة 1882 بالإمبراطور الحبشي منليك¹¹² (Ménélik). غير أن هذه

109 - أثار اعتقال صولبي وطرده من السنغال جدلا سياسيا وقانونيا في بعض الأوساط الفرنسية استمر عدة سنوات. راجع:

ANFCAOM, mission, 2/2, dossier Paul Soleillet, op.cit .

110 - Idem.

111 - زاد من سوء تلك الوضعية تكاليف المحاماة بشأن نزاع بول صولبي القانوني المشار إليه مع بريير دوليل الوالي الفرنسي على السنغال، راجع:

ANFCAOM, mission, 2/2, dossier Paul Soleillet, op.cit .

112 - ولد سنة 1844 وتوفي 1913، تربع على عرش إثيوبيا من سنة 1889 ثم اضطلع بدور مهم في صد الإيطاليين عن إقليم الشوابة واستفاد من التنافس الاستعماري ليوسع مجال الإمبراطورية الإثيوبية.

الشركة أصيبت، هي الأخرى، بالإفلاس فعاد صولبي إلى فرنسا ليدافع في ديسمبر/كانون الأول 1884 أمام الجمعية الجغرافية الباريسية عن مشروع جديد لمد خط سكة حديدية، ولكن نحو قلب إثيوبيا هذه المرة.

وفي سبتمبر/أيلول 1886 توفي صولبي بمدينة عدن وهو يقوم بمهمة تجارية جديدة نحو إقليم الشواء الحبشي.

وعلى ما يبدو فإن هذا الرحالة الذي كان يدعو إلى التوسع السلمي ويعارض إخضاع إفريقيا عن طريق العنف كانت شخصيته غامضة غموضاً طبع مشاريعه الطموحة التي لم يكتب لها النجاح، مما جعل الحكم عليه مسألة صعبة، فبينما يعتبره أليزي ركليس (Elisée Reclus) أحد أعظم مستكشفي القرن¹¹³ يتهمه ديشان بالعجز عن استكناه الملامح الأساسية للبلاد والسكان، فهو "لم يجلب معه خط سير ولا خريطة ولا رسماً ولا أية معلومات مهمة. إنه ليس مستكشفاً، بل مجرد متنزه"¹¹⁴.

وقد لا يخلو هذان الحكمان من مبالغة لا نستبعد أن يكون مردها هو عدم التوفيق الذي صاحب، بشكل دائم تقريباً، مهمات صولبي الاستكشافية، وحتى نشاطاته التجارية؛ مما انعكس سلباً على رحلاته التي لا تخلو من قيمة تاريخية؛ بقدر ما انعكس على صياغة مواقف المؤرخين المختلفة منه.

¹¹³ - نقلاً عن موريس باربيبي، مرجع سابق.

¹¹⁴ - Deschamps, *L'Europe découvre...*, op.cit., p. 168.

(و) بلانشي وبدء المواجهة مع البيضان

ولد بول بلانشي¹¹⁵ (Paul Blanchet) في 3 أغسطس/آب سنة 1870 بمدينة باريس في محيط أسري ليس بالغريب على الرحلات والاستكشافات. فوالده كان من المولعين بالأسفار والرحلات وهو من رواد مستكشفي كانساس (Kansas) أحد روافد نهر المسيسيوري بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقد حرص ذلك الوالد على تنشئة بلانشي تنشئة تزوج بين إتقان تعلمه ودفعه على غرار الوالد إلى الأسفار والترحال. فتابع بلانشي تعليمه بشكل منتظم، وكان النجاح حليفه في مختلف مراحل الدراسة التي تكلفت بالالتحاق بالمدرسة العليا للتعليم (ENS) سنة 1890 ثم الفوز في مناظرة التبريز في التاريخ.

غير أن ذلك لم يمنع هذا الشاب الطموح من متابعة بعض الدروس في كلية العلوم ومتحف تاريخ العلوم الطبيعية، والعناية بدراسة العربية والتاريخ الإسلامي إلى

¹¹⁵ - يمكن الرجوع بخصوص هذا الرحالة إلى:

- ✓ Paul Blanchet, Rapport de mission en Adrar (Mauritanie) 1900, ANFCAOM, Série Affaires Politiques, Carton n° 2711, chemise n°4, 36p;
- ✓ Jouinot-Gambetta, Lieutenant, Rapport adressé Monsieur le Ministre de la Marine sur la mission Blanchet en Adrar, ANFCAOM;
- ✓ Prevost, **Dictionnaire...**, op.cit, t.-VI, 1954, pp. 626-627;
- ✓ Gillier, **La pénétration en Mauritanie...**, op.cit., p. 98;
- ✓ Broc, **Dictionnaire illustré...**, op.cit., p. 31;
- ✓ Vallat, **op.cit.**, pp. 332 et suivantes.

درجة جعلت نوما بروك¹¹⁶ يصنفه ضمن المتخصصين البارزين في الدراسات الإسلامية.

ورغم انشغالات بلانشي الدراسية المتعددة، فقد بقي على شغفه بالترحال، إذ قام بعدة أسفار من بينها رحلة إلى اليابان سنة 1887 ولما يتجاوز السابعة عشرة من العمر.

وعلى إثر قيامه برحلة استكشافية من جيبوتي إلى النيل، أوفدته وزارة المعارف الفرنسية سنة 1895 في مهمة نحو الجنوب التونسي بغية دراسة الآثار الرومانية. وقد مكنته عمليات التنقيب التي أجراها بمنطقة قابس من اكتشاف بعض أطلال البربر.

وليمكن بلانشي من الإنفاق على أسرته، عاد إلى بلاده سنة 1896 ليتولى مهمة تدريس التاريخ في ثانوية تور (Tours) بضعة أشهر قبل أن يحول إلى الجزائر مدرسا المادة نفسها بقسنطينة، مما ساعده على استئناف أبحاثه الأركيولوجية حيث اكتشف، أثناء ربيع 1897، أطلال قلعة بني حماد.

وفي أواخر 1897 وبداية 1898 واصل بلانشي حفرياته بالجنوب الجزائري حيث اكتشف في ضواحي ورغله أطلال قرى كهفية.

وفي هذه الأثناء بدأت علاقات الباحثة بتاريخ المنطقة تتجذر فشكل الرابطة التاريخية لدراسة شمال إفريقيا وكان كاتبها العام وقد ضمت إلى جانبه عددا من المهتمين بتاريخ المنطقة. غير أن الظروف لم تسمح له بمتابعة الإشراف على تلك الهيئة، إذ استدعي إلى باريس ليعهد إليه بالقيام بمهمة استكشافية في منطقة أدرار

¹¹⁶ - يقول نوما بروك بهذا الخصوص ما نصه:

"P. Blanchet devient en peu de temps un islamisant remarquable.", Numa Broc, Dictionnaire illustré..., op.cit., p. 31.

الموريتانية، بغية التنقيب عن ثروات تلك المنطقة. وبالطبع، فقد كان لهذه المهمة علاقة بخط السكك الحديدية المحتمل أن يربط الجزائر بالسنغال والذي كان الشغل الشاغل للرحالة السابق صولبي.

وبناء على اقتراح قدمته جماعة من رجال الأعمال الفرنسيين لوزير الأشغال العمومية بالحكومة الفرنسية كلف الوزير لجنة متخصصة بدراسة مشروع السكة الحديدية ذلك، فاقترحت هذه اللجنة إرسال بعثة إلى الصحراء الموريتانية لإجراء عملية مسح هدفها تحديد الامكانيات المعدنية والتجارية للمنطقة.

وللقيام بهذه المهمة ودع بلانشي الجزائري عائداً إلى فرنسا في مطلع سنة 1900 حيث توجه إلى السنغال لإكمال تحضيرات رحلته إلى آدرار. وهي الرحلة التي أدت في نهاية المطاف إلى مواجهة استخدمت فيها الأسلحة النارية بين السكان المحليين وأعضاء البعثة التي ف صلت عن جنود حراستها الذين لاندوا بالفرار متجهين إلى سين-لوي بعد أن اعتقدوا أن الفرنسيين تم قتلهم بالفعل.

وقادت تلك المواجهة أخيراً إلى نهب القافلة وأسر الرحالة بلانشي ومرافقيه الجيولوجي دريمس والملازم الأول جوينو كامبتا وابن المقداد¹¹⁷ الذي اقترح عليه

117 - هو محمدن دودو سك (1867-1943) ابن المختار بن المقداد المذكور سابقاً. سنغالي نشأ وتربى بين بيضان الترارزه حيث تعلم العربية ومبادئ الدين الإسلامي قبل أن يعود إلى سين-لوي ليدخل في خدمة الفرنسيين في السنغال. راجع:

✓ Bou El Moghdad, Notes autobiographiques, 35 p.

✓ محمدو بن محمدن، "ابن المقداد ومهمته في تكانت"، حوايات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط، العدد 5، نواكشوط، 1996، صص. 86-121، صص. 89-90.

أمير آدرار عدة مرات أن يساعده على الهرب إلى سين-لوى غير أنه رفض ذلك العرض مفضلاً البقاء إلى جانب مرافقيه الفرنسيين.¹¹⁸

وقد أوفد الوالي الفرنسي في السنغال على جناح السرعة رسلاً إلى كل من الشيخ سعد بوه والمختار ولد عيده¹¹⁹ أمير آدرار ملحاً على ضرورة إطلاق سراح أعضاء البعثة الفرنسية. كما سارع هذا الوالي إلى إبلاغ وزير المستعمرات بنتائج محاولاته تلك كتابياً إذ يقول: "إن الرسل الذين بعثناهم في شهر يوليو/تموز إلى آدرار قد عادوا أمس محملين برسالتين من الشيخ سعد بوه والأمير المختار ولد عيده تؤكدان أن جميع أفراد البعثة أحياء¹²⁰، ويتمتعون بصحة جيدة، وسيتوجه الشيخ سعد بوه إلى أطار ويعتقد أنه سيعود بهم في أكتوبر/تشرين الأول المقبل"¹²¹.

ولم يكذب بقاء بلانشي ومرافقيه على قيد الحياة يعيد بعض الطمأنينة إلى نفوس الفرنسيين حتى تجددت مخاوفهم عندما شاع نبأ مفاده أن زعماء آدرار طلبوا

¹¹⁸ - Blanchet, Rapport de mission en Adrar, op.cit., p. 26.

¹¹⁹ - هو المختار بن أحمد ولد عيده: تولى الإمارة في آدرار من 1899 إلى 1904، وصفت حتوت بنت عبد الله عهده بأنه اكتمال لمسار انحطاط إمارة آدرار. انظر: حتوت بنت عبد الله، إمارة أولاد يحيى بن عثمان من 1745 إلى 1900، مذكرة تخرج، المدرسة العليا للأساتذة والمفتشين، نواكشوط، 1985، ص. 75، صص. 56 و62.

¹²⁰ - قبل فرار فرقة الحراسة ظن أعضاء الفرقة أن الفرنسيين تم قتلهم وأبلغوا ذلك النبأ الكاذب إلى السلطات الفرنسية في السنغال حيث ساد الاعتقاد في فرنسا كما في السنغال بأن الفرنسيين قد قتلوا بالفعل.

¹²¹ - ANFCAOM, Série géographique, Sous-série: Afrique Occidentale Française, AOF III-5-d: Lettre du gouverneur au ministre 21/8/1900, 2 p., p. 1.

من أميرهم إرسال " النصارى " المحتجزين إلى الشيخ ماء العينين بالصحراء الغربية
كي ينالوا ما يستحقونه من عقاب.¹²²

وبالفعل فقد تدخل الشيخ سعد بوه بكل ثقله كي يتم الإفراج عن أعضاء البعثة
مقابل فدية مالية¹²³ بعد أن قضوا سبعة وسبعين يوماً في الأسر.

وفي طريق عودته إلى سين-لوى أصيب الرحالة بلانشي بالحمى الصفراء
التي زادت معاناة الأسر ومتاعب السفر ووعورة الطريق وطأتها عليه. إلا أن ذلك لم
يمنعه من صياغة تقرير عن رحلة المواجهة تلك مع سكان آدرار الموريتانيين.

وبينما كان بلانشي يستعد للعودة إلى فرنسا، توفي بذاكار يوم 6
أكتوبر/تشرين الأول 1900⁽¹²⁴⁾ وهو في الثلاثين من العمر مخلفاً، على

¹²² - تقرير سري من القنصل الفرنسي بم ادور (الصويرة) إلى وزارة الخارجية الفرنسية، راجع:
ANFCAOM, Série géographique, Sous-série: Afrique Occidentale
Française, III-AOF. III-4- b: Lettre du Ministre des Colonies au Ministre des
Affaires Etrangères, 3 p., 09.01.1901.

¹²³ - بلغت الالتزامات الخاصة بتلك الفدية 64765 فرنكا فرنسيا، وكانت تسويتها موضوع خلافات
ومراسلات وإجراءات إدارية استمرت سبع سنوات بين الإدارة الفرنسية في السنغال وجريدة
لوماتين، راجع ملف بلانشي:

ANFCAOM, Série géographique, Sous-série: Afrique Occidentale Française,
AOF. III-7, 1900, dossier Paul Blanchet.

¹²⁴ - راجع:

- ✓ ANFCAOM, Série géographique, Sous-série: Afrique Occidentale
Française, AOF. III-5-b, 9 p., 1900.
- ✓ Prevost, Dictionnaire..., op. cit, t.-VI, 1954, p. 627.

الخصوص¹²⁵، تقريره السابق الذكر؛ وهو التقرير الذي سنعود إليه في الجزء الأخير من هذا الفصل وفي الفصول الموالية من هذا العمل باعتباره أحد نصوص المدونة.

ثالثاً) نصوص المدونة: من عناء الترحال إلى تدوين الرحلة

بعد أن أعطينا لمحة عن أصحاب النصوص التي سندرسها، سنقدم ولو بشكل وجيز الرحلات التي تعتبر النصوص نتيجة لها وسنركز في هذا التقديم على الأهداف والوسائل فضلاً عن أهم محطات التوقف والطرق التي سلكها كل واحد من الرحالين وهو يجوب المجال الموريتاني، متبعين في ذلك التسلسل الزمني لهذه الرحلات.

أ) رحلة موليين: الانطباعات الأولية

توجه موليين إلى السنغال للمرة الأولى سنة 1816 وهو يعتزم اجتياز الصحراء الكبرى واكتشاف أعماق القارة الإفريقية.

ولم يستطع هول تحطم سفينة "لامديز" وما انجر عنه من معاناة ذاقها موليين ومن نجا من مرافقيه، أن يحد من تصميم ذلك الشاب المغامر على المضي قدماً نحو تحقيق مطامحه، إذ نراه يصرح بذلك قائلاً: "إن المتاعب التي عانيتُها [بعد غرق السفينة] قبل الوصول إلى ضفاف السنغال والمظهر الموحش للبلاد [المعبورة] لم تكن قادرة على أن تقل الرغبة الجامحة التي تدفعني منذ صباي إلى أعماق القارة

¹²⁵ - لم تسمح لنا الظروف -رغم محاولات بذلناها- بالاطلاع على أهم مظنة لآثار هذا الرحالة وهي مصنفات الجمعية الأركيولوجية لمحافظة قسنطينة الجزائرية.

الإفريقية¹²⁶. وفور وصوله إلى السنغال بدأ موليين التحضير للرحلة المزمعة عبر إفريقيا منتهزا مختلف المناسبات لجمع كل المعلومات الممكنة عن المناطق الداخلية¹²⁷.

وفي هذا النطاق تجول موليين سنة 1817 في منطقة حوض نهر السنغال وفي الساحل الأطلسي القريب منها حيث مكث ثلاثة أيام بمحطة ودور التي كان يقايض فيها بيضان البراكنه منتوجاتهم بالبضائع الأوروبية، ثم واصل جولته غربا ليقضي أسبوعا كاملا بمحطة "لو دزير" النهرية المخصصة للتبادل بين الترازه والفرنسيين. هذا فضلا عن القيام برحلات قصيرة في أماكن مختلفة من مصب النهر والشاطئ الأطلسي.

ورغم أن موليين قد اقتصر في تنقلاته تلك على حواف المجال البيضاني فإن هذه التنقلات قد سمحت له بإجراء اتصالات مع البيضان وجمع بعض المعلومات والانطباعات الأولية التي جعلته يعدل عن التفكير في التعمق داخل الصحراء البيضانية¹²⁸ موجهها محور اهتماماته نحو منطقة السنغامبيا التي سيتجه إليها في رحلة أخرى عبر إفريقيا الغربية وهي الرحلة التي سعى من ورائها إلى فرض نفسه "باكتساب الشهرة عن طريق إنجاز اكتشافات مهمة وعمل جدير بالاحترام"¹²⁹.

وإذا كان مسعى موليين خلال هذه الرحلة وحسب اعترافه هو الحصول على الشهرة واكتساب النجومية، فإن هدف الإدارة الفرنسية كان مختلفا تماما، إذ يلخص فلوريو الذي تمت الرحلة بفضل دعمه أهدافها في تعليماته الأخيرة إلى موليين قائلا: "إن المهمة الملقاة على عاتقك تتمثل في اكتشاف منابع السنغال وغامبيا والنيجر

¹²⁶ - Mollien, Voyage dans l'intérieur..., op.cit, t.-I, p.

¹²⁷ - ANFCAOM, Série géographique: Afrique, Sénég. et Dépend., op.cit.

¹²⁸ - Mollien, Rapport autographe... , op.cit.

¹²⁹ - Ibid

والتحقق من وجود قناة للوصل بين السنغال وغامبيا ثم معرفة المسافة بينهما والمسافة بين السنغال ومنابع نهر النيجر وكيف يمكن اجتيازها. وإذا وصلت إلى نهر النيجر فعليك أن تجمع معلومات عن إمكانية النزول معه [الملاحة عبره] حتى المصب. وإذا سمحت لك الظروف بالوصول إلى مملكة بامبوك، فحاول زيارة مناجم الذهب للتأكد من حجمها وامتدادها"¹³⁰.

وفي رسالة وجهها ذلك الوالي إلى وزير البحرية الفرنسي نجده يستعرض النتائج التي يتوقعها من تلك الرحلة قائلا: "هذا الشاب يتوفر، إلى جانب تربيته السامية، على ثقافة واسعة تمكنه من إنجاز مهمته بشكل يخدم الحكومة [الفرنسية]، وقد درس العربية وهو يكتبها كتابة مقبولة"¹³¹. وقد فكر مليا في مشروعه، وجمع المعلومات الكفيلة بوضعه قيد التنفيذ"¹³².

¹³⁰ - Mollien, Voyage dans l'intérieur..., op.cit, t.-I, pp. 39-42.

¹³¹ - شك في معرفة موليين للعربية ومقدرته على كتابتها إذ لم نجد إشارة توحى بذلك لا في رحلته ولا في ملفيه بالأرشيف الوطني الفرنسي والأرشيف الوطني السنغالي. كما أن قصر فترة مقامه في المنطقة ومحدودية الاتصالات التي أجرى مع البيضان في المناطق الهامشية تدعم ذلك الشك. فكايي الذي سكن مع البيضان تسعة أشهر ونصفا بهدف تعلم العربية لم يتمكن من إتقانها نطقا ولا كتابة.

¹³² - ANS, Série B: Correspondances générales (1779-1895), Sous-Séries 2 B-1 à 2 B-72: Correspondance départ du Gouverneur du Sénégal au Ministre (1816-1896), 2 B 3: lettres au Ministre (1817-1819) du 23/12/1817 au 12/02/1819.

كما أبلغ هذا الوالي الوزير في الرسالة نفسها أنه لبي مطالب موليين المتعلقة بالتمويل الذي لا يتجاوز في مجمله أربعة آلاف فرنك¹³³ اشترى منها الرحالة فرسا يركبه وحمارين لحمل أمتعته فضلا عن تأجير دليل/مترجم¹³⁴ سيرافقه أثناء رحلته.

وقد استمرت تلك الرحلة أكثر من سنة، فأسفرت عن اكتشاف منابع نهري السنغال وغامبيا. وتم نشرها لأول مرة سنة 1820 تحت عنوان: "رحلة إلى قلب إفريقيا ونحو منابع السنغال وغامبيا"¹³⁵، ثم أعيد نشرها سنة 1822.

وتقع الطبعة الأولى التي اعتمدنا عليها في مجلدين يبلغ عدد صفحاتهما 656 صفحة من الحجم الصغير. ورغم أن موليين لم يخصص للحديث عن البيضان إلا فصلا واحدا من المجلد الأول (صص. 1، 25)، فإن إشارات عديدة إلى البلاد الموريتانية توجد متناثرة في ثنايا المجلدين.

ولم تخل هذه الرحلة من موضوعية واعتدال في إصدار الأحكام على السكان المحليين (الأفارقة بشكل عام)، إذ يقول متحدثا عن نتائج تأثر أولئك السكان بالحضارة الأوروبية: "إن احتكاك الأوربيين بالشعوب الإفريقية كان وبالاً على سكان السواحل الذين لم يجنوا من متاجرتهم [مع الأوربيين] سوى الرذيلة؛ ومع أي لا أزعم أن سكان المناطق الداخلية يفتخرون مثالا في دماثة الأخلاق وطيب النوايا إلا أنهم على الأقل ليسوا ميالين إلى الفجور والإدمان مثل سكان السواحل"¹³⁶ (التشديد منا).

وتكمن أهمية المعلومات التي أوردها موليين في رحلته تلك عن البيضان وحياتهم وعاداتهم وطبيعة بلادهم، في كونه حاول الربط بين طبائع وعادات هؤلاء

¹³³ - الرسالة المشار إليها في الإحالة السابقة.

¹³⁴ - يدعى ديبى بخاري (Diai Boukary)، وهو من زواج فوتا وكان يعرف العربية والبولارية والولفية. وقد أجره موليين بمبلغ 180 فرنكا شهريا.

¹³⁵ - Mollien, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique..., op.cit.

¹³⁶ - Mollien, Voyage dans l'intérieur..., op.cit, t.-I, pp.xii-xij.

البيضان والظروف الطبيعية القاسية التي يعيشونها، فلم تخل آراؤه من إنصاف لهؤلاء السكان و إعجاب بهم وخصوصا بأثر الدين الإسلامي عليهم معتقدا وسلوكا¹³⁷.

ب) رحلة كايي إلى البراكنه: التعرف على البيضان

بدأت رحلة كايي نحو البراكنه في 3 أغسطس/آب 1824 عندما غادر سين-لوي في طريقه إلى ودور عبر ريشارتول¹³⁸ ودكانه¹³⁹. ولم يصل كايي الذي تصحبه في هذا السفر جماعة من البيضان إلى مركز بودور إلا في 29 من ذلك الشهر. وفي فاتح سبتمبر/أيلول عبر كايي النهر مواصلا السفر صحبة مرافقيه البيضان إلى منطقة البراكنه.

وبعد ستة أيام من السفر وصل إلى مخيم قبيلة إيجيبه¹⁴⁰ الزاوية. وفي اليوم الموالي رافقه محمد بن سيدي المختار¹⁴¹ الذي سيتولى تعليمه إلي مخيم الأمير

¹³⁷ - لنا عودة إلى بعض آراء هذا الرحالة في أماكن أخرى من هذا العمل.

¹³⁸ - مركز عسكري وإداري بناه الفرنسيون بالضفة اليسرى لنهر السنغال سنة 1821 في نطاق تجاربهم للاستعمار الزراعي بالمنطقة. وهو الآن مدينة سنغالية.

¹³⁹ - مركز تجاري أسسه الفرنسيون سنة 1821 على الضفة اليسرى لنهر السنغال الأسفل. وقد حصنوه ليلعب بعض الأدوار العسكرية خاصة أثناء حروب الاستعمار الزراعي في منطقة والو. ودكانه الآن عاصمة مقاطعة سنغالية.

¹⁴⁰ - قبيلة زاوية تقطن أساسا في منطقة البراكنه. فضلا عن دورها السياسي والعسكري، اضطلعت هذه القبيلة بدور مهم في تاريخ البلاد الثقافي من خلال إشعاع محظرة "الكحلاء" و"الصفراء" المشهورة في القطر كله. انظر: الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، مص. سا، ص. 97. الإحالة رقم 99 من عمل المحقق.

¹⁴¹ - أحد رجالات مجموعة أهل اتفغ ابريهم من قبيلة إيجيبه الزاوية، شغل منصب طبيب الأمير البركني ومستشاره الديني. مقابلة مع محمد المصطفى ولد الندى باحث بالمعهد الموريتاني للبحث

البركني أحمدو ولد سيد علي حيث سيقضي شهرا كاملا متنقلا صحبة ذلك المخيم من مكان إلى آخر عبر البراكنه بحثا عن المراعى الضرورية للمواشى التي تلعب الدور الأساس في حياة سكان المنطقة.

وقد أحصينا أربع رحلات للمخيم خلال ثلاثة أسابيع في الفترة الممتدة من 9 إلى 30 سبتمبر/أيلول 1824، كان أغلبها في اتجاه الشمال والشمال الشرقي. وقدر كايي المسافة التي قطعها المخيم أثناء تلك الرحلات بما يتراوح حسب قوله بين 3 إلى 9 أميال، ومجموعها 27 ميلا¹⁴². غير أن المهم بالنسبة لنا أن هذه التنقلات ساعدت كايي على مشاهدة العديد من المناطق والمناظر الطبيعية التي وصفها في رحلته، كما مكنته من وصف طريقة تنقل المخيم ونزوله.

وفي 7 أكتوبر/تشرين الأول 1824 مل كايي على ما يبدو الحياة داخل مخيم الأمير فطلب منه السماح له بالذهاب إلى مخيم الزوايا ليبدأ تعلمه. وفعلا فقد غادر المخيم الأميري في اليوم الموالي بعد أن أعطاه الأمير ثورا يركبه ودليلا (عبدا للأمير) يوصله.

وبعد خمسة أيام من الرحيل يعتقد كايي أنه قطع أثناءها 67 ميلا في اتجاه الجنوب الغربي وصل يوم 12 أكتوبر/تشرين الأول إلى مخيم مرابطه (أستاذه) الزاوي حيث سيقطن للتعلم خلال بقية مقامه في البراكنه.

العلمي (أكتوبر/تشرين الأول 1995، نواكشوط): راجع: محمد المصطفى ولد الندى، دور المحاضر في موريتانيا، مذكرة تخرج من المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، نواكشوط، ص.61.
¹⁴² - لا نعرف ما ذا يعني كايي بالميل. أهو 1000 خطوة أم 1609 أمتار. وفي جميع الأحوال فإننا نشك كثيرا في دقة معلوماته المتعلقة بالمسافة والزمن والاتجاه إذ لم تكن لديه ساعة ولا بوصلة. وحتى أثناء رحلته الطويلة إلى تنبكتو فإنه كان يقيس الزمن بالظل والمسافة بالأقدام والخطوات، وإن توفر هذه المرة على بوصلة.

وواصل الرحالة تنقله أيضا مع مخيم الزاوايا الباحث، على عادة السكان، عن الماء والكأ لقطعان حيواناته الكثيرة. فقد كان هذا المخيم، ومنذ وصله كايي، يرحل مرة في الشهر على الأقل، فنجده يغير مكانه يوم 15 أكتوبر/تشرين الأول قاطعا حوالي 4 أميال نحو الجنوب الغربي، ويوم 6 نوفمبر/تشرين الثاني متجها 3 أميال إلى الشمال الغربي، ويوم 10 ديسمبر/كانون الأول مرتحلا 10 أميال نحو الشرق، ويوم 21 يناير/كانون الثاني 1825 قطع هذا المخيم ميلين في اتجاه الشرق أيضا، ليعود 3 أميال إلى الغرب في 6 من فبراير/شباط، ويقطع من جديد 15 ميلا نحو الشمال الغربي في 21 فبراير/شباط، و 12 ميلا في 22 من الشهر نفسه وفي الاتجاه ذاته. أي أن كايي وحسب تقديراته هو قطع صحبة هذا المخيم مسافة تقدر بـ49 ميلا منها 30 ميلا في شهر فبراير/شباط وحده.

وخلال هذا الترحال بالمنطقة شاهد كايي الكثير من مناظرها الطبيعية المختلفة وزار بحيرة ألا والعديد من نقاط المياه. فوصف كل ذلك في رحلته التي سنتحدث عنها بعد حين.

ولم تقتصر تنقلات كايي عبر البراكنه على ذلك، بل إنه خلال شهر مارس/آذار وإبريل/نيسان 1825 رحل أربع مرات جيئة وذهابا صحبة أحد أبناء مرابطه (أستاذه) بين المخيم الزاوي و دور على ضفة النهر بحثا، في الظاهر، عن بضائعه التي ادعى للبيضان أنه أودعها عند أحد التجار الفرنسيين في سين-لوي. لكنه في الحقيقة، كان يبحث عن دعم الإدارة الفرنسية وتمويل مشروع رحلته الطويلة إلى تنبكتو.

وإذا أضفنا إلى تلك التنقلات سفره الأول حين قدم من دور إلى المخيم الزاوي، ثم انتقاله إلى المخيم الأميري، فسفره إلى مخيم الزاوايا حيث سيقطن ويتعلم فضلا عن تنقلاته في ضواحي المخيم لزيارة بعض الأحياء المجاورة أو للبحث عن المياه في الآبار والغدران أو لمشاهدة بعض المعالم كالمرتفعات الجبلية وبحيرة الأاك;

إذا أضفنا كل تلك التنقلات إلى بعضها إذن، يكون كايي، من بين أصحاب المدونة وربما من الفرنسيين عموماً قد ضرب رقماً قياسياً في التجوال داخل المجال البيضاني في تلك الفترة.

ولم يتميز هذا الرحالة حينئذ بضرب الرقم القياسي من حيث مدة الإقامة مع البيضان والتنقل داخل مجالهم فقط، بل إنه نجح إلى حد ما في الاندماج في المجتمع البيضاني وهو أمر لم يكن ليتحقق له لو لم يتظاهر باعتناق الإسلام ويطلق على نفسه اسم عبد الله متقمصاً شخصية مصري مسلم وبياشتر تعلم اللغة العربية والدين الإسلامي، وهو المسلك الذي سيعتمده من بعده رحالون فرنسيون عديدون. ذلك أن هذه اللغة وهذا الدين يعتبران جواز سفر ضروري لكل من يريد عبور هذه المنطقة أو الإقامة بها حينئذ.

ورغم انخراط كايي في حياة المجتمع البركني واعتناقه الدين الإسلامي ظاهرياً ورغبته في تعلم القرآن واللغة العربية، فقد ظل ذلك المجتمع (بشطريه الحساني والزاوي) ينظر إليه بشيء من الشك والريبة¹⁴³ حتى سفره إلى سين-لوي في 18 إبريل/نيسان 1825 الذي لم يعد منه إلى البراكنه.

وقد أثر ذلك الشك والريبة على رحلة كايي الذي لم يكن يستطيع تدوين ملاحظاته إلا في السر¹⁴⁴ فكان كما يقول: "يحمل في جيبه قرار إعدامه"¹⁴⁵. وبالتأكيد فإن ذلك يؤدي إلى نسيان وضياح بعض المعلومات وتسجيل بعض المسميات بطريقة محرفة، إلا أنه يجب ألا يقودنا ذلك إلى تحجيم أهمية هذه الرحلة التي نشرت لأول مرة سنة 1830 تحت عنوان "وصف رحلة إلى تنبكتو وإلى جنه بإفريقيا الوسطى مسبقاً بملاحظات مشاهدة لدى بيضان البراكنه و نالوس وشعوب المنطقة الآخرين،

¹⁴³ - Caillié, *Voyage*, op.cit , t.-1., pp. 90, 91, 92, 131, 152, 157 et 161.

¹⁴⁴ - Idem

¹⁴⁵ - Ibid, t.-1, p. 37.

خلال السنوات 1824، 1825، 1826، 1827 و 1828¹⁴⁶. وأعيد نشرها عدة مرات كان آخرها سنة 1989 تحت عنوان "رحلة إلى تنبكتو"¹⁴⁷.

وتقع الطبعة الأخيرة التي سنعتمد عليها في جزئين من الحجم الصغير، ويبلغ عدد صفحاتها، إذا حذفنا تقديم جاك برك (Jaques Berque) لها 799 صفحة من بينها 146 صفحة (أي حوالي 20 % من الرحلة كلها) مخصصة للحديث عن ملاحظاته أثناء فترة إقامته في منطقة البراكنه. كما تضم بقية الرحلة معلومات كثيرة ومتناثرة عن البيضان.

ويتناول جزء الرحلة الذي يعيننا أكثر من غيره جوانب مختلفة من حياة البيضان وأنشطتهم الاقتصادية (الرعي، الزراعة والتجارة) والثقافية (التعليم، التعلم) والدينية (الصلاة والصوم... إلخ) بالإضافة إلى وصف أراضيهم وتضاريسها وغطائها النباتي ومناخها. غير أن الحديث عن الفئات الاجتماعية البيضانية وعلاقاتها والعادات والتقاليد الاجتماعية قد احتل الصدارة في رحلة كايي.

وقد اتبع هذا الرحالة منهجا يعتمد تسجيل المشاهدات حسب الأيام، كما كان يفتح أقواسا مطولة للحديث المستفيض أحيانا عن قضايا اقتصادية أو اجتماعية أو دينية مثل توقفه عند تبادل الصمغ في المحطات النهرية¹⁴⁸ وحديثه عن شهر

¹⁴⁶ - Caillié, **Journal d'un voyage Tombouctou et Jenné dans l'Afrique centrale, précédé d'observations faites chez les Maures Braknas, les Nalous et les autres peuples pendant les années 1824, 1825, 1826, et 1829 avec une carte itinéraire et des remarques géographiques**, par Jomard, Paris, Imprimerie Royale, 1830, 3 tomes, I :476; II: 427 p. et III: 407 p.

¹⁴⁷ - Caillié, **Voyage Tombouctou**, Paris, Editions La Découverte, 2 t., 291 et 373 p.

¹⁴⁸ - Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit. t.-1, pp. 176-182.

رمضان¹⁴⁹ المعظم عند المسلمين واستعراضه للأمراض والأدوية عند هؤلاء
البيضان¹⁵⁰... إلخ.

وانفرد كايي عن زملائه من الرحالين بالتصريح أحيانا ببعض مصادره.
فبالإضافة إلى مشاهداته الميدانية المباشرة يحيلنا إلى مصادر نقل عنها بعض
المعلومات. فعند حديثه عن منطقة أدرار ومدنها واقتصادها وسكانها يقول كايي إنه
نقل تلك المعلومات عن شيوخ زاروا تلك المنطقة عدة مرات.¹⁵¹

وحين تطرق إلى كيفية جمع الصمغ العربي صرح أن تلك المعلومات منقولة
عن زوجة معلمه مشيرا إلى مصادر أخرى.¹⁵²

ويكاد كايي يكون الوحيد بين نظرائه الذي حاول تصحيح أخطاء وقع فيها
فرنسيون تحدثوا قبله عن المنطقة مناقشا آراء بعضهم ومفندا بعضها بالاعتماد على
مشاهدات عيانية ومسوغات منطقية.¹⁵³

وبالنظر إلى مستوى كايي العلمي فإننا لا نستبعد أن يكون الباحث جومار
(Jomard) قد ساهم في وضع الرحلة في صيغتها النهائية الشيء الذي نحسه في مقدمة
كايي¹⁵⁴ للرحلة حين يثني على جومار ويطريه مدحا على نصائحه وإرشاداته، مما

¹⁴⁹ - Ibid, pp. 169-173.

¹⁵⁰ - Ibid , t.-1, pp. 113-116

¹⁵¹ - Ibid, t.-1, p. 142.

¹⁵² - Ibid, pp. 132-133.

¹⁵³ - مثل نقاشه لدوران (Durand) وغيره من الرحالين السابقين بخصوص بعض الظواهر
الطبيعية والاجتماعية كمكانة المرأة، وحلاقة الرأس، وامتداد "غابات القناد"... إلخ، انظر:

Caillié, Voyage Tombouctou, op.cit., t.-1, pp. 132, 133, 151 et 152.

¹⁵⁴ - Ibid , t.-1, p. 40.

يجعلنا نجزم بأن بصمات جومار، قد لامست بمستوى ما هذه الرحلة قبل نشرها النهائي.

ج) رحلة ماج إلى تكانت: جس نبض البيضان

استهدفت رحلة الضابط البحري ماج إلى تكانت طبقا للتوجيهات التي تلقاها¹⁵⁵ من فيدرب الوالي الفرنسي بالسنغال على الخصوص:

✓ جمع بعض المعلومات عن المنطقة وسكانها

✓ محاولة الوصول إلى بعض المدن الموريتانية وخاصة تجكجه وتيشيت وولاته

✓ توقيع اتفاقيات تجارية مع الزعماء المحليين

✓ ربط صلات دائمة مع السكان.

وقد رافق ماج خلال هذه الرحلة خادمه بكاري كي وستة زنوج آخرين بالإضافة إلى دليله البيضاني¹⁵⁶. وكان بحوزة هذه القافلة الصغيرة حصان للرحالة وأربعة ثيران لحمل المتاع الذي يتكون من بضاعة زهيدة القيمة وبعض المؤن (حبوب، بسكويت... الخ..)، فضلا عن بعض الأدوات الأخرى الضرورية للطبخ ولحفظ وحمل المياه¹⁵⁷ أثناء الرحلة التي لن تستغرق سوى شهر ونصف، إذ غادرت

¹⁵⁵ - ANS, Dossier Mage.

¹⁵⁶ - لم يزودنا ماج بمعلومات بشأن ذلك الدليل، إلا أن سياقات عديدة في الرحلة توحى بأن ثقة الرحالة في دليله كانت محدودة.

¹⁵⁷ - ANS, Dossier Mage.

البعثة مركز باكل النهري يوم 9 ديسمبر/كانون الأول سنة 1859، لتعود إلى مركز ماتام¹⁵⁸ (Matam) في نهاية هذه الرحلة يوم 22 يناير/كانون الثاني 1860.

ويبدو أن الطريق الذي سلكه ماج خلال الأيام الأولى من رحلته (أيام 10، 11، 12، 13 و 14 ديسمبر/كانون الأول 1859) كان قليل السكان، فباستثناء قافلة من قبيلة مسومه¹⁵⁹ ذكر أنها التحقت به يوم 10 من ذلك الشهر وعرضت عليه المرافقة، لم يشر ماج إلى الالتقاء بأي إنسان قبل يومه السابع من الرحيل، حيث صادف، يوم 15 ديسمبر/كانون الأول 1859، عبيد يجنيان الصمغ قرب سلسلة العصابة الجبلية.

وفي مساء اليوم نفسه وصل الملازم البحري ماج إلى مخيم من البيضان ذكر أن شيخه الذي يدعى سيدي عبد الله قد عامله معاملة طيبة وأبلغه "أن المخيم من التياب¹⁶⁰، وهم حلفاء الأمير بكار بن سويد أحمد، لكنهم ليسوا أتباعا له"¹⁶¹. وهناك قضى الرحالة ماج أولى ليلاته في مخيم بيضاني، وفي هذا المخيم، أثار تعجبه، بل

¹⁵⁸ - محطة للتبادل التجاري على النهر تقع على بعد حوالي سبع-ين كيلومترا جنوب شرقي مدينة كيهيدي عاصمة ولاية كوركول الحالية.

¹⁵⁹ - قبيلة زاوية من لمتونة اشتهرت بالعلم والمسالمة، راجع:

✓ ابن الشيخ سيدي، إمارتا إدوعيش ومشطوف، مص.سا، ص.162،

✓ المختار بن حامد، الموسوعة، ج.5، مرقون، ص.1.

¹⁶⁰ - تسمية تطلق محليا على عناصر المجموعة الحسانية الذين يتخلون عن حمل السلاح ليلتحقوا بالقبائل الزاوية معلنين "توبتهم" عن ممارسة الأعمال الحربية التي كانت وسيلتهم الأساسية للحياة. وقد يتم هجر السيف إلى السبحة أو القلم أحيانا إثر هزيمة تتعرض لها الجماعة الثانية، مما يدفعها إلى البحث عن قبيلة زاوية توفر لها درجة ما من الحماية لأن الاحتماء في المجتمع البيضاني حينئذ "إما بكتاب أو ركاب" كما يقال، وذلك إشارة إلى قطبي السلطة في المجتمع البيضاني إذ ذاك وهما الأرسقراطيتان الحربية والزاوية. راجع:

Bonte, "Guerriers et repentants. La Towba et l'évolution politique des Emirats maures", Paris, 1984.

¹⁶¹ - Mage, "Voyage au Tagant", op.cit., p. 6.

واشمئزازه (وربما خوفه) فضول السكان ورغبتهم في تفحص كل الأمتعة والأدوات الموجودة لديه، ورفضهم بيعه بعض الكباش رغم كثرة مواشيهم، والأعداد الهائلة التي يصدرن منها سنويا إلى محطة باكل النهرية.¹⁶²

وفي اليوم الموالي تابع ماج رحلته في اتجاه الشمال دائما لينزل في المساء قرب مخيم من قبيلة تجكانت الزاوية، حيث استقبله زعيم الحي بالحفاوة وطلب منه النزول في خيمته حتى يتمكن من توفير الأمن له. غير أن الرحالة رفض ذلك الاقتراح، فتعرض في المساء لأول محاولة نهب من طرف مجموعة مسلحة أوشكت أن تستولي على ما لديه من الأمتعة لولا تدخل ووساطة زعيم الحي الجكني.

ثم واصل ماج رحلته في اتجاه الشمال يومي 17 و 18 ديسمبر/كانون الأول حيث تعرض في مساء ذلك اليوم للنهب من قبل جماعة من فرسان البيضان المسلحين.

ورغم النهب الذي تعرض له ماج، وإصابته بحمى شديدة، فقد أصر على مواصلة رحلته نحو مخيم الأمير بكار الذي وصله بعد ظهر 23 ديسمبر/كانون الأول حيث استقبله ذلك الأمير ببرودة.¹⁶³

وقد قضى هذا الرحالة اثنين وعشرين يوما مع المخيم الأميري الذي كان في تلك الأونة يرحل من مكان إلى آخر يوميا تقريبا، مما مكن ماج من التنقل بكثرة في نواحي المنطقة ومشاهدة العديد من مناظرها الطبيعية.

وفي طريق العودة إلى سين-لوي مر ماج ببعض القبائل الزاوية والأتابع. وبذلك يكون قد التقى خلال رحلته بمختلف مكونات المجتمع البيضاني وإن كان قد قضى غالبية وقته أثناء الرحلة في مخيم الأمير الإدوعيشي بكار بن اسويد أحمد.

¹⁶² - 162 Ibid, p. 6.

¹⁶³ - Mage, "Voyage au Tagant", op.cit., pp. 15-16.

وقد نشرت رحلة ماج سنة 1860 تحت عنوان "رحلة إلى تكانت (إفريقيا الوسطى)"، وهي تتألف من تسعة وعشرين صفحة من الحجم المتوسط وأحرفها صغيرة، دون فيها الرحالة مشاهداته اليومية، معتنيا على وجه الخصوص، بتحديد اتجاه سيره وطول مراحل تنقلاته.

وقد امتاز ماج عن سلفه كايي برسم خريطة للمنطقة، وتحديد خط سيره عبر المناطق التي شملتها رحلته.

وبالطبع فإن طبيعة مهمة هذا الضابط (رحلة مأمورية)، وسعي فيدرب الذي بعثه في تلك المهمة إلى الحصول على معلومات تتعلق بالأرض والسكان، والتكوين الذي خضع له في المدرسة العسكرية، كلها عوامل ربما تكون قد جعلته يعتني برسم تلك الخريطة وبتوضيح خط سيره عليها.

ورغم قصر مقام ماج داخل المجال البيضاني خاصة بالمقارنة مع كايي فإنه زدنا بمعلومات مهمة عن المنطقة ومسالكها وتضاريسها ومناخها.

غير أن هذا الرحالة مع اهتمامه بالمعطيات الطبيعية للمنطقة (مرتفعات، سهول، نباتات... إلخ)، لم يشر إلى أخذ أية عينة من النباتات أو التربة للتحليل، فتلك الدرجة من العناية بالدراسة العلمية المتخصصة للمنطقة على ما يبدو لم تكن بعد.

ولئن احتلت المعطيات الطبيعية الصدارة لدى الضابط ماج، فإن التجارة والموارد الاقتصادية للبلاد حظيت هي الأخرى بالاهتمام خلال هذه الرحلة التي تمثل محاولة للنفاذ إلى المناطق البيضانية الداخلية، وجس نبض السكان لمعرفة مدى قبولهم لاستقبال "النصارى" في أعماق البلاد البيضانية وداخل مدنهم التجارية.

وطبعا فإن المعاملة التي تعرض لها ماج (نهب قافلته واستقباله بفتور من جانب الأمير بكار الذي منعه من دخول مدينة تجكجه أخرى من مواصلة رحلته نحو

تيشيت وولاته) مثلت جوابا ضمنيا على محاولات جس النبض تلك، وجعلت الفرنسيين يبحثون عن طرق أخرى، مستغلين لهذا الهدف مستكشفين محايين يتكلمون اللغة العربية ويدينون بالإسلام.

(د) رحلة علي صل : دخول المدن البيضانية

مثلت مشكلة الوصول إلى المدن التجارية البيضانية واستكناه مجاهلها محورا متميزا وثابتا من محاور اهتمامات الإدارة الفرنسية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حينما أدرك الفرنسيون الأهمية التي تكتسيها تلك المدن على الصعيدين الاقتصادي والثقافي ودورها المحتمل في مواجهة التوغل الفرنسي في البلاد. يقول كوبولاني "إن من يريد حكم الصحراء لا بد أن يسيطر على الواحات"¹⁶⁴.

وتعتبر رحلة علي صل إلى المناطق الوسطى والشرقية من البلاد الموريتانية أولى المحاولات الناجحة¹⁶⁵ في هذا الصدد. وإذا كان هذا الرحالة لم يتمكن من دخول مدن تكانت جراء "احتجازه" من طرف الأمير بكار فإن رحلته الطويلة والشاقة عبر الأجزاء الشرقية من البلاد قد أسفرت عن دخوله وولاته وباسكنو.

¹⁶⁴ - Modat, "Portugais, Arabes et Français...", op.cit., p. 570.

¹⁶⁵ - قد مر اني سنة 1850 بمدينة شنقيط في طريقه إلى المغرب الأقصى، غير أن المعلومات التي عاد بها عن تلك المدينة لم تسم إلى مستوى المعلومات التي جمعها علي صل.

وقد اتسم خط سير علي صل بالتعرج وتعدد محطات التوقف، فبعد فترتي إقامة في البراكه وتكانت توجه علي صل صحبة قافلة تجارية من قبيلة تنواجيو¹⁶⁶ نحو الشرق الموريتاني في طريقه إلى ولاته مجتازاً منطقة العصابة.

ويذكر علي صل¹⁶⁷ أنه أقام "خمسة عشر يوماً في حي من قبيلة أولاد الناصر¹⁶⁸ يوجد قرب بحيرة أم الخز"¹⁶⁹ قبل أن يتابع رحلته نحو الشرق دائماً ومع

¹⁶⁶ - قبيلة زاوية قديمة في المنطقة أنجبت الكثير من الفقهاء والقراء منهم أبو القراء الموريتانية سيدي عبد الله بن أبي بكر التتواجيو الذي أدخل الجيم المعقودة إلى البلاد الموريتانية والمتوفى سنة 1145هـ / 1732م.

¹⁶⁷ - A. Sall, Rapport sur un voyage, op.cit., p. 15.

¹⁶⁸ - إحدى قبائل المغافره وهي تنتسب إلى ناصر بن مغفر بن أودي. وتوطن هذه القبيلة منطقة الحوض حيث اضطلعت بأدوار سياسية وعسكرية مهمة.

¹⁶⁹ - أضاة وواد بالاسم نفسه تقع على التخوم الفاصلة بين منطقتي الركيبه وأفله إلى الشرق من مدينة كيفه عاصمة ولاية العصابة الحالية.

مجموعة أخرى من القبيلة نفسها حيث مروا بقرية تغبه¹⁷⁰ التي "كان شيخ من تجكانت قد أعاد مؤخرا تشييد أنقاضها وهي واحة مزدهرة ومضيافة"¹⁷¹.

ومن تلك الواحة توجه علي صل ومرافقه إلى مخيم من قبيلة تنواجيو حيث استقبل بحفاوة من قبل زعيم ذلك الحي¹⁷² محمد الصغير وهو أحد تجار الصمغ وصديق قديم للرحالة الذي واصل سفره شرقا ليحل بمخيم من قبيلة مشظوف¹⁷³ ويقوم فيه في انتظار أن يجد مرافقين لمتابعة الرحلة. وينتهد علي صل فرصة مرور وفد من لقال في طريقهم إلى أولاد الناصر لتسوية بعض الخلافات بين القبيلتين فيرافق اثنين من ذلك الوفد عائدين إلى مخيمهما الذي سيمكث فيه علي صل عشرين يوما منتظرا، مرة أخرى، وجود مرافقين متجهين إلى ولاته.

¹⁷⁰ - مدينة قديمة عمرها تجكانت بعد تينيكي وتعرضت للخراب خلال القرن السابع عشر. تقع أطلالها على بعد حوالي خمسين كيلومترا شمال شرقي مدينة تامشكط إحدى عواصم مقاطعات ولاية الحوض الغربي. راجع:

✓ إزيد بيه بن محمد محمود، "تغبه حاضرة اركيز الشرقي"، الوسيط نشرة المعهد الموريتاني للبحث العلمي، العدد 5، يناير 1996، صص. 22 - 26.

✓ P. Laforgue, "Note sur Togba Ancienne Capitale des Tajakant du R'Kis (Mauritanie Saharienne)", Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie de la province d'Oran , t.-62, Fascicule 216, mars-juin 1941, pp. 1-8.

¹⁷¹ - A. Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., p. 17.

¹⁷² - لم نتمكن من الحصول على معلومات إضافية عن هذا الرجل.

¹⁷³ - قبيلة موريتانية لها وزن كبير في الحوض حيث أسس أحد فروعها مشيخة مستقلة بقيادة أحمد محمود بن المختار بن امحيميد (ت. 1301هـ/1883م) الذي ترك الرئاسة في بيته. راجع:

✓ بابه بن الشيخ سيدي، إمارتا إيدوعيش ومشظوف، مص. سا، ص. 160.

✓ المختار ولد حامد، الموسوعة، الجزء السياسي، مر. سا، ص. 237.

وقد تمكن علي صل من استمالة زيني ولد الطالب¹⁷⁴ إلى جانبه فوفر له الحماية وسمح له بمرافقة فرقته التي تتألف من مائتي جم ال متجهين نحو الشرق. وبعد يومين من المسير توقفوا لمدة ثمانية أيام بمخيم من لقلال ثم تابعوا سفرهم ليستريحوا ثلاثة أيام في مخيم غلاوي¹⁷⁵ آخر.

وعندما وصلوا بونواره¹⁷⁶ قضوا إثني عشر يوما بمخيم أهل الطالب مصطفى¹⁷⁷ قبل مواصلة الطريق نحو ولاته التي كانت وقت وصولهم إليها في حالة حرب مع تنبكتو مما منع عليا صل من مواصلة رحلته نحو هذه المدينة فقرر الذهاب إلى أروان.

وفي انتظار فرصة سانحة لذلك قام برحلات قصيرة في المناطق القريبة من ولاته قادته على الخصوص إلى قرية النعمة التي قضى بها عشرة أيام قبل أن يعود من جديد إلى ولاته وبمكث فيها شهرا في انتظار أن يجد رفقة نحو أروان التي توجه إليها صحبة قافلة كبيرة¹⁷⁸ من تجكانت وأولاد علوش¹⁷⁹.

174 - يبدو أنه زعيم مجموعة من قبيلة لقلال البيضانية.

175 - نسبة إلى قبيلة لقلال الموريتانية.

176 - بئر تقع بمركز الطوي ل التابع لمقاطعة الطينطان بولاية الحوض الغربي.

177 - قبيلة من زوايا الحوض زعامتها في أهل أحمد ولد اني. وهي تتحدر من أصول شمشوية.

178 - يقول علي صل إن تلك القافلة الذاهبة لبيع الإبل في أروان لديها أكثر من ألفي رأس من الإبل،

انظر:

A. Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., p. 10.

179 - بطن من بطون أولاد داود بن عروك بن أودي بن حسان، تزعموا قبيلة أولاد داود منذ القرن 18 الميلادي، للمزيد من المعلومات، راجع: صالح بن عبد الوهاب، الحسوة البيسانية، مص. سا، ص.24.

وبعد ثمانية أيام من السير في منطقة صعبة ونادرة المياه وصلت القافلة إلى مدينة أرون. وفي تلك الأثناء كان البرابيش قد أعلنوا لتوهم الحرب على طوارق تنبكتو الذين تجرأوا على نهب بعض حيواناتهم¹⁸⁰ مما أدى إلى تعطل الطرق والمواصلات بين أروان وتنبكتو الشيء الذي سيمنع عليا صل، مرة أخرى، من التوجه إلى هذه المدينة ويرغمه على العودة، رفقة قافلة من تجكانت، إلى باسكنو حيث سيعتقله جنود الحاج عمر الفوتي.¹⁸¹

وبعد أن تمكن علي صل من الفرار من قبضة أولئك الجنود بدأ رحلة العودة إلى السنغال صحبة قافلة من لقال قبل أن يصطحب دليلا¹⁸² أجره بثلاثين قطعة من القماش الغيني الأزرق مقابل "إيصاله سالما غير مصاب بأذى"⁽¹⁸³⁾ إلى باكل" التي وصلها يوم 7 ديسمبر/كانون الأول سنة 1862، بعد رحلة دامت سنتين وخمسة أشهر.

ومع أن بعض المراجع¹⁸⁴ ذكرت أن عليا صل حرر رحلته باللغة العربية فإننا لم نتمكن من العثور على النص الأصلي لتلك الرحلة رغم تنقيبنا في الأرشيفين

¹⁸⁰ - A. Sall, Rapport sur un voyage ..., op.cit., p. 10.

¹⁸¹ - Ibid, p. 12.

¹⁸² - هذا الدليل من قبيلة مشظوف. انظر:

A. Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., p. 14.

¹⁸³ - بقي شبح جنود الحاج عمر بطارد عليا صل فتتكر عدة مرات مدعيا الانتماء إلى قبيلة تنواجيو البيضانة. راجع:

A. Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., p. 14.

¹⁸⁴ - راجع بهذا الخصوص:

✓ Broc, **dictionnaire** ..., op.cit., p. 2.

✓ Regnault, "Relation...", op.cit., p. 171.

السنغالي والفرنسي مما اضطرنا إلى الاعتماد على تقرير¹⁸⁵ يلخص هذه الرحلة وهو مكتوب باللغة الفرنسية ويتألف من ست وأربعين صفحة من الحجم الكبير بأحرف صغيرة.

وقد تضمن هذا التقرير معلومات ثرية عن العديد من المناطق البيضانية وأنشطة سكانها ونمط حياتهم.

وتكمن أهمية هذه الرحلة بالنسبة لنا في كون صاحبها تمكن من تغطية المناطق الوسطى والشرقية من البلاد ووصل إلى بعض المدن الموريتانية في فترة مبكرة نسبياً. إذ يعد المستكشف الوحيد¹⁸⁶ الذي نجح في دخول المدن البيضانية أثناء القرن التاسع عشر فعاد بمادة غزيرة عن سكان تلك المدن وأنشطتهم المختلفة خاصة مبادلاتهم التجارية مع مدن السودان الغربي والجنوب المغربي. تلك المبادلات التي كان الفرنسيون يسعون إلى وضع حد لها محاولين جذب البضائع البيضانية نحو مراكزهم التجارية في حوض نهر السنغال.

هـ) رحلة صولي إلى آدرار: خيبة الأمل

وصل صولي إلى سينلوي في 2 يناير/كانون الثاني 1880 قادماً من فرنسا للقيام برحلته إلى منطقة آدرار الموريتانية. وقد استغرق الإعداد لهذه الرحلة حوالي شهر ونصف، جمع في بدايته بعض المعلومات عن المنطقة التي سيتجه إليها وعن سكانها.

¹⁸⁵ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration dans l'intérieur de l'Afrique, 1860-1862, 46 p., ANFCAOM, (dossier Alioune Sall).

¹⁸⁶ - إذا استثنينا باني الذي زار مدينة شنقيط سنة 1850.

وقد ساعده في جمع هذه المعلومات كل من ابن المقداد الذي سبق له أن زار أدرار مرتين وكاسبار دفيس (Gaspard Devis) عمدة مدينة سين-لوي ورئيس غرفتها التجارية.

وقد واجهت صولبي مشكلتان مستعصيتان أخذ حلها الكثير من وقته. أولاهما صعوبة الحصول على مرافق (خادم). فالسنغاليون يخشون الهلاك جوعا وعطشا ويخافون من أن يؤسروهم البيضان ويبيعوهم.¹⁸⁷

وفي نهاية المطاف تمكن هذا الرحالة من إيجاد مرافق سنغالي يدعى دبالو ببكر كان يتحدث الولفية والبولارية والفرنسية والحسانية (?)¹⁸⁸

أما الثانية فهي صعوبة الحصول على جمال لحمل بضائع وأثاث الرحالة. ذلك أن الرحلة صادفت فترة موسم حصاد وافر لمادة الفول السوداني التي تستخدم الجمال لنقلها إلى الأسواق المحلية والجهوية، الشيء الذي جعل أسعار هذه الجمال ترتفع بصورة مذهلة ووجودها في سين-لوي يكاد يكون مستحيلا.

ورغم كل ذلك فقد تمكن صولبي، بعد جهد جهيد، من شراء جملين، لكنهما لم يكونا كافيين لحمل بضائعه وأمتعته، مما أرغمه على ترك كميات من البضائع عند ابن المقداد على أن يرسلها إليه مباشرة نحو تيشيت.¹⁸⁹

وتشتمل أمتعة صولبي المحمولة في عشرين صندوقا حديديا اشتراها من لشبونه على:

✓ أغذية: حبوب، بسكويت، شاي، سكر، ملح... إلخ..،

¹⁸⁷ - Soleillet, Rapport Monsieur Le Ministre..., op.cit., pp. 10-14.

¹⁸⁸ - Ibid, p. 12.

¹⁸⁹ - Ibid, pp. 20-21.

✓ صابون وشمع،

✓ فراش وثياب،

✓ بضائع: 500 قطعة من القماش الغيني الأزرق (النبيله)، حرير للتطريز، سكاكين، مقصات، حلي، حاملات أوراق، حاملات مفاتيح، بارود، سحابيات، قرنفل، عنبر... إلخ¹⁹⁰ فضلا عن 40 قطعة ذهبية من فئة كرو¹⁹¹،

✓ أدوات علمية: 2 نصف مقياس سرعة، 1 مقياس سرعة، 3 ساعات، آلة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية من طائرة أو من سفينة¹⁹²، نظارات مقربة، 5 بارومتر، 24 ترمومتر، 2 مقياس ارتفاع، 6 بوصلات، أمتار، ديسيمترات، بيكرات، مجموعة من الكتب والخرائط،

✓ أسلحة: بندقيتان، مسدسان، خنجر، 500 خرطوشة،

✓ أدوات للطبخ ولتحضير الطعام والشراب،

✓ أدوية وأدوات جراحة¹⁹³.

وبالإضافة إلى هذه البضائع والأدوات حظي صولبي دون غيره من الرحالين والمستكشفين الفرنسيين بجملة من التوصيات كان يحملها معه أثناء هذه الرحلة من بينها على سبيل الخصوص:

¹⁹⁰ - قدر صولبي قيمة هذه البضائع بحوالي 8.000 فرنك. راجع:

Soleillet, Rapport Monsieur Le Ministre, op.cit., p. 25.

¹⁹¹ - راجع الإحالة رقم 78، ص. رقم من هذا العمل.

¹⁹² - Sextant

¹⁹³ - Soleillet, Rapport..., op.cit., pp. 25-26.

- ✓ توصية للمحميين الفرنسيين في الصحراء،
- ✓ توصية للجالية اليهودية في الصحراء،
- ✓ توصية من عمدة سين-لوي موجهة إلى "ابن الشيخ سيدي شيخ البراكنه العظيم"¹⁹⁴ (?)،
- ✓ رسائل من الوالي الفرنسي في السنغال باسم فرنسا ومن ابن المقداد إلى أمير الترازه علي بن محمد الحبيب والشيخ سعد بوه وبعض الشخصيات المهمة في تيشيت وولاته¹⁹⁵.

وعندما أكمل صولبي إجراءاته تلك غادر سين-لوي يوم السادس عشر فبراير/شباط 1880 متجها إلى مركز نجاكو بالساحل الأطلسي حيث اشترى من البيضان هنالك الجملين اللذين كان يحتاج إليهما¹⁹⁶. وفي 19 فبراير/شباط لبس صولبي الزي البيضاني وغادر نجاكو نحو الشمال الموريتاني صحبة بعثة المرافقة¹⁹⁷.

¹⁹⁴ - يقصد بول صولبي الشيخ سيدي بابه بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي (ت. 1342هـ - 1924م)، أحد أبرز الوجوه الفكرية والسياسية في البلاد الموريتانية في ملتقى القرنين التاسع عشر والعشرين، جمع بين الفقه والأصول والتاريخ والسياسة.

¹⁹⁵ - Soleillet, Rapport..., op.cit., pp. 19-20.

¹⁹⁶ - دفع صولبي مقابل هذين الجملين 300 فرنك و190 فرنك. انظر:

Soleillet, Rapport., op.cit., p. 21.

¹⁹⁷ - تضم هذه البعثة ثلاثة بيضان هم: الطالب عبد الله والطالب إبراهيم من أتباع الشيخ سعدبوه ومحفوظ بن سيدي وثلاثة سنغاليين هم: ديالو بيكر كان (خادم صولبي)، مالي سي (Maly Seuy) وممادو (خادم مالي سي) والشيخ (?). أحد تجار مدينة سين-لوي وصديق أمير الترازه علي بن محمد الحبيب.

وبعد ستة عشر يوماً من الترحال نحو الشمال وصل صولبي ومرافقوه يوم
الخامس من مارس/آذار 1880 إلى مخيم أمير الترازه علي بن محمد الحبيب¹⁹⁸
حيث مكثوا أربعة أيام قبل أن يواصلوا رحلتهم شمالاً نحو مدينة أطار.

وفي 15 مارس/آذار حل الرحالة صولبي بمخيم الشيخ سعد بوه حيث أقام
أربعة أيام أيضاً قبل مواصلة رحلته نحو الشمال في الثامن عشر من الشهر نفسه.

وقد تعرض صولبي في 20 مارس/آذار، وهو على مقربة من أطار، لنهب
مجموعة من قبيلة أولاد دليم¹⁹⁹ أو شكوا أن يقتلوه لولا تدخل مبعوثين من قبل الشيخ
سعد بوه. وبعد أن أطلق سراح صولبي قطع رحلته وعاد يوم 21 مارس/آذار إلى
مخيم الشيخ سعد بوه ليرحل يوم 24 من الشهر نفسه صعبة ذلك المخيم في اتجاه
الجنوب.

وفي اليوم الموالي ودع صولبي الشيخ سعد بوه متوجهاً في طريق العودة إلى
سين-لوي التي وصلها يوم 12 إبريل/نيسان بعد رحلة داخل بلاد البيضان استغرقت
55 يوماً وقطع خلالها حوالي 1160 كلم.

¹⁹⁸ - هو علي بن محمد الحبيب بن أمير بن المختار بن الشرقي، أمير الترازه (1873/1290-
1886/1303) انتزع الإمارة من أخيه أحمد سالم وتصارع مع إخوته للاحتفاظ بها. راجع:

✓ امحمد بن أحمد يوره، إخبار الأخبار، مر. سا، ص. 43.

✓ محمد فال بن بابيه، التكملة، مر. سا، ص. 70.

¹⁹⁹ - إحدى القبائل الحسانية تنتسب إلى دليم بن حسان، مظاعنها في الجزء الشمالي من البلاد
الموريتانية وفي جنوب الصحراء، انظر:

✓ صالح ابن عبد الوهاب، الحسوة، مص. سا صص. 3-4.

✓ المختار بن حامد، الموسوعة، جزء بني حسان، ص. 167.

وتوجت هذه الرحلة بوثيقة تحت عنوان "تقرير إلى وزير الأشغال العمومية حول رحلة بين سين-لوي وأدرار: ديسمبر/كانون الثاني 1879/أيار/أيار 1880"²⁰⁰. ورغم أن هذه الوثيقة نشرت مرتين سنة 1881 أولاها بعنوان "رحلة بول صوليبي إلى أدرار"²⁰¹ والثانية ضمن "رحلات واستكشافات ول صوليبي في الصحراء والسودان..."²⁰²، فإننا فضلنا الاعتماد على مخطوط الرحلة الأصلي المحفوظ في مركز أرشيف ما وراء البحار بمدينة أكسان رو انس الفرنسية لأن مقارنة هذا المخطوط بالنشرتين السابقتي الذكر تظهر عدم أصالتهما، حيث قام كل من الناشرين بحذف بعض المعلومات من الوثيقة الأصلية.

ويتألف هذا المخطوط من 154 صفحة من الحجم الكبير بكتابة واضحة غليظة الأحرف.

وقد سار بول صوليبي في تدوين رحلته على منوال سلفيه كايي وماج فسجل مشاهداته يوميا ذاكرا في غالب الأحيان اتجاه تنقلاته وتوقيتها. كما حذا صوليبي حذو كايي فاتحا في بعض الأحيان أقواسا مطولة حول بعض المسائل كلمحته عن تاريخ المنطقة التي سيعبرها²⁰³، واستعراضه المستفيض لظاهرة التصوف الديني عند وصوله إلى مخيم الشيخ سعد بوه.²⁰⁴

وفضلا عن ذلك تناولت الرحلة مشاهدات صوليبي في المناطق التي مر بها، سواء تعلقت بأنشطة السكان الاقتصادية أم بالظروف الطبيعية للبلاد.

²⁰⁰ - Soleillet, Rapport Monsieur le Ministre..., op.cit.

²⁰¹ - G. Gravier, Voyage de P. Soleillet à l'Adrar, décembre 1879-mai 1880, Ruoen, E. Cagniard, 1881, 64 p.

²⁰² - Gros, Les voyages et découvertes de..., quatrième voyage (de Saint-Louis à l'Adrar), pp.185-240.

²⁰³ - Soleillet, Rapport..., op.cit., p. 6.

²⁰⁴ - Ibid, op.cit., pp. 67 et suivantes.

وقد اعتنى صولبي على وجه الخصوص بالنباتات والتربة فجمع أربعا وأربعين عينة جيولوجية وأربعين عينة نباتية²⁰⁵ لتتم دراستها في المختبرات الفرنسية.

ومن أهم المآخذ على هذه الرحلة، وعلى نشرتها السالفتي الذكر، غياب خريطة للمنطقة وعدم رسم خط سير للرحلة.

ويلخص كابريل كرافبي نتائج رحلات صولبي قائلا: "لقد عاد هذا الرحالة من رحلته إلى عين صالح بفكرة مد السكة الحديدية العابرة للصحراء، وجاء من رحلته إلى سكو بفكرة الزيت النباتي، وعاد من رحلته إلى أدرار بفكرة صمغ اليتوع الذي سيفتح أمامنا أدرار. وبما أن جميع مستضيفيه قد أصبحوا أصدقاء له، فإن الطريق التي اختطها بقيت مفتوحة أمام مواطنيه [!]"²⁰⁶.

غير أن مسار الأحداث لن يصدق أحكام كرافبي تلك. ففكرة تصنيع الكاوتشو من صمغ (لبن) اليتوع لم تتكلل في نهاية المطاف بالنجاح. كما أن المنطقة ستبقى موصدة أمام الفرنسيين ثلاثة عقود من الزمن بعد رحلة صولبي، وذلك رغم محاولات رحلة فرنسي آخر هو بلانشي.

و. رحلة بلانشي إلى أطار: مؤشرات الغزو المسلح

تعتبر رحلة بلانشي إلى أدرار آخر محاولة فرنسية لاستكشاف البلاد قبل احتلالها العسكري. وقد حظيت هذه البعثة الاستكشافية بعناية كبيرة من لدن

²⁰⁵ - Ibid, pp.147-154.

²⁰⁶ - Gravier, Voyage de P. Soleillet à l'Adrar, op.cit., pp. 62-63.

الفرنسيين، إذ تولت مجموعة من رجال الأعمال تملك جريدة لو ماتان²⁰⁷ (Le Matin) ومصارف كبيرة في فرنسا تمويلها.

وقد مدت وزارتا البحرية والدفاع يد العون إلى هذه المهمة، فضلا عن المساندة والتسهيلات التي منحها الوالي الفرنسي على السنغال للرحالة بلانشي خدمة لنجاح مهمته تلك، التي استهدفت زيارة مناطق الترازه وإينشيري وآدرار، بما في ذلك مرتفعاته الجبلية التي لم يطأها الأوروبيون قبل هذه البعثة²⁰⁸، وذلك بهدف التأكد من وجود نترات الصوديوم والذهب²⁰⁹ في المناطق الواقعة بين السنغال والمغرب.

ومن أهداف هذه البعثة الأساسية أيضا دراسة منطقة مرور خط حديدي مزعم "تجعل الظروف اليوم [1900] إقامته، بين شمال السنغال وجنوب وهران [عبر آدرار]، أكثر احتمالا من مده بين جنوب الجزائر ومدينة تنبكتو"²¹⁰.

وفي حالة عدم توفر نترات الصوديوم بالمنطقة، يجب على البعثة أن تبحث عن مصدر طبيعي بديل كفيل مع التجارة المحلية بتسهيل إقامة خط السكة الحديدية المحتمل.²¹¹

²⁰⁷ - الاتفاقيات التي أبرمت بشأن هذه المهمة كانت بين بلانشي وهذه الجريدة التي تمثل مجموعة رجال الأعمال المالكين، راجع بهذا الخصوص: ملف بلانشي بالأرشيف الفرنسي.

²⁰⁸ - Blanchet, Rapport de mission, op.cit., p. 10.

²⁰⁹ - لم يرد ذكر البحث عن الذهب في الاتفاقيات المبرمة بين رئيس البعثة بلانشي والأطراف الممولة، كما أن بلانشي لم يشر في تقريره إلى أن البحث عن الذهب كان من أهداف البعثة، والإشارات بهذا الخصوص وردت ضمن السيرة الذاتية لابن المقداد وهو يتحدث عن مرافقته لبعثة بلانشي إلى آدرار، انظر:

Bou El Mogdad, Notes autobiographiques ..., op.cit., p. 17.

²¹⁰ - Blanchet, Rapport de mission, op.cit., p.11.

²¹¹ - Ibid, p. 12.

واستجابة لطبيعة هذه البعثة ولمهمتها الأساسية، وهي دراسة سبخة اجل والمنخفضات المجاورة لها فضلا عن جرد الثروات المعدنية لمنطقة آدرار كلها²¹²، تقرر طبقا للاتفاقية المشار إليها في الإحالة السابقة أن يكون بلانشي وهو الأركيولوجي مرفوقا بالجيولوجي دريمس (Dereins) للإشراف على الجوانب الطبيعية من الدراسة، فضلا عن الملازم الأول جوينو كامبتا (Lieutenant Jouinot-Gambetta) الذي أسندت إليه مهمة أمن البعثة.

وضمن التحضيرات العامة لهذه البعثة أشرف هذا الملازم في سين-لوي على انتقاء وتدريب ثلاثين من الرماة المساعدين سيشكلون فرقة حراسة ارتأى الوالي الفرنسي على السنغال أن عددها يكفي لضمان أمن البعثة أثناء عبورها لمنطقتي إينشيري وتقلي²¹³ حيث تدفع قلة المياه وقساوة المناخ اللصوص إلى نهب القوافل.²¹⁴

وقد تم اختيار هؤلاء الرماة الثلاثين من ضمن من انخرطوا سابقا في الخدمة العسكرية وعملوا في الداومي ومدغشقر. غير أن تجربتهم العسكرية السابقة لم تمنع من أن يخضعوا تحت إشراف الملازم الأول كامبتا لتدريب عسكري دام ثلاثة أسابيع ليصبحوا على حد قول الملازم الأول كامبتا²¹⁵ "بمثابة جنود عاديين مستعدين للمعاناة تحت إمرة قائدهم" رغم أن مسار الأحداث كما سنرى سينفي ذلك.²¹⁶

وتعتبر قافلة بلانشي أضخم بعثة استكشافية فرنسية ترسل إلى المنطقة في ذلك الوقت. إذ تتوفر هذه البعثة على خمسة وثمانين جملا من بينها سبعة وستون محملة

²¹² - Gillier, op.cit., p. 98.

²¹³ - منطقة منبسطة تمتد بين إينشيري شمالا ونواكشوط جنوبا. راجع: امحمد بن أحمد يوره، إخبار الأخبار...، مر. سا. ص. 44.

²¹⁴ - Blanchet, Rapport de mission, op.cit., p.13.

²¹⁵ - Jouinot-Gambetta, Rapport..., op.cit., pp. 1-2.

²¹⁶ - Idem

بالبضائع والمؤن. ذلك أن هذا الرحالة حمل معه زادا يكفي البعثة لمدة مائة يوم فضلا عن بضائع للمبادلات لأن الهدف المعلن للرحلة هو هدف تجاري.²¹⁷

وقد انطلقت الرحلة في غرة إبريل/نيسان سنة 1900 واستغرقت عملية حمل المؤن والبضائع على الجمال أزيد من ست ساعات حيث واجهت بلانشي مشكلة قلة الحمالين. وكان قد طلب من أمير الترازه أحمد سالم بن علي أن يزوده مقابل خمسة آلاف فرنك فرنسي بستة وثلاثين جملا وعشرين حمالا. غير أن الأمير الذي وضع تحت تصرفه الجمال المطلوبة لم يوفر له سوى عشرة حمالين فاضطر الرحالة إلى استخدام فرقة الحراسة في عملية حمل البضائع على الجمال.²¹⁸

وأثناء الترحال تواصلت المشاكل وكان من أكثرها حدة مشكلة مياه الشرب التي دفع بلانشي مقابل توفيرها بضائع كثيرة²¹⁹ لأحد البيضان.

أما المشكلة الثانية التي أوشكت أن تقضي على البعثة فهي مرض معد أصاب جمال القافلة وبدأ يفنك بها يوميا. يقول كامبتا: "عندما صرنا على بعد 320 كلم من سين-لوي كنا قد فقدنا نصف جمالنا، ويوم وصولنا إلى تويزكت²²⁰ مقر الشيخ سعد

²¹⁷ - Blanchet, Rapport de mission, op.cit., p.11.

²¹⁸ - Ibid, p. 12.

²¹⁹ - Blanchet, Rapport de mission, op.cit., p.14.

²²⁰ - بئر تبعد حوالي 190 كلم شمال نواكشوط. كانت في ذلك الحين مركزا لمخيم الشيخ سعد بوه.

راجع:

-محمد بن أحمد يوره، إخبار الأخبار...، م.س. ص. 44.

-أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط، م. س.، ص. 432.

Blanchet, Rapport de mission, op.cit., pp. 8-9.

وانظر أيضا: الخريطة رقم 9، من هذا العمل.

بوه لم يبق لدينا [من الجمال] سوى ثلاثين جملا، وفي يوم دخولنا مدينة أطار كان عدد الجمال المتبقية لدينا هو اثنا عشر جملا فقط".²²¹

وجراء هلاك غالبية جمال قافلته اضطر بلانشي في مناسبتين إلى إرجاع البضائع التي لا يعتبرها ضرورية إلى سين-لوي.

ومع ذلك فقد واصلت البعثة سيرها شمالا سالكة طريقا في اتجاه الشمال موازيا للساحل يبعد عن المحيط 50 كلم حتى تصل بئر بلوخ²²² حيث ستنتجه نحو الشمال الشرقي في طريقها إلى تويزكت التي ستصلها في السابع عشر من مايو/أيار.

وكان بلانشي يحمل معه توصية من الوالي الفرنسي على السنغال للشيخ سعد بوه الذي أكد للرحالة بعد الترحيب به هو والبعثة المرافقة له أنهم تحت حمايته.

وستتابع البعثة رحلتها في اتجاه الشمال الشرقي دائما حتى تصل مدينة أطار وبذلك يكون بلانشي أول أوروبي يدخل هذه المدينة التي استقبله سكانها باللعنات والتهديد²²³ مطالبين الأمير بعدم السماح لهؤلاء "النصارى" أن يدخلوا المدينة. وبالرغم من موقف السكان تولى ابن الأمير أحمد بن المختار استقبال البعثة نيابة عن والده الموجود حينها خارج المدينة فرحب بأعضاء البعثة باسم الأمير وتعهد لهم بالمساعدة والحماية.²²⁴

²²¹ - Jouinot-Gambetta, Rapport..., op.cit., p.18.

²²² - بئر تقع على بعد 60 كلم شمال نواكشوط. انظر الخريطة رقم 9 من هذا العمل: (خط سير الرحالة بلانشي أثناء رحلته إلى مدينة أطار بالشمال الموريتاني سنة 1900).

²²³ - انصبت غالبية تلك اللعنات على ابن المقداد، انظر:

Bou El Mogdad, Notes autobiographiques..., op.cit., p. 18.

²²⁴ - Ibid, p. 19.

وقد قرر بلانشي إرسال ابن المقداد إلى أمير آدرار المختار بن أحمد بن عيده الذي يوجد حينئذ على بعد مسيرة يوم من المدينة وذلك "لمعرفة ما إذا كان سيرجع فوراً إلى أطار وإلا فإن أعضاء البعثة قد يتجهون [إليه] من أجل أن يوقع على المعاهدة [?]"²²⁵.

وبالفعل فقد اتجه ابن المقداد إلى أمير آدرار حيث قضى معه ليلة عاصفة²²⁶ ومشحونة بالمفاوضات ليحصل على تعهد من الأمير بالمجيئ إلى أطار في وقت لاحق لمقابلة بلانشي والتباحث معه.

وعندما كان ابن المقداد خارج أطار يتفاوض مع الأمير اندلعت أعمال عنف بالمدينة إذ تعرضت مجموعة من البعثة كانت تسقي من بئر ببطحاء أطار لإطلاق النار من قبل السكان المحليين فسارع الملازم الأول جوينو كامبتا على رأس اثني عشر جندياً لفك الحصار عن تلك الفرقة مما أدى إلى تبادل لإطلاق النيران تبعته سلسلة من الاشتباكات خلال يومي 9 و 10 يونيو/حزيران وأسفر عن بعض الخسائر البشرية في صفوف الفرنسيين²²⁷. ويتواصل تأزم الوضع ليقود في نهاية المطاف إلى إبعاد الفرنسيين عن فرقة حراستهم التي سيهرب أفرادها عائدين إلى سين-لوي تاركين بلانشي ومرافقيه أسرى لدى البيضان الذين نهبوا أمتعة البعثة.

²²⁵ - هذه الاتفاقية التي يبدو أن الفرنسيين حملوا مشروعها من سين-لوي -وربما من باريس- لم يرد لها ذكر لا في تقرير بلانشي ولا في تقرير دريمس عن الرحلة إلى آدرار. فالإشارة الوحيدة إليها وجدناها عند ابن المقداد في:

Bou El Mogdad, Notes..., op.cit., p. 20.

²²⁶ - وجد ابن المقداد مع الأمير عدداً كبيراً من الزوايا وحسان وقد وبخوا ابن المقداد بقساوة لأنه أوصل "النصارى" إلى بلادهم, انظر:

Bou El Mogdad, Notes..., op.cit., p. 20.

²²⁷ - اعترف جوينو كامبتا في تقريره عن المهمة في آدرار بسقوط عشرة من القتلى في صفوف الفرنسيين, انظر:

Jouinot-Gambetta, Rapport..., op.cit

ورغم ذلك فإن البعثة تمكنت من الاحتفاظ ببعض الوثائق والملاحظات والعينات التي أخذتها خلال الرحلة.²²⁸

كما أن التقرير²²⁹ الذي خلفه بلانشي عن مهمته تلك في أدرار وهو يتألف من ست وثلاثين صفحة من الحجم المتوسط، يشتمل على جملة من المعطيات القيمة عن طبيعة المنطقة وثرواتها وسكانها وأنشطتهم الاقتصادية ومواقفهم السياسية وانتماءاتهم الطرقية... إلخ.²³⁰

ورغم الطابع "العلمي" و"الاقتصادي" للبعثة فإن حضور السياسة فيها كان بارزا إذ نجد بلانشي يتحدث عن مواقف فئات السكان (حسان والزوايا خاصة) من بسط النفوذ الفرنسي على المنطقة²³¹، وعن توفر المياه "الكافية لرتل (Colonne) من المشاة"²³²، ثم عن إمكانية تربية الخيل في أدرار "إذا كنا [يعني الفرنسيين] ننوي نشر بعض الخيالة في هذه البلاد"²³³ التي لن يتمكن الفرنسيون في النهاية من دخولها إلا عنوة وبكثير من الخسائر، وذلك أثناء حملة أدرار الشهيرة سنتي 1908 و1909.

إن هذا الحضور في رأينا يطرح سؤالا أساسيا لا على مستوى هذا الرحالة فحسب، بل بالنسبة لجميع الفرنسيين الذين لامسوا تقريبا مختلف مناطق هذا المجال، لأي سبب وتحت أي شعار، سؤالا عن صدق المسعى ودرجة التوفيق، فإلى أي حد عكس الرحالون الفرنسيون حياة هذا المجتمع؟ هل نجحوا في تجاوز ذواتهم ومحاورته بصدق وموضوعية؟ أم إن المركزية الأوربية والخلفية المسيحية شكلتا غشاوة لا يمكن تمزيقها في النهاية وإن تم اختراقها في عديد الأحيان؟

²²⁸ - - Dereims, Rapport de mission, ..., op.cit., p. 6.

²²⁹ - Blanchet, Rapport de mission en Adrar..., op.cit.

²³⁰ - سنعود إلى هذا التقرير/الرحلة في الفصول الموالية من هذا العمل.

²³¹ - Blanchet, Rapport de mission..., op.cit., pp. 27-29.

²³² - Ibid, p. 17.

²³³ - Blanchet, Rapport de mission ..., op.cit., p. 18.

الفصل الرابع المجتمع البيضاني في الزمان والمكان

يسعى هذا الفصل إلى التأطير زمانا ومكانا للمجتمع البيضاني كمدخل لتناول بناء الاجتماعية والسياسية وحياته الثقافية وأنشطته الاقتصادية في مراحل لاحقة من هذا العمل.

وتطرح مسألة التأطير الزماني والمكاني هذه جملة من الإشكاليات لعل من أهمها تلك التي ترتبط بتسمية البلاد ثم بتحديد مجال السكان البيضان موضوع هذه الدراسة.

وقبل تناول تلك الإشكالات بالدراسة ارتأينا أن من الضروري تقديم لمحة موجزة عن السياق التاريخي العام لهذا المجتمع، وهو سياق أهمله مجمل الرحالين والمستكشفين الفرنسيين مما أرغمنا على توظيف بعض المصادر والمراجع الأخرى لسد هذا النقص.

أولاً. السياق التاريخي (البيضان في الزمان)

لقد تم استيطان البلاد الموريتانية الحالية منذ العصر الحجري القديم حيث احتضنت هذه البلاد حضارات بشرية قديمة عرفت الصناعات المعدنية قبل خمسين قرناً من الزمان.¹

¹ - Robert Vernet, **La préhistoire de la Mauritanie. Etat de la question**, thèse de 3ème cycle, Paris-I, 1983, 3 vol.

وليس من المستبعد أن تكون بعض أولى الجماعات البشرية التي استوطنت هذه الربوع هي جماعات ذات سحنة زنجية² كانت تعيش على الالتقاط والقتل³. وقد هاجرت هذه الجماعات تدريجيا نحو الجنوب مدفوعة بعوامل طبيعية وبشرية أهمها جفاف الصحراء ووصول جماعات "اللوبيين البربر" أو "العرب البربر"⁴ الزاحفين من الشمال والمتوفرين على أسلحة حديدية وعربات تجرها الخيول ثم الجمال في وقت لاحق، مما ساعدهم على التوغل في المنطقة والسيطرة عليها⁵. وعندما قامت مملكة غانه في الفترة الوسيطة حسب التحقيب الأوربي تمكنت من بسط نفوذها على الأجزاء الجنوبية الشرقية من المجال الموريتاني الحالي. وفي بداية القرن الهجري الثاني/القرن الثامن الميلادي وصلت إلى هذه الربوع طلائع الفتح الإسلامي بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع. وتواصلت منذ ذلك الوقت عملية وصول العرب الفاتحين إلى المنطقة ودخول الإسلام إليها عبر التجارة لا عن طريق السيف، رغم أن صنهاجة الصحراء اعتنقوا هذا الدين بشكل متردد وبطيء.

وسنعرض هنا صفحا عن البسط في التاريخ القديم للمنطقة وسكانها⁶ مدفوعين بعاملين اثنين أولهما عدم توفر المصادر اللازمة للخوض في تلك الفترة البعيدة زمانا، وثانيهما اقتناعنا بأن تاريخ المجتمع البيضانبي في القرن التاسع عشر

² - Négroïdes.

³ - Robert Vernet, "La préhistoire de la Mauritanie" in Introduction la Mauritanie, Editions du CNRS., Paris, 1979, 421 p., pp. 17-44.

⁴ - "{...} libyco-berbère...", Robert Vernet, "La préhistoire de la Mauritanie" in Introduction la Mauritanie, op. cit., p. 40.

⁵ - Ibid, p. 40.

⁶ - للمزيد من المعلومات عن التاريخ القديم للمنطقة وسكانها يمكن الرجوع إلى الدراسات القيمة التي أنجزها وينجزها لحد الساعة- زميلنا روبير فرني بخصوص تاريخ البلاد الموريتانية في فترة ما قبل التاريخ، خاصة العملين المذكورين أنفا.

موضوع دراستنا، أكثر ارتباطا بالتطورات التي عرفتھا المنطقة في الفترتين الوسيطة والحديثة، وبالذات قيام الحركة المرابطية بهذه البلاد ووصول الهجرة الحسانية إليها والتمركز الأوربي بسواحلها.

فابتداء من القرن الثامن الميلادي تمكن صنهاجة الصحراء من تأسيس سلطة مستقلة تحت قيادة لمتونة مكنتهم من التحكم في المحور الغربي المتميز لطرق التجارة عبر الصحراء، فاتخذوا أودغست عاصمة لهم؛ غير أن وحدة تلك القبائل قد انهارت في القرن العاشر الميلادي قبل أن يظهر تنظيم جديد في بداية القرن الخامس الهجري/نهاية الثلث الأول من الحادي عشر الميلادي بزعامة ترسين اللمتوني الذي سيخلفه يحيى بن إبراهيم ال دالي وهو الرجل الذي به يرتبط ظهور حركة المرابطين.

أ. الحركة المرابطية

تعود بدايات حركة المرابطين حسب المصادر⁷ التي تناولت تاريخ هذه الحركة إلى رحلة يحيى بن إبراهيم ال دالي إلى مكة للحج ولقائه سنة 427هـ/1035م الفقيه أبا عمران الفاسي بالقيروان، فقد عرض الأمير ال دالي على الفقيه القيرواني أمر قومه وما هم عليه من جهل بأمور الدين وحاجتهم إلى من يتولى تفقيهم في أحكام الشريعة وإلزامهم حدودها.

وتلبية لطلب يحيى بن إبراهيم، فقد أحاله أبو عمران الفاسي إلى شيخ سوسي كان تلميذا له يدعى وجاج بن زلو اللمطي، فاكتفى الشيخ اللمطي بانتداب تلميذه عبد

7 - من أهم هذه المصادر:

- ✓ البكري، المغرب، مص. سا. صص. 164-170،
- ✓ ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، ط.3، 1983، ج.4، صص. 7-28،
- ✓ ابن أبي زرع، روض القرطاس، مص. سا، صص. 120 وما بعدها،
- ✓ ابن خلدون، كتاب العبر، مص. سا، صص. 182 وما بعدها.

الله بن ياسين، وهو من قبيلة جزولة البربرية التي تتصل بصنهاجة، ليرافق الأمير ال دالي ويتولى الإشراف على تعليم قومه شؤون دينهم وإلزامهم حدوده. وبالفعل فقد عاد يحيى بن إبراهيم إلى صحراء الملتمين رفقة عبد الله بن ياسين الذي باشر المهمة التي جاء من أجلها إلى تلك الصحراء حيث لقي في بداية الأمر الترحيب وبدأ الناس يمتثلون أوامره "وهم يسمعون له ويطيعون إلى أن نقموا عليه [...] وكانهم وجدوا في أحكامه [حسبما يذكر البكري] بعض التناقض..."⁸. ويدعم ابن عذاري⁹ هذه الرواية قائلا: "وبقي فيهم [دالة] عبد الله بن ياسين يمتثلون كل ما به يأمرهم منقادين لأمره ونهيه، إلى أن نقض عليه شخص منهم [...] شيئا من أحكامه وجد فيها تناقضا فتوافق مع بعض رجال من كبارائهم فعزلوه من الرأي والمشورة، وقطعوا منه مالهم، وانتهبوا داره، وأخذوا ما كان فيها...".

أما صاحب روض القرطاس¹⁰ فيرجع سبب خروج ملتيمي الصحراء على عبد الله بن ياسين إلى ما اتسم به من صرامة في قواعد السلوك الأخلاقي والديني التي أراد فرضها على دالة. وبغض النظر عن أسباب تلك "الثورة" فإن عبد الله بن ياسين قد اضطر إلى اللجوء، صحبة بعض أنصاره من جدالة ولمتونة، إلى جزيرة قرب البحر¹¹ جعلوها

⁸ - البكري، المغرب، مص. سا، ص. 165.

⁹ - ابن عذاري، البيان المغرب، مص. سا، صص. 8-9.

¹⁰ - ابن أبي زرع، روض القرطاس، مر. سا، ص. 124.

¹¹ - يثير تحديد هذه الجزيرة جدلا بين المهتمين بتاريخ الحركة المرابطية، فبينما يرى بعض الدارسين أنها جزيرة تيدره التي تقع بالمحيط الأطلسي شمال نواكشوط، يعتقد البعض الآخر أنها توجد بمنطقة نهر السنغال معتمدين -من بين أمور أخرى- على قول ابن خلدون في حديثه عن انسحاب عبد الله بن ياسين وأصحابه إلى الرباط: "فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بحر النيل [?] من جهاتها ضحضاحا في الصيف وغمرا في الشتاء"، وهو وصف ينطبق على النهر في موسمي الفيضان والتحاريق. انظر، ابن خلدون، كتاب العبر، مص. سا، ج. 6، ص. 183. وتمكن أيضا مراجعة:

رباطا انضم إليهم فيه المزيد من الأنصار أفرادا وجماعات من مختلف القبائل الصنهاجية ميايعين على المرابطة في رباطهم البحري ذاك الذي ربما اشتقت منه تسمية "المرابطين".

وبعد أن تعاضم شأن هؤلاء "المرابطين" المرابطين في ذلك الثغر البحري (الجزيرة) أمرهم عبد الله بن ياسين بالخروج وبدء الجهاد حيث تمكنوا من إخضاع جدالة ولمتونة ومسوفة، وبدأ شأنهم يتعاضم في صحراء الملثمين التي باتوا أصحاب السيادة شبه المطلقة عليها.

وفي تلك الأثناء توفي الأمير يحيى بن إبراهيم ال دالي فحل محله يحيى بن عمر اللمتوني الذي سيخلفه أخوه أبو بكر بن عمر اللمتوني سنة 448هـ/1056م.

ومن ربوع صحراء الملثمين انطلقت فتوحات المرابطين شطر الشمال وشرط الجنوب.

ففي الشمال تمكن المرابطون من الاستيلاء على الثغور المغربية واحدا بعد الآخر وبسطوا نفوذهم على المغربين الأقصى والأوسط وعلى جزء كبير من شبه جزيرة إيبيريا.

-
- ✓ Leriche, "Notes sur les classes sociales et sur quelques tribus en Mauritanie", Dakar, BIFAN, t.-XVII, série B, n°2, 1955, pp. 173-202;
 - ✓ Farias, "Almoravids: some questions concerning the character of the movement during its periods of closest contact with the Sûdân", Dakar, BIFAN, t.-XXIX, série B, n°3-4, 1967, pp. 794-878;
 - ✓ Oumar Kane, "A la recherche du Ribat d'Ibn Yacin et des Almoravides", in: Actes du Colloque International sur le Mouvement Almoravide, tenu Nouakchott du 15 au 17 avril 1996, Nouakchott, 1999, pp. 31-35.

وفي الجنوب سيطروا على معظم أرجاء منطقة السودان الغربي (إفريقيا الغربية) بعد أن أطاحوا سنة 470هـ/1076م بمملكة غانة الوثنية التي كانت تمثل حجر عثرة أمام نشر الإسلام جنوبا.

وهكذا لم يمض وقت قصير على قيام الدعوة المرابطية حتى كانت إمبراطورية المرابطين تشمل رقعة متسعة تمتد من تخوم إفريقيا السودانية الساحلية لتصل شبه جزيرة إيبيريا مرورا بأجزاء مهمة من منطقة شمال غربي إفريقيا حيث نشر المرابطون عن طريق الجهاد في هذه المناطق مذهبهم السني المالكي¹². وقد أدرك بعض الفرنسيين دور المرابطين في نشر الدين الإسلامي والحضارة العربية بهذه المنطقة. يقول الرائد جيلبي¹³ بهذا الشأن: "[...] وهكذا تم بالفعل نشر الإسلام في ربوع الصحراء كما انتشرت الثقافة العربية الإسلامية المرتبطة بدراسة القرآن في جميع المنطقة مما أدى إلى إكساب المجتمع البربري [الصنهاجي] مستوى حضاريا أسمی".

غير أن بوادر الانشقاق والتشردم قد تسربت بسرعة إلى هذه الإمبراطورية، فقبيل أن يتوجه أبو بكر بن عمر إلى الجنوب للإشراف على شؤون الدولة هنالك خل ف ابن أخيه يوسف بن تاشفين لينوبه في الشمال. وعند عودة أبي بكر إلى الشمال وجد ابن أخيه قد اتخذ شارات الملك ومراسيم السلطان لنفسه، فتغاضى عن ذلك قانعا بالاحتفاظ الرمزي بالملك وبما وصله من ابن أخيه من هدايا. وقد يكون تفادي الحرب

¹² - للمزيد من الاطلاع على المذهب الفقهي للمرابطين وتأثيره في بلاد شنقيط، راجع: حماد الله ولد السالم، "الإطار الفكري للحركة المرابطية"، ضمن: أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين (من 15 إلى 17 إبريل/نيسان 1996)، مصادر (دقاتر التاريخ الموريتاني)، الكتاب الثاني، نواكشوط، 1999، صص. 41-79.

¹³ - Gillier, La pénétration en Mauritanie, op.cit, p. 276.

الأهلية وما تؤدي إليه من اقتتال الإخوة من العوامل التي دفعت أبا بكر بن عمر إلى قبول الأمر الواقع والتسليم به.

وهكذا انقسمت الدولة إلى شطرين: شمالي بزعامة يوسف بن تاشفين وجنوبي بقيادة أبي بكر بن عمر.

ولم يعر المؤرخون على ما يبدو كبير اهتمام للجناح الجنوبي للحركة فقد اعتبروا وفاة أبي بكر بن عمر سنة 480هـ/1087م نهاية له، إذ تفككت وحدة القبائل الصنهاجية في الصحراء وعجزت عن مواصلة السيطرة على المناطق المفتوحة فاستعادت بالتالي إمبراطورية غانه بعض نفوذها على الأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية من المجال البيضاوي قبل أن تخضع هذه الأجزاء من البلاد لسيادة الإمبراطورية المالوية التي تأسست على أنقاض دولة غانه.

وقد يكون صدود المؤرخين عن أخبار الشطر الجنوبي (الصحراوي) للدولة المرابطية عائدا إلى أن هؤلاء المؤرخين كانوا مشدودي الانتباه إلى الفتوحات والانتصارات التي حققها يوسف بن تاشفين في الشمال، فتركوا بذلك كسوبا وثانقيا في تاريخ المنطقة الجنوبية.

وإذا كان الشطر الجنوبي من الإمبراطورية المرابطية قد انهار بسرعة فإن الإطاحة بالقسم الشمالي لم تتم إلا في حدود 541هـ/1146م وهو تاريخ استيلاء الموحدين على مدينة مراكش.¹⁴

وفي الجنوب الذي يهمننا أكثر من غيره حلت التنظيمات القبلية المجزأة على مستوى القبائل الصنهاجية محل سلطة المرابطين المركزية، إذ يذكر المختار بن حامد¹⁵ أن السيطرة في منطقة الكبله¹⁶ كانت منذ أواخر القرن السابع الهجري (الثالث

14 - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة-الدار البيضاء، 1984، 3 أجزاء، ج. 1، ص. 233.

15 - المختار بن حامد، الموسوعة، جزء التاريخ السياسي، مر. سا.

16 - منطقة جغرافية تمتد من تخوم آدرار شمالا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن نهر السنغال جنوبا إلى منطقة أفطوط الشرقي شرقا.

عشر الميلادي) بيد قبيلة انيرزيك¹⁷، وفي تكانت والر ييه¹⁸ لقبيلة الأنباط¹⁹، وفي أدرار لقبيلة إيديشلي²⁰، وفي الشمال لقبيلة ابدوكل²¹ الزاوية.

وهكذا فإن المجال الموريتاني بعد سقوط دولة المرابطين تعايشت فيه وتصارت داخله مجموعات من القبائل بعضها من أحفاد المرابطين والبعض الآخر ينتمي إلى مجموعات نسبية متعددة حصرها المختار بن حامد²² في أصول أربعة هي:

- ✓ القبائل المنحدرة من أصل مرابطي،
- ✓ القبائل المنتسبة إلى الأنصار،
- ✓ القبائل ذات الأصل القرشي،
- ✓ القبائل المنتمية إلى بني حسان.

-
- 17 - من قبائل صنهاجه بادوا مع تقدم القبائل المعقلية صوب الجنوب. وبقيتهم المتبقية الآن تسمى تغرجنت وباران وجاران.
- 18 - منطقة سهلية رملية تقع في الوسط الجنوبي من البلاد الموريتانية بين تكانت وأوكار والعصابة، وهي تعتبر معبرا إلى الحوض.
- 19 - الأنباط مجموعة صنهاجية تنقسم إلى قسمين:
- ✓ أنباط الجبل (أزناكه): وهم فئة النبلاء من القبائل الصنهاجية وعلى الخصوص لمتونه منها، وهم النقباء وأصحاب الرأي والزعامة؛
 - ✓ أنباط الكبله ومنهم انكادس، وكانوا أهل شوكة في منطقة الكبله قبل أن يتغلب عليهم أولاد رزك ويذوبوا في قبائل أخرى.
- 20 - إحدى قبائل الشوكة القديمة في البلاد الموريتانية، وهم يقطنون أدرار حيث لعبوا أدوارا سياسية وعسكرية مهمة مقاومين بسط سيطرة أولاد يحيى بن عثمان على منطقة أدرار.
- 21 - قبيلة من أعظم بطون صنهاجة. كانوا يسكنون المنطقة الممتدة من الساقية الحمراء إلى حدود أدرار. وانحسرت شوكتهم بعد دخول قبائل المعقل فأصبح أكثرهم غارمين لأولاد الناصر. وهاجرت بقيتهم إلى ولاته ومكثوا بها زمنا ثم ذهبوا مع من ذهب من الشرفاء إلى النعمة عند تأسيسها. وقيل إن بعضهم توجه إلى مالي.
- 22 - المختار بن حامد، الموسوعة، جزء الجغرافيا، مر. سا، صص. 30-62.

ولعلنا نلمس تأثير الحركة المرابطية على البلاد الموريتانية²³ الحالية إذا
تفطنا إلى عنصرين أساسيين:

أولهما يتعلق ببنية المجتمع، فالتقسيم الثلاثي لهذا المجتمع إلى "عرب" أهل
شوكة يحتكرون القوة العسكرية ويمارسون السلطة السياسية، و"زوايا" يقومون على
التعليم، ثم "لحمة"²⁴، يشتغلون بالرعي؛ هذا التقسيم يعود، حسب الروايات السائدة،
إلى إجراء اتخذه أبو بكر بن عمر عندما قسم جيشه إلى ثلاثة أجزاء: طائفة تم
تسريحها لتتفقه في الدين، وهم الزوايا، وثانية تسعى في تحصيل معاش الجميع وهي
اللحمة وثالثة احتفظ بها مقاتلين في حالة استعداد دائم.²⁵

ولا يخفى ما لهذه الرواية من دلالة فيما يخص اعتبار الحركة المرابطية
"مصدرا للمشروعية الاجتماعية ومرجعية أعلى لتفسير وتقنين نماذج ومستويات
التراتب الاجتماعي والسياسي..."²⁶.

أما العنصر الثاني فيتصل بالمرجعية الثقافية إذ "أن الحركة المرابطية
منظورا إليها ابتداء من طورها الصحراوي الأخير قد أمدت الثقافة الشعبية وشبه
العامة بالعناصر البنيوية لأسطورة تأسيسية كانت صياغتها دينامية بحيث يعاد تأليفها

²³ - راجع بهذا الخصوص: سيد محمد بن محمد الأمين، المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية
من حياة المرابطين في موريتانيا، مذكرة تخرج للحصول على المتريز في التاريخ، المدرسة العليا
لتكوين الأساتذة والمفتشين، نواكشوط، 1984، ص 77.

²⁴ - تسمية تطلق اصطلاحا على الفئة الغارمة (الأتباع) في مجتمع البيضان وهي تتكون من بقايا
المجموعات القبلية التي أنهكتها الحروب المتتالية مما أرغمها على الاحتماء بالمجموعة
الأرستقراطية صاحبة القوة والنفوذ.

²⁵ - أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط، مر. سا، صص. 475-476.

²⁶ - دود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط، مر. سا، ص 40.

في كل حقبة لتفسير المستجد من التحولات...²⁷ فتأثير المرابطين في الحركة الثقافية بصحراء الملثمين²⁸ كان شديد العمق حتى بعد هجرة القبائل الحسانية إليها.

ب) الهجرات الحسانية

تنحدر قبائل بني هلال وبني سليم من عرب نجد بالحجاز. وقبل وصول هذه القبائل العربية البدوية إلى البلاد الموريتانية الحالية مرت بمسيرة طويلة قادتها إلى الشام فمصر فبرقة فطرابلس فأفريقية ثم المغرب الأقصى الذي لم تصله إلا في عهد الموحدين.

وقد بدأت تلك القبائل الهجرة في بحر القرن الحادي عشر الميلادي حين ضاق بها الخليفة المستنصر بالله (427هـ/1035م-487هـ/1095م) ذرعا وخشي على سلطته منها، فنقلها إلى النيل الأعلى وأغراها بالمال لتتوجه نحو إفريقية، وذلك للانتقام من حاكمها الصنهاجي المعز بن باديس الذي خرج على طاعة المستنصر بالله واعترف بسلطة الخلافة في بغداد خالعا بذلك البيعة التي كانت تربطه بالخليفة الفاطمي في القاهرة، ومبدلا المذهب الشيعي بالمذهب المالكي السني عقيدة رسمية للدولة.

ولكي يلقن الخليفة المستنصر بالله المعز بن باديس درسا إثر خلع بيعته أغرى تلك القبائل بالزحف نحو القيروان ومد أفرادها بالمال والسلاح وعقود إقطاع قائلا عبارته المأثورة: "أعطيتكم المغرب وما يملكه المعز بن بلكين"²⁹ الصنهاجي

27 - المرجع السابق، ص. 41.

28 - الناني بن الحسين، "المرابطون والذاكرة الجمعية الشنقيطية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"، ضمن: أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين (من 15 إلى 17 إبريل/نيسان 1996)، مصادر (دفاتر التاريخ الموريتاني)، الكتاب الثاني، نواكشوط، 1999، صص. 129-156.

29 - هو المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين، نسبه ابن خلدون إلى جده.

العبد الأبق فلا تفتقرون"³⁰. وقد تمكنت هذه القبائل العربية (بنو هلال، بنو سليم وبنو حسان) من هزيمة ابن باديس والاستيلاء على القيروان سنة 449هـ/1057م. وواصل الهلاليون زحفهم نحو الغرب خاصة بعد أن التحقت بهم موجات جديدة من بني سليم فاجتاحوا المغرب الأوسط وأصبح لهم نفوذ محسوس في المغرب الأقصى حيث "أن تقدم البدو البطيئ نحو الغرب كان قد بلغ منتهاه مع بداية القرن الثالث عشر [...] وهكذا تعمم الوضع نفسه فاكتسح الحزام الصحراوي كله حتى شواطئ الأطلسي"³¹.

وبغض النظر عن نتائج الاجتياح الهلالي لإفريقية والمغربين الأوسط والأقصى، وما أثاره ويثيره ذلك الاجتياح من مواقف مختلفة³²، فإن انتشار هذه القبائل العربية في الأرياف المغربية قد أعطى دفعا كبيرا لتعرب تلك الأرياف وحد كثيرا من سلطان سيطرة المدن عليها.

وإذا كانت القبائل الهلالية قد تركزت أساسا في إفريقية بين المغربيين الأوسط والأقصى، فإن عرب المعقل قد واصلوا المسيرة جنوبا حيث قادتهم إلى البلاد الموريتانية الحالية.

وبالطبع فإننا لا نتوفر لحد الساعة على معطيات يقينية ودقيقة عن بدايات وجود القبائل المعقلية في المجال الموريتاني. وذلك نتيجة للكسوف الوثائقي الذي يمتد

³⁰ - ابن خلدون، كتاب العبر، مص. سا. ج. 6، ص. 14.

³¹ - محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط. 1، 1987، 126 ص، ص. 17.

³² - يمكن الاطلاع على المواقف المختلفة من هذه القضية في:

- ✓ Jean Poncet, "Le mythe de la catastrophe hilâlienne", in Annales E.S.C., n°22, 1967, pp. 1099-1120;
- ✓ G. Marçais, "De la réalité de la catastrophe hilâlienne", in Annales E.S.C., n°23, 1968, pp. 390-396;
- ✓ Jacques Berque, "Du nouveau sur les Banî Hilâl ?", in Studia Islamica, n°36, 1972, pp. 99-111.

من منتصف القرن الثاني عشر حتى القرن الخامس عشر للميلاد مظللا تاريخ المنطقة. وهو الكسوف الناجم عن غياب المصادر المحلية وندرة المصادر العربية المتعلقة بهذه المنطقة.

وعلى ما يبدو فإن وزن عرب المعقل البشري كان في البداية محدودا جدا إذ يذكر ابن خلدون³³ أنهم وصلوا "إلى المغرب مع الهلاليين في عدد قليل، يقال إنهم لم يبلغوا المانتين [...] وإنما كثروا بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم". ويؤكد ابن عذاري³⁴ أن القبائل المعقلية كانت قد اجتازت الساقية الحمراء في بحر 664/1266م.

ولا يستبعد أن يكون اجتياز هذه القبائل نحو الصحراء الغربية ناجما عن الصراعات التي عرفها المغرب الأقصى في أواخر عهد الموحدين وبداية الدولة المرينية، وما صاحب ذلك من هجرات جديدة من الشمال إلى الجنوب. فابتداء من القرن الثالث عشر بدأ نفوذ هذه القبائل العربية يتعزز بدخولها في خدمة الدولة المرينية بفاس حيث أصبحت من قبائل المخزن وتمركزت جنوب مراكش مادة السلاطين المرينيين بالجنود. وشغلت هذه القبائل وظائف جباة الضرائب فكانت ضامنة الحدود الجنوبية لهذه الدولة التي منحها ملوكها إقطاعات في منطقة درعة. ولم يلبث المعقليون أن تحولوا من مجموعة تخدم السلطة المركزية إلى جماعات تسعى إلى الاستتار بحكم المجال الذي تتحرك فيه مدفوعة ببعد مركز النظام، وبالمشاكل الجمة التي يواجهها السلاطين المرينيون في ذلك الوقت. وهكذا فقبل انقضاء القرن الخامس عشر الميلادي بحوالي عقدين من الزمن يذكر ابن خلدون³⁵ أن "مواطن ذوي حسان من درعة إلى البحر المحيط وينزل

33 - ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ج. 6، ص. 59.

34 - ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الرباط، 1963، الجزء الرابع (قسم الموحدين)، صص. 428-433.

35 - ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ج. 6، صص. 58-59.

شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملتمين من دالة ولمتونة ومسوفة".
ويضيف صاحب كتاب العبر³⁶ أن عرب المعقل بمن فيهم بنو حسان كانوا قد تمكنوا من إخضاع القبائل الصنهاجية المجاورة لهم إذ "وضعوا عليها الأتوات والضرائب وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكا".

وعلى ما يبدو فإن نفوذ هذه القبائل العربية الوافدة على المنطقة قد ساهم مساهمة جوهرية في تغيير مسالك تجارة القوافل عبر الصحراء. وهذا ما يؤكد ابن خلدون نفسه حين يذكر أن الطريق الغربية الممتدة "من ناحية السوس إلى والاتن [ولاته] قد أهمل لما صارت الأعراب من البادية السوسية يغيرون على سابقتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت"³⁷.

وفي ملتقى القرنين الخامس والسادس عشر يشير المستكشفون والتجار البرتغاليون³⁸ الذين زاروا المنطقة الشمالية الغربية من البلاد الموريتانية الحالية إلى تمركز هذه القبائل العربية في هذا المجال وسيادتها على القبائل الأخرى. فالمستكشف جاو فرنانديس³⁹ (Joao Fernandes) الذي قضى سبعة أشهر بالمنطقة سنتي 1445 و1466 يذكر أن سكانها ينقسمون إلى عرب⁴⁰ (Alarabes) أزناكه⁴¹ (Aznagues) وبربر⁴² (Barbaros) مشيرا إلى أن العرب يعاملون بقية السكان معاملة الأتباع مما يدعم سيادة القبائل العربية في هذه الربوع.

36 - المصدر نفسه، ص. 59.

37 - ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ج. 6.

38 - من أمثال فرنانديس وزورارا... إلخ.

39 - نقلا عن موريس باربيي:

Barbier, *Voyages et explorations au Sahara...*, op.cit.

40 - ربما يعني بهم بني حسان.

41 - تسمية محلية وهي على ما يبدو تحريف لكلمة صنهاجة.

42 - لا نستبعد أن يكون الأمر متعلقا ببعض المجموعات التابعة.

ويؤكد فرنانديس⁴³ بدوره وجود نوع من السيادة والسلطة لدى تلك القبائل حين يقول: "يوجد عند العرب رجال من مستوى رفيع مثل النبلاء عندنا وهم يتزعمون بكفاءة وبسلطة مشرعة [التشديد منا] 200 أو 300 أو 500 خيمة". وتتجسد تلك السيادة كذلك في شيوع نظام ضرائب الحماية التي يشير هذا المستكشف⁴⁴ إلى أن القبائل الحسانية صاحبة السيادة كانت تفرضها على القبائل المسودة.

ويتحدث الوزان⁴⁵ الذي قاده رحلاته إلى المنطقة في مطلع القرن السادس عشر عن بني حسان وتفرعاتهم الأساسية مركزا على بني دليم والبرابيش وذرية أودي. فأبناء دليم متمركزون في الصحراء الغربية ولا يتوفرون حسب هذا المستكشف على قيادة معترف بها، مما جعلهم لا يجبون الضرائب، غير أن ممارسة النهب تنتشر بين صفوفهم.⁴⁶

أما مظاعن البرابيش فهي المنطقة الوسطى من الصحراء الغربية ما بين السوس وتيشيت. ومع أن الوزان يشير إلى امتلاكهم أعدادا كبيرة من الإبل فإنه يذكر أنهم فقراء.

أما المجموعة الثالثة وهي ذرية أودي فكانت خلال القرن السادس عشر تتمركز في الأجزاء الغربية من البلاد الموريتانية الحالية في الشريط الممتد بين آدرار

⁴³ - Fernandes, Description de la Côte, op.cit., p. 93.

⁴⁴ - Ibid, p. 95.

⁴⁵ - الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط-بيروت، 1983، ج.2، صص.53-56.

⁴⁶ - المصدر السابق، ص. 54.

ونهر السنغال رغم أن الوزان⁴⁷ يذكر أن سيطرتها كانت تمتد لتصل إلى ولاته بالحوض شاملة بعض المجموعات السودانية.

وهكذا فإن القبائل الحسانية الوافدة على صحراء الملثمين قد تمكنت حسب الشهادات التاريخية من بسط نفوذها على هذا المجال ابتداء من القرن السادس عشر على أقل تقدير.

وإذا كان هؤلاء الوافدون الجدد لم يتمكنوا من توحيد المجال البيضاني سياسياً تحت ظل سلطة مركزية موحدة فإنهم تمكنوا من تحقيق ذلك الغرض على المستوى الثقافي عن طريق نشر لغتهم العربية (الحسانية) في المناطق الممتدة من وادي درعة في الشمال إلى نهر السنغال في الجنوب، ومن المحيط الأطلسي في الغرب إلى أزواد في الشرق أي في المنطقة التي سميناها سابقاً المجال البيضاني المتسع.

ومن المؤكد أن الدين الإسلامي الذي يوجد في هذه المنطقة منذ مطلع القرن الثاني الهجري والذي تعزز بفضل قيام الدولة المرابطية، قد سهل عملية التمازج والوحدة الثقافية تلك، كما أن تشابه نمط العيش لدى عرب المعقل الوافدين وصنهاجة الصحراء قد ساعد، من جانب ثان، في هذه العملية فتقوت ظاهرة التعرب لتشمل تقريباً جل القبائل بمن فيها تلك المنحدرة من أصول صنهاجية والتي باتت تبحث لنفسها عن رابطة جينية ترفع نسبها إلى أصول شريفة أو إلى إحدى القبائل العربية الأثيلة.

وفضلاً عن سرعة وشمولية تعرب المجال الموريتاني نتيجة هجرة القبائل الحسانية التي وصلت هذا المجال على شكل موجات متتالية⁴⁸، فإن انتشار بني حسان

47 - المصدر السابق والصفحة نفسها.

48 - من أهم تلك الدفعات وأقدمها وصولاً إلى هذه الربوع أولاد رزك بن أودي بن حسان الذين بسطوا نفوذهم على هذه البلاد ابتداء من القرن التاسع الهجري إلى منتصف القرن الحادي عشر.

داخل هذا المجال أدى إلى سلسلة من الصراعات بين القبائل الحسانية الوافدة نفسها وبين هذه القبائل والقبائل الموجودة في المنطقة قبل الزحف الحساني. ولتكوين صورة ولو تقريبية عن هذه الصراعات انتقينا ثلاث حروب شهيرة أولاها دارت بين المجموعات الحسانية نفسها والثانية بين هذه المجموعات وتحالف من الزوايا. أما الثالثة فقد تجابهت فيها المجموعات الحسانية وإحدى المجموعات الصنهاجية المنحدرة من أصول مرابطية. وسنتناول بنوع من الإيجاز هذه "النماذج" التي اعتبرناها أكثر تمثيلا للتحويلات السياسية والاجتماعية التي أسهمت في تشكيل البنية القبلية والسياسية في البلاد الموريتانية الحالية.

(1) حرب ننتيتام⁴⁹

تعرف هذه الحرب في الأدبيات الموريتانية⁵⁰ بـ "معركة ننتيتام". غير أننا سمينها "حرب ننتيتام" خلافا لما هو متداول إذ أن المراجع⁵¹ تذكر أنها وقعت سنة

وتواصلت بعدهم موجات الهجرة الحسانية حيث وصل المنطقة أولاد مبارك من المغافرة، ثم أولاد عكبه، ثم أولاد داود بن عمران. وقد تمكن المغافرة في النهاية من التغلب على أولاد رزك. راجع: الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، مرجع سابق، صص. 61-65، الإحالات 7-12 من عمل المحقق.

⁴⁹ - موقع يبعد بضعة عشر كلم شمال شرقي مدينة الركيز وهي الآن عاصمة مقاطعة إدارية بولاية الترارزه بالجنوب الغربي الموريتاني.

⁵⁰ - يمكن الرجوع بهذا الشأن إلى:

✓ الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، مر. سا، ص. 61، الإحالة رقم 7 من عمل المحقق،

✓ امحمد بن أحمد يوره، إخبار الأخبار...، مر. سا، ص. 59،

✓ المختار بن حامد، الموسوعة، جزء الأيام الحربية، مر. سا.

⁵¹ - Moctar Ould Hamidoun et Albert Leriche, "Note sur le Trarza: essai de géographie historique", Dakar, BIFAN, t.-X, Série B, 1948, pp. 461-538.

1040هـ-1630/1631م، واستمرت أربعين يوماً، ولهذا فالأمر قد لا يتعلق بمعركة خاطفة وإنما بحرب.

وترجع أهم أسباب هذه الحرب إلى الصراع على السيطرة والنفوذ داخل صفوف القبائل الحسانية التي دخلت المنطقة زمراً منذ بعض الوقت. فهي تعبير مركز عن التناقضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين مختلف قبائل أولاد رزك البدوية، العاجزة وقتها عن العيش في ظل سلطة موحدة ومنظمة. فضلاً عن كونها تجسيدا لتلك الصراعات والتناقضات، فإن هذه الحرب تمثل رفض أولاد رزك للقبائل المغربية الوافدة من جديد على المنطقة والطامحة بدورها إلى الحصول على موطن قدم داخل المجال الحيوي بالمنطقة.

كما أن هذه الحرب تدخل في نطاق الصراعات والحروب القبلية⁵² التي عمت المجال الموريتاني الحالي في ثلاثينيات القرن السابع عشر الميلادي.

أما السبب المباشر لحرب ن تيتام تلك فهو تحرشات قام بها الكتيبات⁵³ ضد أولاد بوعلي الذين عادوا لتوهم من غارات نهب في الشرق محملين بغنائم كثيرة. وقد

⁵² - من أهم تلك الحروب:

✓ معركة اكبيرت وهو موضع يقع على بعد حوالي أربعين كلم شمال شرقي مقطع الحجار وهي إحدى عواصم المقاطعات الإدارية الحالية بولاية البراكنه. ووقعت هذه المعركة سنة 1039هـ/1630م بين أولاد الزناكيه وأولاد مبارك وأسفرت عن مقتل زعيمهم أوديكة الاقرع وانزياحهم نحو الشرق.

✓ معركة النيش وهو موضع يقع في منطقة تيجريت على بعد حوالي أربعين كلم غربي بالنشاب التابع لأكجوجت عاصمة ولاية إينشيري الحالية. ودارت هذه المعركة بين أولاد رزك والمغافره وقد قتل فيها امهيمين بن عيسى زعيم أولاد بوعلي وهم بيت السيادة في أولاد رزك. راجع، الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني (شيم الزوايا)، مر. سا، صص. 94-95.

⁵³ - أحد فروع مجموعة أولاد رزك التي سيطرت على المنطقة قبل أن يتمكن المغافرة من التغلب عليها في منتصف القرن الحادي عشر الهجري (1040هـ/1630م).

تعرض الكتيبات لفصيلة من أولاد بو علي كانت تسقي عند بئر تنياشل⁵⁴ "فقتلوا الرجال ونهبوا وسائقهم"⁵⁵.
وقد أثارت هذه الحادثة غضب أولاد بو علي إلى حد أنهم استنجدوا بالمغافره ضد أبناء عمومتهم الكتيبات ومن حالفهم من مجموعات أولاد رزك.⁵⁶
ولم يكتف أولاد بو علي بأن طلبوا النجدة من المغافره بل إنهم قدموا لهم الهدايا من حبوب ولباس وغيرها قصد استمالتهم ضد الكتيبات. وقد تدخل المغافره بقيادة أحمد بن دامن⁵⁷ لنجدة أولاد بو علي فوقت الحرب ودارت على الكتيبات لكنها في نهاية المطاف أسفرت عن القضاء على سلطة أولاد رزك بصفة عامة.

وهكذا فعلى إثر هذه الحرب "دالت سلطة أولاد رزك وبدأت سلطة المغافره"⁵⁸ حسب تعبير باكا.
ولم يكد المغافره يباشرون بسط سيطرتهم على المنطقة حتى دخلوا في صراع عنيف مع بعض القبائل الزاوية القديمة العهد في المنطقة، وهو الصراع الذي عرف في التاريخ الموريتاني بـ "حرب شريبه".

(2) حرب شريبه⁵⁹

-
- 54 - موضع يقع على بعد حوالي 80 كلم إلى الجنوب الشرقي من نواكشوط.
55 - محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، مر. سا، ص. 95.
56 - الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، مر. سا.
57 - هو أحمد بن دامن بن تروز بن هداج بن عمران بن مغفر بن أودي بن حسان. ويعتبره البعض مؤسس إمارة الترارزه.
58 - أحمد سالم بن باكا، مخطوط، بمكتبة أهل باكا في نواكشوط.
59 - بخصوص هذه الحرب تمكن مراجعة:

اندلعت هذه الحرب في الأجزاء الجنوبية الغربية من البلاد الموريتانية الحالية، وذلك في سبعينيات القرن السابع عشر الميلادي لتستغرق سبع سنوات تقريبا⁶⁰.

وتصارع في حرب شريبيه تلك حلفان رئيسيان هما الزوايا وخاصة كونفدرالية تشمشه⁶¹ الذين كان معظمهم قد انضوى تحت زعامة ناصر الدين⁶²، وقد

-
- ✓ Carson I. A. Ritchie، "Deux textes sur le Sénégal 1673-1677", Dakar, BIFAN, Série B, t.-XXX, n°1, 1968,
 - ✓ Geneviève Desiré-Vuillemin, "La guerre de Char Bouba, Sahara Occidental. Fin du XVIIème siècle", Paris, Le Saharien, n°56, 1er et 2ème trimestres, 1971, pp. 20-25,

✓ محمد المختار بن السعد، حرب شريبيه أو أزمة القرن 17 في الجنوب الغربي الموريتاني، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 1993، 195 ص.

✓ أحمد جمال بن الحسن، "حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا"، حوايات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد الأول، 1989، صص. 5-17.

60 - محمد المختار ولد السعد، شريبيه، مر. سا، صص. 114، 116.

61 - اتحادية أسستها خمس قبائل زاوية تعيش في المنطقة منذ القرن 14م. وهذا التجمع القبلي له وزن سياسي وثقافي مكنه من أن يتبوأ قيادة حرب شريبيه بالجنوب الغربي الموريتاني. ويتألف هذا التحالف الخماسي من قبائل أولاد ديمان، إجاجفاغه، إدكبهني، إدوداي واليعقوبيون (إديقب وأهل بارك الله فيه).

62 - هو أوبك بن أبهم بن ألفغ محنض بن أكدام بن يعقوب بن ألفغ ابهنض بن مهنض أمغر، الجد الجامع لقبيلة أولاد ديمان. وقد اضطلع ناصر الدين بدور بارز في حركة الجهاد الإصلاحية بالجنوب الغربي الموريتاني، واعتبارا لذلك الدور ارتبط اسمه بتلك الحركة. راجع عنه:

- ✓ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ، مر. سا، صص. 117-195،
- ✓ محمد المختار بن السعد، حرب شريبيه، مر. سا، صص. 84 وما بعدها،
- ✓ جمال ولد الحسن، "حركة الإمام ناصر الدين"، مر. سا، صص. 5-17.

انضم إليهم في بداية الحرب بقايا أولاد رزك الذين تغلب عليهم المغفرة في حرب انتيتام السابقة الذكر، وكذلك بعض زنوج منطقة النهر وجماعات من الغارمين.⁶³ أما الطرف الآخر فقد ضم المغافره وخاصة منهم الترارزه بقيادة هدي بن أحمد بن دامن، والبراكه بقيادة بكار الغول⁶⁴ وأولاد مبارك⁶⁵ بقيادة يوسف⁶⁶، فضلا عن الأتباع وبعض جماعات البافور⁶⁷ وملوك الدول السودانية المدعومين من قبل الفرنسيين في السنغال.

وفضلا عن الدواعي الدينية، فقد كان من أهم أسباب هذه الحرب التنافس القائم على السلطة بين الأرسقراطيتين الزاوية والحسانية. فحرب شريبه حسب تعبير محمد المختار ولد السعد "كانت من حيث الجوهر "صراعا طبقيًا" (إذا جاز التعبير) على المصالح المادية والسياسية بين قطبي الزعامة في مجتمع البيضان،

⁶³ - محمد المختار بن السعد، حرب شريبه... مر. سا.

⁶⁴ - هو بكار بن علي بن عبد الله، وهو من ذرية بركني جد قبائل البراكه. يقول ابن حامد: "إنه كان يلقب بالغول لشدته". ويرجع ابن خالنا تاريخ وفاته إلى سنة 1092هـ/1681م. انظر:

✓ المختار بن حامد، الموسوعة، جزء التاريخ السياسي، مر. سا، ص. 97،

✓ والد ولد خالنا، منظومة وفيات أمراء المغافره (1092هـ/1681م-1180هـ/1766م)،

تحقيق محمد بن ولد الطالب، جامعة نواكشوط، 1992، 72 ص.

⁶⁵ - أحد فروع القبائل المغربية، وينسبون إلى مبارك بن محمد بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسان. وقد أسسوا مشيخات ورئاسات في الحوض بسطت أحيانا نفوذها على بعض المناطق المجاورة.

⁶⁶ - قد يكون يوسف بن محمد الزناكي، من أولاد مبارك بن عثمان بن مغفر. راجع المختار بن حامد، الموسوعة، التاريخ السياسي، مرقون، محفوظ بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، ص. 150.

⁶⁷ - هم سكان آدرار القدماء حسب تعبير الأستاذ محمد بن باباه. ويذكر المختار بن حامد أنهم قبيلة ذات كثرة وقوة كانت تسكن آدرار قبل أن يفتحها المرابطون. راجع:

✓ الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ، مر. سا، صص. 170-171،

✓ المختار بن حامد، الموسوعة، جزء الجغرافيا، مر. سا، ص. 38.

لعب فيه العامل الديني دورا هاما جدا لا كسلاح أيديولوجي فقط وإنما كمفهوم عقائدي ونظرة سياسية للعالم⁶⁸.

ولم تقتصر هذه الحرب على الأجزاء الجنوبية الغربية من البلاد الموريتانية الحالية، بل امتدت لتصل إلى الضفة اليسرى للنهر حيث تمكن ناصر الدين من إزاحة ملوك الدويلات الزنجية وإحلال أئمة ممثلين له هنالك. وقد أسفرت تلك الحرب في نهاية المطاف عن تكريس سيطرة المغاربة السياسية والعسكرية على المنطقة حيث فرضوا شروطهم على الزوايا المهزومين الذين تزايد تركيزهم، منذ ذلك الوقت، على التعلم والتعليم وحفر الآبار والتجارة تاركين الوظائف العسكرية والسياسية لحسان. وهكذا فإن حرب شريبه عمقت تمفصل فئات المجتمع وعجلت ظهور النظام الأميري الذي سنتطرق إليه في مكان آخر من هذا العمل.

وكان من نتائج هذه الحرب كذلك حدوث أزمة اقتصادية واجتماعية حادة بالمنطقة جراء عدة سنوات من القتال وما رافق ذلك من انشغال عن الأنشطة الاقتصادية وتحطم لوسائل الإنتاج وإنهاك للقوى المنتجة. وقد سار كل ذلك بالمنطقة نحو المزيد من الروابط مع الأوروبيين بالمناطق الساحلية.

وطبعا فإن شريبه لم تكن صراعا معزولا في منطقة الجنوب الغربي الموريتاني، بل كانت حلقة في سلسلة صراعات سياسية وعسكرية غطت كامل المجال البيضاني تقريبا، وكان حصار احنيكات بغداده⁶⁹ واحدا من أبرز تعبيراتها.

(3) حصار احنيكات بغداده⁷⁰

يعتبر هذا الحصار من بين أهم الصراعات التي دارت بين المجموعات الحسانية الحديثة العهد نسبيا بالمنطقة ومجموعة إيدوعيش أحفاد المرابطين. ويعرف

68 - محمد المختار ولد السعد، شريبه، مر. سا، ص. 97.

69 - موضع يقع شرقي مدينة تجكجه عاصمة ولاية تكانت الحالية، ويسمى أيضا لحنيكات.

70 - أي التي نسجت على منوال الإمارات الحسانية المغربية.

هذا الحصار في التقاليد والروايات الشنقيطية⁷¹ بحصار "احنيكات بغداده" وقد فرضه على مجموعة إيدوعيش سنة 1192 هـ/1778م تحالف مغفري كبير ضم على الخصوص:

- ✓ أولاد مبارك،
- ✓ البراكنه،
- ✓ الترارزه،
- ✓ أولاد يحيى بن عثمان⁷²،
- ✓ أولاد الناصر،
- ✓ أولاد علوش.

وعلى ما يبدو فإن أهم أسباب هذا الحصار، وما رافقه من تحرشات واشتباكات، كان السيطرة على المجال الحيوي بالمنطقة في وقت ما تزال فيه الخريطة السياسية لنفوذ مختلف التكتلات القبلية الكبرى قيد التشكل. وقد استمر الحصار نصف سنة وكان وقعه شديدا على مجموعة إيدوعيش إذ "طال حتى أكلت الإبل شملها من شدة الجذب"⁷³.

⁷¹ - راجع بهذا الشأن:

✓ بابه بن الشيخ سيدي، إمارتا إيدوعيش ومشطوف، مر. سا، ص. 125،
✓ المختار بن حامد، الموسوعة، الجزء السياسي، مرقون، ص. 174 وجزء إيدوعيش، ص. 26، وجزء الأيام الحربية، ص. 4.

⁷² - تسمية تطلق على مجموعة من القبائل المغربية تنتمي جنيا لوجيا إلى يحيى بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسان. وقد تمكن هذا التجمع منذ القرن الثامن عشر للميلاد من تأسيس إمارة أهل يحيى بن عثمان التي تدعى أيضا إمارة أدرار وكان مجال سيطرتها بالشمال الموريتاني. للمزيد من المعلومات عن هذه الإمارة، راجع الفصل الخامس من هذا العمل، صص. 000-000.

⁷³ - بابه بن الشيخ سيدي، إمارتا إيدوعيش ومشطوف، مر. سا، ص. 125.

ورغم أن التحالف المغربي لم يفك حصاره عن إدوعيش إلا بعد أن تعهدوا بدفع أربعين فرسا، فإن إنهاء هذا الحصار في حد ذاته وانسحاب المجموعات الحسانية التي كانت تحاصر إدوعيش ومحافظة هؤلاء على كيانهم القبلي والسياسي والعسكري، مثلت انتصارا كبيرا لأميرهم محمد شين⁷⁴ مكنه من إخراج أولاد امبارك بشكل نهائي من تانت وتخلص من التبعية.

وبذلك أرغمت الإمارات المغربية على أن تتعامل معاملة الندم مع إمارة إدوعيش المتمغرة⁷⁵ التي ستفرض نفسها وسيحتتم على الجميع أن يحسب لها ما تستحق من حساب، بما في ذلك الفرنسيون الذين أخذوا يتمركزون بسواحل المنطقة.

ج) التمرکز الأوروبي بالسواحل الموريتانية

ترجع أولى صلات الأوروبين بالبلاد الموريتانية الحالية إلى نهاية النصف الثاني من القرن الخامس عشر حينما كثف البرتغاليون أنشطتهم الاستكشافية بالسواحل الأطلسية لإفريقيا الغربية فتمكنوا في نهاية المطاف من اكتشاف الرأس الأبيض سنة 1442 وجزيرة أرغين سنة 1443. وقد أقام البرتغاليون بعض التحصينات بتلك الجزيرة التي احتلوها عسكريا بعيد ذلك ليتخذوها مركزا لتسهيل مبادلاتهم التجارية مع البيضان.

وقد بسط البرتغاليون كذلك نفوذهم على مصب نهر السنغال والرأس الأخضر محاولين استدراج تجار الذهب والعييد إلى التوجه إلى مراكز التبادل التي أقامها التجار البرتغاليون بالسواحل الأطلسية وفي منطقة حوض النهر.

وقد فوجئ البرتغاليون بإقبال السكان الزنوج على البضائع التجارية المستوردة من المغرب وتفضيلهم لها على البضائع البرتغالية فلجأوا إلى شراء

74 - هو محمد شين بن بكار أحد أمراء إدوعيش، تولى الإمارة بين سنتي 1175هـ/1761م و1202هـ/1787م، انظر: المختار بن حامد، الموسوعة، مر. سا، جزء إدوعيش، ص.7، والجزء السياسي، ص.175.

75 - أي التي نسجت على منوال الإمارات الحسانية المغربية.

البضائع المغربية تلك، ونقلها إلى مراكزهم الساحلية كي يبيعوها للسودانيين في محاولة لتعويد هؤلاء السكان على التبادل بالمحطات البرتغالية.

وضمامنا للتحكم في تجارة القوافل العابرة للصحراء وتحويل مسارها توغل البرتغاليون داخل البلاد الموريتانية الحالية واحتلوا سنة 1487 مدينة وادان، إلا أنهم لم يتمكنوا من الإقامة بها طويلا، فقد اضطروا إلى الانسحاب منها بسرعة أمام المواجهة التي تلقاهم بها السكان.⁷⁶

وبانحسار الدور البرتغالي، بعد إحقاق البرتغال بالعرش الإسباني سنة 988هـ/1580م، سعت دول أوروبية أخرى إلى احتلال مكانة البرتغاليين بسواحل إفريقيا الغربية والاستئثار بالممتلكات البرتغالية هنالك، حيث انتزع الإسبانيون جزيرة أرغين سنة 1587 من البرتغاليين.

وابتداء من العقد الأخير من القرن السادس عشر أخذ الوجود الفرنسي يحس في المنطقة، إذ هاجم الفرنسيون هذه الجزيرة للمرة الأولى سنة 1595. وخلال النصف الأول من القرن السابع عشر خاض الفرنسيون والهولنديون صراعا مريرا من أجل السيطرة على تلك الجزيرة التي احتلها الهولنديون بين سنتي 1633 و1678.

وقد تدخل الإنجليز بدورهم في هذا الصراع المحتدم بغية السيطرة على المراكز التجارية الواقعة بالساحل الأطلسي للبلاد الموريتانية الحالية وفي طليعتها مركز أرغين الاستراتيجي في ذلك الحين. وقد أدت تلك الصراعات إلى نشوب سلسلة من الحروب بين فرنسا وهولندا وبريطانيا عرفت بحروب الصمغ التي واجه فيها الفرنسيون الهولنديين خلال الربع الأول من القرن الثامن عشر، ثم البريطانيين أثناء الربع الثاني من ذلك القرن.

⁷⁶ - Ricard, "Sur les relations des Canaries et de la Barbarie au XVIIe siècle", Revue africaine, n° 71, 3e et 4e trimestres, 1930, pp. 207-224 .

وهكذا، فجراء تصديرها للصمغ العربي أصبحت البلاد الموريتانية تحتل مكانة بارزة في السياسة الاستعمارية الأوروبية. يقول أندري دلكور⁷⁷ بهذا الشأن: "إن السيطرة على الساحل الموريتاني الممتد من الرأس الأبيض إلى مصب نهر السنغال كانت أثناء النصف الأول من القرن الثامن عشر في مجال السياسة الاستعمارية بإفريقيا، أحد الأهداف الأساسية لفرنسا وهولاندا وبريطانيا وهي الدول الأوروبية العظمى الثلاث التي تتقاسم وقتها التجارة البحرية وصناعة النسيج".

وتعود تسمية هذه الحروب بـ "حروب الصمغ" إلى أنها كانت تستهدف الاستيلاء على مراكز التبادل الأطلسية وفي مقدمتها مركزي آرغين وبورتانديك بوصفهما المعبر الرئيسي لتصدير الصمغ إلى الخارج، وذلك في وقت ازدادت فيه أهمية هذه المادة جراء الحاجة المتزايدة إليها في أوروبا حينئذ. فهذه المادة التي اشتهرت أرض البيضان بإنتاجها بكميات كبيرة، قد تعددت استخداماتها في أوروبا إبان إرهابات الثورة الصناعية. يقول الرحالة غولبري⁷⁸: "إن الصمغ يدخل في صناعات الحرير والأشرطة المزخرفة والملابس الشفافة والقبعات [...] كما يستخدم في صناعة مواد الصيدلة والحلويات المشهورة الأنواع، إلخ...". وكانت السيطرة على المنطقة في نهاية المطاف من نصيب الفرنسيين المتمركزين في السنغال منذ منتصف القرن السابع عشر.

ورغم أن اتفاقية لاهاي الموقعة سنة 1724 قد منحت الفرنسيين السيادة في منطقة مصب نهر السنغال، فإن منافسة الإنجليز لهم بغية السيطرة على المنطقة والاستفادة من التبادل التجاري مع البيضان بقيت قائمة حتى منتصف القرن التاسع عشر. وقد أشرنا سابقا⁷⁹ إلى انتزاع الإنجليز للسنغال من الفرنسيين مرتين أولاها في منتصف القرن الثامن عشر، أما الثانية فكانت في مطلع القرن التاسع عشر. إلا أن

⁷⁷ - Delcourt, La France et..., op.cit, pp. 179-180.

⁷⁸ - Golberry, Fragments d'un voyage..., op.cit., p. 196.

⁷⁹ - راجع الفصل الأول من هذا العمل، صص. 00 00.

التنافس الشديد بين الفرنسيين والإنجليز كان مرتكزا على الشواطئ الأطلسية الموريتانية حيث يتم تصدير الصمغ انطلاقا منها إلى خارج البلاد. ومع أن الفرنسيين استولوا بشكل متكرر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على محطات التبادل الأطلسية وحطموا هذه المحطات لجذب تجارة البيضان نحو المراكز النهرية حيث يسيطر التجار الفرنسيون منذ بعض الوقت، فإنهم لم يتمكنوا من إقصاء منافسيهم الإنجليز بشكل نهائي ومنعهم من الحصول على جزء من صمغ المنطقة.

فقد عرف البيضان كيف يستفيدون من التنافس الفرنسي الإنجليزي على صمغهم. فكانوا يرفعون أسعاره بشكل مستمر ويطالبون بالمزيد من الهدايا والأتاوات مقابل التبادل مع الأوروبيين. يقول الوالي الفرنسي على السنغال البارون روجي⁸⁰: "إن البيضان أصبحوا تدريجيا أكثر تصلبا وهم يهددون دوما بالذهاب إلى الإنجليز [التشديد منا]، وسعر الصمغ قد ارتفع الآن ارتفاعا كبيرا نسبيا...". وبمجرد حصول أي توتر في علاقاتهم مع الفرنسيين بمحطات التبادل النهرية، فإن البيضان يتجهون إلى الشواطئ الأطلسية للمتاجرة مع الإنجليز.

ولمواجهة هذه الوضعية اضطر الفرنسيون أثناء الثلث الأول من القرن التاسع عشر إلى اللجوء إلى شخصيات أميرية قوية، فقد وقعوا اتفاقية سرية في 7 يونيو/حزيران 1821 مع محمد فال بن عمير⁸¹ الذي جاء للتفاوض معهم ممثلا للأمير أعمر بن المختار. وبموجب تلك الاتفاقية⁸² يحصل ولد عمير، مقابل منعه

⁸⁰ - ANFCAOM, Série géographique: Afrique, Sén. et Dép.: Sénégal et Dépendances-I, carton n°8, dossier 8/c, Lettre du Gouverneur au Secrétaire d'Etat à la Marine et aux Colonies, Saint-Louis, le 04/04/1822.

⁸¹ - ابن سيد المختار بن الشرقي بن هدي بن أحمد بن دامن. أحد الشخصيات القوية في إمارة الترارزه. ويستمد قوته من النفوذ الكبير الذي تتمتع به أسرة أهل الشرقي بن هدي داخل الإمارة وفي مملكة كايور الزنجية المجاورة.

⁸² - تمكن مراجعة تلك الاتفاقية في:

ANFCAOM, Traités, Carton I, dossier 23, 7 juin 1821.

للتبادل التجاري بين البيضان والإنجليز بمركز بورتانديك، على أتوات وهدايا من الفرنسيين تساوي تلك التي يمنحونها للأمير التروزي نفسه. بل إنهم قدموا له عربونا بمبلغ 4500 ف.ف.⁸³.

وبينما كان محمد فال بن عمير يحاول تنفيذ اتفاقيته السرية مع الفرنسيين مانعا بعض قوافل الصمغ من التوجه إلى بورتانديك للتبادل مع الإنجليز، اغتاله إبراهيم والد⁸⁴ أحد أبناء الأمير أعمر بن المختار، وذلك في ربيع 1822. وقد أدخل هذا الحادث الإمارة في سلسلة من الحروب الداخلية أو شكت أن تعصف بها. ويواصل الفرنسيون طوال القرن التاسع عشر تدخلهم السافر أو المقنع في الشؤون الداخلية للإمارات البيضانية خاصة الترازه والبراكه وإدوعيش داعمين طرفا ضد آخر ومشجعين بؤر التوتر والشقاق تمهيدا لبسط سيادتهم على هذه الرقعة الجغرافية الرابطة بين الجزائر والسنغال أهم مستعمرتين فرنسيتين في المنطقة. فكيف صور المستكشفون الفرنسيون تلك الرقعة الجغرافية؟

ثانيا) السياق الجغرافي (البيضان في المكان)

لا تزودنا المصادر المعتمدة إلا بمجموعة من المعلومات المتناثرة والمشتتة عن الظروف الطبيعية للمجال الذي ندرسه سواء فيما يتعلق بالتسمية أو بالتسميات كما سنرى أو بالموقع والحدود أو بالمناطق والتضاريس أو بالمناخ والتربة والنباتات... إلخ.

⁸³ - ANFCAOM, Série géographique, Sén. et Dép.-I, carton n°8, op.cit., Saint-Louis, le 17/05/1822.

⁸⁴ - هو الابن الأكبر للأمير، وقد قتل إبراهيم والد هذا سنة 1237هـ/1822م في معركة غسرم التي تعتبر بداية للحروب بين والده أعمر بن المختار وعمير إثر اغتيال ابنه محمد فال في ربيع السنة نفسها قرب ميناء بورتانديك.

وقد يكون تناثر وتشتت هذه المعلومات الطبيعية ناجما عن طبيعة الرحلة وما تمليه من تنقل وترحال فضلا عن كثرة انشغالات المستكشفين وتباين مستوياتهم الثقافية والعلمية وعدم ملاءمة المجال البيضاني⁸⁵ الذي يجوبونه والظروف التي كانوا يسجلون فيها ملاحظاتهم⁸⁶.

لقد سبق أن أشرنا في مقدمة هذا العمل إلى بعض الإشكاليات التي يثيرها تحديد المجال البيضاني تسمية وحدودا. وبالرجوع إلى مصادرنا فإنها لن تسعفنا بحل سحري لتلك الإشكاليات. غير أن تتبع الإشارات المختلفة والمتناثرة هنا وهناك، يسمح بتلمس بعض الإشارات التي قد تشكل نقاط إضاءة مهمة في هذا الصدد.

أ) التسمية، الموقع والحدود

1) التسمية

لقد أطلق الفرنسيون منذ القرن السابع عشر تسمية "بلاد البيضان" (Pays Maure) على الرقعة الواقعة شمال نهر السنغال والتي تقطنها مجموعات من القبائل البيضانية.

ومع مرور الزمن شاع استخدام هذه التسمية في مختلف الوثائق الفرنسية المتعلقة بالمنطقة فظهرت في الاتفاقيات⁸⁷ الموقعة بين الفرنسيين وزعماء القبائل

⁸⁵ - راجع العنصر الثاني من الفصل الثاني من هذا العمل، صص. 92-95.

⁸⁶ - راجع على سبيل المثال الطريقة التي كان كايي يدون بها ملاحظاته:

Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, pp. 00-00

⁸⁷ - ANS, Série G: Politique et administration générale, op.cit.:

- ✓ 9-G 6 : Traités avec les Trarza (1810-1893),
- ✓ 9-G 7 : Traités avec les Brakna (1819-1886),
- ✓ 9-G 8 : Traités avec les Idouïch (1895).

والإمارات البيضانية وفي تقارير الولاية والإداريين⁸⁸. كما شاع استخدامها في المراسلات⁸⁹ وتداولها الرحالون والمستكشفون⁹⁰.

⁸⁸ - نذكر على الخصوص:

- ✓ Monserat, "Mémoire inédit..., op.cit.;
- ✓ Lartigue, le Commandant de la région du Sahel, Notice sur les Maures du Sénégal et du Soudan, ANS, Série G, Sous- série 1 G 1: Etudes générales: missions, notices et monographies (1818- 1921), 1G 224, 80 p.

⁸⁹ - تشير خاصة إلى بعض ملفات سلسلة "ب" المتعلقة بالمراسلات العامة:

ANS, Série B: Correspondances générales (1779-1895) :

- ✓ Sous-Séries 1 B/1 1 B/231: Correspondance arrivée du Ministre au Gouverneur (1779-1896),
- ✓ Sous-Séries 2 B/1 2 B/72: Correspondance départ du Gouverneur du Sénégal au Ministre (1816-1896) :
 - 2-B 3: Lettres au Ministre (1817-1819) du 23/12/1817 au 12/02/1819;
 - 2-B3 bis: Lettres du Gouverneur au Ministre (pendant le séjour de Schmaltz en France du 28 février 1818 au 13 février 1819), un registre, 88 ff.
- ✓ Sous-Séries 3B 1 3B 99: Correspondances départ du Gouverneur du Sénégal toutes personnes autres que le Ministre (1788-1893) :
 - 3-B 77: Correspondance avec les chefs de postes (1854-1858), 1 registre, 438 pages, pièce n°7 ;
 - 3-B 82: Correspondances avec les arrondissements de Saint-Louis et de Bakel (1861-1864), 1 registre, 57 ff.

⁹⁰ - نذكر منهم مثالا لا حصرا:

ANS, Série G, Sous- série 1 G 1, op.cit.,

- ✓ 1-G 25: Rapport de Mage, op.cit.,

ولم يقتصر استخدام تسمية "بلاد البيضان" على الفرنسيين الذين زاروها، بل إن بعض الفرنسيين⁹¹ ممن لم يطأوا هذه الأرض، وإنما دخلوا في علاقات معها وهم في السنغال، قد أطلقوا بدورهم على هذه البلاد التسمية نفسها.

وشينا فشيئا أخذت تسمية بلاد البيضان (Pays des Maures) صبغة المصطلح على هذه الأرض فكانت التسمية الأكثر شيوعا في مختلف الاستخدامات الفرنسية، ومن يتصفح الوثائق الفرنسية المتعلقة بتاريخ المنطقة، وخاصة الرحلات الاستكشافية، يجدها مطردة الاستعمال للتدليل على المجال البيضاني أو على البلاد الموريتانية بشكل خاص.

وقد أدرك الفرنسيون أن هذا المجال البيضاني ينقسم إلى مجالات اجتماعية وسياسية أقل اتساعا فأطلقوا عليها تسميات تخصيصية ترتبط أحيانا بالموقع الجغرافي كـ "بلاد بيضان أدرار" (Pays des Maures de l'Adrar) أو "بلاد بيضان تكانت" (Pays des Maures du Tagant)، وأحيانا بالانتماء البشري (اللاتني/القبلي) كبلاد بيضان الترارزه (Pays des Maures Trarza) أو بلاد بيضان البراكنه (Pays des Maures Brakna) أو مثل بلاد بيضان إدوعيش (Pays des Maures Idaouich)؛ وأحيانا أخرى ترتبط بالنظام السياسي كإمارة الترارزه (Emirat des Trarza)، أو إمارة البراكنه (Emirat des Brakna) أو إمارة أدرار (L'Emirat de l'Adrar) أو إمارة إدوعيش (Emirat des Idaouich)...إلخ.

ويطلق بعض الفرنسيين⁹² أيضا على هذه الرقعة تسمية "بلاد بيضان الصحراء" (Pays des Maures du Sahara) وهي تسمية تحيل إلى المجال الجغرافي الصحراوي الواسع الذي ينتقل فيه هؤلاء السكان البيضان.

✓ 1-G 27: Projet de voyage de Bou El Mogdad, op.cit.,

✓ 1-G 32: Missions de Mage et voyage Ségou, op.cit.

⁹¹ - يمكننا أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

✓ Faidherbe, Notice sur la Colonie du Sénégal..., op.cit.,

✓ Monserat, Mémoire inédit..., op.cit

ونظرا للعلاقات التي ربطت البلاد البيضانية خلال القرون الماضية مع السنغال فإن بعض الفرنسيين⁹³ سماها "بلاد بيضان السنغال". وهي تسمية تحمل في طياتها بعدا استعماريا، إذ تعرف البلاد انطلاقا من صلاتها بالإدارة الاستعمارية، ذلك أن تسميات مثل: "السنغال" و"مستعمرة السنغال" و"الفرنسيين في السنغال" و"فرنسا" قد تداخلت وترادفت عند بعض كتاب القرن التاسع عشر الفرنسيين⁹⁴ ممن اهتموا بالمنطقة.

وبالإضافة إلى تلك التسميات ظهرت ولو بدرجة محدودة الشيوع تسمية أخرى تربط المنطقة بجيرانها الشرقيين هي "بلاد بيضان السودان" (Pays des

⁹² - راجع بهذا الخصوص:

- ✓ Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p;
- ✓ Bou El Mogdad, Projet de voyage..., op.cit., p. 1;
- ✓ Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., pp. 3 et 14;
- ✓ Soleillet, Rapport...op.cit., pp. 23, 129 et 135;
- ✓ Lartigue, Notice sur les Maures du Sénégal..., op.cit., pp. 4 et 29;
- ✓ Blanchet, Rapport de mission ..., op.cit., pp. 2, 7 et 34.

⁹³ - راجع على الخصوص:

- ✓ Mage, Rapport..., op.cit., pp. 1, 4 et 6;
- ✓ Sall, Rapport sur un voyage, op.cit.;
- ✓ Soleillet, Rapport..., op.cit.;
- ✓ Lartigue, Notice sur les Maures du Sénégal..., op.cit., pp. 3, 9, et 48;
- ✓ Blanchet, Rapport de mission ..., op.cit., pp. 4 et 7;
- ✓ R. Collignon et J. Deniker, Les Maures du Sénégal, L'Anthropologie, (mémoires originaux), t.-VII, Paris, 1896, pp. 257-269.

⁹⁴ - خاصة معظم الفرنسيين الذين أشرنا إليهم في الإحالتين السابقتين.

(Maures du Soudan). وهي تسمية تدل عند من استخدمها من الفرنسيين⁹⁵ على الحيز الجغرافي الممتد من نهر السنغال جنوبا إلى المحيط الأطلسي غربا إلى جنوب الجزائر والمغرب شمالا إلى نهر النيجر شرقا، أي أنها منطقة تتطابق تقريبا مع المجال البيضاني المتسع الذي سبقت الإشارة إليه.

أما تسمية هذه المنطقة بموريتانيا (Mauritanie) فقد ظهرت لأول مرة، كما أسلفنا، سنة 1843 على يد الضابط كاي حينما سمى سكان المنطقة الواقعة شمال نهر السنغال "شعب موريتانيا" غير أن هذه التسمية لن تأخذ صبغتها الإدارية الرسمية إلا سنة 1899⁽⁹⁶⁾ مع الإداري الفرنسي كزافيي كوبولاني الذي كان الجميع يرجع إليه السبق في إطلاق هذه التسمية على أرض البيضان وذلك قبل أن نعثر على الملاحظات التي صاغها الضابط كاي في العقد الأخير من النصف الأول من القرن التاسع عشر حول "شعب موريتانيا" الذي أطلقه للتدليل على بيضان المنطقة.

ومن الغريب أن تسميات البلاد الأكثر شيوعا في الأدبيات العربية والمحلية المكتوبة، وفي مقدمتها "صحراء الملثمين" و"بلاد شنقيط"... إلخ، لم يرد ذكرها عند فرنسيي القرن التاسع عشر الذين تمكنوا من الاطلاع على كتاباتهم عن المنطقة. فهل يعود الأمر إلى بعد هؤلاء الرحالة عن محيط الثقافة العالمة؟ أم إلى إقصاء متعمد للمصطلحات التي تنتمي إلى الحقل العربي الإسلامي؟

لقد وردت تسمية "صحراء الملثمين" في كتب المسالك والممالك التي خلفها الرحالون والجغرافيون العرب أثناء الفترة الوسيطة حين كانت هذه الصحراء مجالا لسيادة صنهاجة اللثام. ولا يستبعد أن لظهور دولة المرابطين في هذه الربوع علاقة

⁹⁵ - مثل:

- ✓ Mage, Missions et voyage..., op.cit. pp. 3, 5 et 6,
- ✓ Lartigue, Notice sur les Maures du Sénégal et du Soudan, op.cit., pp.1 et 5.

⁹⁶ - أقرت هذه التسمية رسميا ابتداء من 27 ديسمبر/كانون الأول 1899 بواسطة قرار وزاري صادر عن وزارة المستعمرات الفرنسية.

بشيوع تلك التسمية⁹⁷ خاصة أن قبائل صنهاجة الملتئمين قد اضطلعت بدور بارز في ظهور وتطور تلك الدولة.

أما مصطلح "بلاد شنقيط" وتسمية هذه الربوع باسم إحدى مدنها فهو "من باب تسمية الشيء باسم بعضه"⁹⁸. يقول صاحب الوسيط: "وشنقيط في الأصل: تطلق على مدينة من مدن آدرار، واقعة فوق جبل، في جهة غرب الصحراء الكبرى، ثم سمي بها القطر كله"⁹⁹.

وعلى ما يبدو فإن أول استخدام مدون لهذا المصطلح عثر عليه حتى الآن يعود، حسبما توصل إليه الأستاذ دود ولد عبد الله¹⁰⁰، إلى نهاية القرن الحادي عشر أو بداية القرن الثاني عشر الهجريين.

ويعتقد أن لشيوع هذه التسمية علاقة بالأدوار العلمية والثقافية والدينية والتجارية التي اضطلعت بها هذه المدينة فترة من الزمن مما بوأها مكانة متميزة في تاريخ البلاد الثقافي والديني على وجه الخصوص.

وربما كان لانطلاق ركب الحجاج الشنقيطي من هذه المدينة متجها إلى الديار المقدسة عبر أقطار شمال إفريقيا ومصر فالحجاز، صلة بهذه التسمية التي يعتقد أنها ظهرت أول ما ظهرت في المشرق. فسيدى عبد الله بن الحاج إبراهيم¹⁰¹ يذكر أن قافلة الحج كانت تنطلق سنويا من شنقيط (المدينة) وتضم حجاجا قادمين من

97 - دود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط، مرسا، ص. 25.

98 - أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط، مرجع سابق، ص. 422.

99 - المرجع والصفحة ذاتهما.

100 - دود ولد عبد الله، الحركة الفكرية، مرجع سابق، ص. 23، إحالة رقم 2.

101 - راجع بهذا الشأن:

✓ سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم، صحيحة النقل، مصدر سابق،

✓ Norris, **The history of Shinqit**, according to the Idaw Ali tradition, BIFAN, t.-XXIV, Série B, 1962, pp. 393-411, p. 393.

جميع الأنحاء مشيراً إلى "أن سكان هذه البلاد، أعني من الساقية إلى السودان إلى أروان يعرفون عند أهل المشرق إلى الآن بالشناقطة".
ومن التسميات التي يعتقد كذلك أنها ظهرت في المشرق "بلاد التكرور" التي أطلقت على المجال الموريتاني ومعظم أرجاء إفريقيا الغربية المسلمة.¹⁰²
وقد شاع استخدام هذه التسمية على الخصوص عند مؤرخي¹⁰³ تنبكتو وبعض مؤلفي كتب التراجم في ولايات ه إلى درجة أن الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولايتي أسمى مؤلفه المشار إليه في الإحالة السابقة والمخصص للتراجم المحلية "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور".
وإذا كانت معظم هذه التسميات تعرف البلاد انطلاقاً من العنصر البشري (السكان)، فإن ذلك عائد في اعتقادنا إلى أن مقتضيات الانتجاع هي إلى حد كبير محدد للعنصر الطبيعي (الموقع والحدود).

(2) الموقع والحدود

إذا كانت المعطيات المتعلقة بتسمية (أو تسميات) البلاد وفيرة نوعاً ما، فإن هذه المعطيات ضئيلة فيما يتصل بالموقع والحدود. ولذلك فإن معلومات الرحالين الفرنسيين المتعلقة بموقع البلاد وحدودها قليلة تنقصها الدقة في غالب الأحيان مما سيرغمنا على الاعتماد على الإشارات الجزئية التي قدمها هذا المستكشف أو ذاك عن منطقة ما من مناطق المجال البيضاني.

102 - أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولايتي البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ/1981م، ص 299.

103 - نشير خاصة إلى:

- ✓ محمود كعتي، تاريخ الفتاش، نشر هوداس، باريس، 1964؛
- ✓ عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، تحقيق وترجمة هوداس، باريس، 1964.

فقد اكتفى الرحالة موليين بالإشارة في أماكن متعددة من رحلته إلى أن أرض البيضان تقع بمحاذاة المحيط الأطلسي ونهر السنغال دون أن يقدم المزيد من التفاصيل عن موقع أو حدود أو امتداد هذه البلاد.

ويتحدث الرحالة كايي عن موقع وحدود منطقة البراكنه البيضانية إذ يقول¹⁰⁴: "إن بلاد البراكنه تقع على بعد ستين فرسخا تقريبا شرقي وشمال شرقي مدينة سين-لوي؛ ويحد البراكنه من الجنوب نهر السنغال ومن الشرق بلاد إدوعيش، ومن الشمال الشرقي بلاد كنته ومن الشمال قبيلة أولاد دليم¹⁰⁵ [?] التي اتحدت معها قبيلة أخرى مجاورة"¹⁰⁶.

وتعتبر معلومات الضابط البحري إيجن ماج عن منطقة تانت الموريتانية أكثر دقة وتفصيلا. إذ يكاد يكون الوحيد بين أصحاب المدونة الذي حاول تحديد المواقع انطلاقا من الإحداثيات الفلكية.

ورغم النواقص في خريطة ماج¹⁰⁷ فإنها مثلت محاولة جريئة لضبط انتماء بعض الأماكن والقبائل وتحديد مجالها الجغرافي ولو بصفة تقريبية.

ويحدد ماج موقع تانت الفلكي تحديدا لا يخلو من دقة إذ يقول إنها "تقع بين خط طول 14 درجة و49 دقيقة غربا وخط عرض 17 درجة و11 دقيقة شمال خط الاستواء"¹⁰⁸.

¹⁰⁴ - Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p. 139.

¹⁰⁵ - ليس صحيحا أن أولاد دليم يحدون بلاد البراكنه من الشمال، بل إن إمارة أهل يحيى بن عثمان (أدرار) هي التي تحد نظريا- بلاد البراكنه من جهة الشمال.

¹⁰⁶ - ربما تعلق الأمر بمعلومات حصل عليها كايي بخصوص التحالفات القبلية التي تنعقد وتنتهار من وقت لآخر بين القبائل البيضانية وحاول نقل تلك المعلومات دون استيعابها مما أوقعه في بعض الخلل.

¹⁰⁷ - تمكن مراجعة تلك الخريطة المرفقة بالرحلة.

¹⁰⁸ - Mage, Voyage au Tagant ..., op.cit., p. 25.

أما بخصوص امتداد منطقة تكانت فقد ذكر هذا الرحالة أنها تمتد ما بين 40 إلى 60 فرسخا في جميع الاتجاهات تقريبا.¹⁰⁹

ويطالعنا المستكشف علي صل ل بتصور أكثر شمولية عن أرض البيضان إذ يقول: "إن بلاد البيضان تمتد من نهر السنغال جنوبا إلى المغرب الأقصى والجزائر شمالا إلى تنبكتو وأ واد شرقا"¹¹⁰.

ويسير صولي في المنحى نفسه قائلا: "إن هذه البلاد تمتد بين نهر السنغال ونهر النيجر والمحيط الأطلسي والمغرب والجزائر"¹¹¹.

ورغم أن مستكشفين ورحالين آخرين (ينسان، بورل، دوني، إلخ..) قد حاولوا ضبط مواقع وحدود المناطق التي زاروها من المجال البيضاني خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإن حدود المناطق وامتدادها بقيت مطاطة تتسم بالضبابية والغموض. وقد تعود تلك الضبابية وذلك الغموض إلى طبيعة السكان البيضان المتنقلين دوما عبر المجال.

وقد أشرنا سابقا إلى ما يثيره المجال البيضاني من إشكاليات وقسمناه إجرائيا إلى متسع وضيق. ويبدو أن المجال البيضاني الواسع كان ماثلا في أذهان بعض الفرنسيين. فجيل رو يشير إلى هذا المجال قائلا: "إن بيضان السودان الغربي الذين يعيشون بين الضفة اليمنى لنهر السنغال والضفة اليسرى لنهر النيجر، ينقسمون إلى جزئين [فنتين] متميزين: حسان وزوايا..."¹¹².

109 - Idem

110 - A. Sall, Rapport sur un voyage, op.cit., p. 3.

111 - Ibid, p. 15.

112 - Gros, **Nos explorateurs** ..., op.cit., p. 43.

ويحاول الإداري الفرنسي بول مارتي البرهنة على أن المجال البيضاني الواسع هذا، يشكل وحدة طبيعية وبشرية، وهو ما عبر عنه صراحة في مقاله: "ملاحظات بشأن وحدة بلاد بيضان إفريقيا الغربية الفرنسية"¹¹³. ويشير مارتي¹¹⁴ إلى أن هذا المجال البيضاني يمتد بين نهر السنغال ونهر النيجر والمحيط الأطلسي والجنوب الجزائري موضحا "أنه بالإمكان نقل بيضاني من الترازه إلى كيفه"¹¹⁵ أو شمال آدرار أو أزواد دون أن يشعر بأي إحساس بالغرابة". أما بول كافرال فيتحدث، من جانبه، عن حدود البلاد الموريتانية مشيرا إلى صلة هذه البلاد بالصحراء الكبرى حين يقول: "إن هذه المنطقة الممتدة بين تنبكتو والأطلسي والسنغال والمغرب، والتي اعتدنا تسميتها بموريتانيا، رغم تبعيتها الإدارية لإفريقيا الغربية الفرنسية، فإنها ترتبط أكثر بالصحراء الكبرى"¹¹⁶. ورغم كل ذلك تبقى المسألة غامضة لأن غياب الحدود الطبيعية والسياسية المقننة أمر عادي في مجتمع رعوي تقليدي تتحكم فيه القرابة وعلاقات الدم والمصاهرة أكثر من تحكم المعايير الجغرافية والسياسية، وهو ما تظن إليه صاحب كتاب العبر¹¹⁷ عندما تحدث عن "العرب ومن في معناهم"¹¹⁸، حين يشير إلى أنهم

¹¹³ - Marty, *Considérations sur l'unité des pays maures de l'Afrique Occidentale Française*, BCEHSAOF, n°1, 1916, pp. 262-270.

¹¹⁴ - Ibid, p. 263.

¹¹⁵ - بلدة بمنطقة العصابه وصلها الفرنسيون سنة 1906 وأسسوا بها سنة 1923 مركزا إداريا تطور ليصبح الآن عاصمة إقليمية لولاية العصابه الموريتانية.

¹¹⁶ - Gaffarel, *Histoire de l'eexpension coloniale*, op/cit., p. 146.

¹¹⁷ - ابن خلدون، كتاب العبر، ج. 2، ص. 447 (نقلا عن محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط. 4، 1984، ص. 486، ص. 220).

يعيشون بدون "وطن يرتافون منه ولا بلد يجنحون إليه فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء".

وإذا كان هذا الحكم منطبقا على سكان الصحاري والقفار والبادية القليلة الخصب بشكل عام، فإنه يصدق أكثر على البداوة الطاعنين في صحراء المثلثين الجدياء، فتنقلاتهم الدائمة المتواصلة بحثا عن الرزق جعلتهم لا يعرفون الاستقرار والتوطن، وبالتالي "فلا يربط بينهم حقل أو مزرعة، ولا جبل أو واد. والرابطة الوحيدة التي تشد أفرادا منهم إلى آخرين، وتميز جماعات منهم عن أخرى، هي الرابطة الطبيعية، رابطة الدم [التشديد منا] التي تبقى لديهم واضحة لصفاء ونقاوة أنسابهم نتيجة تفردهم في القفر وعدم اختلاطهم مع غيرهم"¹¹⁹.

ومن هنا فإن تحديد مجال مضبوط من حيث الموقع والحدود لهؤلاء السكان يبقى مسألة بالغة الصعوبة، فحيثما نزل المطر ونبت العشب وتوفرت الطرائد، كان ذلك مجالا لهم دون أي اعتبار للحدود الطبيعية كانت أم مصطنعة. وعندما يتعلق الأمر بمجتمع قبلي، كالمجتمع البيضاني، يعيش حياة الظعن، فلا اعتبار للحدود (frontières) إذ هي بمفهومها الراهن مصطلح جديد حتى على الأمم الأكثر عراقة في النظم السياسية المركزية والحياة المستقرة.

إن الحدود الحقيقية لقوم يعيشون على الغيمة هي ما يوفره لهم المحيط الطبيعي من عناصر ضرورية للبقاء، إنها حدود لا يصنعها الإنسان بقدر ما ترسمها مقتضيات ذلك المحيط.

ب) محيط طبيعي لا يرحم

اهتم الرحالون الفرنسيون بوصف المحيط الطبيعي الصحراوي الذي يعيش فيه البيضان وأجمع هؤلاء الفرنسيون على وصف ذلك المحيط بالقساوة حيث الحرارة

¹¹⁸ - "العرب وزناته ومن في معناهم من الأكراد والتركماني وأهل اللثام من صنهاجة"، ابن خلدون، العبر، ج 2، ص 447 (نقلا عن الجابري، العصبية والدولة، مر، سا، ص 219).

¹¹⁹ - الجابري، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، مر، سا، ص 220.

مرتفعة صيفا والبرد قارس شتاء والمياه نادرة والعواصف الرملية الهوجاء شديدة،
وحيث التصحر يطبع الحياة بشكل شبه مطلق.

(1) التصحر

يطالعنا الحديث عن التصحر ومخاطره عند موليين حين يقول: "إن الرمال
المتنقلة في غالبية الصحراء تضيف المزيد من المخاطر إلى تلك التي يعانيها الإنسان
دوما في هذه الربوع. ذلك أن تلك الرمال التي تحملها الرياح توارى المسالك وتلتهم
زوابعها قوافل بقضها وقضيضها"¹²⁰.

وبالفعل فإن هذه العواصف الرملية تشكل أحد أهم أعداء المحيط الطبيعي
والبشري في المنطقة. فضلا عن عمه ا تسببه من تصحر وردم لنقاط المياه، فإنها
تمحو معالم المسالك (إن كانت للطرق والمسالك معالم في هذه الصحراء) مما يؤدي
إلى ضياع الأشخاص وهلاكهم في تلك الصحراء القليلة المياه والمنعدمة العمران
تقريبا.

ويتحدث كايي عن تلك الرمال المتحركة قائلا: "لقد قطعنا منذ الصباح ثلاثة
وعشرين ميلا وما تزال أمامنا ثلاثة أميال قبل أن نصل إلى مخيم الأمير [...]
والطريق التي نسلوها تتخللها كثبان رملية متحركة"¹²¹.

وإذا كانت منطقة البراكنه التي يتجول فيها كايي، وهي منطقة قريبة من
النهر وتهطل عليها في العادة كميات مهمة من الأمطار الموسمية سنويا وبها غطاء
عشبي وشجري كثيف نسبيا؛ إذا كانت توجد بهذه المنطقة الكثبان الرملية المتنقلة، فإن
لنا أن نتصور وضعية بقية المناطق الواقعة في أعماق الصحراء الموريتانية.

ويتحدث الضابط البحري ماج عن عواصف رملية قوية تهب من الشرق¹²²
صادفها يوم الثاني عشر ديسمبر/كانون الأول سنة 1859 وهو في طريقه إلى منطقة
تكانت.

¹²⁰ - Mollien, *Voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, op.cit., t.1, p.5.

¹²¹ - Caillié, *Voyage*, op.cit., t.1, p.91.

ويشير الرحالة كايي إلى الانعكاسات السلبية لهذه العواصف على المحيط الطبيعي والبشري معا، مبرزاً ما تؤدي إليه من إسراع بتجفيف المياه المتبقية في بعض البرك والمجاري، ومن تسريع بإتلاف الأعشاب الضرورية للحيوانات، حين يقول: "منذ ثلاثة أيام تعصف الرياح الشرقية بعنف وقد نفذت المراعي"¹²³.

ويواجه البيضان خاصة في المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية أثناء فصل التساقطات زوابع مطرية هوجاء في بعض الأحيان. يصف كايي إحداها قائلاً: "في المساء اندلعت زوبعة مريعة، فالرعد يدوي رهيباً والمطر يسقط مدراراً والرياح أسقطت جميع خيام الحي الذي تخيم عليه فوضى عامة [...] وحتى الأكواخ لم تتمكن من الصمود إذ اقتلعتها الرياح كما أن الأشواك [الأغصان الشوكية] المستخدمة في حظائر العجول تطايرت مؤدية جرح العديد من الأشخاص [...] وتشتد الضجة جراء أصوات التأوه الصادرة عن الحيوانات الشاردة على غير هدى حول الحي بعد أن جرحتها الأشواك التي حملتها الرياح"¹²⁴.

ويبوح كايي وهو المتعود على الزوابع في فرنسا بإحساسه أمام هذا المشهد: "إنها أول مرة أشاهد فيها زوبعة قوية في الصحراء وقد جعلتني حالة الذعر المخيم التي لاحظت، أشعر بخطر محقق فقاسمت المسلمين للحظة خوفهم الشديد"¹²⁵. ولا يخفى كايي انزعاجه جراء "سحابة من الرمال تحملها الرياح الشرقية التي تعصف بقوة شديدة"¹²⁶.

وفي طريقه إلى أدرار يتحدث الرحالة صولبي عن عواصف قوية تحمل كميات هائلة من الرمال أرغمته على الاحتماء منها باستخدام اللثام لتغطية وجهه.¹²⁷

¹²² - Mage, Voyage au Tagant, op.cit., p.3.

¹²³ - Caillié, Voyage, op.cit., t.1, p.92.

¹²⁴ - Caillié, Voyage, op.cit., t.1, p.92.

¹²⁵ -Ibid, t.1, 92-93.

¹²⁶ - Ibid, t.1, p.73.

¹²⁷ - Soleillet, op.cit., p..

فهل يعني هذا أن التصحر الذي تعانيه البلاد اليوم ليس وليد الجفاف الذي عرفته منذ سبعينيات القرن العشرين، بل إن معالمه بدأت في التشكل مدفوعة بقساوة المناخ أثناء القرن التاسع عشر، أو وربما قبل ذلك القرن؟.

(2) قساوة المناخ

يصور موليين جانبا من مناخ الصحراء تصويرا يكفي للبرهنة على أن ذلك الرحالة قد كابد بالفعل هول مناخ المنطقة الشديد القساوة، إذ يقول: "فورما تهب الرياح الشرقية [...] يأخذ الأفق شكل موقد مضطرم فنحس نارا مهلكة تنتشر في الهواء الذي نتنفسه، ويصبح الماء الذي نشربه لتخفيف الظمأ المتواصل الذي يمزقنا، وكأنه يثير هذا الظمأ من جديد. ولا يقطع الصمت الرهيب الذي يسود تلك الطبيعة الموحشة إلا التآوه المتواصل الصادر عن الحيوانات اللاهثة"¹²⁸.

وقد نلاحظ في نص هذا الرحالة تعجبا ضمنيا من وضعية هذا البدوي الذي لا حول له ولا قوة على مواجهة هذه الرياح السموم سوى انتظار نهاية الزوبعة. فالمساحات الخضراء التي تساعد على تلطيف الجو سينتظر وجودها قرونا من الزمن والشواطئ التي يلجأ إليها في هذه الحالة بعيدة. والمياه غير متوفرة في غالب الأحيان للشرب أخرى للاستحمام قصد تلطيف حرارة الجسم.

ويلخص موليين سبل مواجهة هذه الظروف في "أن هذا البيضاني ليس له من سبيل إلى تخفيف وطأة اللهب الذي يحرقه سوى البقاء جامدا محتميا داخل خيمته"¹²⁹.

وقد عايش كايي خلال تنقلاته في منطقة البراكنه قساوة مناخ المنطقة وتحدث عنه في غير موضع من رحلاته. ونكتفي هنا بسوق هذا المثال على معاناته لذلك المناخ أثناء شهر رمضان. يقول: "لقد بدأت الرياح الشرقية تعصف بقوة فترتفع

¹²⁸ - Mollien, *Voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, op.cit., t.1, p.695.

¹²⁹ - Mollien, *Voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, op.cit., t.1, p.6.

درجة الحرارة حتى أصبح ظمئي لا يحتمل، فقد جف حلقي وشعرت بلساني يتفتت
ويلسني في فمي كالمبرد، فأيقنت أنني سأهلك»¹³⁰
وإذا عرفنا أن هذا الحر الشديد الذي يحدثنا عنهما كان في بداية شهر
إبريل/نيسان 1824، أي قبل الموسم الفعلي لاشتداد الحر، فلنا أن نتصور وضع
هؤلاء السكان أثناء اشتداد الحر في يوليو/تموز وأغسطس/آب!
ويذكر الضابط بورل أن درجات الحرارة في منطقة البراكنة، وهي منطقة
محاذية للنهر، تصل في كثير من الأحيان إلى ما بين 40 و45 درجة.¹³¹
ويصبح هذا الأمر أكثر مدعاة للرعب والحيرة عندما يخبرنا الرحالة ماج
وهو مزود بترموتر لقياس درجات الحرارة أن درجة الحرارة بمنطقة تانت يوم
الرابع والعشرين ديسمبر/كانون الأول أي أثناء فصل الشتاء كانت تبلغ سبعا وأربعين
درجة في الظل، مما جعل رائحة خاصة تتصاعد من غلاف جلدي يستخدم ستارا لمنع
أشعة الشمس من دخول الخيمة، وهي رائحة متأتية حسب الرحالة من عدم مقدرة ذلك
الغلاف على تحمل الشمس الحارقة.¹³²
فشمس الصحراء إذن من خلال روايات هؤلاء الرحالين حارقة على مدار
السنة في الصيف وفي الخريف كما في الشتاء!!
ولا تقتصر قساوة المحيط الطبيعي البيضاني على الجفاف والتصحر
والارتفاع المذهل لدرجات الحرارة، بل إن عنصرا أساسيا من عناصر الحياة يثير
كثيرا من المشاكل في الصحراء هو عنصر الماء.

3) ندرة المياه

تمثل المياه وإمكانية الحصول عليها مشكلة تنضاف إلى المشاكل السابقة
التي يعانيها البيضان في هذه الصحراء الضئيلة.

¹³⁰ - Caillié, *Voyage*, op.cit., t.1, p.170.

¹³¹ - Bourrel, *Voyage dans le pays des Maures*, op.cit., p.530.

¹³² - Mage, *Voyage au Tagant*, op.cit., p.18.

وإذا كانت مشكلة المياه غير حادة بشكل دائم في المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من البلاد بفعل الفيضان السنوي لنهر السنغال وبعض الأودية الموسمية وتساقط كميات معتبرة من الأمطار، فإن أجزاء كبيرة من وسط البلاد وشمالها وشمالها الشرقي (إذا استثنينا مناطق الواحات) تعرف نقصا حادا في المياه تكاد تستحيل معه الحياة. وحتى المناطق التي تتوفر فيها المياه أثناء بعض فترات السنة بفضل البرك والمستنقعات والبحيرات، فإن مياهها قد لا تكون صالحة للشرب رغم أن السكان وحيواناتهم يشتركون في شرب أي ماء متوفر. أما المياه الجوفية فإن الوصول إليها يطرح مشاكل جمة ذلك أنه يتطلب حفر الآبار بما يستلزمه من استقرار وإمكانيات قد لا تتوفر في جميع الأحيان لهؤلاء البداءة الضاعين.

وعن شح مصادر العيش وقلة المياه يحدثنا الرحالة موليين قائلا: "إن اللحم واللبن يشكلان تغذية البيضان وهم بطبعهم قنوعون وزاهدون في الأكل، وقد يقضون أحيانا ثمانية أيام في الصحراء دون أن يجدوا ما يقتاتونه وحتى قطرة ماء [التشديد منا] لإزالة ظمئهم"¹³³. غير أن الرحالة لم ينبه إلى أن هؤلاء البيضان قد يضطرون أحيانا إلى استخدام اللبن عوضا عن الماء، وخاصة في فترات الخصب. ويشير موليين إلى أثر ندرة الماء في عدم استقرار البيضان حين يقول: "إن نقاط المياه المتناثرة التي تفصل بينها مسافات طويلة تكون مستقرا لفترة وجيزة فقط للقبائل البيضانية الضاعنة دوما"¹³⁴.

وحتى في منطقة البراكنه وهي منطقة تقع بمحاذاة النهر وتوجد بها بحيرة ألاك وبعض نقاط المياه الأقل أهمية يحدثنا كايي عن نقص في المياه أو شك أن يلحق الضرر بالسكان أثناء تنقلاتهم بالمنطقة بحثا عن المراعي في شهر فبراير/شباط 1824⁽¹³⁵⁾. ويستفيض هذا الرحالة في الحديث عن رداءة المياه في المنطقة قائلا:

¹³³ - Mollien, *Voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, op.cit., t.1, p.14.

¹³⁴ - Mollien, *Voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, op.cit., t.1, p.4.

¹³⁵ - Caillié, *Voyage*, op.cit., t.1, pp.155-156.

"حططنا الرحال قرب مغيض صغير تظله شجرة حميرة¹³⁶ لكن ماء ذلك المغيض كان موحلا بدرجة تجعل شربه يكاد يكون مستحيلا"¹³⁷.

وبعد ذلك بأزيد من ثلث قرن يؤكد الضابط البحري بورل الذي تجول في منطقة البراكنه سنة 1860 أن مشكلة المياه هي الشغل الشاغل للبيضان وذلك بغض النظر عن جودة أو رداءة تلك المياه.¹³⁸

وكثيرا ما يتقاسم البيضان مع مواشيهم المياه الملوثة بفضلات الحيوانات¹³⁹، بل إنهم يعتقدون أن "الماء الذي يوجد به بول الحيوانات مفيد لصحة البطن والصدر"¹⁴⁰.

وقد اضطرت ندره المياه الضابط البحري ماج ورفاقه إلى شرب الوحل بمنطقة كيديماغه في بداية رحلته إلى تكانت. يقول ماج: "وجدنا هنالك وحلا لاقينا الكثير من الصعوبات في شربه رغم ظمئنا"¹⁴¹.

ويشير هذا الرحالة إلى رداءة بعض المياه بمنطقة العصاب ه قائلا: "إن المياه التي وجدنا في هذا الينبوع [في سلسلة جبال العصابه] رغم صفائها، هي مياه نتنة مثل المياه التي وجدناها في بداية الرحلة"¹⁴².

ويؤكد هذا الرحالة شح المياه بالمنطقة وصعوبة العثور عليها قائلا: "لم يجد أدلونا المياه رغم بحثهم المتواصل فأصابني القلق لأن ما تبقى لدينا من الماء لا يكفي

136 - يبدو أن الأمر يتعلق بشجرة باوباب (baobab) مهاجرة كان المناخ حينئذ يسمح بنموها في هذه المنطقة.

137 - Caillié, **Voyage**, op.cit., t.1, p.74.

138 - Bourrel, **Voyage dans le pays des Maures**, op.cit., p.528.

139 - A. Sall, **Rapport sur un voyage**, op.cit., p.10.

140 - Bourrel, **Voyage dans le pays des Maures**, op.cit., p.528.

141 - Mage, **Voyage au Tagant ...**, op.cit., p.2.

142 - Ibid, p.6.

سوى ليوم واحد. فقد تكسرت بعض براميلنا فرفضت التوقف للاستراحة رغم معارضة الأدلاء"¹⁴³.

وتوشك ندرة المياه أن تقضي على واحد من هؤلاء المستكشفين وهو علي صل الذي أصبح، هو ومرافقه، عاجزين عن امتطاء جمليهما جراء اشتداد الضمأ، فلجأ إلى ظل شجرة في انتظار مغيث محتمل أو هلاك محتوم.¹⁴⁴ وبخصوص بعد المياه الجوفية وصعوبة الوصول إليها يخبرنا الضابط المستكشف فينصان أن آبار منطقة تيرس بالصحراء يصل عمقها إلى 20 متراً، وبأنه هو ومرافقوه لم يتمكنوا من جلب المياه من بئر تشله¹⁴⁵ لعمقها إذ تبلغ حوالي 22 متراً.¹⁴⁶

وإذا كان الرحالون السابقون قد أجمعوا على ندرة المياه بالمنطقة وصعوبة العثور عليها أو الوصول إليها ورداءتها أحيانا فإن بلانشي قد يكون الاستثناء الذي يؤكد القاعده إذ يصرح أن المنطقة التي عبرها من سين-لوي إلى أطار تتوافر بها المياه أكثر من الجنوب الجزائري وبشكل يكفي للزراعة، وبأن الحصول على هذه المياه سهل¹⁴⁷. ومع ذلك يقول هذا الرحالة: "إن بئر تابرنكوت¹⁴⁸ وهي الوحيدة المحفورة بالمنطقة [حسب روايته] يبلغ عمقها خمسة وعشرين متراً"¹⁴⁹. وقد اعترف

¹⁴³ - Ibid, p.3.

¹⁴⁴ - A. Sall, Rapport sur un voyage, op.cit.

¹⁴⁵ - تشله وتكتب أحيانا إذا وردت في الشعر بألف مقصورة (تشلى) بئر ماؤها شروب، أصبحت بها قرية منذ أربعينيات القرن الحالي، وهي تبعد 35 كلم إلى الشمال من مركز إنال الإداري التابع لولاية داخلت نواذيبو.

¹⁴⁶ - Vincent, Voyage d'exploration dans l'Adrar, op.cit., p.457.

¹⁴⁷ - Blanchet, Rapport de mission, op.cit., p.21.

¹⁴⁸ - بئر تقع على بعد حوالي 40 كلم إلى الشمال من مدينة أكجوجت عاصمة ولاية إينشيرى. انظر الخريطة رقم 9 من هذا العمل.

¹⁴⁹ - Blanchet, Rapport de mission, op.cit., p.22.

هذا الرحالة بأن "حفر هذه البئر في تلك المنطقة الصخرية الشديدة الصلابة يعتبر إنجازا عظيما خاصة إذا وضعنا في الاعتبار الوسائل المستخدمة من طرف السكان".¹⁵⁰

إن قساوة المحيط الطبيعي البيضاني التي تحدثنا عنها جعلت موليين يذهب إلى الاعتقاد بأن لدى البيضان درجة تحمل عالية لا تتوفر عليها الشعوب الأخرى إذ يقول: "إن الحياة في بلاد مريعة إلى هذا الحد تتطلب قوة تحمل تفوق ما تتوفر عليه الشعوب الأخرى: إنها قدر البيضان ; وإذا كانت قامتهم متوسطة فإن خفتهم لا مثيل لها".¹⁵¹

ولعل قوة التحمل والخفة اللتين يتحدث عنهما هذا الرحالة من أهم العوامل التي ساعدت البيضان على التأقلم مع ذلك المحيط.

(ج) أساليب التكيف مع المحيط الطبيعي

تتعدد طرق مواجهة السكان المحليين لمحيطهم الطبيعي الذي سبقت الإشارة إلى أهم ملامحه باختلاف المناطق والإمكانيات المتاحة. وقد تفتن الرحالون الفرنسيون الذين جابوا البلاد الموريتانية إلى العديد من أساليب تكيف هؤلاء البدو القاطنين في الخيام أو الضاعنين على ظهور العيس!.

فلمواجهة الرياح الحارقة والعواصف الرملية يلجأ البداء البيضان إلى إحكام أغشية خيامهم و"الاحتماء داخلها دون حراك"¹⁵² حتى تتحسن حالة الجو. وقد اصطحب القوم اللثام وسيلة من وسائل مواجهة العواصف الرملية واتقاء أشعة الشمس الحارقة. ويجب التنكير في هذا المقام بأن سكان هذه الربوع يسمون بـ"الملثمين"،

¹⁵⁰ - Blanchet, Rapport de mission, op.cit., p.23.

¹⁵¹ - Mollien, **Voyage dans l'intérieur de l'Afrique**, op.cit., t.1, pp.6-7..

¹⁵² - Mollien, **Voyage dans l'intérieur de l'Afrique**, op.cit., t.1, p.6.

ربما لملازمتهم اللثام. وقد أرغمت الظروف المناخية السائدة في هذه الصحراء جل¹⁵³ المستكشفين والرحالين الفرنسيين على استخدام هذا اللثام للغرض نفسه. ويصف كايي كيف يواجه البيضان العواصف المطرية قائلا: "في الحالات الاعتيادية عندما يشعر البيضان بتهديد الزوبعة ينزلون خيامهم للحيلولة دون سقوطها [بقوة الزوبعة] محتفظين بالخيام الصغيرة لأنها أكثر قدرة على الصمود باستمرار"¹⁵⁴.

ويضيف هذا الرحالة في وصف طريق: "إن زوبعة تهددنا فالسماء محمرة من الشرق والرعد يقصف باستمرار لذلك حفر البيضان حفرا كبيرة [في الأرض] ووضعوا داخلها بضائعهم لحمايتها من البلل"¹⁵⁵. إلا أن طبيعة التربة قد لا تساعد السكان في جميع الحالات على حفظ أمتعتهم من البلل عن طريق ردمها في الأعماق، وذلك ما يبرزه كايي ضمن حديث عن زوبعة أخرى إذ يقول: "عندما طلعت الشمس [بعد ليلة من الزوابع المطرية] نشرنا بضائعنا التي ابتلت جميعها لأن طبيعة التربة الصخرية المحتوية على الحديد والصلابة جدا جعلت من المستحيل أن نحفر بها حفرا لحفظ سلعنا"¹⁵⁶.

وإذا كانت بضائع كايي والتجار المرافقين له قد تبللت جراء المطر وصلابة التربة واستحالة الحفر فيها فإنهم قد تمكنوا بوسيلة أخرى من منع ثيابهم من البلل، فقد "نزع البيضان ثيابهم ووضعوها داخل القدور لحفظها من مياه المطر. وفعلت مثلهم

¹⁵³ - راجع بهذا الشأن:

- ✓ Soleillet, Rapport...op.cit., p. 70;
- ✓ Blanchet, Rapport de mission..., op.cit., p. 12.

¹⁵⁴ - Caillié, Voyage, op.cit., t.1, p.93.

¹⁵⁵ - Ibid, t.1, p.73.

¹⁵⁶ - Ibid, t.1, p.77.

حتى أصبحنا كلنا عراة [...] وبعد نهاية المطر ارتدينا ثيابنا التي وجدناها يابسة تماما¹⁵⁷.

ويستخدم البيضان الأرض استخداما مشابها في مجال آخر إذ يستعملونها خزانة للحفظ. "فكميات الصمغ التي ينتهي الموسم [...] قبل بيعها يعود بها البيضان [من محطات التبادل] ويحفرون لها في أعماق الأرض حتى يحين موسم التبادل في السنة المقبلة"¹⁵⁸.

وللحد من رداءة المياه وجعلها أكثر ملاءمة للشرب يعالج البيضان المياه الموحلة بطرق مختلفة يورد كايي¹⁵⁹ إحداها وهي إضافة القليل من ثقل قصب السكر¹⁶⁰.

ويصف موليين في حديثه عن تحمل هؤلاء البيضان للجوع الذي قد تفرضه عليهم الطبيعة القاسية، كيف يواجهون هذا الجوع بشد الأزيمة إذ يقول: "إن التمنطق بحزام يزيدون شدة كل يوم جراء الامتناع القسري عن الطعام هو الذي يمنعهم من السقوط من شدة الجوع والعطش والتعب"¹⁶¹.

وللتغلب على حرارة الشمس الحارقة يلجأ البيضان إلى إحكام إغلاق خيامهم بوضع أغلفة حولها من جميع الجهات للحد من دخول أشعة الشمس. ذلك ما يلاحظه الرحالة ماج يوم رافق الأمير الإيدو عيشي بكار ولد سويد أحمد إلى أحد أحياء البيضان بمنطقة ت أنت حين يقول: "في حدود الثانية والنصف بعد الزوال وصلنا الحي فدخل بكار خيمة وأمرني بالدخول وأغلقوا علينا بستار جلدي كبير حتى أصبحنا في ظلام مطبق [...] وكانت الحرارة لا تطاق، حيث وصلت إلى 47 درجة [!؟] في الظل.

¹⁵⁷ - Idem

¹⁵⁸ - Ibid, t.1, p.182.

¹⁵⁹ - Ibid, t.1, p.74.

¹⁶⁰ - Mélasse.

¹⁶¹ Mollien, *Voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, op.cit., t.1, p.14.

وكان الجو حارا إلى درجة أن الأمير فضل أن يأخذ قسطا من الراحة فنام ساعة ونصف الساعة قبل أن يتناول طعام الغداء¹⁶².
أما إذا كان البيضان مسافرين أو بعيدين عن الخيام التي لجأ إليها في أوقات الحر الشديد فإنهم يحتمون وقت الهاجرة بظلال الأشجار.
وقد اضطر معظم الرحالين الفرنسيين الذين جابوا المجال البيضاني إلى ممارسة هذا التقليد¹⁶³.

وجراء انعدام الأمانات المميزة داخل الصحراء البيضانية القاحلة فإن خطر الضياع بها يبقى محدقا باستمرار. فقد أوشك صولبي نفسه أن يضيع في متاهات هذه الصحراء عندما تجرأ على الابتعاد عن مرافقيه مما أرغمه على الصراخ وإشعال النار على القوم يهتدون إلى مكانه طبقا لما كان البيضان يفعلون في حالات مشابهة¹⁶⁴. وكان المستكشف علي صل شاهد عيان على وسيلة أخرى من وسائل تكيّف سكان الصحراء مع قلة المياه وهي استخدام الجمل، ليس فقط وسيلة متميزة لاجتياز المسافات البعيدة، بل وأيضا وعاء لحفظ الماء!
فقبيل مغادرة علي صل مدينة ولات ه صحبة قافلة تجارية كبيرة متجهة إلى أروان، يشير هذا المستكشف إلى أن الجميع أخذ أقصى ما يمكن حمله من الماء بملء جميع القرب وأوعية المياه¹⁶⁵. فضلا عن ذلك فإن البيضان عمدوا إلى بعض الجمال فسقوها أكبر كمية ممكنة من الماء، ثم قطعوا أو شقوا ألسنتها لمنعها من الاجترار

¹⁶² - Mage, Voyage au Tagant ..., op.cit., p.18.

¹⁶³ - راجع بهذا الخصوص على سبيل المثال لا الحصر:

- ✓ Mage, Voyage au Tagant ..., op.cit., p.;
- ✓ A. Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., p. 15;
- ✓ Soleillet, Rapport...op.cit., p. 27;
- ✓ Blanchet, Rapport de mission..., op.cit., p. 9.

¹⁶⁴ - Soleillet, Rapport...op.cit., pp. 70-71.

¹⁶⁵ - A. Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., p. 19.

(حتى لا يتلطح الماء الموجود في أجوافها أثناء تلك العملية). وبعد نفاد الماء من الأوعية أخذوا يستخرجونه من أجواف الجمال واحدا تلو الآخر وحسب الحاجة.¹⁶⁶ وهكذا فقد عاش سكان هذا الصقع في ظروف غير عادية، فكان لا بد أن تأتي استجابتهم لها غير عادية كذلك. وإذا كانت أشكال التضامن المعروفة اليوم غير متاحة لساكن هذه الصحراء، فإنه قد تمكن من الانتظام في أطر قرابية شكلت وحداتها بنية سياسية واجتماعية شبه متميزة كانت له سند حماية وأساس تكافل مكنه من التصدي لمحيط لا يرحم؛ فما هي أهم عناصر تلك البنية السياسية الاجتماعية؟

¹⁶⁶ - A. Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., p. 20.

الفصل الخامس

البنى السياسية والاجتماعية

استكمالا للتصور الذي قدمناه في الفصل الماضي عن المجتمع البيضاني في ظرفه الزماني ومحيطه المكاني، فإننا نرى من اللازم تخصيص فصل يتناول البنى السياسية والاجتماعية لهذا المجتمع أثناء القرن التاسع عشر.

أولاً. البنى السياسية

يتطلب الحديث عن هذه البنى تناول النظام الأميري والبنية التنظيمية للإمارات ثم استعراض مختلف الفئات الاجتماعية البيضانية ومكانة ودور كل منها في "الديناميكية" الاجتماعية العامة.

أ. النظام الأميري (الأصول والبنية)

يطرح النظام الأميري البيضاني جملة من التساؤلات، لعل أهمها تلك المتعلقة بطبيعة وأصول السلطة السياسية في المجتمع البيضاني ما قبل الاستعمار.

1. أصول وطبيعة النظام الأميري

لقد كان من أهم نتائج حرب شريبه التي أشرنا إليها سابقا هزيمة الزوايا وانتصار القبائل المغربية ومن ثم فرض سيطرتها بوصفها مجموعة قبلية تركز نظاما سياسيا عرفه الدارسون بنظام الإمارات الذي شكل نوعا من السلطة شبه المركزية يمكن اعتباره شكلا جنينيا للدولة.

وقد أخذ هذا النظام الأميري في البروز منذ النصف الأول من القرن السابع عشر بمنطقتي البراكه والترارزه ثم تبلور بشكل تدريجي أثناء القرن الثامن عشر ليتمدد إلى منطقتي آدرار وتكانت.

وتجلى هذا النظام الأميري في شكل تفوق عسكري وسياسي لبعض القبائل المغربية أو المتمغرة وهو تفوق أفرز في نهاية المطاف مستوى من التراتب الاجتماعي وشكلا من أشكال التنظيم السياسي والعسكري شبه المركزي يختلف عن التنظيم القبلي الذي كان قائما. ذلك أن هذا النظام الأميري الجديد تولدت عنه كيانات سياسية واجتماعية أهمها إمارات البراكه والترارزه وآدرار وتكانت. وتمتاز هذه التنظيمات بوجود سلطة واحدة تجتمع تحت سيادتها مختلف القبائل الحسانية والزاوية والتابعة في المناطق التي كانت تحكمها تلك الكيانات الأميرية.

وقد شغلت أصول وطبيعة البنى السياسية والاجتماعية البيضانية بالمهتمين والدارسين من علماء اجتماع واثروبولوجيين ومؤرخين فحاولوا دراسة تلك البنى كل من منظوره الخاص وطبقا لمقتضيات انشغاله. فتشارلس ستيوارت (Charles Stewart) المعروف بحماسة لتطبيق النظرية الانقسامية¹ على المجتمع البيضاني يعتبر مركزا السلطة السياسية بأيدي القادة الحربيين (الأمرء) وليدة العلاقات التجارية مع الاستعمار الفرنسي.²

¹ - راجع حول هذه النظرية:

- ✓ Bonte, Segmentarité et pouvoir chez les éleveurs nomades sahariens: éléments d'une problématique, in Production pastorale et Société, la Maison des Sciences de l'homme, Paris, 1982, pp. 171-199.
- ✓ Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir...., op.cit. pp. 598 et ss.
- ✓ أرنت كلنير، السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، العدد 11، 1985، صص. 171-191.

ومع اعتراف هذا الباحث بنوع من "مركزة السلطة السياسية بأيدي القادة الحربيين فإنه يذهب إلى نفي التراتب الاجتماعي بين المحاربين والزوايا ودور "سلطة الأمراء" في تقوية ذلك التراتب معتبرا المبادئ الانقسامية للتقابل والتكامل كقيلة بتحقيق توازن بين تفوق الزوايا العددي والعنف الحربي لحسان، توازن بين النشاطات الرعوية السلمية واقتصاد الغارة، بين الحماية الروحية والحماية الزمنية.³

وهكذا فإن الإمارة بالنسبة لتشارلس ستيوارت لا تتجاوز كونها تنظيما سياسيا خاصا بالمجموعات الحسانية مقابل النفوذ السياسي للطرق الصوفية والقبائل الزاوية، وبالتالي فإن المجتمع البيضاني مجتمع تحكمه الآليات الانقسامية وخاصة التناقض الوظيفي بين القبائل الحربية والقبائل الزاوية.

ويذهب بيير بونت⁴ (Pierre Bonte) بخصوص أصول النظام الأميري البيضاني إلى الجزم بأن التبلور السياسي للإمارات البيضانية هو إلى حد ما وليد العلاقات المتنامية مع الرأسمال التجاري الفرنسي المتمركز في مصب نهر السنغال.

-
- ✓ عبد الله الحمودي، الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة. ملاحظات حول أطروحات كلنير، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، العدد 11، 1985، صص. 193-224.
 - ✓ ليليا بنسالم، التحليل الانقسامي لمجتمعات المغرب العربي: حصيلة وتقييم، صص. 11-42، ضمن: الأنتروولوجيا والتاريخ، مر. سا.
 - ✓ علي صدقي أزابكو، حول النظرية التجزئية مطبقة على المغرب، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، العدد 14، 1988، صص. 9-33.

² - نقلا عن:

Pierre Bonte, Segmentarité et pouvoir..., op.cit., p.181.

³ - C. C. Stewart, Political authority and Social stratification in Mauritania, in E. Gellener and A. Micand, Arabs and Berbers, London, 1973, pp. 375-393.

نقلا عن: عبد الودود ولد الشيخ، القرابة والسلطة. قراءة نقدية في النظرية الانقسامية، ترجمة السيد ولد أباه، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد 4، 1994، صص. 59-76.

⁴ - Pierre Bonte, Segmentarité et pouvoir..., op.cit., p.181.

ويعتبر هذا الباحث⁵ الإمارة شكلا أوليا من أشكال الدولة فهي (أي الإمارة) تنظيم سياسي ممرکز يوجه نظاما قبليا. ويعتمد تسيير هذا النظام السياسي على تعبئة التحالفات الانقسامية المتغيرة في إطار شبكة من العلاقات السياسية القائمة بين مجموعات تراتبية بهدف الوصول إلى السلطة السياسية أو استرجاعها. ومن خلال دراساته وأبحاثه العديدة⁶ حول إمارة آدرار أظهر بونت ديناميكية الانتقال من القبيلة إلى الدولة وما يرافقها من مظاهر الانشطار والانصهار أثناء أزمات الخلافة وما تفضي إليه من تحولات وتغييرات في انتماء الأفراد والجماعات وتبديل مكانتهم الاجتماعية⁷ جراء الصراعات السياسية المتداخلة عموما مع القرابة والمصاهرة. ويربط كونستان هامس (Constant Hamès) بين ظهور النظام الأميري وحرب شربه مشيرا إلى أن بروز الإمارات يمثل تعبيرا عن حل مؤقت للتناقضات التي أفضت إلى قيام تلك الحرب.⁸

⁵ - Pierre Bonte, Tribus, factions et Etat: les conflits de successions dans l'Emirat de l'Adrar, Paris, Cahiers d'Etudes africaines, 8788, t.XXII, 1982, n°3 et 4, pp. 489-516.

⁶ - من أهم تلك الدراسات:

- ✓ Tribus, factions et Etat: les conflits de successions, op.cit.,
- ✓ La constitution de l'Emirat de l'Adrar: quelques hypothèses provisoires, Paris, Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, n°32, 2ème trimestre, 1981-1982, pp. 37-52.
- ✓ Guerriers et repentants. La Towba et l'évolution politique des Emirats, op.cit.

⁷ - تشير هنا إلى ظواهر مثل "التوبة"، "استحسين"، "استزوي" و"اتزنكي". وتعني هذه المصطلحات الانتقال من فئة اجتماعية إلى أخرى.

⁸ - Hamès, Constant, Evolution des Emirats maures sous l'effet du capitalisme marchand européen, in Production pastorale et Société, la Maison des Sciences de l'homme, Paris, 1979, pp. 378-397.

ومع أن هذا الباحث يرى أن أصول النظام الأميري ومركزته قد سبقت التسرب البضاعي الرأسمالي إلى المنطقة فإنه يشير إلى الدور الذي لعبه تغلغل الرأسمالية الأوروبية في إعادة تشكيل وتدعيم الهياكل السياسية والاقتصادية الأميرية وتحديد مستقبلها.⁹

وإذا كان هامس¹⁰ يعتبر النظام الأميري نوعا من التوازن تتقاسم بموجبه الأرستقراطيتان العسكرية والدينية السيطرة على الفئات الأخرى، فإن بيير بونت ينحو منحى مخالفا إذ يبالغ في سيطرة حسان حين يقول: "إذا كان هنالك في بعض الأحيان صراع على السلطة بين القطبين العسكري والديني فإن ذلك لا يبرر الحديث عن توازن سلطوي"¹¹.

وقد أكد دو شاسي¹² (Francis de Chassey) ازدواجية "السيف" و"الكتاب" واعتبرها تجزئة اجتماعية نادرة الوجود إلا في المجتمعات الصحراوية. ومع أن ظهور الدولة بالنسبة للباحث دو شاسي¹³ يتطلب تطوير مؤسسات خاصة (إدارة، عدالة... إلخ) مستقلة عن التنظيمات القبلية وخارج نطاق علاقات القرى، فإن بعض الدارسين المحليين لم يتردد في اعتبار الإمارة "دولة في حالة جنينية تسيير نحو المزيد من المركزية ووضوح المؤسسات"¹⁴.

⁹ - Ibid, pp.380 et suivantes.

¹⁰ - Ibid, p.381.

¹¹ - Pierre Bonte, Segmentarité et pouvoir..., op.cit., p.181.

¹² - Francis de Chassey, **L'étrier, la houe et le livre**, Paris, Anthropos, 1982, p.99.

¹³ - Ibid, p.98.

¹⁴ - راجع بهذا الشأن:

- ✓ Moctar Ould Hamidoun, Notes sur l'histoire des Trarza, Dakar, BIFAN, t- 6 ., série B, 1948, pp.461-538.
- ✓ Ahmed Baba Ould Ahmed Miské, **Tableau de la Mauritanie au début du XXe siècle**, Paris, Klincksieck, 1970., p. 94.

وقد تناول الأستاذ عبد الودود ولد الشيخ¹⁵ من جانبه طبيعة وتطور السلطة السياسية في المجتمع البيضاني ما قبل الاستعمار مبرزا على الخصوص العلاقات والروابط القائمة بين البداوة والإسلام والسلطة السياسية التي ظلت مرتبطة في الفضاء الموريتاني ارتباطا وطيدا بنمط الحياة البدوي والدين الإسلامي الذي شكل خلفية أخلاقية ونظرية لهذه السلطة لما يضيفه عليها من شرعية سياسية ودينية.

وأشار ولد الشيخ¹⁶ في تحليله الحصيف لهذه المسألة إلى الآليات السياسية والاجتماعية الممهدة للدولة في شكلها الجنيني ممثلة في إمارات الترازه والبراكه وأهل يحيى بن عثمان وايدوعيش، موضحا أن نمط الحياة البدوي يتطلب حركية واسعة في المجال امتازت في البلاد الموريتانية بثنائية معقدة يتم فيها تنازع أشكال الحقوق المترتبة على الأراضي في شكل ملكية فعلية للزوايا وحقوق معلومة لحسان.

واعتبر الأستاذ عبد الودود ولد الشيخ¹⁷ الإسلام عامل تخط لبنى القرابة الانقسامية، هذه البنى التي لا تساعد على قيام الدولة، فإذا كانت أيديولوجية الشرف ذات الجذور الانقسامية ترتبط في العادة بالصراعات والنهب وتدعم بالتالي الانقسام والتشردم، فإن الرؤية الزاوية النابعة من الإسلام تسعى إلى تسوية مركزية السلطة.

وهكذا مثل الإسلام وسيلة للاندماج في بنى تتجاوز الأطر القبلية هي النظام الأميري الذي يعتبر محاولة خروج عن سيادة أطر القرابة نحو تأسيس إطار سياسي يتجه في طريق المركزية، أي الانتقال من القبيلة إلى الدولة.

ويستنتج ولد الشيخ¹⁸ عجز آليات النظرية الانقسامية عن تفسير حقائق المجتمع البيضاني ما قبل الاستعمار، ذلك أن هذا المجتمع مجتمع سياسي يطبعه تراتب اجتماعي بارز يتميز بالتعارض الوظيفي بين حسان والزوايا، والأسايد والأتباع، والأحرار والعبيد، فضلا عن الوجود الفعلي لسلطة سياسية مركزية هي

¹⁵ - Ould Cheikh, Nomadisme, op.cit., pp.137 et suivantes.

¹⁶ - Ibid, pp.216 et suivantes.

¹⁷ - Ibid, pp.598 et suivantes.

¹⁸ - Ibid, pp.651 et suivantes.

الإمارات التي تفرض سيادتها على مجال معين وتمارس، رغم هشاشتها التنظيمية، صلاحياتها السياسية في إقليم محدد.

وقد يعود ظهور هذه الإمارات فضلا عن التحولات الاجتماعية والسياسية التي أشرنا إليها في الفصل السابق إلى كون مناطق البلاد التي ظهرت فيها هذه الأنظمة السياسية قد عرفت درجة من الاستقرار السكاني تسمح بقيام تنظيم سياسي شبه مركزي.

أما أطراف البلاد الهامشية كتيروس والحوض فإنها لم تشهد مثل هذا الاستقرار، ثم إنها كانت بعيدة خصوصا منطقة الحوض عن التجارة الأطلسية وما سيكون لها من انعكاسات على البنى الاجتماعية والسياسية في المنطقة. ولهذا اقتصر التنظيم السائد في تلك المناطق الهامشية على ظهور مشيخات¹⁹ لا إمارات²⁰. ذلك أن أي من الفروع القبلية الأساسية في تلك المناطق لم يتمكن من فرض سلطته السياسية المطلقة على المجموعات والقبائل الأخرى بشكل يجعلها تقبل تلك السلطة وتسلم بها كامتياز يخص فرعا أو قبيلة بعينها. ثم إن بنيتها التنظيمية لم ترق إلى مستوى النظم الأميرية الأخرى.

2. الهيكلة التنظيمية للإمارات البيضانية

¹⁹ - يمكن أن يكون مثال أولاد مبارك معبرا في هذا المجال فبعد أن نافسوا أبناء عمومته أولاد الزناكية في الجنوب الغربي الموريتاني وشاركوا في حرب شرببه توجهوا إلى الحوض غير أنهم لم يتمكنوا من تأسيس إمارة رغم ما لديهم من المقومات المساعدة على ذلك ومن أهمها القوة الحربية والفروسية والقاعدة الاقتصادية، وإنما اكتفوا بتشكيل مشيخات بقيت لبعض الوقت متصارعة ومجزأة في أنحاء الحوض.

²⁰ - يذهب زميلنا الناني بن الحسين إلى غير هذا الرأي، إذ يعتقد أن أولاد مبارك أسسوا بالحوض إمارة لا تقل أهمية عن الإمارات التي تقاسمت التراب الموريتاني في القرن التاسع عشر. راجع: الناني بن الحسين، إمارة أولاد مبارك في الحوض (1712-1841)، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1986..

تتطلب دراسة البنية التنظيمية للإمارات على وجه الخصوص الحديث عن الأمير ومحيطه السياسي والاجتماعي. وتمتاز البنية التنظيمية للإمارات عموماً بالهشاشة وعدم الصرامة، فهي انعكاس لوضعية المجتمع البيضاني الرعوي المتنقل وتجسيد لما يمتاز به كخيره من المجتمعات البدوية من عدم تمايز بين الفئات الاجتماعية وضبابية في الروابط والعلاقات، وارتجالية في التنظيم والقرارات. فما هي أهم عناصر البنية التنظيمية للإمارة؟

الأمير

يعتبر الأمير الزعيم السياسي والقائد العسكري الذي تمكنت فئته أو قبيلته من فرض سيادتها وتفوقها على غيرها من الفئات والقبائل. ورغم أن أصل تسمية "أمير" وبداية اصطلاحها للتدليل على الزعماء الذين تربعوا على قمة السلم الاجتماعي البيضاني ما تزال تثير بعض التساؤلات فإن تلك التسمية قد انتشرت بشكل واسع خلال القرن التاسع عشر وارتبطت خاصة بالقيادة السياسيين والعسكريين في إمارات البراكنه والترارزه وأدرار وتكانت. ونظراً لغياب طرق محددة ومقننة لاختيار وتعيين الأمراء فإن الوصول إلى هذا المنصب ارتبط بجملة من المعايير بعضها ذاتي وبعضها موضوعي. ومن تلك المعايير ما يرتبط بالنسب والجاه، فالغالب في الإمارات البيضانية أن يكون الأمير منتسباً إلى أحد البطون الأكثر عراقاً من الناحية الجينيولوجية. كما أن للحمية العصبية دوراً بالغ الأهمية في اختيار الأمراء فالزعيم الذي ينجح في تعبئة قبيلته والقبائل المتحالفة معها وإثارة حميتها العصبية مهياً أكثر من غيره للفوز "بعرش" الإمارة. ومن هذا المنطلق فإن قوة الأمراء وضمأن الفوز بهذا المنصب والاحتفاظ به تقاس عادة بقدرتهم على كسب ود واستمالة مختلف المجموعات القبلية خاصة الحربية الواقعة في مجال سيطرتهم الترابية.

وإذا كان بعض الدارسين²¹ يعتقد أن النسب والثروة يخولان رؤساء الأسر الكبرى احتكار مهام الرئاسة في فضاءات مشابهة فإن توفر المال ليس شرطاً للوصول إلى الزعامة والإمارة في المجتمع البيضاني، إذ الشائع في صفوف القبائل الحسانية عدم ممارسة الأنشطة الاقتصادية المنتجة. وهكذا فإن الأمراء وقبائلهم لا يعتمدون في حياتهم إلا على ما يحصلون عليه من ضرائب وأتاوات مفروضة على الأتباع وهي لا تكاد تكفي حاجيات الاستهلاك اليومي فأحرى أن لا تؤدي إلى تراكم مالي يسمح لهؤلاء الأمراء بتكوين ثروة اقتصادية معينة. هذا فضلاً عن كونهم مرغمين على إعادة توزيع مداخيلهم ومنها مداخيل الإغارة وذلك لاكتتاب الزبناء والمحافظة على الحلفاء. وتؤكد ليليا بنسالم هي الأخرى أهمية الثروة في اختيار الزعماء في المجتمعات المغاربية.

ورغم ما يمتاز به الأمراء عادة من شجاعة حربية وقوة جسمية فإن حياتهم العادية، حسب شهادات المستكشفين الفرنسيين، كانت بسيطة إلى حد كبير. فالرحالة موليين يشير إلى أن الأمير التروزي أعمر بن المختار "لا يتميز عن أتباعه (ses sujets) إلا بلباسه الأبيض، فهو يتبادل غليون التدخين مع الأشخاص المحيطين به"²².

ويذهب كايي إلى الرأي نفسه في حديث له عن عاصفة مطرية تعرض لها في البراكنه حين يقول: "لقد لاحظت أن الأمير كان مثل الجميع معرضاً للمطر ولم يكن لديه ملابس أكثر من الرعية فقد قضى الليل كله في ثيابه المبللة"²³.

²¹ - انظر:

✓ عبد الله الحمودي، الانقسامية والتراتب...، مر. سا، ص. 72.

✓ ليليا بنسالم، التحليل الانقسامي...، مر. سا، ص. 25.

²² - Mollien, **Voyage**, op.cit., pp.12-13.

²³ - Caillié, **Voyage**, op.cit., p.93.

ويتحدث كايي عن خيمة أمير البراكنه وأثاثها مشيراً إلى أنه "ليس لها ما يميزها عن خيام رعيته [...] فهي مصنوعة مثل خيام الآخرين من وبر [صوف] الضأن"²⁴.

ويعدد هذا الرحالة أثاث خيمة الأمير مبرزاً أنه يشبه أثاث بقية الناس باستثناء الفراش إذ أن خيمة الأمير وكذا خيام الأغنياء مفروشة بالسجاد بينما الأسر الفقيرة تستعوض عن السجاد بحصائر منسوجة من قصب.²⁵

وعن السلوك الديني لهذا الأمير يشير كايي إلى أن أمير البراكنه يحضر الصلوات الخمس التي تقام يومياً في المسجد بشكل دائم.²⁶

ويؤكد مستكشفو مرحلة "القفرة المنسقة" (1859-1862) ما يمتاز به أمراء البيضان من بساطة في حياتهم العامة وأنماط سلوكهم. فالرحالة ماج الذي سافر مع الأمير الإدوعيشي بكار بن اسويد أحمد ليقضيا النهار في حي من الأتباع يشير إلى طريقة استضافة هؤلاء الأتباع لأمرهم وكيفية استراحة ذلك الأمير ونومه وتناوله للطعام بشكل اعتيادي.²⁷

ويتحدث علي صل عن بساطة الأمير بكار وطريقة تعامله مع معاونيه وأتباعه مؤكداً أنه "شخص لا يختلف في حياته العادية عن بقية السكان إذا استثنينا ما يميزه من جلد وشجاعة ووقار".²⁸

ويذكر صوليبي الذي مكث، وهو في طريقه إلى أدرار، عدة أيام في مخيم الأمير علي بن محمد الحبيب أن الأمير التروزي لا يدخل أمام وزيره محمد محمود لأن هذا الأخير أكبر منه سناً.²⁹

²⁴ - Ibid, pp.102-103.

²⁵ - Ibid, p104.

²⁶ - Ibid, p.102.

²⁷ - Mage, **Voyage**, op.cit., p.18.

²⁸ - A. Sall, Rapport de voyage, op.cit., p.18.

²⁹ - Soleillet, Rapport de voyage, op.cit., p.67.

ويتطابق هذا السلوك مع عادة كانت وما تزال منتشرة في صفوف القوم،
تقتضي أن لا يدخل الإنسان أمام من يكبره سناً إذ يعدون ذلك سلوكاً مخالفاً بالحياة.
ويبلغ تواضع الأمير ع لي بن محمد الحبيب حد مياسطة خادمتها. يقول
صولي في هذا الصدد: "دخلت خيمة الأمير فوجدته يلعب مع زنجية طاعنة في
السن. وفجأة أمسك الأمير يدها وخاطبني قائلاً: "انظر إنها من قرده كالام" فضحكت
وردت عليه قائلة (في إشارة إلى سحنته السوداء) "وأنت أعتقد أنك أبيض؟"³⁰.
فضحك الأمير"³¹.

ورغم التواضع والبساطة اللذين يميزان حياة الأمراء العادية فإنهم كانوا
يتمتعون غالباً بسلطات واسعة مما جعل ريشي أتيان (Richet Etienne) يبالغ في
تقديره لها حين يقول: "إنها [أي سلطة الأمراء] تكاد تتحول، في بعض الأحيان، إلى
حكم فردي مطلق"³².

وهكذا فلم يتردد أمير الترارزه أمير بن المختار كما رأينا في تصفية وزيره
وابن عمه محمد فال بن عمير جسدياً عندما تجرأ على محاولة منع تجار البيضان من
التعامل مع الإنجليز بالساحل الأطلسي طبقاً لاتفاقية سرية وقعها مع الفرنسيين تقتضي
الحيلولة دون تزويد الإنجليز بالصمغ العربي. فقد دفع الأمير أمير بن المختار ابنه
إبراهيم والد إلى اغتيال وزيره محمد فال بن عمير مما أوقع الإمارة في دوامة من
الحروب الأهلية المدمرة.

أما الأمير البركني سيدي علي الثاني فيسارع إلى امتطاء صهوة جواده
لينهال ضرباً بالعصا على حرطاني³³ تجرأ على تهديد أحد زوايا الحي بالضرب.³⁴

³⁰ - تشير الخادمة إلى أن والدة الأمير زنجية.

³¹ - Soleillet, p.62

³² - Richet Etienne, p.65

³³ - نسبة إلى شريحة اجتماعية سنتحدث عنها في هذا الفصل.

³⁴ - Bourrel, p.46.

غير أن هذا الاستبداد الذي تقتضيه أحيانا دقة الظرف والغيرة على الكيان الهش، لم يكن يلغي الدور المهم للجماعة في اتخاذ القرارات المصيرية والحاسمة في حياة الإمارة.

الجماعة

تدعى هذه الهيئة أحيانا بجماعة الحل والعقد وهي بمثابة مجلس للأعيان إذ تضم رؤساء وزعماء فروع القبائل الأميرية. ففي إمارة الترارزه، على سبيل المثال، تتشكل هذه الهيئة من جميع رؤساء بطون قبيلة أولاد أحمد بن دامن ورئيسين [زعيمين] من كل من القبائل الحسانية الأخرى في الإمارة.³⁵ وقد يتم توسيع الجماعة في فترات الحروب والأزمات لتشمل ممثلين عن بعض الجماعات القبلية والفئات الأخرى مثل أزناكه والحراطين.³⁶ وتوافق جماعة الحل والعقد على تعيين الأمراء كما تبت في المسائل الخطيرة كإعلان الحرب أو السلم مثلاً. وتعتبر مناسبات انعقاد اجتماع مجلس الأعيان فترات توتر واضطراب في حياة الإمارة، إذ أنها إما أن تتعقد لتعيين خلف للأمير الميت أو المغتال أو المعزول، وإما لحل نزاعات مستعصية أو لإعلان حرب... إلخ. ولذلك فإن هذا الاجتماع كثيراً ما يكون مناسبة لاستعراضات عسكرية وتحريشات أو خصومات... إلخ. وقد كان الضابط البحري بورل والرحالة علي صل حاضرين لدورة مجلس الأعيان (الجماعة) في البراكنه خريف 1860. فوصفا في رحلتيهما³⁷ ما سبق هذا المجلس من تحضيرات وما رافقه من تظاهرات وألعاب فروسية.

³⁵ - Georges Poulet, p.18.

³⁶ - Richet Etienne, p.65

³⁷ - تمكن مراجعة هذا الوصف في:

✓ Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., pp. 7 et 8.

ورغم أهمية الدور الذي تلعبه الجماعة، فإن هناك أفراداً آخرين قد يلعبون من خلال ديوان الأمير أدواراً سياسية مهمة في حياة الإمارة.

الديوان

يضم "ديوان" الأمير كبار المعاونين من وزراء ومستشارين وقضاة وحرس وجباة ومطربين.

وتتوزع هذه الوظائف توزيعاً أكثر عدالة بين مختلف الفئات الاجتماعية. فوظيفة الوزراء يشغلها في العادة المقربون من أبناء عم الأمير وبعض الشخصيات الزاوية أحياناً. أما الوظائف الاستشارية والقضاء فتقتصر على شخصيات مختارة من القبائل الزاوية في هذه الإمارة أو تلك، إذ أن جميع الأمراء تقريباً يقومون باختيار وتعيين بعض المستشارين الدينيين والسياسيين وبعض القضاة.

ويقدم المستشارون الإرشادات والنصائح للأمير في مختلف القضايا ويساهمون في حل النزاعات بين المجموعات والقبائل وفي الوساطة لوضع حد للحرب كما يستخدمون سفراء ومبعوثين نحو القبائل والإمارات الأخرى.

ويقوم أفراد من الزوايا المقربين من الأمراء بوظيفة التدريس والإفتاء في المخيم الأميري ويتولون تحرير مراسلات الأمير إلى غيره من الأمراء، أو إلى الفرنسيين الذين تبادلوا مع أمراء الترارزه والبراكه وإدوعيش كما هائلاً من المراسلات³⁸ تولت تحريرها وكتابتها شخصيات زاوية ذات نفوذ في هذه الإمارات.

✓ Bourrel, Voyage..., op.cit., pp. 47 et suivantes.

³⁸ - تمكن مراجعة تلك المراسلات في:

ANS, Série G: Politique et administration générale, op.cit.:

- ✓ 9-G/1: Correspondances du roi des Trarzas, reçues par le Gouverneur du Sénégal (1799-1864), 28 chemises,
- ✓ 9-G/2 : Correspondances du roi des Trarzas, reçues par le Gouverneur du Sénégal (1865-1879), 15 chemises,

أما القضاة فإن من مشمولات وظائفهم إصدار الأحكام في الخلافات والنزاعات المتعددة، والإفتاء في النوازل الفقهية المستعصية. وغالبا ما يقوم بعض الأمراء بطرح قضية معينة على فقهاء وقضاة متعددين لأخذ موافقهم منها واستصدار أحكامهم بشأنها. أما جباية الضرائب والرسوم المعلومة وحراسة الأمير فيقوم بها في العادة أفراد من الأتباع المقربين أو من عبيد أو حراطين الأمراء. ويضم ديوان الأمير عادة مطربا أو أكثر يؤدي، في غالب الأحيان، وظيفة النديم بالنسبة لزعماء الإمارات البيضانية. ويتولى المطربون عادة التغنّي بأمجاد الأمير وأجداده، والإشادة بكرمهم وشجاعتهم. فيؤلفون لهذا الغرض قصائد شعبية حماسية يتغنون بها في مختلف المناسبات. وتشكل هذه القصائد سجلا بالغ الأهمية في تاريخ مختلف الإمارات التي قامت على هذه الناحية أو تلك من أرض البيضان.

ب) لمحة عن الإمارات

تقاسمت السيطرة على المجال البيضاني قبيل وأثناء القرن التاسع عشر إمارات البراكنه والترارزه وأدرار المغربية وإمارة إدوعيش "المتمغرة". وسنقوم هنا باستعراض وجيز لتاريخ كل إمارة على حدة.

-
- ✓ 9-G/3 : Correspondances du roi des Trarzas, reçues par le Gouverneur du Sénégal (1880-1886), 7 chemises,
 - ✓ 9-G/4 : Correspondances du roi des Braknas, reçues par le Gouverneur du Sénégal (1817-1885), 34 chemises,
 - ✓ 9-G/4 : Correspondances des Maures Dowiches, (1853-1880), 1 dossier.

(1) إمارة البراكنة³⁹

تشتق تسمية البراكنة في الأصل من مجموعة قبلية تنتسب إلى بركني بن هداج بن عمران بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسان. وتطلق تسمية البراكنة كذلك على حيز جغرافي وبشري تشكل في الأجزاء الجنوبية من البلاد الموريتانية الحالية (منطقتنا البراكنة وكوركول الحاليتان) وكان مجالاً لسيطرة ذرية بركني بن هداج منذ القرن السابع عشر. ومع أن البراكنة جينالوجياً ينقسمون إلى عدة مجموعات هي أولاد عبد الله⁴⁰ وأولاد أحمد⁴¹ وليتام (اليتامى)⁴² فإن إمارة البراكنة تضم كغيرها من الإمارات البيضانية العديد من القبائل ذات الأصول والرتب المختلفة محاربة وزاوية وغارمة.⁴³

³⁹ - بخصوص هذه الإمارة تمكن مراجعة:

- ✓ Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir..., op.cit., pp. 297-311,
- ✓ Hamès, Evolution des Emirats maures..., op.cit.,
- ✓ Marty, **Etudes sur l'Islam et les tribus maures. Les Brakna**, op.cit.,

✓ سعدبوه بن احمده، لمحة عن تاريخ إمارة البراكنة، مرجع سابق.

⁴⁰ - ينتسبون إلى عبد الله بن كروم بن عبد الجبار بن ملوك بن بركني، ويعتبرون أهم المجموعات البركنية، إذ ظلت السلطة الأميرية تتركز في صفوفهم.

⁴¹ - مجموعة بركنية تنتسب إلى أحمد بن كروم بن عبد الجبار بن ملوك بن بركني، كانت هذه المجموعة تقطن في منطقة الترارزه إلا أن نزاعات وحروباً وقعت بينهم مع أولاد أحمد بن دامن مما دفعهم إلى الانتقال نحو منطقة البراكنة الحالية ليشاركوا في ما عرفته تلك المنطقة من صراعات داخلية وخارجية.

⁴² - ينتمون إلى اليتيم بن عبد الله بن كروم بن عبد الجبار بن ملوك بن بركني، وكانوا من أهم المجموعات البركنية، غير أن دورهم تراجع إثر الصراعات الداخلية التي عرفت هذه المجموعة كغيرها من المجموعات البركنية.

⁴³ - للمزيد من المعلومات عن سكان هذه الإمارة يمكن الرجوع إلى:

- ✓ Bourrel, "Voyage dans le pays...", op.cit., pp. 518 et suivantes,

وقد حاول المستكشف بورل البحث في أصول سكان هذه الإمارة وبنيتهم الاجتماعية، لكنه ارتكب في تفصيه ذلك أخطاء عديدة. فبخصوص أصول البراكنه وقع الرحالة⁴⁴ في غموض كبير إذ جعلهم أحيانا منحدرين من القبائل الصنهاجية وأحيانا أخرى من قبائل بني حسان العربية.

وفي ما يتعلق بتاريخ وصول البراكنه وكذلك الترارزه إلى المنطقة فقد أرجعه هذا المستكشف إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي زاعما أن بركني وتروز كانا ضابطين في جيش أبي بكر بن عمر وهو المتوفي سنة 480هـ/1087م والذي تزعم عملية إخضاع المنطقة ونشر الإسلام بها.

وإذا كان تاريخ وفاة بركني غير محدد بالضبط فإن حفيده بكار بن اعلي بن عبد الله بن كروم بن عبد الجبار بن ملوك بن بركني قد توفي سنة 1681 م. ويتضح من هذه السلسلة أن خمسة أجيال تفصل هذا الحفيد عن جده بركني، وإذا قدرنا الجيل بثلاث قرن يكون بركني قد توفي في حدود القرن الخامس عشر الميلادي وبالتالي فإن حوالي أربعة قرون من الزمان تفصله عن القائد المرابطي أبي بكر بن عمر.

ويدخل في نطاق هذا الخلط أيضا قول بورل⁴⁵ "إن قبائل بني حسان العربية المنحدرة من اليمن قد انتشرت خلال القرن الخامس الهجري في إفريقيا حتى ضفاف نهر السنغال حيث قهرت صنهاجة وفرضت عليهم المغارم مكملة فتح [بلاد] السودان وناشرة الإسلام بعد أن فرضت سيطرتها على ضفتي النهر..."

✓ Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir..., op.cit., t.-1, pp.297 et ss,

✓ Marty, Les Brakna, op.cit., pp. 109 et suivantes.

✓ سعد بوه بن احمد، لمحة عن تاريخ إمارة البراكنه، مر. سا.

⁴⁴ Bourrel, pp.518-519.

⁴⁵ Ibid, p.519.

ويبدو أن الأمر هنا يتعلق بحركة المرابطين التي انطلقت من هذه الربوع كما أسلفنا أثناء القرن الخامس الهجري، لا بالقبائل العربية الحسانية التي وصلت المنطقة بعد ذلك بعدة قرون.

ولا يستبعد أن يكون مرد هذا الخلط هو الروايات الشفهية التي يصرح بورل بأنه نقل عنها، وهي روايات تحاول أحيانا كما بينا سابقا التأسيس لمرجعية تاريخية واجتماعية مرابطية بها تفسر ماضيها وتقنن واقعها وترتيباته الاجتماعية والسياسية حتى ولو أدى ذلك إلى "جعل بركني وتروز جنديين في جيش أبي بكر بن عمر"! أما كايي⁴⁶ الذي زار منطقة البراكنه قبل مجيئ بورل إليها بأزيد من ثلث قرن فلم يكلف نفسه عناء البحث في التاريخ السياسي والاجتماعي لهذه الإمارة مكتفيا بالحديث عن الفئات الاجتماعية وأنشطتها ومشيرا مثل خلفه بورل إلى بعض الحروب الداخلية والخارجية والانقسامات السياسية التي طبعت تاريخ إمارة البراكنه. فمنذ نهاية القرن السابع عشر برزت بعض النزاعات بين أولاد عبد الله وأبناء عمومتهم أولاد أحمد.

وفي بداية القرن الثامن عشر تمكن أولاد علي بن عبد الله⁴⁷ من الانشقاق عن أبناء عمومتهم مؤسسين، بالمنطقة المصاغبة لروافد كوركول، كيانا شبه مستقل له مجاله الجغرافي المتميز.

وتواصلت الانقسامات داخل المجموعة البركنية لتعرف حدة وعمقا كبيرين في منتصف القرن الثامن عشر، وذلك مع الصراع بين أولاد نغماش وأولاد السيد على السلطة وما توفره من فوائد مادية ومعنوية.

⁴⁶ Caillié, pp142 et suivantes.

⁴⁷ - مجموعة تنتمي إلى علي بن عبد الله بن كروم بن عبد الجبار بن ملوك بن بركني، وعلى الرغم من تركهم في منطقة جغرافية غير ملائمة طبيعيا وما تعرضوا له من خسائر بشرية نتيجة للحروب الداخلية وظاهرة التوبة التي انتشرت في صفوفهم، فإن لهذه المجموعة دورا معتبرا في محيطها الجغرافي.

ورغم تلك الانقسامات والانشقاقات فإن أولاد نغماش استطاعوا المحافظة على الرئاسة داخل المجموعة البركنية حتى نهاية القرن الثامن عشر. ومع ما عرفته إمارة البراكنه من تجزئة وانقسامات داخلية فإنها بقيت حتى الربع الأخير من القرن الثامن عشر قوة سياسية وعسكرية مهمة في المنطقة إن لم تكن أهم قوة في ذلك الحين. ومما دعم تلك المكانة (ولو مؤقتاً) تولى البراكنه سنة 1778 لقيادة التحالف المغربي ضد إدوعيش أثناء حصار "احنيكات بغداده" الذي أشرنا إليه سابقاً، فضلاً عن حروبهم المتعددة ضد جيرانهم الترارزه وتدخلهم إلى جانب عثمان ولد الفظيل⁴⁸ الذي كان يسعى إلى فرض سيطرته على قبائل آدرار. وجراء الانقسامات والنعرات العصبية التي عانتها إمارة البراكنه طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر وحروبها الخارجية شبه الدائمة ضد إمارات الترارزه وتكانت وآدرار فقد تأزمت أوضاعها خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر حيث أصاب الوهن مجموعة أولاد نغماش صاحبة الزعامة السياسية حتى ذلك الحين. وساعدت الظروف السابقة منافسيهم وأبناء عموماتهم أولاد السيد على انتزاع الإمارة منهم. وقد بدأ هذا المسار على الأرجح منذ حادثة "تفراك لمحاصر"⁴⁹ في حدود سنة 1766. إلا أن انتزاع أولاد السيد للزعامة السياسية لم يتجسد فعلياً، على ما يبدو، إلا بعد وفاة أحمياده بن نغماش⁵⁰ وفي عهد محمد بن المختار بن أغريش المتوفي سنة 1215هـ/1800م، وهو الذي أقام بعض الصلات مع كل من الإنجليز والفرنسيين في السنغال.

48 - هو عثمان بن الفظيل بن شنان بن بوب. انتزع الزعامة في آدرار من ابن عمه عبد الرحمن بن حمو في نهاية النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

49 - "المحاصر" جمع "محصر" وهي تسمية تطلق على المخيم الأميري، ويعني هذا التعبير المحلي انقسام الحي الأميري إلى حيين هما أولاد السيد وأولاد نغماش.

50 - هو أحمياده بن علي بن أحمد بن هيبه بن نغماش، وهو آخر أمير من الفرع الأكبر من ذرية نغماش بن محمد بن عبد الله تعترف به المجموعة البركنية.

وقد ساعد الموقع الجغرافي على تقوية شوكة أولاد السيد ودعم استقلالهم عن أبناء عمومتهم أولاد نغماش. ففرب أولاد السيد من محطات التبادل النهريّة جعل التجار الأوروبيين خاصة الفرنسيين والإنجليز يفضلون التعامل معهم على غيرهم من الزعامات البركنية فأعطاهم ذلك قوة سياسية مستمدة من اعتراف الفرنسيين والإنجليز بهم، ورصيذا اقتصاديا متأتيا من أتوات ورسوم التبادل التجاري بالمحطات النهريّة. كما حظي أولاد السيد بالدعم المعنوي من بعض القبائل الزاوية ذات النفوذ بالمنطقة كقبيلة إيجببه، فساهم كل ذلك، إلى جانب العوامل السابقة، في توطيد سلطتهم.

ويبدو أن آثار وصاية البراكنه على الترازه كانت ما تزال ماثلة في الأذهان إبان عهد الأمير محمد بن المختار بن أغريش الذي وقع اتفاقية مع الفرنسيين سنة 1785 التزم فيها بالتصدي للقوافل المتجهة إلى ميناء بورتانديك سواء كانت قوافل لرعاياه أم لرعايا أمراء آخرين.

وقد نجح هذا الأمير في عقد حلف مع الدولة الأمامية⁵¹ ضد خصومه الترازه الذين سقط أميرهم علي الكوري سنة 1786 وهو يواجه ذلك التحالف البركني/الأمامي.

وبعد وفاة محمد بن المختار بن أغريش تولى الإمارة دون كبير عناء ابنه سيدي اعلي الأول سنة 1800 ليبقى في السلطة حتى وفاته سنة 1818 حيث خلفه ابنه أحمدو الأول الذي أدرك دور الأتوات في انتقال السلطة داخل البيت الأميري فطلب من الوالي الفرنسي على السنغال الجنرال شمالتز تخصيص امتياز لابنه البكر يتمثل في أتاوة سنوية غير موزعة بين الأمراء. وكان أحمدو الأول يتوخى من خلال هذا الامتياز تثبيت الإمارة في أسرته لأنه كان يعي جيدا حسب شمالتز التفوق الذي تمنحه الأتوات للوارث المرتقب الذي يحصل عليها.⁵²

51 - هي الدولة التي أنشأتها حركة "تورودبي" الدينية الإصلاحية في منطقة فوتا بصفة نهر السنغال. ولأن هذه الدولة كانت دينية فقد سمي حاكمها المامي الذي قد يكون تحريفا لمصطلح الإمام.
52 - Marty, Les braknas, p.20.

وإذا كانت الأتاوات وغيرها من عائدات التجارة مع الفرنسيين قد دعمت السلطة الأميرية فإنها في الوقت نفسه مثلت أساساً لتقويض هذه السلطة جراء ما تولد عنها من شقايات وصراعات بين مختلف الأسر في القبيلة الأميرية إذ أن كل أسرة كانت تسعى إلى افتكاك الإمارة حتى تستأثر بالأتاوات وبفئات المبادلات التجارية مع الأوروبيين.

وبالفعل فقد مثل السعي إلى الاستفادة من هذه الأتاوات مصدراً لصراعات جديدة بين أحمدو الأول وبعض أبناء عمه المدعومين من لدن أولاد نغماش ومجموعة أبكاك⁵³ الإدوعيشية خاصة محمد سيدي بن المختار بن أغريش⁵⁴. ومن الطبيعي، في هذه التحالفات والصراعات القبلية التي تتعقد وتتهار بصورة لا متناهية، أن تدعم شريحة إدوعيش الأخرى، وهي فئة شرانيت⁵⁵ جناح أولاد السيد ما دام أبكاك قد وقفوا إلى جانب أولاد نغماش. وبموت أحمدو الأول سنة 1841 عن ابن قاصر (يبلغ السابعة من العمر) دخلت إمارة البراكنه أزمة خلافة مستعصية أذكت حدتها الحروب العديدة والصراعات العصبية التي ميزت آخر عهد أحمدو الأول. وتمثلت أزمة منتصف القرن التاسع عشر بالبراكنه في سلسلة من الحروب والصراعات بين مختلف الشرائح داخل البيت الأميري أدت إلى توقف المبادلات

⁵³ - إحدى المجموعتين اللتين بدأنا التشكل إثر انقسام إدوعيش بعد وفاة الأمير محمد بن محمد شين سنة 1821. وقد تزعم هذه الفئة التي ستدعى لاحقاً بأبكاك أسويد أحمد بن محمد. واستأثرت هذه المجموعة لنفسها بالمركز الجغرافي لإمارة إدوعيش وهو هضبة تكانت وبأهم رموز السلطة الأميرية.

⁵⁴ - أمير البراكنه من سنة 1267هـ/1851م إلى 1275هـ/1858م. اغتاله بتشجيع من الفرنسيين منافسه سيدي علي الثاني سنة 1858.

⁵⁵ - فئة إدوعيش المنافسة للأمير أسويد أحمد ولابنه بكار من بعده. ويرجع ظهور هذه الفئة إلى انقسام إدوعيش إثر وفاة أميرهم محمد بن محمد شين سنة 1821 حيث تشكلت من أنصار المختار ويوسيف وعلي. وكان يدعمهم أهل سيدي محمود. وستحمل هذه الفئة في وقت لاحق اسم شرانيت.

التجارية مع الفرنسيين الذين تدخلوا لإقصاء الطرف الأقل موالية لهم في ذلك الحين وهو المختار بن سيدي الذي اعتقل ونفي إلى الغابون نفيًا لم يعد منه أبداً إلى البراكنه. غير أن نفي المختار بن سيدي والاعتراف بمحمد الراجل أميراً على البراكنه لم يضع حداً لصراعات المجموعة البركنية الداخلية التي زادت حدتها جراء تدخل الأمير التروزي محمد الحبيب في البراكنه ضد محمد الراجل الذي تجرأ على إيواء أحمد بن الليكات⁵⁶ وهو أخو محمد الحبيب المشاق له والطامح إلى انتزاع إمارة الترارزه منه.

وتعقدت الأمور واحتدت المشاكل بالنسبة لمحمد الراجل خاصة ابتداء من سنة 1849 حين برز ابن عمه محمد بن سيدي مطالباً بالإمارة، وهو المدعوم من قبل جناح من أولاد السيد وأولاد نغماش وأولاد أحمد، فتسبب ذلك في اندلاع العديد من المعارك والاشتباكات بين الطرفين، وفي توقف التبادل التجاري، من جديد، بمحطات النهر عدة مرات.

وبدعم من أمير الترارزه محمد الحبيب والشيخ سيدي الكبير تمكن محمد بن سيدي وهو يقود تحالفاً يضم أولاد أحمد وأولاد نغماش وجناحاً من أولاد السيد من انتزاع الإمارة سنة 1851 من ابن عمه محمد الراجل. غير أن الأمير الجديد قد واجه بسرعة خصماً جديداً هو ابن عمه سيدي علي الثاني بن أحمدو الذي يدعمه الجناح الثاني من أولاد السيد وجزء من أولاد نغماش فضلاً عن دعم الفرنسيين النشط.

وكان وقوف الأمير البركني محمد بن سيدي إلى جانب الترارزه في مواجهتهم للجنرال فيدرب خلال حرب "تغيير شروط التبادل في المنطقة" كافياً ليقدم الفرنسيون في السنغال دعمهم السخي لحليفهم سيدي علي ويدفعوه إلى تأجيج الحرب ضد ابن عمه الأمير لانتزاع عرش الإمارة منه. بل إن الفرنسيين وحسب مصادر

56 - هو أحمد بن أمير بن المختار الملقب ابن اللي اطنسبة إلى مرضعه، أخو الأمير محمد الحبيب ووزيره وعونه قبل أن يختلف معه سنة 1263هـ/1846م ويغادر الترارزه في منفى سياسي سيستمر حتى يغتال على أيدي مجموعة لعلب سنة 1849 قرب تشله بالصحراء الغربية.

الأرشيف الفرنسي ذاتها⁵⁷ رموا بثقلهم في معركة الركبة⁵⁸ خلال فبراير/شباط 1856 حيث زحفوا صحبة سيدي علي وحلفائهم من والو على مخيم م حمد بن سيدي وكان مدعوما في هذه المعركة ماديا ومعنويا بوجود الشيخ سيدي الكبير وتلامذته بالمعسكر، فكانت نتيجة هذه المعركة هزيمة واضحة للفرنسيين وحليفهم سيدي علي.

ولم تكن إدو عيش بشريحتها الأساسيتين (أبكاك وشراتيت) بمنأى عن الاضطرابات التي عرفتها في ذلك الحين إمارة البراكنه التي أصبحت بشكل شبه واضح، وبتشجيع من الفرنسيين، إمارتين بحكم الوجود الدائم تقريبا للأمير متربع على الإمارة وآخر طامح إلى انتزاعها وكلا الأميرين له أنصاره وحلفاؤه داخل البراكنه وعلى مستوى الترارزه وإدو عيش.

أما الفرنسيون في السنغال فإن سياستهم اقتضت أحيانا التعامل مع "الأميرين" البركنيين كليهما، إذ نجدهم يعترفون ضمنا بالأمير محمد بن سيدي عندما وقعوا معه اتفاقية 10 يونيو/حزيران 1858 المتعلقة بإنهاء الحرب بين الفرنسيين والبيضان ويصرون على عقد هدنة بين الأمير البركني ومنافسه سيدي اعلي الذي وقعوا معه نسخة من الاتفاقية نفسها ونصحوه بمصالحة الأمير محمد بن سيدي، تلك المصالحة التي تمت في ديسمبر/كانون الأول سنة 1858 ليقدم سيدي علي بعيدها ببضعة أيام على اغتيال الأمير والاستيلاء على السلطة مدعوما من قبل العديد من المجموعات القبلية المحلية وخاصة قبيلة إيجبة الزاوية بالإضافة إلى حراطين أولاد السيد واللغيطة⁵⁹ وتناك⁶⁰ الذين يعتبرون من حملة السلاح في الإمارة وتربطهم علاقة خوولة بهذا الأمير.

⁵⁷ - بخصوص هذه المعركة وتفاصيلها تمكن مراجعة الأرشيف السنغالي:

ANS, Série D: Affaires militaires , op.cit., Expédition contre les Maures.

⁵⁸ - موضع من شمامه في منطقة البراكنه يبعد حوالي 50 كلم إلى الغرب من مدينة بوغي إحدى عواصم مقاطعات البراكنه الحالية.

⁵⁹ - مجموعة من حراطين أولاد السيد.

وتتواصل التحالفات والشقاكات وما يرتبط بها من حروب داخلية وخارجية بوتيرة متشابهة تقريبا في بداية عهد سيدي علي الذي تمكن في النهاية من توطيد علاقاته بالترارزه فعرفت إمارة البراكنه فترة هدوء واستقرار نسبيين استفادت خلالها من عائدات التجارة النهرية ومن روابط الأمير الطيبة مع الفرنسيين في السنغال الذين عقد معهم اتفاقيات عديدة كانت آخرها اتفاقية 12 ديسمبر/كانون الأول 1891. وقد طالبت هذه الاتفاقية بوضع البراكنه تحت الحماية الفرنسية ونصت على تنصيب أحمدو خلفا وحيدا لأبيه على رأس الإمارة.

وعند وفاة سيدي علي سنة 1311/1893 تولى الإمارة دون صعوبات تذكر ابنه وخلفه أحمدو الثاني الذي اختار المنفي فيما بعد ابتداء من سنة 1903 في تكانت ثم في آدرار بعيد احتلال الفرنسيين للبراكنه مفضلا الالتحاق برجال المقاومة في الشمال صحبة شخصيات أخرى من البراكنه والترارزه.

2. إمارة الترارزه⁶¹

⁶⁰ - مجموعة قبلية تنتمي لأولاد السيد.

⁶¹ - بخصوص هذه الإمارة تمكن مراجعة:

- ✓ Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir..., op.cit., pp. 297-339,
- ✓ Hamès, Evolution des Emirats maures..., op.cit., pp. 378-397,
- ✓ Marty, **L'Emirat du Trarza**, op.cit.,
- ✓ Gerhardt, Les Trarza, tribus, redevances et classes sociales, Revue du Monde Musulman, Paris, t.-XV, 1911, pp. 453-494,

✓ المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا (جزء التاريخ السياسي وجزء الأيام الحربية في

موريتانيا)، مر. سا،

✓ محمد المختار ولد السعد، "الإمارات والمجال الأميري"، مر. سا،

تشغل إمارة الترارزه الناحية الجنوبية الغربية من الأراضي الموريتانية الحالية حيث تمتد من تخوم منطقة آدرار شمالا إلى نهر السنغال جنوبا ومن المحيط الأطلسي غربا إلى منطقة البراكنه شرقا. وتضم هذه الإمارة على الخصوص الجزء الغربي من منطقة ال بله التي أصبحت منذ القرن الثامن عشر تحمل كمرادف لها اسم الترارزه نسبة لتروز بن هداج بن عمران بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسان، جد المجموعة الحسانية التي ظهرت بوادر سيطرتها على هذه المنطقة كقوة سياسية مستقلة نسبيا منذ نهاية الثلث الأول من القرن السابع عشر مع أحمد بن دمان بن عزوز بن مسعود بن موسى بن تروز الذي برز زعيما سياسيا وقائدا عسكريا في حرب نتيتم 1040هـ/1630-1631م.⁶²

وبحكم الخصوصية الجيوبوليتيكية لمنطقة الترارزه التي تمثل بوابة البلاد البحرية إذ تطل على المحيط بساحل طويل⁶³ وعلى نهر السنغال بمسافة تمتد أكثر من مائتي كلم، فإن هذه الإمارة دخلت مبكرا في علاقات مع الأوروبيين وخاصة الفرنسيين تأرجحت بين السلم والحرب حتى احتلال البلاد في مطلع القرن العشرين. ويضم الحيز الجغرافي لإمارة الترارزه مثلها مثل إمارة البراكنه السابقة مجموعات قبلية⁶⁴ متفاوتة من حيث المكانة الاجتماعية (محاربون، زوايا، تابعون، وأرقاء)، والوزن الديمغرافي والاقتصادي والسياسي.

✓ محمد بن محمدن، مدخل إلى دراسة أزمة إمارة الترارزه أثناء القرن التاسع عشر، مذكرة تخرج للحصول على شهادة المتريز في التاريخ، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين، نواكشوط، 1985، 105 ص.

⁶² - Glicourt, Voyage du Sieur de Glicourt à la Côte Occidentale d'Afrique pendant les années 1778-1779, op.cit.

⁶³ - محمد المختار ولد السعد ومحمد بن محمدن، "ملاحظات أولية بشأن السيادة في حوض نهر السنغال خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (الصراع التروزي الفرنسي نموذجاً)"، المجلة الجغرافية الموريتانية، العدد رقم 1، 1992، نواكشوط، ص. 58-76، صص. 58-59.

⁶⁴ - للمزيد من المعلومات عن سكان الترارزه وتفرعاتهم القبلية، راجع:

ومنذ نهاية القرن السابع عشر استقرت الإمارة في ذرية أحمد بن دمان وعلى الخصوص في ذرية حفيده الأمير علي شنظوره. فعلى الصعيد الداخلي تمكن هذا الأمير من إخضاع أبناء عمومته أولاد دمان وكسب القبائل الزاوية بإشراكها في السلطة إذ عين مستشارا سياسيا⁶⁵ من قبيلة إدو علي⁶⁶ وقاضيا⁶⁷ من المجموعة الشمشوية التي واجهت أباه خلال حرب شريب ه السابقة الذكر. أما على الصعيد الخارجي فقد سافر هذا الأمير إلى المغرب طالبا العون من الملك مولاي إسماعيل وقد مكنه كل ذلك من توطيد سلطته وسلطة قبيلته على الترارز ه فهزم الرحالة وانتصر على البراكن ه فخلص الإمارة من وصايتهم. وعرفت هذه الإمارة فترة ازدهارها أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر وذلك في عهد الأمير أمير بن المختار (1800-1829) وابنه محمد الحبيب (1829-1860) الذي يعتبر أعظم أمراء الترارزه على الإطلاق، فقد تمكن هذا الأمير من فرض سيطرته على جل قبائل الجنوب الغربي الموريتاني منتهجا سياسة مصاهرة بارعة حيث تزوج مبيريكه بنت عمير⁶⁸ سعيا إلى راب الصدع الناجم عن اغتيال

✓ المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا (جزء التاريخ السياسي وجزء الأيام الحربية في موريتانيا)، مر. سا،

✓ Gerhardt, "les trarza, tribus...", op.cit.

- 65 - هو سيدي عبد الله بن محمد القاضي العلوي الملقب بابن رازكه المتوفى سنة 1144هـ/1732. وقد سافر مع الأمير علي شنظوره إلى المغرب سنة 1719.
- 66 - إدو علي (العلويون): قبيلة زاوية تنتشر في مختلف أنحاء البلاد الموريتانية خاصة آدرار وت انت وال بل ه ولها وزن ثقافي مهم. ترجع نسبها إلى علي بن أبي طالب. راجع: سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم، صحيحة النقل، مر. سا.
- 67 - هو المختار بن ألفغ موسى الشمشوي اليعقوبي أحد أبرز قضاة المنطقة، عاصر الأمير التروزي علي شنظوره، وتقول الروايات المتداولة إنه كان يحظى بتقدير خاص من لدن ذلك الأمير.
- 68 - أخت محمد فال بن عمير الذي أشرنا سابقا إلى اغتياله على يد إبراهيم والد وهو أخو محمد الحبيب، وقد أنجبت امبيريكه لمحمد الحبيب ابنه البكر وخليفته على الإمارة سيدي بن محمد الحبيب.

أخيها محمد فال بن عمير المشار إليه في الفصل السابق (الصفحة 241). كما وقع محمد لحبيب في 23 إبريل/نيسان سنة 1829 اتفاقية مع الفرنسيين تخول هدي ولد عمير الحصول على الأتاوات التي نصت معاهدة 7 يونيو/حزيران السابقة الذكر على منحها لأخيه محمد فال ولد عمير. وكانت نتيجة كل ذلك هي استعادة وحدة القبيلة الأميرية.

ومد محمد الحبيب كذلك جسرا لإعادة الاتصال مع قبيلة أولاد دامان فتزوج فاطمه بنت محمد بن سيدي أحمد⁶⁹ زعيم تلك القبيلة مما مكّن هذا الأمير من الحصول على هدنة مؤقتة مع مجموعة أولاد دامان التي مثلت قطبا منافسا للبيت الأميري في الترارزه.

وفي نطاق زواجات محمد الحبيب تلك، وسعيا إلى ضم مملكة والو الزنجية ضما "شرعيا" تزوج هذا الأمير جنبت ولية عرش والو رغم تدخل الفرنسيين وبذلهم قصارى الجهد لمنع هذا الزواج.⁷⁰

وجذر محمد الحبيب عناية أسلافه بالزوايا فعين منهم بعض القضاة⁷¹ فضلا عن تتلمذه على الشيخ سيدي⁷² الشيء الذي وطد علاقات هذا الأمير بتلك المجموعة

⁶⁹ - هي أم أبناء الأمير محمد الحبيب باستثناء سيدي وعلي.

⁷⁰ - بخصوص ذلك الزواج ومحاولات الفرنسيين منعه، تمكن مراجعة الرسائل المتبادلة بين الولاية الفرنسية على السنغال والوزراء وذلك ضمن سلسلة "ب" (المراسلات العامة) بالأرشيف السنغالي، وخاصة السلسلتين الفرعيتين:

- ✓ Sous-Séries 1 B/1 1 B/231: Correspondance arrivée du Ministre au Gouverneur (1779-1896),
- ✓ Sous-Séries 2 B/1 2 B/72: Correspondance départ du Gouverneur du Sénégal au Ministre (1816-1896), Série B: Correspondences générales (1779-1895).

⁷¹ - نذكر منهم على سبيل المثال أحمد بن العاقل (ت. 1244هـ/1828م) ومحض بابيه بن اعييد (ت. 1277هـ/1860م)، ومحمدن فال بن مثالي (ت. 1288هـ/1871م).

البشرية المهمة ومنحه رضاها، إذ يصفه محمد فال بن بابيه⁷³ بأنه "كان من أهل الخير يبجل العلماء ويعف عن أموال المسلمين". ويذكر باكا⁷⁴ أنه اشتهر بالعلم والعدل. وقد أظهر محمد الحبيب الذي استفاد من تسوية خلافات جبهة الداخلية، هيمنته الواضحة في منطقة نهر السنغال، إذ بسط نوعا من النفوذ على جيرانه في البراكنه وحوّل حربة أسلحته ضد الفرنسيين مما أدى إلى القضاء الكامل على ما تبقى من منشآت ومشاريع الاستعمار الزراعي في السنغال حسب اعتراف مارتي نفسه.⁷⁵ ويشير هذا الإداري الفرنسي⁷⁶ إلى معاهدات وقعت سنة 1842 بين الترارزه والفرنسيين في سينلوي تنص على تقديم أتوات لمحمد الحبيب ووزيره المختار ولد سيدي مقابل "حفظ الأمن في قلب بلاد السنغال". وكان من سوء حظ محمد الحبيب أن تتصادف فترة شيخوخته مع تطبيق السياسة الفرنسية الجديدة في المنطقة تحت قيادة واحد من أقوى الولاة الفرنسيين على السنغال إن لم يكن أقواهم على الإطلاق هو الجنرال فيدربر. وتتلخص هذه السياسة في تغيير شروط التبادل مع السكان المحليين عن طريق فرض السيادة الفرنسية في منطقة حوض النهر وإلغاء العمل بنظام المحطات والأتوات ووضع حد لسيطرة البيضان في منطقة الو. وقد اصطدم الأمير الهرم مع الوالي الفرنسي الجديد في حروب عنيفة استمرت بين سنتي 1855 و1858 أسفرت في نهاية المطاف عن

⁷² - هو الشيخ سيدي بن المختار بن الهيبه (1773/1190-1868/1284) شخصية دينية وثقافية مرموقة لها وزن فكري وسياسي كبير داخل البلاد الموريتانية وفي المناطق السودانية المجاورة. وبخصوص هذه الشخصية وأدوارها المختلفة في المنطقة يمكن الرجوع خاصة إلى: Stewart, Islam and social order in Mauritania, Oxford 1973, 204 p .

⁷³ - محمد فال بن باب، التكملة، مر.سا، ص.57.

⁷⁴ - أحمد سالم بن باكا، مر.سا، ص.21.

⁷⁵ - Marty, L'Emirat des Trarza, op.cit., p.309.

⁷⁶ - Ibid, p.19.

هزيمة الترارزه وإرغامهم على توقيع اتفاقية في 20 مايو/أيار 1858⁷⁷) مع فيدرب تنازلوا بموجبها عن حقوقهم في منطقة والو وقبلوا حرية الاتجار بالصمغ التي تعني القضاء على نظام محطات التبادل وإلغاء الأتاوات والضرائب العرفية. وقد تعهدوا بموجب تلك الاتفاقية أن لا يعبروا نهر السنغال وهم مسلحون.

ومثلت هزيمة محمد الحبيب وتوقيع هذه الاتفاقية بداية دخول الإمارة في طور الانحطاط والتراجع وبروز التدخل الفرنسي في الشؤون الداخلية لها. فقد عرفت الإمارة ومنذ سنة 1860 سلسلة من الانقلابات الداخلية أو "ثورات البلاط" ذهب ضحيتها محمد الحبيب نفسه خلفا نزاعا حادا على الخلافة بين أولاده وأحفاده من بعدهم حيث سقط جميع أمراء هذه الفترة مغتالين على أيدي إخوتهم أو أبناء إخوتهم أو أبناء عموماتهم.

ولا نستبعد أن يكون الفرنسيون وراء ظاهرة اغتيال الأمراء تلك وما صاحبها من فوضى وحروب داخلية أضعفت الإمارة وحضرت التربة لوضعها تحت الحماية الفرنسية ثم احتلالها عسكريا سنة 1903 تمهيدا لبسط السيطرة الفرنسية على البراكن ه وت انت ثم آدرار.

3. إمارة آدرار⁷⁸

⁷⁷ - تمكن مراجعة هذه الاتفاقية في:

ANS, Série G: Politique et administration générale, op.cit., 9 G 6: Traités avec les Trarza, pièce n° 20 du 20/05/1858.

⁷⁸ - بخصوص هذه الإمارة تمكن مراجعة:

- ✓ Bonte, "La consitution de l'Emirat de l'Adrar...", op.cit.,
- ✓ Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir, op.cit., pp. 312-326,
- ✓ Hamès, "Evolution des Emirats maures...", op.cit.,
- ✓ M. Ba, "L'Emirat de l'Adrar mauritanien de 1872 1906", Bulletin de la Société d'Archéologie d'Oran, vol.53, mars 1932, pp. 83-119 et juin 1932, pp. 263-298,

يعود ظهور إمارة أدرار إلى بداية القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، وتسمى هذه الإمارة إمارة أهل يحيى بن عثمان أو أولاد يحيى بن عثمان (يحيى بن عثمان) وهي تسمية تضم مجموعة من القبائل الحسانية المكونة للإمارة والمرتبطة نسبياً بعثمان بن مغفر بن أودي بن حسان.

و يعتبر أولاد غيلان وأولاد الجعفريّة أهم المجموعات الحسانية المكونة لهذه الإمارة. أما أولاد غيلان فيتألفون من عدة بطون منها الطرش و نغموشه وأولاد سله. و تنتسب المجموعة الغيلانية إلى جدها غيلان بن يحيى بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسان. وقد لعب أولاد غيلان دوراً بارزاً في إمارة أدرار لما يتمتعون به من وزن عددي وإمكانات حربية.

أما أولاد الجعفرية فيضمون أكْمِيتَرَات (ذرية أكْمِتَار بن مسعود بن غيلان بن يحيى بن عثمان) وأولاد أكْشَار بن أَمْتَار وأولاد عَمْنِي بن أكْشَار.

وفضلاً عن المجموعة الغيلانية والجعفرية فإن مجال إمارة أدرار يضم مجموعات قبلية أخرى محاربة مختلفة المراتب الاجتماعية كالطرشان والعويسيات وإديشلي. هذا إلى جانب القبائل الزاوية المتعددة (إدوعلي، لقلال، السماسيد⁷⁹، إدوالحاج، كنته... إلخ).

وترجع بعض الروايات التاريخية المحلية⁸⁰ أول ظهور لسلطة سياسية تمكنت من فرض سيطرتها على مجموع أهل يحيى بن عثمان إلى كيراف بن عمري الذي يرجح أن يكون قد عاش في بداية القرن السابع عشر.

✓ حتوت بنت عبد الله، إمارة أولاد يحيى بن عثمان، مر. سا.

⁷⁹ - قبيلة من زوايا المنطقة قديمة العهد بالشمال الموريتاني، امتازت بممارسة التجارة كانت لهم الإمامة في شنقيط قبل لقلال. وهاجروا بعد ذلك إلى أوجفت ثم أطار.

⁸⁰ - صالح بن عبد الوهاب، الحسوة البيسانية، مر. سا، صص. 124-125.

ويقال إن عبد الرحمن بن حمو بن كيراف كان آخر من تولى الزعامة من تلك المجموعة قبل أن يتمكن أبناء عمومته من فصيلة شنان بن بوبه من الاستيلاء على السلطة ممثلين في شخص عثمان بن الفظيل وذلك في نهاية النصف الثاني من القرن الثامن عشر على ما يعتقد.

وأثناء مواجهة عبد الرحمن بن حمو لعثمان بن الفظيل يبدو أن المجموعات الحربية في أدرار انقسمت حلفين متصارعين. فبينما حظي عثمان بن الفظيل بدعم أولاد الجعفرية وخاصة أميترات وجزء من أولاد غيلان فضلا عن أخواله البراكه، نال عبد الرحمن بن حمو دعم أبناء عمومته الطرشان وأكثرية أولاد غيلان فضلا عن أخواله إديشلي.

وهكذا يتضح دور علاقات القربي والمصاهرة في رسم التحالفات السياسية والتأثير عليها.

ورغم انتصار عثمان بن الفظيل على منافسه فإن استتباب الأمر له وكسب ود أولاد غيلان قد استدعى منه بعض الوقت والتنازلات السياسية "فبيوت السيادة الكبرى في أولاد غيلان، وهي التي قد اشتركت في منافع الغرامات المفروضة على القبائل المهزومة، مقابل انضمامها الى صف عثمان، قد برزت في مقام الأوصياء على الإمارة بمجرد موت أكبر أبناء الفظيل"⁸¹.

وخلال الصراع الذي دار بشأن خلافة عثمان بين ابنه سيدي أحمد وأخيه إبراهيم المعروف بالأقرع انحاز إلى جانب سيدي أحمد رؤساء البطون الثلاثة الرئيسية من أولاد غيلان وهم محمد بن المحمود زعيم أولاد سله ومحمد بن مكناس زعيم الطرش ومحمد بن الفظيل زعيم نغموشه. وقد ساهم الثلاثة بهذا الموقف في تركيز السلطة الأميرية داخل ذرية عثمان فارضين رؤيتهم السياسية لممارسة السلطة الأميرية من خلال ما عرف بـ"إصلاح محمدات الثلاثة".

⁸¹ - Ould Cheikh, Nomadisme, op.cit., p.318.

وبموجب هذا الإصلاح أصبحت جميع الحقوق والأموال العائدة إلى الإمارة محفوظة وغير قابلة للقسمة ومرتبطة باللقب أيا كان الطامع الذي سيفرض نفسه داخل الأسرة الأميرية.

ورغم أن سيدي أحمد بن عثمان أوصى بالإمارة لابنه الأكبر المختار النان⁸² الحاصل على دعم المجموعة الجعفرية، فإن الابن الأصغر أحمد الملقب ولد عيد ه لم يعترف بإمارة أخيه وناهضه حتى انتزعها منه بعد سلسلة من الحروب تغي رت وتشك لت أثناءها وبعدها خريطة التحالفات السياسية على مستوى مختلف المجموعات المشكلة للإمارة.

وفي عهد هذا الأمير أيضا ابتدأت أولى الاتصالات الخجولة مع الفرنسيين في السنغال، إذ تمكنت بعثة المستكشف هانري فينصان التي تحدثنا عنها سابقا من الوصول إلى مخيم أمير آدرار في ربيع 1860 وذلك ضمن محاولات الفرنسيين إقامة علاقات تجارية مع الإمارات البيضانية وجمع المعلومات عن البلاد وأهلها.

وبعد وفاة أحمد بن عيده سنة 1277هـ/1860 عاشت الإمارة عقدا من الحروب الدامية بين مختلف أبنائه المتصارعين على الحكم والذين تقف وراء كل منهم مجموعة قبلية أو سياسية لها مطامحها ومصالحها الخاصة.

وكان لزواج أحمد بن عيده المتعددة دور مهم في هذا المجال إذ خلف ابنين من مباركه بنت اسويد أحمد أخت أمير إدو عيش بكار بن اسويد أحمد وابنين من اعويسية⁸³ وابنين أم كل منهما من إديشلي. فتدخلت علاقات القرى كالعادة وحصل كل واحد من الأبناء على دعم أخواله مما أدخل الإمارة في دوامة من الصراعات المسلحة والاحتلالات السياسية كمثلتيها إمارتي البراكنه والترارزه السابقتين.

82 - هو المختار بن سيدي أحمد بن عثمان بن الفظيل. ويلقب بالمختار النان، وقد نازع أخاه أحمد بن عيده على الإمارة قبل أن يقتل سنة 1288هـ/1871م.

83 - نسبة إلى مجموعة العويسيات المشار إليها سابقا.

ومما زاد الأمور تعقيدا النفوذ الذي بات أمير إدوعيش بكار بن اسويد أحمد يمارسه على أدرار من خلال دعم وتنصيب أبناء الأخت فضلا عن إيواء ومناصرة بعض المجموعات الأدرارية المشاقة لهذا الأمير أو ذلك.

كما أن بعض الشخصيات الدينية وخاصة من مشايخ الطرق الصوفية كان لها هي الأخرى تأثيرها في تأزيم الأوضاع في أدرار إذ ساند الشيخ محمد فاضل⁸⁴ تلامذته من أولاد غيلان، بينما دعم الشيخ سيدي محمد الكنتي المجموعة الجعفرية.

ورغم أن بكار ولد اسويد أحمد كان وراء إيصال ابن أخته أحمد بن ام حمد بن أحمد بن عيده إلى عرش الإمارة في أدرار سنة 1871 فإن مختلف الأطراف قد رحبت بالأمير الجديد الذي بدأ مصالحة بين الفصائل المتناحرة ولقب بـ"أمير السلام" ولو أنه كان سلاما نسبيا وموقتا.

فقد عادت الأوضاع للتأزم في عهد خليفته وابن عمه أحمد بن سيدي أحمد (1891-1898) الذي تصالح مع أولاد غيلان خصومه في الداخل، وقاد حروبا عديدة ضد إدوعيش خصومه في الخارج إلى درجة أنه لقب بـ"أمير الحرب"⁸⁵.

وبموت الأمير أحمد بن سيدي أحمد سنة 1898 كانت أدرار تعيش ظروفًا لا تحسد عليها. فالنشاط الاقتصادي (وبالذات التجاري) شبه متعطل جراء الهجمات التي

⁸⁴ - هو الشيخ محمد فاضل بن محمد القلعي، نشأ في منطقة الحوض وتلقى تعليمه وتربيته الصوفية على يد عمه وسميه الشيخ محمد فاضل بن مامين مؤسس الطريقة القادرية المنسوبة إليه (الفاضلية). انتقل من الحوض إلى إقليم أدرار في حدود سنة 1860 وأكمل تعليمه على يد الطالب أحمد بن اطوير الجنة. أسس حاضرة صوفية وعلمية في بلدة الجريف إلى الشمال الشرقي من مدينة أطار واستقطب مجموعة أولاد غيلان.

⁸⁵ - Ba Amadou Mamadou, Un émir de la guerre, op.cit.

تقوم بها على المنطقة قبائل الساحل خاصة الربيات وأولاد بسباع⁸⁶ التي أصبحت تمتلك الأسلحة النارية السريعة.

وفي هذه الظروف انتقلت السلطة إلى المختار بن أحمد بن عيده، وقد وصلت بعثة الرحالة بلانشي السالفة الذكر إلى أطار في عهده الذي امتاز بمعارضة أولاد غيلان الشديدة للسلطة الأميرية. ويتحدث الرحالة بلانشي عن الصراعات العسكرية داخل إمارة أولاد يحيى بن عثمان إبان بعثته إلى آدرار سنة 1900 فيقول⁸⁷: "عند وصولنا إلى آدرار كان أولاد غيلان البالغ عددهم 800 محارب [يعني عدد الفرسان] يخوضون الحرب ضد الأمير المختار بن عيده". ويضيف الرحالة بلانشي أن هذا الأمير قد تمكن بعد إحراز العديد من الانتصارات وتوزيع بعض الهدايا من كسب بعض القبائل مما جعل أنصاره يقدرون بألفي محارب.

وقد خلف المختار ابنه أحمد الذي قتل سنة 1321هـ/1903 في مجابهة مع أولاد بسباع لتؤول السلطة الأميرية المهزوزة في آدرار إلى سيد أحمد بن أحمد بن سيد أحمد بن عيده وهو الذي تم في عهده احتلال آدرار إبان حملة كورو الشهيرة سنة 1327هـ/1909م، وذلك بعد إخضاع الترازه والبراكه وإدوعيش.

4. إمارة إدوعيش⁸⁸

⁸⁶ - قبيلة ترجع نسبها إلى محمد بن إدريس. ولها وجود في موريتانيا والمغرب الأقصى. وقد لعبت، أثناء القرن التاسع عشر، دورا بارزا في النشاط التجاري بالمنطقة. كما ساهمت في مواجهة التدخل الفرنسي في البلاد الموريتانية.

⁸⁷ - Blanchet, Rapport, op.cit., pp.25-26.

⁸⁸ - بخصوص هذه الإمارة تمكن مراجعة:

- ✓ Amilhat, "Petite chronique des Idouaich, ...", op.cit.,
- ✓ Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir..., op.cit., pp. 327-339,
 - ✓ المختار بن حامد، الموسوعة، جزء إدوعيش، مر. سا،
 - ✓ بابه بن الشيخ سيدي، إمارتا إيدوعيش ومشطوف، مر. سا.

بدأت إمارة إدوعيش التشكل تدريجياً منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر في منطقة تانت.
ويرجع النسابون المجموعة المكونة لهذه الإمارة إلى أصول صنهاجية (لمتونه) ولهذا يعتبر إدوعيش أحفاد المرابطين المجموعة غير الحسانية الوحيدة التي تمكنت من تأسيس إمارة غير مغربية على نمط الإمارات الحسانية.
ويتكون إدوعيش من قبائل وبطون متعددة أعادت تشكيلها من جديد في نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر داخل فروع رئيسية من أهمها أبكك وشراتيت.
ويضم الحيز الجغرافي لإمارة إدوعيش مجموعات قبلية متعددة من أهمها إدو علي وكنته وتجاننت وإدوالحاج وإدييسات وشرفاء تيشيت... الخ.
وإذا كانت تسميات البراكنه والترارزه وأهل يحيى بن عثمان مشتقة من أحد أجداد تلك المجموعات السكانية فإن أصل تسمية إدوعيش يثير بعض الإشكال.
فالإشارة الوحيدة التي عثرنا عليها بهذا الخصوص، نقلها ألبير لريش⁸⁹ (Albert Leriche) عن المختار بن حامد، وتشير إلى أن اسمهم الصنهاجي هو "نويدر" أي أبناء "يدر" وهي بمعنى "يعيش". وبإضافة أداة النسبة الصنهاجية "إيد" إلى "يعيش" وقلب ياء المضارعة واوا نحصل على "إيدوعيش". وهكذا فربما تكون هذه التسمية تركيباً من العربية والصنهاجية وهو ما قد يتناسب مع طبيعة هذه المجموعات البشرية المنحدرة من أصول صنهاجية والتي شكلت إمارة (متمغرة) على المنوال الحساني.

ولا يتوفر الكثير من المعطيات كذلك عن بدايات إمارة إدوعيش ولا عن الأصل الدقيق لفصيلة أهل محمد خونا التي انحدر منها الأمراء المؤسسون لهذه الإمارة واضطلعت بأدوار قيادية في تاريخها السياسي والعسكري. فقد ذكر المختار

⁸⁹ - Leriche, "Note sur la langue berbère de Mauritanie", Dakar, BIFAN, Série B, t.XX, n°12, janvier-avril 1958, p.244.

بن حامد⁹⁰ في تاريخه السياسي أن بنيو بن أوديكة، وهو من ذرية يحيى بن عمر، قد استودعه أبوه عند أسرة من إدوعلي شنقيط مخافة أن تصل إليه أيدي بني حسان المتحاربين حينئذ مع إدوعيش، وربما كان أبناء العائلة التي استضافت بنيو يجهلون اسمه الحقيقي الذي بقي سرا، فقد أخذوا يسمون ضيفهم الجديد "أخانا" (خونا) ومن هذا اللقب اشتقت تسمية والد م حمد بن خونا الذي ينتسب إليه أمراء إدوعيش. وإذا كان بعض⁹¹ رواد المدرسة الاستعمارية يحلوه له التركيز على وجود تقابل بين العرب والبربر ربما تكون إمارة إدوعيش الصنهاجية التي قاومت السيطرة الحسانية على المنطقة تعبيرا عنه، فإن الواقع لم يثبت دائما ذلك التقابل المزعوم، إذ يستنتج عبد الودود ولد الشيخ⁹² "أن الصراعات بين إدوعيش وبني حسان لا يبدو أنها قد اكتست طابع تقابل مفتوح بين أزيانكه (صنهاجة) من جهة والعرب من جهة أخرى". ففي الحالات التي تدخل فيها إدوعيش في نهاية القرن 17 ومطلع 18 فإنهم كانوا مندمجين في التحالفات والتنافس القائمة سواء بين بني حسان أنفسهم أو بين

⁹⁰ - المختار بن حامد، الموسوعة، التاريخ السياسي، مر. سا، ص. 212.

⁹¹ - من أمثال بول مارتي الذي يقول في هذا المعنى: "إن غياب البربر شبيئ يوسف له [!؟]، ذلك أنهم لو أرادوا الصمود أمام الغزاة العرب فإن أعدادهم وثرواتهم تخولهم بسهولة قهر مجموعة النهابين هذه وطردها بعيدا أو استيعابها. إن الحضارة البربرية العملية والتقدمية أفضل من العادات العربية السلبية والعدوانية المتأتية من بداوة مستحكمة غير صالحة لأي تقدم جدي [!؟]" (التشديد منا).

"Cet effacement des Berbères paraît tout fait regrettable. S'ils avaient voulu résister fermement aux envahisseurs, leur nombre et leurs richesses leur permettraient facilement de dompter ces quelques pillards et de les rejeter au loin ou les assimiler. La civilisation berbère, pratique et progressiste, valait bien les coutumes arabes, négatives ou oppressives, issues d'un nomadisme invétéré, impropre toute évolution sérieuse.", Paul Marty, **L'Emirat des Trarza**, op.cit., p. 23 .

⁹² - Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir..., op.cit.,

طائفة من العرب متحالفة مع إدوعيش وعرب آخرين طبقا لروابط المصاهرة أو الجوار. فقد شارك إدوعيش إلى جانب أولاد مبارك سنة 1695/1107 في معركة أم اعبانه⁹³ بين أولاد دليم وبني عمهم المغافره.

وليس من المستبعد أن تكون علاقات المصاهرة ذات أثر في وقوف إدوعيش إلى جانب أولاد مبارك، ذلك أن هنون العبيدي⁹⁴ زعيم أولاد مبارك كان قد تزوج اثنتين من بنات محمد خونا زعيم إدوعيش.⁹⁵

وفي سنة 1124هـ/1712م قاتل إدوعيش بقيادة أمير بن م حمد بن خونا إلى جانب أولاد امبارك ضد أولاد بوقايدة⁹⁶ خلال معركة كساري⁹⁷. وقد أسفرت هذه المعركة عن انتصار أولاد مبارك على أولاد بوقايدة، فبدأ نفوذ هؤلاء في الحوض يضمحل لصالح أولاد مبارك الذين أخذت تجتذبهم المناطق الرعوية والزراعية بالحوض، فضلا عن ملتقى طرق تبادل الذهب والملح وهو أمر أبعدهم عن تكاثر

⁹³ - اسم جبل وقعت به، سنة 1107هـ/1695م، معركة فاصلة بين المغافره وأولاد دليم اسفرت عن هزيمة المغافره. انظر: صالح بن عبد الوهاب، الحسوة البيسانية، مرجع سابق، ص. 26.

⁹⁴ هو هنون العبيدي بن محمد الزناكي تزعم أولاد مبارك بين سنتي 1206هـ/1791 و1826/1242م، راجع عنه: المختار بن حامد، الموسوعة، جزء التاريخ السياسي، مرجع سابق، ص. 249.

⁹⁵ - تسمى هاتان البنتان العالية وعيشه، راجع:

Cheikh Sidi Mohamed Ould Aly, Nouvelle approche de l'histoire de l'émirat du Tagant partir de la "petite chronique des Idouaich d'Amilhat, Nouachott, Ecole Normale Supérieure, 1983, p. 38 .

⁹⁶ - مجموعة من أولاد داود تنتمي إلى علي بن داود بن محمد بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسان، راجع حول هذه المجموعة وأبناء عموماتها من أولاد داود:

✓ صالح بن عبد الوهاب، الحسوة، مرجع سابق، ص 42،

✓ محمد فال بن بابيه، التكملة، مرجع سابق، ص 26.

⁹⁷ - موضع يقع شمال قرية بوسطيلة الواقعة حاليا في ولاية الحوض الشرقي، وبخصوص هذه المعركة يمكن الرجوع إلى: ابن عبد الوهاب، الحسوة، م. سا.

وشجع بالتالي إرادة الانعتاق لدى إدوعيش. وقد برزت هذه الإرادة واضحة تحت قيادة بكار بن علي بن أمير (ت. 1761) الذي تحالف مع أولاد الناصر المستائين جراء استيلاء أولاد مبارك على مجالهم الحيوي التقليدي في معارك عديدة ضد حلفاء أسلافه بالأمس أولاد مبارك المدعومين من قبل البراكنه.

غير أن استقلال إدوعيش السياسي لن يبرز ويترسخ إلا في عهد محمد شين بن بكار (ت. 1202هـ/1787م) الذي خلف أباه سنة 1175هـ/1761، إذ تمكن هذا الأمير سنة 1192هـ/1778م من الانتصار على تحالف حساني كبير ضم على الخصوص البراكنه وأولاد مبارك والترارزه وأولاد غيلان، وذلك أثناء حصار احنيكات بغداده الذي دام عدة شهور تفرق بعدها المحاصرون دون التمكن من قهر خصمهم المشترك إدوعيش الذين استفادوا من هذا الانتصار فأجلوا أولاد مبارك تماما عن تكانت لتصبح خالصة لإدوعيش دون منازع.

وقد خلفت وفاة محمد شين سنة 1787 أزمة خلافة مستعصية في إمارة إدوعيش، إذ انقسموا طائفتين متصارعتين إحداهما تناصر بكار بن م حمد شين وتدعى "بخواكه"⁹⁸، والأخرى تؤيد إخوة الأمير م حمد شين ويتزعمها أحمد بن بكار وتسمى "مكروزه"⁹⁹.

وبعد سلسلة من المعارك والحروب بين هذين الحلفين تمكن محمد بن م حمد شين سنة 1794م من استعادة وحدة إدوعيش فعرفت الإمارة نوعا من الاستقرار السياسي النسبي واتساع النفوذ. وقد ربط هذا الأمير علاقات طيبة مع بعض زوايا المنطقة خاصة إدوعلي ممثلين في شخص سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم الذي منحه ذلك الأمير عناية وتقديرا خاصين.

وعرف عهد محمد بن محمد شين بعض الحروب مع الجيران المنافسين من أولاد مبارك. كما تدخل إدوعيش في النزاعات الداخلية على السلطة داخل إمارة البراكنه داعمين أولاد نغماش، وفي إمارة الترارزه مناصرين محمد بن علي الكوري.

⁹⁸ - تسمية مشتقة من تعبير دارج "امبخوك" يعني محليا عدم التماسك.

⁹⁹ - تسمية مشتقة من تعبير دارج "مكروز" وهو يعني التماسك واللحمة.

وفي هذه الفترة برزت مطامع إدوعيش في الحصول على منفذ للتبادل التجاري على نهر السنغال. غير أن عنصر تجزئة وانقسام كان قد بدأ ينمو منذ بعض الوقت داخل المجموعة الإدوعيشية، إذ أن المرابط سيدي محمود¹⁰⁰ الحاجي الواداني الذي استقر في مخيم أهل محمد بن خونا شكّل مركز استقطاب جذب إليه العديد من أنصار محمد بن محمد شين، بل ومن منافسيه أيضا. وسيواصل عبد الله بن المرابط سيدي محمود دور القطب الجاذب الذي لعبه والده حتى يصبح أهل سيدي محمود خطرا على البيت الأميري في إدوعيش.

وفور وفاة محمد بن محمد شين سنة 1821 تجددت الصراعات البنيوية بين الأعمام وابن أخيهام سعيا إلى الاستئثار بمنصب الأمير. غير أن الجديد في الأمر هو دخول بعض الشخصيات الدينية والقبائل الزاوية حلبة هذا الصراع، فبينما حصل شيعة ابن الأمير الراحل اسويد أحمد بن محمد وسيلقبون "أبكاك" على دعم قبيلة كنته، نال أعمامه ومنافسوه الذين سيعرفون بـ"شرايت" تأييد أهل سيدي محمود. ورغم أن حلف "أبكاك" سيتمكن من الحصول على السلطة الأميرية، فإن "شرايت" سيصبحون قوة سياسية مهمة تلعب دور قطب معارضة شبه دائم للبيت الأميري.

ويعتبر بكار بن اسويد أحمد الذي استقل بالسلطة في الإمارة منذ سنة 1840 أهم أمراء إدوعيش إن لم يكن أهم أمراء البلاد قاطبة خلال هذه الفترة، فقد أصبح في بعض الأحيان أميرا على إدوعيش قاطبة، كما تدخل في النزاعات الداخلية في البراكنه والترارزه وأدرار وتصارع مع الحاج عمر الفوتي ثم خاض الحرب ضد مشظوف

¹⁰⁰ - هو المرابط سيدي محمود (ت.1786) الذي جاء إلى المنطقة مهاجرا من وادان، وشكّل مركز استقطاب جذب العديد من المجموعات البشرية المختلفة وخاصة بعض عناصر إدوعيش. وخلف المرابط سيدي محمود ثلاثة أبناء هم عبد الله ومحمد الراضي ومحمد، كونوا مجموعة أهل سيدي محمود الكبيرة ذات الشوكة والعلم. راجع: الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني...، مر. سا، ص 131، الإحالة رقم 83 من عمل المحقق.

وأهل سيدي محمود، كما أوى بعض زعماء كايور وجولوف وفوته الذين أرغموا على اللجوء خارج بلادهم جراء مناهضتهم للاستعمار الفرنسي. وامتازت فترة حكم هذا الأمير الطويلة باستفادة إدوعيش من عائدات التجارة الفرنسية في حوض السنغال الأعلى وخاصة بمحطتي "باكل" و"ماتام" التابعتين لإمارة إدوعيش منذ سنة 1821. وقد توفي بكار بن أسويد أحمد في غرة إبريل/نيسان 1905 وهو يقاوم التوغل الفرنسي داخل مجاله الأميري الذي تمكن الفرنسيون من الاستيلاء عليه تمهيدا لإكمال إخضاع البلاد الموريتانية قاطبة.

وهكذا فبعد أن عرفت الإمارات البيضانية نوعا من الازدهار النسبي، وبالذات في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بدأت في ستينيات ذلك القرن مسارها نحو الانحطاط البطيء متأثرة بتعاظم التدخل الفرنسي في شؤونها الخاصة وبمساوئ بنياتها الداخلية الهشة التي لم تستطع الصمود طويلا أمام اغتياالات الأمراء و"ثورات البلاط" وما رافقها من تجزئة وانشطار في مختلف البيوت الأميرية.

ومع أن الفرنسيين لم يكونوا دائما بعيدين عما عرفته الإمارات من اغتياالات وانقسام وحروب، خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث بدأوا إحكام قبضتهم على البلاد مستلهمين المبدأ الاستعماري المعروف "فرق تسد" مع كل ذلك فإن البنية الداخلية للإمارات كانت حسب اعتقادنا العامل الفعال في ظاهرة الاغتياالات تلك وما رافقها من انشطار وتفكك، إذ هي ظاهرة بنيوية مرتبطة بطبيعة النظام الأميري وبناءه الداخلية أكثر من ارتباطها بالموثرات الخارجية. ولهذا فإن إمارتي آدرار و انت عرفتا هذه الظاهرة قبل أن تدخلا في علاقات مباشرة مع الفرنسيين تمكنهم من التخطيط لاغتياالات وثورات "القصور" تلك، ناهيك عن وضعها موضع التنفيذ. ولاستكمال الصورة عن البنى السياسية والاجتماعية البيضانية ارتأينا أن نلقي نظرة على الفئات المشكلة للبنية الاجتماعية البيضانية.

ثانيا. البنية الاجتماعية

يتكون المجتمع البيضاني ما قبل الاستعمار من فئات أو شرائح اجتماعية عدة تسودها الأرستقراطية بشقيها الحساني والزاوي.

أ. المجموعة الأرستقراطية

تتربع هذه الفئة المؤلفة من شريحتي حسان والزوايا على قمة الهرم الاجتماعي البيضاني محتكرة السلطة السياسية والعسكرية والروحية، وتفرض هذه الفئة سيطرتها بطرق مختلفة على بقية فئات المجتمع. وقد تفتن رجالو ومستكشفو القرن التاسع عشر الفرنسيون للدور الذي تلعبه هذه الأرستقراطية المزدوجة. يقول موليين¹⁰¹: "لكي يصل المرء إلى رتبة الزعامة لدى البيضان لا بد له أن يكون حسانيا أو رجل دين...".

ويؤكد صولبي¹⁰² في نهاية العشرية قبل الأخيرة من القرن نفسه ازدواجية السلطة هذه مشيرا إلى أن الفئتين الأساسيتين في مجتمع البيضان هما حسان والزوايا. وتكريسا لهذه الازدواجية أصبحت الأرستقراطيتان السياسية/العسكرية (حسان) والاقتصادية/الروحية (الزوايا) تسيطران على بقية الفئات الأخرى التي باتت لزاما على كل فرد منها، كي يحفظ نفسه ويصون ممتلكاته، أن يحتمي بـ"الكتاب" أو بـ"الركاب" كما يقال.¹⁰³

1. الأرستقراطية الحربية (حسان)¹⁰⁴

¹⁰¹ - Mollien, Voyage, op.cit., t.1, p.12.

¹⁰² - Soleillet, Rapport, op.cit., p.4.

¹⁰³ - محمود بن محمد، مدخل إلى دراسة...، مر. سا، ص. 31.

¹⁰⁴ - يطلق الفرنسيون على هذه الفئة تسميات متعددة من أهمها:

تتشكل هذه الفئة من القبائل والمجموعات الحربية التي تتولى الزعامة السياسية والعسكرية في الإمارات المغربية (البراكنة، الترارزه، وأهل يحيى بن عثمان) وفي إمارة إدوعيش المتمغرة، وكذلك في المشيخات والقبائل الحسانية في بعض مناطق المجال البيضاني الهامشية التي أشرنا في السابق (صص. 000-000) إلى أن الظروف لم تتح تأسيس إمارات مستقلة بها.

وتدل تسمية حسان أو بني حسان في الأصل على القبائل العربية المعقلية المنتسبة إلى حسان بن مختار بن محمد بن معقل، وقد أشرنا في الفصل السابق (صص. 000 وما بعدها) إلى المسيرة الطويلة التي قادتها إلى البلاد الموريتانية الحالية حيث انتزعت السيطرة من أهل الشوكة الأصليين وأقامت إمارات ومشيخات في عموم البلاد.

غير أن حسان في الاصطلاح المحلي البيضاني تطلق على الفئة البيضانية المتفرغة لممارسة السلطة السياسية والعسكرية والمتخصصة في فنون الحرب والفروسية سواء كانت منحدره من أصل حساني أم لا.

ويعيش أفراد حسان، في العادة، على المغارم والأتاوات التي يفرضونها على الآخرين، أو على الصيد البري، إذ أنهم يأنفون عن ممارسة الأنشطة الأخرى كالزراعة والرعي والتجارة، معتبرين أن مثل هذه الأعمال مخلة بمكانتهم الاجتماعية. يقول المختار بن حامد¹⁰⁵ "وأما حسان فشيبتهم اقتناء السلاح ومداومة الكفاح وامتلاك

-
- ✓ Les hassanes (حسان)،
 - ✓ Les arabes (العرب)،
 - ✓ Les guerriers (المحاربون، الفرسان).

للمزيد من المعلومات حول مجموعة حسان يمكن الرجوع إلى:

✓ المختار بن حامد، الموسوعة، جزئي التاريخ السياسي والأيام الحربية في موريتانيا، مرقونان، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط،

- ✓ Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir..., op.cit., pp. 197 et ss.

¹⁰⁵ - المختار بن حامد، الموسوعة، الجزء الثقافي، مرجع سابق، ص. 175.

الرقاب، أموالهم سلاحهم وحصونهم ظهور خيلهم عيشتهم الصيد وما يأخذونه من المغرم أو ما ينهبونه من الأعداء، وما عدا ذلك فهو عيب عندهم من تجارة أو حرث أو اقتناء ماشية".

وبالنسبة لمحمدن ولد باباه¹⁰⁶ "فالحساني هو من يحمل السلاح ويصطنع العنف وسيلة للحياة، وأسلوبا للمعاملة مع الغير [...] وهو يطلق على كل من يصطنع العنف وسيلة للحياة سواء كان من أصل عربي أو صنهاجي أو زنجي".

ويخضع حسان أبناءهم منذ الصغر لتربية قاسية وذلك لتعويدهم على حياة الغزو والنهب التي تعتمد عليها حياتهم. يقول الرحالة موليين¹⁰⁷ في هذا المضمار: "ابتداء من السنة العاشرة يشارك أبناء البيضان [حسان] في الحرب: وفي هذه المرحلة من العمر فإن هؤلاء الأطفال يعرفون ترويض الخيل واستخدام البنادق. ويمتاز أبناء الأمراء خاصة بالجسارة والإقدام".

ويتحدث صولي¹⁰⁸ عن فئة حسان مشيرا إلى أنهم يعيشون حياة لا متناهية من المعارك والغزوات وأنهم في حالة حروب متواصلة مع جيرانهم مضيضا أن سلطة حسان قليلا ما تتجاوز المناطق التي يوجدون بها.

ويؤكد بلانشي¹⁰⁹ الوظيفة الحربية لفئة حسان قائلا: "إن المحاربين [حسان] لا يمارسون أبدا أي عمل سوى التجوال بأسلحتهم بحثا عن قافلة تنهب أو طلبا للثأر، وهم يتحاربون في غالب الأحيان في ما بينهم ويلجأون إلى استخدام الأسلحة في أبسط مناسبة...". ويضيف هذا الرحالة أن حسان يتولون حماية الأتباع (الرعاة) الذين يمثلون مصدر حياة بالنسبة لهم من خلال ما يقدمون إليهم من مغارم متنوعة.¹¹⁰

¹⁰⁶ - اليدالي، نصوص...، مص. سا، ص. 62. الإحالة رقم 7 من عمل المحقق

¹⁰⁷ Mollien, *Voyage*, op.cit., t-1, pp.8-9.

¹⁰⁸ - Soleillet, *Rapport*, op.cit., p.14.

¹⁰⁹ - Blanchet, *Rapport*, op.cit., p.25.

¹¹⁰ - Ibid, p.26.

ويومئ كايي¹¹¹ إلى بعض انشغالات بني حسان حين يقول: "أصبحت أرغب في مغادرة مخيم الأمير [البركني] إذ لن أستطيع التعلم داخله لأن سكانه من العرب المحاربين الذين لا يشتغلون إطلاقاً بالدراسة."
ورغم تبوء حسان مكانة مرموقة سياسياً وعسكرياً داخل السلم التراتبي البيضاني فإن وزنهم الاقتصادي والديمقراطي كان محدوداً جداً إذا ما قورنوا بالمجموعات الأخرى. فعلى المستوى الاقتصادي رأينا أن حسان يحتقرون ممارسة الأنشطة الاقتصادية المنتجة معتبرين ذلك عملاً مخرلاً بالكرامة.
ومن الناحية الديمغرافية فإن المعطيات التقريبية والمتناثرة التي جمعناها من مصادر مختلفة، تعطي فكرة نسبية عن الحجم الديمغرافي للمجموعة الحسانية داخل المجتمع البيضاني أثناء القرن التاسع عشر.
وفي غياب إحصاءات شاملة فإننا مرغمون على استغلال المعطيات التي قدمها هذا المستكشف أو ذاك عن هذه المنطقة أو تلك من مناطق المجال البيضاني المختلفة، وهي معطيات جزئية وتقريبية بدون شك.
وكان لمقدم مشاة البحرية جان فرانسوا كايي السبق في هذا الميدان إذ أنه أول من سجل إحصاءات عن بيضان الترارزه والبراكنه. ففي سنة 1843 يقدر هذا الضابط عدد الترارزه بحوالي 55.000 نسمة تمثل القبائل الزاوية منها 30.000، في حين تمثل القبائل الحسانية 25.000 من بينهم 6.000 فارس¹¹² أي أن نسبة حسان تقدر بحوالي 45، 45%
أما منطقة البراكنه المجاورة فقد قدر هذا الضابط سكانها بحوالي 63.000 نسمة تمثل القبائل الزاوية أربعين ألف نسمة منها والقبائل الحسانية 23.000 من بينها خمسة آلاف فارس¹¹³. أي أنهم يمثلون نسبة 36، 5%.

¹¹¹ - Caillié, **Voyage**, op.cit., t-1, p.95.

¹¹² - Caille, Note sur les peuples de la Mauritanie, op.cit., p.3.

¹¹³ - Ibid, p.3.

ولا نستبعد أن يكون الضابط كاي قد أضاف، في إحصاءاته تلك، المجموعات الغارمة إلى القبائل الحسانية ومما يدعم هذا الافتراض المعطيات التي أوردها الملازم البحري الأول بورل عن سكان منطقة البراكنه التي قضى فيها ثلاثة أشهر خلال سنة 1860 إذ يقول هذا الضابط¹¹⁴: "إن القبائل الزاوية وحدها تقدر بخمسين ألف نسمة في حين لا تكاد جميع القبائل الحسانية وتابعوها يصلون إلى عشرين ألف نسمة" أي أن حسان والأتباع معا يمثلون نسبة حوالي 28% من مجموع سكان البراكنه في ذلك الوقت وحسب هذا المستكشف.

ويتعزز افتراضنا هذا خاصة بالرجوع إلى نتائج جزئية دائمة لأول إحصاء أجرته السلطات الإدارية الاستعمارية الفرنسية في بعض مناطق البلاد سنتي 1912-1913. إذ يذكر الإداري الفرنسي ول مارتى¹¹⁵ نقلا عن ذلك الإحصاء أن عدد سكان الترازه يبلغ 60.128 نسمة من بينهم 47.242 نسمة من الزوايا و6.534 نسمة من حسان و6.352 من الأتباع أي أن نسبة حسان لوحدهم تقدر بحوالي 10.8% من مجموع السكان.

ورغم ضرورة التحفظ على هذه المعطيات لما يرافق عمليات الإحصاء في المجتمعات البدوية المتنقلة من صعوبات ومشاكل خاصة بالنظر إلى أن هذا الإحصاء تشرف عليه الإدارة الاستعمارية التي لم تحكم بعد قبضتها على السكان، وأن هؤلاء السكان لم يستوعبوا بدورهم بعد طبيعة ولا مرامي الإدارة الاستعمارية من عمليات الإحصاء تلك، ورغم أن مارتى اكتفى بذكر عدد الأسر دون أفرادها بالنسبة لبعض

¹¹⁴ - Bourrel, Voyage, op.cit., p.521.

¹¹⁵ - Marty, L'Emirat des Trarza, op.cit.

القبائل¹¹⁶; رغم كل ذلك فإن هذه الأرقام تعطي فكرة ولو تقريبية عن الحجم الديمغرافي لهذه الفئة.

وحسب نتائج تحقيق "سدس"¹¹⁷ (SEDES) لسنتي 1963-1964 أي بعيد حصول البلاد على استقلالها فإن حسان يمثلون أكثر من 15% من مجموع سكان البلاد.

وربما تجد قلة حسان العددية مقارنة مع الزوايا تفسيرها في سلاسل الحروب وغارات النهب التي كانت تأخذ (أو تكاد) مجمل وقت هذه الفئة بحكم تخصصها العسكري، وما يقود إليه ذلك من ثأر وانتقام. هذا فضلا عن خسائر الحروب الخارجية التي تندلع بين هذه الإمارة وتلك وكذلك الحروب التي خاضتها الإمارات ضد الفرنسيين في السنغال خلال القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين. إذ يذكر أنسيل أن حرب أمير الترازه محمد الحبيب مع الجنرال فيدرب بين سنتي 1854 و1858 قد أودت بحياة خمس "جنود" الإمارة البالغ عددهم حسب هذا المؤلف 6.000 مسلح¹¹⁸، ذلك أن الحروب وغارات النهب والسلب أساسية في توفير حاجيات ومستلزمات العيش التي لا تتوفر هذه الفئة على طريقة أخرى لتحصيلها إذ تترفع كما أسلفنا عن ممارسة الأنشطة الاقتصادية السائدة في مجتمع البيضان من رعي وزراعة... إلخ، عكسا لفئة الزوايا.

116 - أهمل بول مارتي -ربما لحاجة في نفس يعقوب- ذكر عدد أفراد قبائل أولاد أبيبيري والأشياخ والشرفاء مكتفيا بذكر عدد أسر هذه المجموعات. وقد افترضنا معدل خمسة أفراد للأسرة لتكميل هذا النقص مما يزيد من تقريبية المعطيات السالفة الذكر

117 - Anonyme, **Enquête démographique 1965**, Société d'études pour le développement économique et social (SEDES), Paris, 1972, 327 p, pp.134-135.

118 - Ancelle, **Les explorateurs**, op.cit., p.122.

2. الأرستقراطية الدينية (الزوايا)¹¹⁹

إن التسمية الأكثر شيوعاً لهذه المجموعة هي الزوايا ومفردتها زاو. وهي "تطلق على مجموعات من القبائل أكثرها من أصل صنهاجي، انزواوا بدينهم بعد انكسار دولة المرابطين واندثارها..."¹²⁰ فقد تكون لتسمية هذه المجموعة بالزوايا إذن علاقة بحالة الانزواء للمحافظة على الدين وما يجسده من تعاليم وأخلاق.

وتطلق على هذه المجموعة أيضاً تسمية "الطلبة" ومفردتها طالب، وهي تسمية قد تحيل على الوظيفة العلمية والدينية من طلب علم وتعليم وهي الوظيفة التي تعتبر من أهم مشمولات مهام هذه الشريحة.

وفضلاً عن تولي الإشراف على الوظائف العلمية والدينية في مجتمع البيضان، فإن القبائل الزاوية تحتل مكانة مرموقة في ما يخص الأنشطة الاقتصادية من زراعة وتنمية حيوانية وتجارة... الخ.

يقول موليين¹²¹ ضمن حديثه عن هذه الفئة: "إن زوايا البيضان يحظون ودهم بامتياز جني الصمغ العربي: وهذا الحق [الامتياز] المقصور على هذه الفئة منصف إلى حد بعيد، لأن الزوايا لا يستطيعون المشاركة في عمليات النهب الدموية التي يقوم بها البيضان الآخرون [حسان] الذين يحق لهم [وحدهم] حمل السلاح."

119 - يطلق الفرنسيون على هذه الفئة تسميات متعددة من أهمها:

- ✓ Les marabouts (الزوايا)
- ✓ Les tribus religieuses. (القبائل الدينية).

للمزيد من المعلومات حول مجموعة الزوايا يمكن الرجوع إلى:

- ✓ ابن حامد، الموسوعة، جزء الجغرافيا، مر.سا، صص. 41 وما بعدها،
- ✓ Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir..., op.cit., pp. 374-397.

120 - البيدالي، نصوص. مص.سا، ص. 52، الإحالة رقم 2 من عمل المحقق

121 - Mollien, Voyage, op.cit., p.10.

ويشير هذا الرحالة في شيء من المبالغة إلى أن الزوايا بلغ درجة من الخوف يمتنع بمقتضاها حتى من استخدام أي سكين يقترب شكلها من شكل الخنجر.¹²²

وإذا صدق هذا الحديث نوعا ما على زوايا منطقة الجنوب الغربي الموريتاني التي زارها الرحالة موليين والتي انهزم فيها الزوايا في حرب شريبه السالفة الذكر ومنعوا من حمل السلاح بمقتضيات صلح تلك الحرب، فإن الأمر لا ينطبق على زوايا مناطق أخرى من البلاد تمكنوا من الاحتفاظ ببعض الوظائف العسكرية إلى جانب أدوارهم الثقافية والاقتصادية. وهذا ما يؤكد علي صل¹²³ الذي تجول في مناطق البلاد الشرقية حيث شاهد بعض المجموعات الزاوية المسلحة. وإذا كان زوايا المنطقة الجنوبية الغربية قد جردوا من السلاح في نهاية تلك الحرب، فإنهم طوروا "أسلحة" معنوية قد لا تقل أهمية عن السلاح العادي، فبواسطة تلك "الأسلحة اللامرئية" كان الزوايا يمارسون ضغوطا على بقية الفئات الاجتماعية البيضانية. يقول موليين في هذا السياق: "وهؤلاء الأخيرون [الشخصيات الدينية] الذين يتزيون بلباس الدين الجدير بالاحترام لديهم وسيلة أكيدة دوما لتنفيذ رغباتهم."¹²⁴

ويشير كاي¹²⁵، من جانبه، إلى أن الوظيفة الدينية للزوايا جعلتهم يعتبرون موزعين للرحمة والغفران، لذلك فإن طلباتهم لا ترد أبدا. ويشير إلى أن تلك الطلبات لا توجه فقط إلى حسان وإنما أيضا وبشكل خاص إلى التابعين الذين يتم تخويفهم بصواعق القدر وبالخلود في النار إذا هم لم يستجيبوا للطلبات.¹²⁶

122 - Idem

123 - A. Sall, Rapport, op.cit., pp.9, 12, 21 et 22.

124 - Mollien, Voyage, t-1, op.cit., p.18.

125 - Caillié, Voyage, t-1, op.cit., p.143.

126 - Idem

وقد وفق الأستاذ عبد الودود ولد الشيخ¹²⁷ في وصف هذه السلطة اللامرئية التي يمتلكها الزوايا حين اعتبرهم يتولون "إدارة عالم الغيب". وليس "تسيير عالم الغيب" سوى جزء من الأدوار المتعددة التي يضطلع بها الزوايا داخل المجتمع البيضاني وهي أدوار تشمل الجوانب الاقتصادية والثقافية والسياسية. فعلى الصعيد الاقتصادي تكاد هذه الفئة تحتكر العديد من الأنشطة كالتنمية الحيوانية والزراعة والتجارة وجني الصمغ. يقول المستكشف كاي¹²⁸ ضمن حديثه عن هذه الفئة: "إن الزوايا (أي القبائل الدينية) مسالمون وهم في الوقت نفسه رعاة ومزارعون وتجار. ويتولى أفراد هذه الفئة كذلك الاضطلاع بأدوار ثقافية ودينية كتعليم السكان وتأويل القرآن..."¹²⁹.

ويؤكد صوليبي هذا الدور إذ يقول: "لا يتوفر الزوايا على سلاح في هذه المناطق المشهورة ببربريتها سوى سلاح العلم والمعرفة والغفران، حيث يتنقلون، بصفة مسالمة بين القبائل الحسانية المتحاربة حاملين رسالات السلام إلى مختلف الأطراف المتصارعة وفارضين على البيضان نوعا من حقوق البشر. فبفضلهم لا تنهب أبدا أموال النساء ولا يقتل الزوايا ولا يؤسر الصناع التقليديون حتى ولو كانوا من سود البشرة..."

ويقارن هذا الرحالة¹³⁰ بين سلطة حسان والزوايا مشيرا إلى "أن نفوذ الزوايا يخرق مناطق أكثر اتساعا من نفوذ حسان" إذ "يتوفرون على زبناء داخل جميع فئات المجتمع" بما في ذلك الفئات التابعة.

ب. المجموعات التابعة

¹²⁷ - Ould Cheikh, Nomadisme, op.cit., pp.915 et suivantes

¹²⁸ - Caille, Note sur les peuples, op.cit., p.3.

¹²⁹ - Idem

¹³⁰ - Soleillet, Rapport, op.cit., p.4.

تنقسم المجموعة التابعة في المتمع البيضاني أثناء القرن التاسع عشر إلى شرائح اجتماعية متعددة أهمها أزناكه والصناع التقليديون والمغنون والحراطين والعبيد

1. الغارمون (أزناكه)¹³¹

اشتقت تسمية هذه الفئة الاجتماعية من وضعيتها داخل البنية الهرمية البيضانية فهي بحكم تلك الوضعية والمكانة الاجتماعية تابعة لإحدى الأرسقراطيتين الحسانية أو الزاوية أو لهما معا. أما تسمية أزناكه فكانت تطلق في الأصل على القبائل الصنهاجية فهي تحريف لصنهاجه إلا أن هذه التسمية أصبحت مع مرور الزمن تطلق اصطلاحا على المجموعة الغارمة.

وينحدر أفراد هذه الفئة من بعض المجموعات التي تعرضت للهزيمة على أيدي القبائل الأقوى فأصبحت أتباعا لتلك القبائل. يقول الرحالة موليين¹³²: "ما تزال توجد بين صفوف البيضان طبقة [فئة] تسمى التابعين منحدره من بقايا أمم [قبائل] تم التغلب عليها".

¹³¹ - حول هذه الشريحة يمكن الرجوع إلى:

✓ يحيى بن البراء، التابعة في الفقه الموريتاني (وقفة تأمل)، الوسيط، مجلة المعهد الموريتاني للبحث العلمي، العدد 3، نواكشوط، 1989، صص. 122-145،

✓ Ould Cheikh, Nomadisme, Islam..., op.cit., pp. 398 et suivantes,

✓ Gerhardt, Les Trarza, tribus..., op.cit.,

✓ Rechid Ould Mohamed, Contribution l'histoire de la Mauritanie, statut et condition serviles dans la Société maure précoloniale, mémoire de maîtrise, Université de Nouakchott, 1988.

¹³² - Mollien, Voyage, t-1, op.cit., pp.14-15.

ويتحدث موليين حديثا لا يخلو من مبالغة عن وضعية هؤلاء الغارمين فيقول: "إن أفراد هذه الفئة يننون تحت وطأة عبودية فظيعة: فمواشيهم ونساؤهم فريسة لأسيادهم وأي محاولة مهما كانت بسيطة من جانبهم للمقاومة جزاؤها القتل".¹³³ [?]

وفي نطاق حديثه عن الفئات الاجتماعية البيضاء يستعرض كايي أحوال فئة الغارمين هذه مشيرا إلى أن أفرادها هم أكثر البيضان تعاسة.¹³⁴ ويؤكد هذا الرحالة أن فئة أزناكة (الأتباع) مرغمة على تقديم أتوات سنوية متنوعة لحسان تشتمل ماتارا¹³⁵ (Matar) من الدخن وجلود خراف مدبوغة وكمية من النسيج أو بقرة حلوبا وإناء من الدهن. ويوضح أن "التابع" يسدد بالضبط هذه "المستحقات" لـ "سيده". غير أن هذا الأخير يطلب دائما المزيد ويعرض هؤلاء البؤساء لأبشع أنواع العذاب مغتصبا كل ما يحلو له.¹³⁶

وعلى ما يبدو فإن كايي يبالغ في وصف معاملة حسان للأتباع إذ يوصلها إلى درجة من القسوة يتعرض لها عادة العبيد وهي تكبيلهم بالقيود وجرهم بالجمال.¹³⁷ بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يذكر أن فظاعة الحساني تتجاوز كل الحدود فبعد أن يخضع التابع لأنواع التعذيب الفظيعة فإنه كثيرا ما يقتله إذا لم يحصل منه على مبتغاه.¹³⁸

ويواصل كايي حديثه الذي لا يخلو من مبالغة عن أوضاع الأتباع مشيرا إلى أنهم ليسوا في مأمن من الاضطهاد والتعذيب مهما ابتعدوا، فحسان سيطاردونهم حتى

¹³³ - Ibid

¹³⁴ - Caillié, Voyage, t-1, op.cit., p.145.

¹³⁵ - لعل الكلمة تحريف لمصطلح محلي هو "ماته"، وهي وحدة كيل للحبوب تبلغ 20 مدا.

¹³⁶ - Caillié, Voyage, t-1, op.cit., p.145.

¹³⁷ - Idem

¹³⁸ - Idem

داخل مخيماتهم حيث يقيمون عندهم أياما عديدة ويتغذون كما يطيب لهم على حساب هؤلاء التابعين.¹³⁹

ويلجأ الأتباع في غالب الأحيان إلى السكن في الغيصات المكتظة بالأشجار والنبات احتماء من زيارات حسان المزعجة وتهربا من الضيوف المسافرين.¹⁴⁰ ويتحدث الرحالة كايي عن أنشطة هذه الفئة مشيرا إلى أن الأتباع يمتلكون أعدادا قليلة من الأبقار وقطعانا هائلة من الضأن والماعز تدر عليهم كميات كبيرة من الألبان يستخرجون منها الدهون التي يقايضونها بالقماش الغيني الأزرق في محطات التبادل النهرية.¹⁴¹

وبالإضافة إلى ممارسة الرعي فإن هذه الفئة تشتغل بالزراعة كنشاط ثانوي. ففورما تتراجع مياه الفيضانات يتوجه الأتباع إلى النهر لزراعة الدخن والذرة. ويمارسون هذا النشاط جنبا إلى جنب مع عبيدهم¹⁴²، إذ يسمح لهم بامتلاك بعض العبيد الذين يستخدمون في رعي المواشي وزراعة الأرض. غير أن الأتباع لا يستطيعون إرسال عبيدهم لجنى الصمغ مخافة أن يسرقهم حسان.¹⁴³ ويتحدث علي صلّ من جانبه عن المعاملة التي يتلقاها أзнаكة (التابعون) على أيدي الأرستقراطية العسكرية مشيرا إلى الضرائب والغرامات والهدايا المتعددة التي يرغمون على تقديمها للأمرء والتي لا يضمن تقديمها أمن الأتباع واحترام ممتلكاتهم، إذ كثيرا ما يتعرضون رغم الوفاء بتلك "المستحقات" للسلب والنهب والاعتداء الجسدي من لدن بعض زعماء وأفراد القبائل المحاربة.¹⁴⁴

¹³⁹ - Ibid, t-1, op.cit., pp.11 et 45.

¹⁴⁰ - Ibid, t-1, op.cit., p.145.

¹⁴¹ - Idem

¹⁴² - Ibid, t-1, op.cit., p.146.

¹⁴³ - Idem

¹⁴⁴ - A. Sall, Rapport, op.cit., p.17.

ويتوقف هذا المستكشف عند الأدوار التي تلعبها أفراد هذه الفئة في الإنتاج مبرزاً خبرتهم في تربية ورعاية الحيوانات والفوائد التي تجنيها مختلف فئات المجتمع من مردودية قطعان المواشي تلك.¹⁴⁵

ويضيف علي صل إن الأتباع أيضاً يمارسون الزراعة والصيد التقليدي كأشطة ثانوية.¹⁴⁶

وقد أعجب صولي، من جانبه، بمهارة الأتباع في تربية الحيوانات ومعالجة بعض أمراضها¹⁴⁷. وأشار إلى ما يميز هذه الفئة من حيوية ونشاط.¹⁴⁸

ويشبه هذا الرحالة وضعية فئة أزانكا (اللحمة) بوضعية طبقة التابعين في أوربا العصور الوسطى. إذ يقول: "وجدنا في مخيم من أزانكا [الأتباع] إبراهيم خليل [ابن وزير الأمير] وأحد أصدقائه وهما يعيشان في ذلك الحي مثلما كان أبناء كبار النبلاء يعيشون بين تابعيهم في العصور الوسطى."¹⁴⁹

وفضلاً عن تنمية ورعي المواشي وزراعة الأرض فإن بعض أفراد هذه الفئة يوظفون أحياناً بأدوار سياسية وعسكرية، إذ كثيراً ما يلجأ الأمراء في أوقات الأزمات إلى فئة التابعين بوصفها قوة احتياطية في الحروب الداخلية أو الخارجية. وإذا كان بعض هؤلاء التابعين يتطوع أحياناً إلى جانب أسياده فإن أكثرهم تجند إجبارياً دون أن تستطيع الرفض مخافة إنزال العقوبات بها بعد انتهاء الحروب.¹⁵⁰

ولا يخضع التابعون للأرستقراطية الحربية وحدها، بل إن من بينهم تابعين للأرستقراطية الدينية كذلك. وتتجسد تلك التبعية في تقديم بعض الغرامات مثل

¹⁴⁵ - Ibid, op.cit., p.21.

¹⁴⁶ - Ibid, p.22.

¹⁴⁷ - Solleillet, Rapport, op.cit., p.73.

¹⁴⁸ - Ibid, p.53.

¹⁴⁹ - Ibid, p.92.

¹⁵⁰ - Poulet, **Les Maures**, op.cit., p.8.

"الهدية"¹⁵¹ و"الكبظ"¹⁵² التي تقدم مقابل الحماية المعنوية والروحية. غير أن أزنائه ليسوا وحدهم الملزمين بهذه "الهدايا"، بل إن الزوايا "يفرضونها" على بقية الفئات التابعة من حراطين وصناع ومغنين... إلخ.

2. المجموعة الحرفية (المعلمين وإيكاون)

لقد أطلق كونستان هامس¹⁵³ هذه التسمية على شريحتي الصناع التقليديين والمطربين.

وبما أن "هاتين الشريحتين وحدهما تمارسان نشاطهما دون مشاركة تذكر من جانب الفئات الأخرى"¹⁵⁴ فقد اعتقد البعض¹⁵⁵ في وقت من الأوقات أن الأمر يتعلق بشرائح اجتماعية مغلقة. ورغم أهمية أدوارهما فإن هاتين المجموعتين قليلتا العدد إذ لا تمثلان حسب إحصاءات "سدس"¹⁵⁶ سوى 2% من المجتمع البيضاني.

¹⁵¹ - تعني "الهدية" في الاصطلاح المحلي ما يقدم للشخصيات الدينية تقربا إلى الله. وهي تمتاز بطابعها التطوعي.

¹⁵² - مصطلح محلي وهو كلمة حسانية من الأصل العربي "قبض"، ويعني هذا إتاحة يأخذها أهل الفضل والصلاح من الزوايا على الفئات الأخرى في مقابل خدمات علمية وروحية، ويختلف "الكبظ" عن "الهدية" بالزاميته.

¹⁵³ - Statuts et rapports sociaux en Mauritanie précoloniale, Paris, Cahiers du Centre International d'Etudes et de Recherches Marxistes (CIERM), n°133, 1977, pp.10-21, p.12.

¹⁵⁴ - Francis de Chassey, *L'étrier, la houe et le livre*, op.cit., p.102.

¹⁵⁵ - نشير هنا إلى موقف كونستان هامس المعبر عنه في مقاله:

Hamès, La société maure ou le système des castes hors de l'Inde, Paris, Cahiers Internationaux de Sociologie, vol. XLVI, 1969, pp.163-177.

وقد تراجع هامس عن موقفه ذلك فيما بعد.

¹⁵⁶ - Anonyme, Enquête démographique, op.cit., pp.135-137.

1. الصناعات التقليدية (المعلمين)¹⁵⁷

تطلق على أفراد هذه الشريحة تسميات متعددة من أهمها الحدادين و"المعلمين". وهم يمارسون نشاطا حرفيا متعددًا يجمع بين النجارة والحدادة وصياغة الذهب وصناعة الجلود... إلخ

ويقوم الصناعات التقليدية بصناعة مختلف حاجيات المجتمع من الحديد كأدوات الإنتاج (فؤوس، ومناجل، ومعاول... إلخ) والأسلحة (خناجر، سكاكين، حراب وبنادق تقليدية... إلخ) واللوازم المنزلية المختلفة (الأقفال، المفاتيح... إلخ). يقول كايي¹⁵⁸ "إن الحدادين يصنعون الأقفال والقيود الحديدية والخناجر وجميع الصناعات الحديدية بصفة عامة".

ويذكر علي صل¹⁵⁹ أن هؤلاء الحدادين يصنعون بمهارة كبيرة مختلف الأدوات الحديدية التي يحتاجها البيضان في حياتهم اليومية بما فيها الأسلحة. ويشير صولبي¹⁶⁰ إلى ما يتميز به الحدادون البيضان من مهارة وإتقان رغم بساطة ما يتوفرون عليه من أدوات.

¹⁵⁷ - حول هذه الشريحة يمكن الرجوع إلى:

- ✓ Albert Leriche, Note pour servir l'histoire maure (notes sur les forgerons, les Kunta et les Maures du Hodh), BIFAN, t.-XV, n°2, 1953, pp. 737- 750.
- ✓ المختار ولد حامد الموسوعة، جزء الجغرافيا، صص. 109-108.

¹⁵⁸ - Caillié, **Voyage**, t-1, op.cit., p.126.

¹⁵⁹ - A. Sall, Rapport, op.cit., p.15.

¹⁶⁰ - Soleillet, Rapport, op.cit., p.99.

أما في مجال النجارة فيصنعون من الأخشاب مصنوعات لا تقل أهمية عن الصناعات الحديدية إذ توفر، هذه المادة جانبا من حاجيات البيضان اليومية سواء تعلق الأمر بالأحذية أو بالسروج أو الصناديق والأقداح...إلخ. وتتميز الصناعات التقليدية في هذا المجال حيث برعن في الخياطة والزخرفة والتنميق وكل ما يتصل بالصناعات الجلدية، فصنعن على وجه الخصوص أغطية الجلود (الفراء) والوسائد والأعماد المزخرفة فضلا عن زخرفة الآلات الموسيقية.

ويذكر علي صل¹⁶¹ أنه فوجئ بالمهارة والدقة التي تعد بها الصناعات التقليدية صناعاتهن.

ولا يخفي بلانشي¹⁶² إعجابه بالصناعات الجلدية البيضانية التي تعبر حسب هذا الرحالة عن درجة كبيرة من المهارة والإتقان.

ولا يقل شأن الصناع التقليديين صائغي الذهب ومصنعي الحلبي عن دور الحدادين والنجارين، ذلك أنهم يصنعون أدوات الزينة وحلي النساء التي "تصدر وتباع حتى في السيراليون والكونغو"¹⁶³ رغم أن الصناعة التقليدية ليست معدة بالأساس للتصدير وإنما لتلبية الحاجيات المحلية للسكان¹⁶⁴.

يقول كايي¹⁶⁵ "إن الصناع التقليديين هم أيضا صائغو ذهب ويعملون بمهارة فائقة، ورغم محدودية ما يتوفرون عليه من أدوات فإنهم ينجزون صنائع وأشغالا مذهلة".

¹⁶¹ - A. Sall, Rapport, op.cit., p.16.

¹⁶² - Blanchet, Rapport, op.cit., p.11.

¹⁶³ - Golbery, **Frangments d'un voyage**, t-1, op.cit., p.319.

¹⁶⁴ - Francis de Chassey, l'étrier, op.cit., p.47.

¹⁶⁵ - Caillié, **Voyage**, t-1, op.cit., p.126.

وتتنوع هذه الصناعات لتشمل الأقرط والاساور والقلائد والخواتم
والخلاخيل... إلخ
وفي العادة يتم تزويد الصناع التقليديين بالمادة المعدنية الضرورية للصناعة
المطلوبة. أما أجره العمل فتدفع حبوبا أو لبنا أو ثيابا.¹⁶⁶
ورغم أهمية الدور الذي يلعبه الصناع التقليديون في المجتمع البيضاني فإن
هذه الفئة تعاني الاحتقار والظلم. يقول كايي¹⁶⁷: "إن الحدادين يعتبرون دائما أتباعا
تحتقرهم بقية الطبقات [الفئات]، وهم معرضون لنهب حسان بصورة مستمرة. وعندما
يحصلون على كسب بواسطة عملهم فإنهم لا يستطيعون الاحتفاظ به [مخافة النهب]
بل هم مرغمون على إيداعه لدى الزوايا".
ويشير هذا الرحالة¹⁶⁸ إلى أن الحدادين ربما كانوا من أكثر فئات المجتمع
تعاسة، إذ لا يستطيعون السكن في مخيم خاص مخافة نهب حسان مما جعلهم
مضطرين للإقامة مع مخيمات الزوايا.
وهذه الوضعية جعلت الصناع التقليديين أكثر ارتباطا بفئة الزوايا. وقد يعود
ذلك أيضا إلى كثرة الزوايا العديدة وضخامة ثروتهم الاقتصادية مما يوفر لهؤلاء
الصناع سوقا أكثر اتساعا لمنتجاتهم، من جهة، ويساعدهم، من جهة أخرى، في
الحصول على بعض المواد الضرورية لهذه الصناعات كالمعادن (ذهب، فضة، نحاس
وحديد)، والمنتجات الحيوانية (الجلود، العظام... إلخ).

ولا تختلف وضعية هؤلاء الحدادين كثيرا عن تلك التي عاشها أمثالهم أثناء
القرن التاسع عشر في مجتمع مجاور. يقول أحمد التوفيق متحدثا عن الصناع في
المغرب الأقصى: "وبالرغم من كون الصناع كانوا يقومون بخدمات لا غنى عنها في

¹⁶⁶ - A. Sall, Rapport, op.cit., p.16.

¹⁶⁷ - Caillié, Voyage, t-1, op.cit., p.126

¹⁶⁸ - Ibid, t-1, op.cit., p.148.

إطار المجتمع الزراعي التقليدي، فإنهم لم يكونوا يحظون بتقدير ذلك المجتمع...".
169

ويضيف هذا الباحث¹⁷⁰ أن الصناع لم يكونوا مندمجين اقتصاديا في وسط المجتمع القروي، بل كانوا مكفولين من طرف هذا المجتمع، وكان التعاقد الضمني قائما على مبادلة الأدوات بجزء من الزرع، ويشير إلى أنهم يتعرضون أحيانا للتسخير مقابل حماية غير مقننة. وإذا كان الصناع التقليديون أكثر ارتباطا بالزوايا فإن الأمر عكس ذلك بالنسبة للمطربين.

2. المطربون (إيكاون)¹⁷¹

يطلق البيضان على هذه الشريحة تسميات عدة من أكثرها شيوعا "إيكاون" و"الشعار"، وهذه الفئة قليلة العدد رغم أن كايي¹⁷² يذكر "أن أفرادها كثير و العدد بين صفوف البيضان". ويرتبط المطربون خاصة بفئة حسان. وتعتبر مهمتهم الأساسية تمجيد أمراء وزعماء هذه الفئة والتغني بأمجادهم وانتصاراتهم العسكرية.

169 - أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (اينولتان 1850-1912)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط. 2، 1983، ص. 669، ص. 252.
170 - المرجع السابق، ص. 253.
171 - بصدد هذه الشريحة تمكن مراجعة:

- ✓ المختار ولد حامد، الموسوعة، جزء الجغرافيا، مرسا، صص. 104-105،
- ✓ Guignard, **Musique, honneur et plaisir au Sahara**, Paris, 1975,
- ✓ Ould Cheikh, **La Musique traditionnelle et son Avenir**, IMRS, Nouakchott, 1983.

172 - Caillié, **Voyage**, t-1, op.cit., p.104.

ولهذا الغرض طور المطربون فن "اتهيدين" وهو عبارة عن قصائد حماسية من الشعر الشعبي ذات بنية لغوية وموسيقية متميزة تمجد هذا الأمير أو ذلك وتشيد بشجاعته وبطولته وسخائه... إلخ. وكثيرا ما تنتشد هذه القصائد الخاصة في بعض المناسبات كالحروب والمعارك والأعياد¹⁷³.

ويتوفر كل أمير في العادة على مطرب خاص به يعيش في بلاطه ويتبعه حيثما حل. ويذهب كايي إلى أن المطربين الذين يرافقون الأمراء يحصلون منهم دوما على كل ما يطلبون بالتملق أحيانا وبالتهديد أحيانا أخرى.¹⁷⁴

ورغم أن هذه الشريحة الاجتماعية لا تحظى بتقدير العديد من فئات المجتمع البيضاني فإنها تفرض نفسها على الجميع خاصة الزوايا وحسان وذلك بفضل سلاح الفن الذي تمتلكه. فالبيضان يسعون إلى كسب ود المطربين عن طريق العطايا المتعددة تفاديا لانتقاداتهم اللاذعة وسعيا إلى إرضائهم وجلب مديحهم إن أمكن.¹⁷⁵

وهكذا تمكنت هذه الفئة، من خلال حرفتها الفنية، من فرض نفسها على المجتمع والحصول على نصيب من الرزق يضمن لها الحياة دون ممارسة أي نوع من الأنشطة الاقتصادية المنتجة.

وقد تحامل كايي¹⁷⁶ على هذه الشريحة واصفا أفرادها بالطفيليين وزاعما أنهم أوجدوا وسيلة للتخفيف تعادل درجة احتقار البيضان لهم؛ فهؤلاء المطربون يتوفرون على درجة عالية من القدرة على التأثير تمنحهم درجة من الهيبة لا تتوفر عليها الفئات المسترقة.

3. المجموعة المسترقة (الحراطين والعبيد)

¹⁷³ - A. sall, Rapport, op.cit., p.18.

¹⁷⁴ - Caillié, Voyage, t-1, op.cit., p.104.

¹⁷⁵ - A. sall, Rapport, op.cit., p.19.

¹⁷⁶ - Caillié, Voyage, op.cit., p.104.

توجد هذه المجموعة في أسفل الهرم الاجتماعي رغم أهميتها العديدة وما تقوم به من أدوار إنتاجية مهمة في مجتمع البيضان التقليدي. وهي تتشكل من الحراطين والعبيد.

الحراطين¹⁷⁷

تتكون هذه الشريحة من العبيد المعتقين من قبل مالكيهم أو من أولئك الذين انتزعوا حريتهم من أسيادهم شراء أو فرارا أو عنوة. ولذا فإن أفراد فئة الحراطين يزدادون مع الزمن بحكم المسار المتواصل نحو الانعتاق. وقد بلغت نسبة هذه الشريحة حسب إحصاءات "سدس" السابقة الذكر حوالي 29% من المجتمع البيضاني.

ويتولى الحراطين القيام بالعديد من المهمات من أهمها المزارعة والرعي. ففي منطقة حوض النهر يقوم الحراطين بزراعة الأرض مقابل الحصول على نسبة من المحصول الزراعي. وفي المناطق الرعوية يشارك الحراطين إلى جانب أزناكه (الأتباع) في تنمية ورعي الحيوانات مقابل الحصول على نسبة من مردوديتها.¹⁷⁸ وض من حديثه عن الحراطين ذكر كايي¹⁷⁹ من بين المهام المنوطة بهذه الفئة رعي الإبل. ويعتقد هذا الرحالة أن الحراطين ينحدرون من آباء بيضان وأمهات زنجيات زاعما أنهم عبيد لكن لا يمكن بيعهم. ويضيف كايي إن هؤلاء الحراطين فخورون بأصولهم وكثيرا ما يرفضون الانصياع لأوامر أسيادهم، وقد استنتج من كل ذلك أنهم يمثلون سلالة وسطا بين البيضان والعبيد.¹⁸⁰

¹⁷⁷ - للمزيد من المعلومات عن هذه الفئة يمكن الرجوع إلى:

- ✓ Albert Leriche, Les haratines (Mauritanie), B.L.S., n! 6 1951;
- ✓ Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir..., op.cit.

¹⁷⁸ - A. sall, Rapport, op.cit., p.19-20.

¹⁷⁹ - Caillié, Voyage, t-1, op.cit., pp.106-107.

¹⁸⁰ - Ibid

العبيد¹⁸¹

يحتل العبيد حضيض الهرم الاجتماعي البيضاني وهم يمثلون حسب إحصاءات "سدس" المشار إليها سابقا نسبة 13% من المجتمع البيضاني. وهي نسبة أخذة في التناقص بحكم التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ولا تقتصر ظاهرة الرق على المجتمع البيضاني، بل إنها تسود ربما بشكل أقسى في المجتمعات الزنجية المجاورة. ويرجع بعض الفرنسيين¹⁸² ظاهرة الرق في المجتمع البيضاني إلى عدة قرون من المتاجرة، وإلى عمليات النهب والسطو التي كان البيضان يشنونها على جيرانهم الزنوج. وكان العبيد في القرن التاسع عشر يتعرضون للاستغلال ويستخدمون في مختلف الأنشطة كرعى المواشي وفلاحة الأرض وجني الصمغ والخدمات المنزلية المتعددة. وقد توقف الرحالون والمستكشفون الفرنسيون خاصة رني كايي عند معاملة البيضان القاسية لعبيدهم. يقول كايي¹⁸³: "إن العبيد السود مكلفون برعاية البقر وعليهم أن يتجهوا به في حدود السابعة صباحا إلى المروج ويعيدوه وقت غروب الشمس". ويصرح علي صل¹⁸⁴ أنه شاهد خلال تجواله بالبلاد الموريتانية الكثير من العبيد الرعاة الذين يغادرون المخيم صحبة قطعان المواشي من غسق الفجر إلى ما

¹⁸¹ - بشأن هذه الفئة تمكن مراجعة:

- ✓ Rechid Ould Mohamed, Contribution..., op.cit.
- ✓ G. Le Rumeur, Les captifs au Sahara méridional, Mémoires du CHEAM, n°1203, 1947.

¹⁸² - راجع كلا من:

- ✓ Soleillet, Rapport...op.cit., p. 35;
- ✓ Francis de Chasse, op.cit.

¹⁸³ - Caillié, Voyage, t-1, op.cit., p.107.

بعد غروب الشمس فيقضون النهار كله في الفلاة منشغلين برعاية تلك القطعان وما تتطلبه من مستلزمات البحث عن العيون والآبار لسقيها وعن أماكن الكلاً الأكثر ملاءمة لانتجاعها.

ويضيف هذا المستكشف¹⁸⁵ إن العبيد الرعاة بعد عودتهم إلى المخيم ليلاً مطالبون أيضاً بالعناية بمواشي أسيادهم وإدخالها الحظائر وحلبها...إلخ.

وفي المنحى نفسه يقول كايي¹⁸⁶: "إن العبيد أثناء رحيل المخيم يحملون على رؤوسهم الأمتعة التي لم تتحملها ظهور الثيران وأنهم يعاملون معاملة سيئة ويتغذون تغذية رديئة ويجلدون لأبسط نزوة من السيد ودون أن يرتكبوا أبسط خطأ."

ويواصل كايي حديثه الذي لا يخلو من تحامل عن معاملة البيضان للعبيد فيقول: "إذا كان البيضان بخلاء فإن عدم إنسانيتهم لا يقل عن بخلهم، إذ يعاملون العبيد معاملة بربرية. ولا يمنحونهم سوى أسماء شائمة ويفرضون عليهم أعمالاً كثيرة ولا يعطونهم إلا القليل من التغذية وجلد شاة للباس"¹⁸⁷.

ويشير علي صل¹⁸⁸ إلى أن البيضان يعاملون عبيدهم معاملة قاسية إلى أبعد حد وأنهم لا يعتبرونهم مسلمين إذ لا يحافظون على الصلوات والصوم وغير ذلك من دعائم الإسلام.

وعن تعدد الأنشطة التي يمارسها العبيد يقول كايي: "إنهم مكلفون بسد جميع حاجيات الحي من رعاية المواشي وتوفير المياه والحطب وزراعة الحقول. وتقوم نساؤهم بطحن الحبوب وتحضير الأطعمة وخدمة سيداتهن"¹⁸⁹.

¹⁸⁴ - A. sall, Rapport, op.cit., p.18.

¹⁸⁵ - A. sall, Rapport, op.cit., p.18-19.

¹⁸⁶ - Caillié, **Voyage**, t-1, op.cit., p.149.

¹⁸⁷ - Ibid, t-1, p.144.

¹⁸⁸ - A. sall, Rapport, op.cit., p.18.

¹⁸⁹ - Caillié, **Voyage**, t-1, op.cit., p.149.

ومن الوظائف المنوطة بالعبيد أيضا جني الصمغ لصالح أسيادهم. إذ يذكر صولي¹⁹⁰ أنه صادف عبيدا يجمعون الصمغ لأسيادهم موضحا أنهم يقدمون للأسياذ يوميا ما يجنون من صمغ وأن الأسياذ خلال فترة جني الصمغ لا يعطون العبيد أي تغذية فعليهم أن يتغذوا من الصمغ الذي يجنونه.

لقد شكلت كل هذه الفئات من أرسقراطية وأتباع "جزرا إجتماعية" تكرست عبر جدلية التمثلات الثقافية والممارسات الاجتماعية. فما هي أهم ملامح الحياة الثقافية والاجتماعية؟

¹⁹⁰ - Soleillet, Rapport, op.cit., pp.36-37.

الفصل السادس

الحياة الثقافية والاجتماعية

عاشت البلاد الشنقيطية، خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين/السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، نهضة ثقافية أفرزت حركة إنتاج أدبي شمل مجالات عديدة. وقد آتت هذه النهضة أكلها على الخصوص أثناء القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، أي في الفترة التي كثف فيها الفرنسيون مجهوداتهم لاختراق هذه البلاد واستكناه مجاهلها. فإلى أي حد لفتت الحياة الثقافية البيضاوية أنظار المستكشفين والرحالين الفرنسيين؟ وما هي أهم جوانب تلك الحياة كما رآها ووصفها أولئك الفرنسيون؟

أولا. الحياة الدينية والثقافية

¹ - راجع بهذا الخصوص:

- ✓ المختار ولد حامد، حياة موريتانيا، الحياة الثقافية، الجزء الثاني، الدار العربية للكتاب، تونس، 1990، 381 ص.
- ✓ الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة... والرباط. عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، تونس، 1987، 647 ص.
- ✓ ددود بن عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط، مر. سا.

إذا كانت البلاد مجزأة سياسياً إلى عدة إمارات ومشيخات تتصارع فيما بينها فإنها على الصعيد الثقافي تشكل بنية عامة موحدة تؤلف عناصرها لغة واحدة ودين سماوي واحد وعادات وتقاليد اجتماعية متشابهة.²

أ. الحياة الدينية

حظيت الحياة الدينية بالنصيب الأوفر من اهتمام الفرنسيين بالوجه الثقافي من حياة البيضان سواء على صعيد الدعوة أو في مستوى الممارسة.

1. الدعوة

لقد أسهم بيضان الصحراء إسهاماً فعالاً في نشر الدين الإسلامي في بلاد السودان وفي الغرب الإفريقي بشكل عام. وكان الرحالة موليين من أوائل من تفتن، من الفرنسيين، إلى الدور الذي لعبه هؤلاء البيضان في نشر الدين الإسلامي عبر أصقاع القارة الإفريقية³ إذ يقول: "إن سرعة نجاحهم [البيضان] تجعلنا نفترض أن المبشرين المسيحيين في رأس

² - رغم تخلف وسائل النقل والمواصلات حينئذ، ورغم صعوبة الاتصال بين مختلف مناطق البلاد فإن سكان قرية باسكنو - الموجودة في أقصى الجنوب الشرقي للبلاد - عندما سمعوا ادعاء علي صل أمام جنود الحاج عمر بأنه تلميذ للشيخ محمذن فال بن متالي الذي كان يعيش في أقصى الجنوب الغربي، فإنهم سارعوا إلى التطوع بقدية ذهبية لافتكاكه من الأسر. ولعل في ذلك ما يكفي للتدليل على أن هذه البلاد كانت تشكل وحدة متجانسة على المستوى الثقافي والديني. راجع: الفصل الثالث من هذا العمل، ص. 000.

³ - راجع بهذا الخصوص:

- ✓ أحمد جمال ولد الحسن، حركة الإمام ناصر الدين...، مر. سا،
- ✓ دود بن عبد الله، الإسلام والمجتمع في إفريقيا الغربية خلال القرنين 17-18 للميلاد، حوايات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد 2، 1990، صص. 7-20.

الرجاء الصالح، قبل أن يتمكنوا [...] من دخول المناطق الوسطى من القارة الإفريقية، سيلاقون [هنالك] مسلمين"⁴.

ويؤكد كايي من جانبه على الدور الذي يلعبه البيضان في نشر الدين والثقافة الإسلاميين في المناطق الإفريقية المجاورة حين يقول: "إن الكثير من زنوج فوتا تورو يأتون إلى البيضان لتعلم القرآن"⁵.

وسيتواصل الحديث عن هذا الدور على امتداد القرن التاسع عشر إذ نجد الرحالين صولبي، وبلانشي (الذين زارا على التوالي سنتي 1880 و1900 مخيم الشيخ سعد بوه) يتحدثان عن إشعاع تلك الشخصية الدينية البارزة وما يتوفر عليه ذلك الشيخ من الأتباع الكثر في مختلف مناطق إفريقيا الغربية⁶. وعلى ما يبدو فإن مواقف أصحاب مدونتنا من الدين الإسلامي ونشره في إفريقيا شديدة التباين.

فقد اعترف موليين بمزايا اعتناق الشعوب الإفريقية لهذا الدين قائلا: "إن الديانة المحمدية التي اعتنقتها تقريبا كل الشعوب الإفريقية التي زرتها قد أنارت عقولهم وصقلت أخلاقهم وطباعهم وحطمت في صفوفهم تلك الممارسات الهمجية التي يحتفظ بها الإنسان في حالة الوحشية"⁷. ويواصل هذا الرحالة في السياق نفسه متحدثا عن زنوج المنطقة وقد اعتنقوا الإسلام: "إن رواياتي تستهدف في الوقت نفسه البرهنة على أن هؤلاء الزنوج، الذين ننظر إليهم وكأنهم همج، بعيدون من أن يكونوا

⁴ - Mollien, *voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, t-1, op.cit., p.

⁵ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.117.

⁶ - راجع بهذا الخصوص:

✓ Soleillet, *Rapport...*op.cit., pp.101-103.

✓ Blanchet, *Rapport de mission...*, op.cit., p. 25.

⁷ - Mollien, *voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, t-1, op.cit., p.vij.

محرومين تماما من المعارف. إنهم ليسوا أقل تطورا من معظم سكان البادية في القارة الأوربية"⁸.

أما الضابط ماج فيتعامل على الإسلام زاعما: "أن جل آلام إفريقيا متأية من الدين الإسلامي"⁹. ويمضي هذا الضابط مبرزاً، في خاتمة رحلته عبر السودان الغربي، الموقف الذي "يجب" على الفرنسيين انتهاجه اتجاه الإسلام حين يقول: "إن علينا ألا نشجع أبداً، لا في مسعمراتنا الحالية ولا في تلك التي سنؤسسها لاحقاً"¹⁰، هذا الدين حتى ولو لبس المظاهر الأكثر جاذبية كما يحدث أحيانا في السنغال [والتسمية تشمل عنده البلاد الموريتانية]. إن محاربتة بشكل علني قد تكون مضرّة [بالمصالح الفرنسية في المنطقة] أما تشجيعه فهو أكثر ضرراً، بل إنه في نظري جريمة عن طريق التواطؤ"¹¹.

وأما الرحالة صولبي ينفي إثر لقائه بالشيخ سعد بوه، صفة التزمت التي يحلو للكثير من الفرنسيين ولغيرهم من الأوروبيين إلصاقها بالمسلمين. يقول ذلك الرحالة: "إن من يحدثنا بشكل مستمر عن التزمت الإسلامي يجهل جهلاً مطلقاً حالة الإسلام الآن في إفريقيا"¹².

⁸ - idem

⁹ - Mage, **Voyage dans le Soudan occidental**, op.cit., p.663.

¹⁰ - تتضح من هذه الفكرة المرامي التوسعية للسياسة الاستعمارية الفرنسية.

¹¹ - Mage, **Voyage dans le Soudan occidental**, op.cit., p.663.

¹² - Paul Soleillet, **Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, op.cit., p.107.

وقد دأب البيضان على دعوة المستكشفين الفرنسيين إلى اعتناق الإسلام والتمسك به. يقول كايي: "[...] وعندما علموا [البيضان] نبأ اعتناقي للإسلام ارتاحوا كثيرا وشجعوني على التمسك بهذا القرار"¹³.
ويذكر صوليى أنه توقف وهو في طريقه إلى آدرار بمخيم من زوايا أهل بارك الله فيه¹⁴ إذ يقول: "إن زوايا هذا المخيم استقبلوني بالترحاب ودعوني إلى اعتناق الإسلام"¹⁵.
وكان الأطفال يشاركون بطريقتهم في ممارسة تلك الدعوة. يقول صوليى: "عندما حان وقت الصلاة [في مخيم الأمير التروزي علي بن محمد الحبيب] وذهب الجميع لأدائها صاح الأولاد ملحين علي أن أصلي وكانت نظرات بعضهم مملأى بالتهديد"¹⁶ إصرارا على أداء تلك الشعيرة.

2. ممارسة الشعائر

تناول الفرنسيون بدرجات بالغة التفاوت هذا الجانب من حياة البيضان الدينية. فالرحالة موليين يصف كيفية أداء البيضان للصلاة قائلا: "في جميع الجهات نرى رجال دين يسجدون ضارعين إلى الله، يقلدهم في ذلك الرجال والشيوخ والنساء والأطفال، خارين سجدا نحو الشمس [القبلة] موجهين دعواتهم [...] للخالق"¹⁷.

¹³ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.71.

¹⁴ - قبيلة من مجموعة تشمشه الزاوية، توجد أساسا في منطقتي إينشيري وتيرس. أنجبت العديد من الشعراء والعلماء والمؤلفين أمثال الشيخ محمد المامي (ت.1292هـ/1875م). مؤلف كتاب البادية، ومحمد عبد الله ولد البخاري (ت.1318هـ/1900م) صاحب كتاب الأبار.

¹⁵ - Paul Soleillet, *Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar*, op.cit., p.98.

¹⁶ - Ibid, op.cit., p.62.

¹⁷ - Mollien, *voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, t-1, op.cit., p.10.

ويحدثنا كايي من جانبه عن تأدية البيضان للصلوات الخمس ومواظبتهم عليها يومياً واصفاً المسجد ومكانته، فيشير إلى أنه يلعب فضلاً عن دوره الديني أدواراً أخرى إذ "يجتمع فيه البيضان لتبادل الآراء بشأن السياسة أو القضايا التجارية"¹⁸. ولم يخف الضابط ماج إعجابه بالزوايا بعيد مشاهدته لهم وهم يؤدون الصلاة.¹⁹

ويصف الرحالة صولبي ممارسة البيضان للصلاة في مخيم الشيخ سعد بوه وما يرافق تلك العبادة من طقوس تعبدية.²⁰ ويكاد كايي ينفرد عن نظرائه بالحديث عن صيام البيضان لشهر رمضان. وقد يعود ذلك إلى أن فترة مقامه في منطقة البراكنه تصادفت مع ذلك الشهر فاضطر إلى الصيام سبعة عشر يوماً قبل أن يرغمه المرض على الإفطار.²¹ ويتحدث كايي عن الصعوبات الكبيرة التي لاقاها في خداع يقظة البيضان أثناء محاولاته إطفاء ظمئه نهائياً خلال الصيام ولو بقطرة ماء واحدة.²² ويتم كايي الزوايا بأنهم ليسوا صارمين مع مواطنيهم صرامتهم معه هو، فمعاملتهم له أكثر قسوة من معاملتهم لبني جلدتهم. ويؤكد أنه كثيراً ما شاهد شبانا يأكلون أثناء النهار في رمضان وعندما سأل عن السبب في عدم صيامهم كالأخرين أجيب بأنهم لم يتناولوا سوى القليل من الطعام للعشاء(?) وبالتالي فإنهم لا يستطيعون أن يقضوا النهار كله دون أكل.²³

¹⁸ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.71.

¹⁹ - Eugène-Abdon Mage, *Voyage au Tagant*, op.cit., p.13.

²⁰ - Paul Soleillet, *Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar*, op.cit., pp.104-105.

²¹ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.102.

²² - تمكن كايي مرة واحدة من ابتلاع ماء الاستنشاق بدل استنثاره منتهزاً انشغال مرابطه (معلمه) بالغسل، راجع:

Caillié, *Voyage ...*, op.cit., t-1, p. 170 .

²³ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.171.

ورغم زعم كايي "أنهم يستخدمون هذه الذريعة كلما رغبوا في إعفاء أنفسهم من الصيام"²⁴، فإننا نشك في صحة ما ذهب إليه ونرجح أن يكون مصدر هذا الزعم عدم فهم ذلك الرحالة للسبب الفعلي للإفطار أو إلى حالات معزولة عممها كما فعل ضمن حديثه عن صيام النساء حين قال: "لقد نوت جميع النساء [في الحي] الصيام، ولكن في حدود منتصف النهار أرغمن على الشراب فقطعن صيامهن"²⁵.

ولأن كايي لا يعرف سببا للإفطار غير العطش (حسب منطقته وهو الأوربي المسيحي) ولم يكلف نفسه عناء السؤال عن مبيحات الإفطار في الإسلام، فإنه آثر العودة إلى مرجعيته الخاصة في تفسير هذا الإفطار ولو كانت مجافية لمنطق المجتمع الذي هو الحكم في تفسير ظواهره. هذا فضلا عن التعميم الذي لا مبرر له سوى قصد إطلاق الأحكام ولو كان ذلك على حساب الحقيقة، فمن يضمن أن لا يكون هذا المنطق قد تغلب لدى كايي (وغيره من الرحالين) أحيانا على تحري الموضوعية؟.

ورغم تعامل البيضان مع الفرنسيين فقد احتفظوا بصرامتهم في ما يتصل بالمحافظة على التقاليد والالتزام بأوامر ونواهي الدين الإسلامي خاصة في مجال تحريم الخمر ولحوم الخنازير. ذلك ما يعترف به الرحالة موليين صراحة. فقد قضى هذا الرحالة عدة أيام في محطة لوكوك²⁶ التي يتبادل فيها البراكنه مع التجار الفرنسيين، وأثار انتباهه أحد المشاهد المعبرة في هذا السياق؛ فبينما كان التجار البيضان على متن سفينة كبيرة وهم في نقاشات حادة مع أحد التجار المولدين²⁷ (un

²⁴ - Idem

²⁵ - يعتقد كايي أن العطش هو الذي أرغم النساء على الإفطار دون إدراك مبرر آخر شرعي يسمح للنساء بالإفطار، هذا فضلا عن أن تعميم الإفطار على جميع النساء في منتصف النهار يدعم ما ذهبنا إليه من أن الرحالة يعمم أحيانا بعض الحالات المنعزلة. راجع:

Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p. 170 .

²⁶ - إحدى محطات التبادل القديمة على نهر السنغال، تقع إلى الغرب من مركز بودور، انظر الخريطة رقم 5 ضمن ملحقات هذا العمل.

²⁷ - تسمية تطلق على البيض المولدين في المستعمرات.

(créol)، إذ فاجأهم الفرنسيون وهم يحملون إلى السفينة خنزيرا بريا كبيرا اصطاده للتو أحدهم قرب المحطة. وعلى الفور سارع البيضان أفواجا إلى استخدام الزوارق لمغادرة تلك السفينة والابتعاد عنها لأنها بالنسبة لهم لم تعد صالحة للمقام طالما أن ذلك الحيوان النجس على متنها.²⁸

ويضيف موليين²⁹ إن هلع هؤلاء البيضان كان شديدا إلى درجة أن العديد منهم ارتموا في مياه النهر مفضلين تبلل ثيابهم على أن يتلطفوا بالاتصال بالخنزير أو بالصياد الذي يعتبر أكثر قدرا من فريسته طبقا لمرجعيتهم الثقافية.

ب. الحياة الثقافية

تعاطى بيضان الصحراء كغيرهم من الشعوب أنشطة ثقافية متعددة. وقد لفتت أشكال التعبير الثقافي البيضاني انتباه المستكشفين الفرنسيين الذين اهتموا أكثر بالثقافة الشعبية على حساب الثقافة العالمية.

1. الثقافة الشعبية

استعرض الرحالون والمستكشفون الفرنسيون بعض تجليات الثقافة الشعبية البيضانية من احتفالات وألعاب وفولكلور وموسيقى.

الاحتفالات والألعاب

رغم قساوة وشح محيطهم الطبيعي وانشغالهم جل الوقت بملاحقة السحب، فإن بيضان الجزء الجنوبي الغربي من الصحراء الكبرى عرفوا كغيرهم من الشعوب أنواعا من الألعاب أثارت انتباه بعض مستكشفي القرن التاسع عشر الفرنسيين.

²⁸ - Mollien, voyage dans l'intérieur de l'Afrique, t-1, op.cit., p.

²⁹ Ibid

ومن الألعاب الشائعة عند البيضان سباق الإبل والخيل في الأعياد الدينية والمناسبات الاجتماعية كحفلات القران والزفاف. وقد يصاحب ذلك السباق استعراض للبنادق وإطلاق الرصاص في الهواء.

وقد تحدث كايي عن تخليد البيضان لعيد الفطر قائلا: "إنه عند الزوايا مجرد عيد ديني [...].، غير أن حسان يجعلون العيد يوم فرح وتسلية: فالرجال يطلقون نيران بنادقهم، كما يجرون مباريات في سباق الخيل [...]. أما النساء [الحسانيات] فيجتمعن حول المطربين يغنين ويصفقن على أنغام الموسيقى"³⁰.

ويقارن كايي بين تخليد الزوايا وحسان للأعياد قائلا: "إن الاحتفالات على العموم أكثر مرحا لدى هؤلاء الأخيرين [حسان] منها عند الزوايا لأن المطربين الذين يرقصون في هذه الحفلات [لدى حسان] يصفقون عليها بالبهجة بالأغاني والموسيقى والتهريج"³¹.

ويتحدث هذا الرحالة عن احتفالات البيضان في مناسبات الزواج قائلا: "تنظم والدة العروس حفلة فتدبح ثورا [...] وتطبخ الكثير من الكسكس وليمة للمدعوين وهم دائما أكثر. ثم تجتمع النساء حول الزوجة الجديدة يتغنين بتمجيدها متسليات طول ذلك اليوم إلا أنني لم أرهن أبدا يرقصن"³².

أما علي صل فيتحدث بدوره عن حفلات الغناء والرقص الفولكلوري عند البيضان خاصة في منطقتي تانت و الحوض مؤكدا على شيوع ظاهرة الرقص في صفوف النساء من مختلف الفئات الاجتماعية وقد أبدى إعجابه بذلك الرقص البدعي خاصة في منطقة تانت.³³

³⁰ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.174.

³¹ - Idem

³² - Ibid, t-1, p.137.

³³ - Alioune Sall, **Rapport sur un voyage d'exploration**, op.cit., p.5.

وعن ألعاب السباق يقول هذا المستكشف: "إن ألعاب سباق الخيل والإبل التي تنظم بالحوض والتي حضرت مناسبة منها [سباق إبل] كثيرا ما تؤدي إلى مشاحنات قد تأخذ أشكالا عنيفة"³⁴.

وأبدى هذا المستكشف إعجابه بروعة تلك السباقات وبكفاءة المتسابقين وسرعة جمالهم ومهارتهم في القيام ببعض الحركات البهلوانية على ظهور الجمال وهي تجرى بسرعة خارقة.³⁵

وفي نطاق حديثه عن ألعاب البيضان يذكر كايي³⁶ لعبة "رمي الأكعب"³⁷ مشيرا إلى أن المتبارين بعد أن يرتبوا الأكعب يبتعدون عنها مسافة طويلة ثم تبدأ المباريات برمي الأكعب (الأهداف) بالحجارة. ويحق للفائز في هذه اللعبة أن ينقر بأصبعه الأوسط على أنف خصمه³⁸.

ورغم أن عليا صل³⁹ يشير إلى انتشار هذه اللعبة في أرض البيضان فإن كايي⁴⁰ يقول: "إن البيضان قليلا ما يمارسون هذه اللعبة لأنها تتطلب الكثير من الحركة مشيرا إلى أن الأمراء يتعاطونها أحيانا.

ومن ألعاب التسلية المتداولة عند القوم كذلك لعبة؛ السي « التي تتألف من أعواد خشبية صغيرة مجهزة تجهيزا خاصا ويلعبها فريقان متنافسان يستخدمان أعوادا وبعرا يتم تحريكهما في ميدان خاص يرسم على الأرض وحسب مقتضيات اللعب.

³⁴ - Ibid, op.cit., pp.17-18.

³⁵ - Ibid, op.cit., p.18.

³⁶ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.172.

³⁷ - بخصوص هذه اللعبة ومدلولاتها الاجتماعية، تمكن مراجعة البحث القيم والطريف لزميلنا سيدي محمد بن حديمين: "الجد في اللعب: لعبة "الكعب" نموذجاً"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد 4، 1993 - 1994، صص.163-182.

³⁸ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.172.

³⁹ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.21.

⁴⁰ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.172.

ويلاحظ كايي⁴¹ أن البيضان يمارسون لعب "السيك" أثناء شهر رمضان تسليية وقتلا للوقت.

وبعد مضي حوالي قرنين من الزمان على زيارة كايي للمنطقة فإن استخدام هذه اللعبة أثناء شهر رمضان وللغرض نفسه ما يزال منتشرًا في عموم البلاد.

وقد شاهد صولبي⁴² بدوره مباراة صاخبة من مباريات هذه اللعبة وذلك في مخيم الأمير التروزي علي بن محمد الحبيب.

ولدى البيضان ألعاب أخرى للتسليية والرياضة العقلية منها لعبة "اصرند"⁴³ وتسمى لدى بعضهم أيضا "ظامت" ولعبة "المراو" و"هو لعب السدر كما في القاموس"⁴⁴.

وهاتان اللعبتان ترسمان عادة في الرمل على شكل مربعات وتستخدم العيدان والبعر للعب في تلك المربعات المختلفة.

وقد أشار بعض أصحاب مدونتنا⁴⁵ إلى هاتين اللعبتين دون أن يقدمتا تفاصيل بشأنهما مما يوحي بأنهما كانتا أقل تداولًا من الألعاب السابقة.

ولا تقتصر وسائل الترفيه البيضانية على هذه الألعاب وتلك الاحتفالات، بل إن الموسيقى قد أخذت حيزها في حياة القوم.

⁴¹ - Ibid, op.cit., p.171.

⁴² - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., p.59.

⁴³ - سماها ابن حامد أيضا الشطرنج وإن اختلفت عنها بعض الاختلاف فإنهما تتشابهان نوعًا ما.

انظر: المختار بن حامد، الحياة الثقافية، مرسا، ص.191

⁴⁴ - المختار بن حامد، الحياة الثقافية، مرسا، ص.46، الإحالة رقم 46.

⁴⁵ - راجع بهذا الشأن:

- ✓ Sall, Rapport sur un voyage ..., op.cit., pp. 22 et 31;
- ✓ Soleillet, Rapport...op.cit., p. 62;
- ✓ Blanchet, Rapport de mission..., op.cit., p. 15.

2. الموسيقى

تراوحت مواقف المستكشفين الفرنسيين من الموسيقى والمغنين البيضان بين الاستحسان والاستهجان، إذ يطالعا الرحالة موليين بحديث عن الموسيقى البيضانية التي تذكره بالموسيقين الإسبان⁴⁶ حيث يقول: "إن هذه النغمات العذبة المعزوفة على قيثارة مصنوعة بخشونة، والأغاني الفاترة توهمنا عندما نحضر حفلة موسيقية [بيضانية] بأننا بين موسيقيين إسبان"⁴⁷.

ويضيف الرحالة موليين في حديثه عن الموسيقى البيضانية: "إن حرفة الموسيقى تعطي لممتهنيها حق خرق القوانين المحمدية الصارمة بشأن السكر [?]"⁴⁸. ويبدو أن موليين قد استخلص هذا الحكم من محتوى القطع الشعرية التي دأب المطربون البيضان على ترديدها أثناء حفلاتهم والتي تتحدث أحيانا عن الخمرة والسكر. فلم يستطع الرحالة على ما يبدو التمييز بين المحتوى الأخلاقي والبعد الفني لتلك القطع الشعرية.

ويبين هذا الاستشهاد على أية حال أن الرحالة قد حضر إحدى الحفلات الموسيقية التي كان يحييها الفنانون البيضان وإن لم يصرح بذلك. وفي نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر يحدثنا كايي عن المطربين الذين يحيطون دوما بأمرير البراكنه متغنين بأمجاده. وإذا كان هذا الرحالة قد اعتبر الأغاني التي ينشدها أولئك المطربون وتردها بعدهم بشكل جماعي زوجاتهم

⁴⁶ - بينما ذهب موليين في أكثر من موضع من رحلته إلى ربط بيضان هذه الصحراء بالأندلس بإرجاعهم إلى أصول أندلسية، نجد مارتي ينفى ذلك، راجع:

Marty, "Un centenaire colonial.", op.cit.

⁴⁷ - Mollien, *voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, t-1, op.cit., pp.15-16.

⁴⁸ - Ibid, p.16.

وأبناؤهم مجرد حماقات مخجلة، فإنه اعترف بأن النغمات والإيقاعات الصادرة عن الآلات الموسيقية حلوة ومنسجمة⁴⁹. وقد وصف تلك الآلات وصفا دقيقا⁵⁰. ويبدو أن المسألة متشابهة في مختلف مناطق البلاد، ذلك أن المستكشف علي صل الذي تجول سنوات 1860، 1861، 1862 داخل مناطق أنت والعصابه والحوضين يتحدث من جانبه عن الحفلات الموسيقية البيضانية وعن هؤلاء المطربين الموجودين في العديد من الأحياء وليس لهم من وظيفة سوى التغني بأمجاد الأمراء والزعماء البيضان⁵¹. ويستخدم هؤلاء المطربون آلات موسيقية تكاد تتطابق مع تلك التي وصفها الرحالة كاي و إن أضاف إليها علي صل الطبل والرباب مشيرا إلى انتشار هاتين الآلتين في العديد من تلك المناطق⁵²، وإلى شيوع ظاهرة تنظيم حفلات موسيقية شعبية ليلة الجمعة مخصصة لمديح الرسول عليه الصلاة والسلام⁵³. ونجد كذلك الإشارة إلى ظاهرة "المدح" هذه عند الرحالة صولي الذي اجتاز مناطق الترارزه وإينشيري في طريقه إلى أدرار سنة 1880⁽⁵⁴⁾ ويعتبر "المدح" الجسر الذي تعبر عليه الفنون البيضانية إلى مجتمع الزوايا سدنة الثقافة العالمية "الرصينة".

2. الثقافة العالمية

⁴⁹ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, pp.104-105.

⁵⁰ - Idem

⁵¹ - Alioune Sall, *Rapport sur un voyage d'exploration*, op.cit., p.5 et 18.

⁵² - Ibid, op.cit., pp.6 et 17.

⁵³ - Ibid, op.cit., p.18.

⁵⁴ - Paul Soleillet, *Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar*, op.cit., p.76.

تعتبر فئة الزوايا المجموعة الأساسية التي تتعاطى الثقافة العالمية في مجتمع البيضان فهي المشرفة على التعلم والتعليم والمسيرة للمؤسسات التعليمية وما تتطلبه من متون تستورد من العالم الإسلامي أو تؤلف محليا.

المؤسسات التعليمية

يوجد لدى البيضان نوعان أساسيان من المؤسسات التعليمية هما الكتاتيب والمحاضر.

فأما الكتاتيب فهي مدارس أهلية تنتشر في جميع ربوع البلاد وتتولى تعليم القراءة والكتابة للأبناء وتحفيظهم القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي. ويندر أن يوجد مخيم زاوي ليست لديه مدرسة من هذا النمط، بل إن بعض أحياء حسان والأتياع تحتضن زاويا أو أكثر للإشراف على تعليم الأطفال. وفي هذا النطاق يتحدث كايي عن إحدى هذه المؤسسات التعليمية الموجودة بمخيم الأمير البركني والتي يشرف عليها معلم (مرابط) من الزوايا وهي تضم أولادا وبنات معا.

ويوضح هذا الرحالة⁵⁵ أن التلاميذ يجمعون يوميا الحطب ويشعلونه للقراءة على وهج ناره مشيرا إلى أن أوقات الدراسة هي المساء وقبيل الفجر والساعة الواحدة بعد الزوال.⁵⁶

ويضيف كايي⁵⁷ إن التلاميذ المحيطين بنار مشتعلة يقرأون الألواح على ضوئها وهم يتلون بأصوات مرتفعة آيات قرآنية كتبها لهم المعلم وطالبهم بحفظها عن ظهر قلب. أما المرابط فيتجول حول تلك النار وهو يرتل ترتيلا لتلقين التلاميذ الأداء الملائم وفي يده عصا طويلة ينهال بها دونما شفقة على أي تلميذ انشغل عن الدراسة.

⁵⁵ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.100.

⁵⁶ - يتعلق الأمر بحصة الظهر وتبدأ عادة مع دخول وقت صلاة الظهر.

⁵⁷ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, pp.100-101.

ويضيف هذا الرحالة⁵⁸ إن معلم هذه المدرسة زاو فقير إلى حد بعيد وأن الأهالي يهدونه ثوبا أو ثورا بعد نهاية دراسة أبنائهم مشيرا إلى أن حسان نادرا ما يتعلمون الكتابة لأن طموحهم يتجسد في التمرن على ترويض الخيل وفنون الحرب. ويتحدث كاي⁵⁹ عن تعلم البنات عند البيضان موضحا أن نصيبهن من التعليم محدود جدا إذ يقتصر في الغالب على حفظ سور من القرآن وتعلم أحكام الصلاة وبعض الأدعية، ومع ذلك توجد من بينهن بعض المتفقات. ويؤكد علي صل⁶⁰ انتشار هذا النوع من المدارس عبر مختلف المناطق البيضانية التي زارها مشيرا إلى أن الأب قليلا ما يدرس أبنائه إلا إذا لم توجد مدرسة في الحي. وبعد أن يلم الأولاد بالمبادئ التعليمية العامة في البيت أو في الكتاتيب بالحي أو بأحد الأحياء المجاورة فإنهم يبعثون لمتابعة تكوين أكثر تخصصا بالمحاضر⁶¹. وأما المحاضر⁶² فهي مؤسسات علمية تقليدية اعتبرها البعض⁶³ بمثابة جامعات بدوية متنقلة لا تقل شأنًا عن الجامعات عبر مختلف بقاع العالم الإسلامي في ذلك الحين.

⁵⁸ - Ibid, t-1, p.100.

⁵⁹ - Ibid, t-1, p.101.

⁶⁰ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.21.

⁶¹ - Ibid, pp.21-22.

⁶² - للمزيد من التفاصيل عن مدلول هذه التسمية وأدوار هذه المؤسسات العلمية والثقافية، راجع:

✓ المختار بن حامد، الحياة الثقافية، مر. سا، صص. 197 وما بعدها.

✓ الخليل النحوي، بلاد شنقيط...، مر. سا، صص. 48 وما بعدها.

✓ دود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط...، مر. سا.

⁶³ - الخليل النحوي، بلاد شنقيط...، مر. سا، صص. 48 وما بعدها. أما المستكشف الفرنسي كامي دولس فيقر بالوظيفة الأكاديمية للمحاضر حين يقول: "إن البيضان يجعلون من خيامهم أكاديميات حقيقية".

"Ils font de leurs tentes de véritables académies", Douls, op.cit. p. 206.

ورغم ما لهذه المؤسسات من أهمية ثقافية ودينية فإن كايي وغيره من أصحاب مدونتنا قد قصروا بخصوص الحديث عنها شأنهم مع غيرها من مظاهر الثقافة العالمية البيضاوية. إذ لم يورد هذا الرحالة أي ذكر لمحاضرة **الخضراء** و**الصفراء**⁶⁴ بمنطقة البراكنه التي تجول فيها لمدة تزيد على تسعة أشهر رغم ما كان لهذه المحاضرة من صيت كبير في البلد.

كما أن أصحاب المدونة لم يتحدثوا عن الشعر الفصيح والحساني رغم ازدهار هذا الفن واهتمام الموريتانيين بتعاطيه في تلك الفترة. وقد أهملوا المدن التاريخية وما لعبته من أدوار ثقافية وعلمية وكذلك المكتبات الغنية التي تمكن بعض علماء هذه البلاد من اقتنائها وجمعها شراء أو تأليفاً.

المكتبات

استطاع بيضان الصحراء رغم بعد منطقتهم عن مراكز الإشعاع الثقافية الإسلامية وصعوبة التنقل ومخاطره أن يظلوا على صلة بتلك المراكز إذ تمكنوا من توفير المتون شراء واستجلاباً ونسخاً وكونوا مكتبات تزخر بنفائس الكتب والمخطوطات في العديد من التخصصات. ونكتفي هنا بمكتبة الشيخ سيدي التي تمكن ذلك العالم ومن بعده أبناؤه وأحفاده من تغذيتها بروافد الكتب والمخطوطات حتى أصبحت من أغنى مكتبات القطر، بل إن

64- محاضرة فقهية متعمقة أسسها أحمد باب الإي بي تلميذ شيخ الشيوخ الفاضل بن أبي الفاضل الحسني الذي أخذ عن الأجهوري بمصر. وتسمت هذه المحاضرة باسم خيمتين كانتا تحتضنان طلبتها إحداهما من وبر الإبل وهي صفراء والأخرى من صوف الغنم وهي كحلاء. وبما أن عادة السكان المحليين التطير من اللون الأسود فقد أطلقوا على الخيمة الكحلاء اسم الخضراء كعادتهم في التيامن. وقد خرجت هذه المحاضرة دفعات كثيرة من فقهاء البلاد نذكر منهم مثلاً لا حصراً: الشيخ سيدي الكبير (ت. 1284هـ/1868) واجدود بن اكتوشني (ت. 1288هـ/1871)، راجع: محمد المصطفى بن الندي، دور المحاضر في موريتانيا، مر. سا.

الباحث الأمريكي ستيوارت⁶⁵ يعتبرها من أغنى المكتبات الشخصية بالمخطوطات العربية في الغرب الإفريقي. وقد أحصى المستشرق ماسينيون⁶⁶ (Louis Massignon) 1195 مخطوطا بهذه المكتبة، وذلك خلال عملية جرد لمحتوياتها في مطلع القرن الحالي. وتشمل هذه المؤلفات العديد من فروع الثقافة العربية الإسلامية كالتفسير والفقه والعقائد والتصوف واللغة والأدب والشعر والتاريخ والفلك والمعاجم... الخ. وقد شيد الشيخ سيدي الكبير هذه المكتبة ومدّها بالمتون سواء عن طريق استنساخ الكتب والمخطوطات أو بواسطة الشراء. فخلال رحلته العلمية إلى مدينة مراكش التي يعتقد أنها تمت في حدود 1260هـ/1844 اشترى هذا الشيخ أزيد من 200 مخطوط⁶⁷ ما زال أغلبها موجودا اليوم بهذه المكتبة. وليست مكتبة الشيخ سيدي الكبير سوى نموذج من مكتبات عديدة احتضنها هذا القطر منها على سبيل المثال لا الحصر مكتبة أهل حبت بشنقيط التي أحصى بها زميلنا محمد المختار ولد السعد⁶⁸ أزيد من 700 مؤلف شملت الفقه والسيرة وعلوم القرآن وعلوم الحديث والتصوف وعلم الكلام والنحو واللغة والأدب والتاريخ. وبالطبع فإن المكتبات ترتبط بالعلماء والمؤلفين من شعراء وفقهاء ومفتين.

⁶⁵ - ستيوارت، فهرس مخطوطات أهل الشيخ سيدي.

⁶⁶ - Louis Massignon, Une bibliothèque saharienne, RMM, vol. VII, 1909, pp. 409-418.

⁶⁷ - يشير الشاعر بابه بن أحمد بيبه إلى كثرة الكتب التي رجع بها الشيخ سيديا من رحلته تلك قائلا:

أضاءت بلاد الغرب لما أتيتها وأصبح بيكي عند ترحالك الغرب

وجنت بكتب يعجز العيس حملها وعندك علم لا تحيط به الكتب

نقلا عن الخليل النحوي، المنارة والرباط، مرجع سابق، ص. 151.

⁶⁸ - محمد المختار ولد السعد، معلومات جمعت في عين المكان أثناء صيف 1994 في نطاق مهمة بحث بمدينة شنقيط.

ويعتبر القرن التاسع عشر فترة هذه الدراسة قرن ازدهار التأليف في هذه البلاد. فإذا أخذنا الفتاوي مثالا لا حصرا نجدها تعرف خلال هذا القرن وثبة كبيرة.⁶⁹ وكما أغفل أصحاب مدونتنا تناول المحاضر فإنهم أغفلوا كذلك ذكر المكتبات والكتب والمؤلفين وغيرها من مظاهر حياة القوم العالمية.

ولعل تحجيم الثقافة البيضانية العالمية والسكوت عن أغلب مظاهرها راجع في المقام الأول إلى المستوى العلمي والثقافي لهؤلاء الرحالين والمستكشفين الفرنسيين، إذ أن بعض معاصريهم من الفرنسيين ممن كان اتصالهم بالبلاد أقل حميمية كانوا قد تقطنوا إلى تلك النواحي فرني باسي (René Basset) لا يخامرهم شك في "أن بيضان السنغال [وهي من تسميات البلاد كما أسلفنا] لديهم ثقافة أدبية أكثر تطورا من جل سكان الجزائر وأن هؤلاء البيضان يتعاطون بشغف الشعر العربي الجاهلي"⁷⁰.

ويضيف هذا المستشرق الذي أرسلته الحكومة الفرنسية إلى السنغال لإجراء دراسات لغوية وألفية متحدثا عن ثقافة البيضان ومستواهم الشعري: "كثيرا ما تسمع أحد هؤلاء البداية يحفظ قصائد امرئ القيس والنابغة وطرفة وحتى الحماسة وديوان الأعشى، حتى يخيل إلى نظرك أنك أمام أحد صعاليك الجزيرة العربية"⁷¹.

ويمضي باسي في مقارناته بين البيضان والشعراء الجاهليين فيقول: "إنني أشك في أن للشنفرى حضورا أكثر تميزا من بيضاننا التروزيين"⁷².

ويتحدث مستشرق فرنسي آخر هو ديبلي (Paul Dubié) عن بعض جوانب الثقافة البيضانية العالمية قائلا: "إن المراكز الإسلامية في موريتانيا حيوية جدا. فالعديد

69 - من خلال عملية تقص أولية للفتاوي الموريتانية منذ القرن السادس عشر أحصى زميلنا ولد السعد 5 فتاوي من القرن السادس عشر و15 فتوى من القرن السابع عشر و62 فتوى من القرن الثامن عشر و94 فتوى من القرن التاسع عشر و74 فتوى من القرن العشرين.

70 - نقلا عن فيدربر:

Faidherbe, *Le Sénégal et La France dans l'Afrique...*, p. 45.

71 - Idem

72 - Idem

من العلماء يمتلكون مكتبات غنية. ويقوم بعض هؤلاء أحيانا برحلات إلى إفريقيا الشمالية وإلى الديار المقدسة. وهم يتوفرون على مستوى رفيع في مجال العلوم الدينية والثقافية. ولا شك أنهم يمثلون بؤرة العروبة والإسلام الأكثر حيوية في إفريقيا الغربية»⁷³.

وإذا كان هؤلاء البيضان "بعلومهم الدينية والثقافية" لم يشدوا بما فيه الكفاية انتباه الرحالين الفرنسيين فإن عاداتهم وتقاليدهم قد استنثرت كثيرا فضول أولئك المستكشفين.

ثانيا. العادات والتقاليد الاجتماعية

اهتم الرحالون الفرنسيون بالعديد من مظاهر الحياة الاجتماعية البيضانية. وقد تركز هذا الاهتمام بشكل خاص على الضيافة والتقاليد الغذائية والعسكرية... الخ.

أ. الضيافة والتقاليد الغذائية

لقد حل أصحاب مدونتنا وغيرهم من المستكشفين الفرنسيين ضيوفا على البيضان فكانوا محل ضيافة هؤلاء السكان الذين قاسموهم الطعام والشراب. ومن الطبيعي أن يهتم أولئك الفرنسيون بوصف الضيافة والعادات الغذائية عند بيضان الصحراء.

1. الضيافة

من البديهي أن سكان الصحراء الذين تقوم حياتهم بدرجة أولى على الرعي والمتاجرة ترغمهم الظروف على التنقل والسفر شبه الدائمين وراء المراعي أو طلبا لضوال نعمهم أو ضمن القوافل المتنقلة بحثا عن بعض الحاجيات الضرورية. كل ذلك

⁷³ - Paul Dubié, *La vie matérielle des Maures*, Mémoires de l'IFAN, n°23, Dakar, 1953, pp. 111-252, p.119.

يجعل العابرين من سكان المنطقة وكذا بعض جيرانهم ينزلون ضيوفا عند هذا الحي أو ذلك أثناء تنقلاتهم تلك. وهذا ما يعطي لظاهرة الضيافة أهمية كبيرة لدى كل من يعبر هذا المجال.

ويطالعنا الحديث عن هذه الظاهرة عند أول أصحاب مدونتنا وهو الرحالة موليين الذي يؤكد "أن كرم الوفادة يعتبر أول فضيلة يتمتع بها سكان الصحراء، وهم يمارسونها بدون تمييز تجاه الضيف غنيا كان أم فقيرا باستثناء المسيحي الذي يعتبر مبعدا لدى هؤلاء السكان"⁷⁴.

ويتحدث كاي ي بإسهاب أكثر عن كيفية المعاملة التي يتلقى بها البيضان ضيوفهم. فحينما حلت بمخيم الزوايا الذي يقيم فيه ذلك الرحالة قافلة بيضانية متجهة إلى فوته لبيع الملح، نزلت في وسط المخيم فجاء السكان فورا بالحصائر التي تستخدم فرشاً للضيوف، وأرسلت مختلف أسر الحي أقداحا من اللبن والعصيدة إلى خيمة زعيم الحي ليتم توزيعها على الضيوف.⁷⁵

ويشير الرحالة هنا إلى ظاهرة "التعزيت" التي دأب البيضان على تقديمها للضيوف والتي ما تزال بعض أحياء البادية الموريتانية محتفظة بها إلى اليوم. ويعود منشأ هذه العادة في اعتقادنا إلى ضعف إمكانات البدوي واضطراد ظاهرة الضيافة التي قد ترغم الأسرة على استقبال عدد غير محدد من الضيوف دون استعداد مسبق، فكان أهل الحي يقومون كل حسب إمكاناته بالمساهمة في إطعام أي ضيف ينزل بالحي دون فرق في ذلك بين الأسرة التي ينزل عندها وبقية الأسر.

وهكذا فإن المخيم يتعاون على وفادة الضيوف "الذين تتولى بعض أسر الحي معاملتهم عندما يكون عددهم قليلا"⁷⁶. أما إذا تعلق الأمر بضيف واحد فإنه يختار الأسرة التي ينزل عندها والتي تتولى إكرامه. وغالبا ما ينتقي الضيوف الخيام الأحسن

⁷⁴ - Mollien, *voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, t-1, op.cit., p.68.

⁷⁵ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.116.

⁷⁶ - Idem

مظهورا. وقد تستقبل الأسرة أحيانا كثيرة بعض الضيوف أثناء خمسة أو ستة أيام متتالية.⁷⁷

ويتحدث الرحالة كاي ي عن معاملة البيضان له أثناء رحلته الطويلة عبر الصحراء، إذ يشير إلى أن أحد البيضان (من ولاته) قد أرسل إليه نقودا مع الزنوج وتمنى له سفرا ميمونا⁷⁸، ويضيف "إن البيضاني الحاج محمد [تاجر من ولاته] جاء لزيارتي وقال لي: أنت الآن مع البيضان ويجب ألا ينقصك أي شيء"⁷⁹.

ويمضي هذا الرحالة مؤكدا العناية التي منحها له البيضان إذ يقول: "طوال مقامي في جنه أحاطني البيضان بالعناية وعاملوني معاملة حسنة، فلم أدفع أي مبلغ مقابل نفقتي وكانوا يسرعون إلى إعطائي كلما أبدي الرغبة في الحصول عليه"⁸⁰. ويضيف كاي ي في السياق نفسه: "إن بيضاني أدرار اللذين وجدتهما منذ عدة أيام في قرية بانان (Banan) ولقيتهما اليوم [10 إبريل/نيسان 1827] في قرية تيرسي (Tircy) استقبلاني استقبالا حسنا ودعياني إلى تناول العشاء معهما"⁸¹.

ورغم نماذج إكرام الضيف هذه ونماذج أخرى⁸² كان كايي موضعها أو شاهدا عليها أثناء مقامه في المنطقة، فإنه ضمن على البيضان بفضيلة كرم الضيافة التي وصفهم بها سلفه الرحالة موليين والتي أشرنا إليها قبل قليل. يقول كايي: "إن البيضان رغم أنهم يتبادلون حسن الوفادة لا يستحقون مع ذلك أن ينعتوا بالكرم فلا شيء يثير غمهم أكثر من مشاهدة الضيوف، واستقبالهم للضيوف مرجعه ليس الشفقة، بل الخوف خاصة إذا تعلق الأمر بضيوف حسانيين"⁸³.

77 - Idem

78 - Ibid, t-2, p.76.

79 - Ibid, t-2, p.142.

80 - Ibid, t-1, p.158.

81 - Ibid, t-2, p.193.

82 - Ibid, t-1, pp.76, 98 et 112.

83 - Ibid, t-1, p.116.

والسؤال الذي قد يتبادر إلى الذهن هو لماذا يببالغ البيضان في إكرام كاي و وحسب اعترافه هو نفسه؟ أهو إكرام الضيف؟ أم الخوف من هذا الرحالة الوحيد المغترب؟!

وإذا كان موليين في نهاية العقد الثاني من القرن التاسع عشر يعترف بكرم ضيافة البيضان مستثنيا المسيحيين الذين يعتبرون أشخاصا غير مرغوب فيهم في هذه البلاد، فإن كرم البيضان بدأ منذ نهاية العقد السادس من القرن نفسه يشمل بعض الفرنسيين المسيحيين. ذلك ما يؤكد الضابط البحري ماج حين يقول: "نزلنا بمخيم بيضاني [قرب سلسلة جبال العصابة] واستقبلنا زعيمه مسبقا بسرير، وهو فخور كجميع البيضان، ورحب بنا [...] وقدم لنا اللبن"⁸⁴.

ثم يتناول هذا الرحالة كيفية معاملة مخيم بيضاني من الزوايا له حين يقول: "دخلنا مخيما للزوايا دون أي خوف فاستقبلنا زعيمه وقدم لنا أسرة ولبنا وتمرا ولحما جافا. وقال إنه سيرافقني إلى بكار ولا يطلب مني مقابل ذلك سوى شيء واحد وهو أن أبلغ الوالي وجميع البيض [الفرنسيين] بمعاملته لي حتى يعرفوا أنه رجل نزيه"⁸⁵. وفي السنة نفسها يحدثنا النقيب ينصان الذي اجتاز منطقة الترازه في طريقه إلى أدرار عن معاملة البيضان له قائلا: "لقد استقبلنا استقبالا متميزا من طرف قبيلة تندغه الذين أعطونا المعلومات المطلوبة"⁸⁶.

ويشير فينصان إلى أن صيادي إيمراكن الموجودين بالساحل الأطلسي الموريتاني خصصوا له استقبالا حارا حيثما وجدهم مضيفا أن "لدى هؤلاء الصيادين

⁸⁴ - Eugène-Abdon Mage, Voyage au Tagant, op.cit., p.6.

⁸⁵ - Ibid, op.cit., p.13.

⁸⁶ - راجع: هانري فينصان:

Vincent, "Voyage dans l'Adrar...", op.cit., p. 452.

وربما تعلقت تلك المعلومات التي لم يوضحها فينصان بالطريق التي سيسلكها هو ومرافقه ابن المقداد أثناء الرحلة.

بعض الروابط مع الأوروبيين⁸⁷. غير أن هذا المستكشف لم يعط تفاصيل إضافية عن تلك الروابط التي نعتقد أنه استنتجها من طبيعة استقبال إيمران له، وهو أمر ربما يكون متأتيا من تعود هؤلاء الصيادين بحكم موقعهم الجغرافي على الأوروبيين الذين يزورون الشاطئ الموريتاني فضلا عن كون المستكشف كان مرفوقا بابن المقداد. ويؤكد بورل من جانبه أن سكان البراكنه قد استضافوه بكرم أثناء رحلته داخل تلك المنطقة سنة 1860⁽⁸⁸⁾.

ويزودنا علي صل بمعلومات عن كيفية استقبال البيضان للضيوف "الذين يحظون دائما بالمعاملة الحسنة"⁸⁹.

ويضيف هذا المستكشف: "إن البيضان كثيرا ما يقدمون لضيوفهم ما توفر لديهم من طعام ويبيتونهم وعائلاتهم على الطوى، وذلك لأن معاملة الضيوف عندهم تحتل الصدارة مقارنة مع العناية بأسرهم"⁹⁰.

ويتحدث الرحالة صولبي بدوره عن معاملة البيضان للضيوف مشيرا إلى أنه كان موضع حفاوة أثناء رحلته عبر الصحراء الموريتانية. فخلال مقامه بمخيم الأمير التروزي علي بن محمد الحبيب حظي هذا الرحالة بعناية خاصة من لدن ذلك الأمير.⁹¹

وعندما وصل هذا الرحالة إلى حي الشيخ سعد بوه كان موضع ضيافة كريمة إذ جهزت له خيمة مستقلة وأرسل إليه اللبن والتمر وكبش للذبح.⁹²

⁸⁷ - Henri Vincent, Voyages d'exploration dans l'Adrar, op.cit., p.452.

⁸⁸ - Dominique Bourrel, Voyage dans le pays des Maures Brakna, op.cit., pp.517-518.

⁸⁹ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.18.

⁹⁰ - Ibid, op.cit., pp.20-21.

⁹¹ - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., p.59.

⁹² - Ibid, op.cit., pp.104+105.

وذكر صوليبي "أن البيضان يستقبلون ضيوفهم بحفاوة ويساعدونهم على إنزال الأمتعة عن ظهور الدواب التي تقلها ويسرعون بتقديم الشراب والأكل إلى الضيوف بغض النظر عن انتماءاتهم الاجتماعية والقبلية"⁹³.

ويتوقف هذا الرحالة مثل سلفه كايي عند ظاهرة "التعزيريت" قائلا: "عندما يحل الضيوف بأحد أحياء البيضان فإن مختلف أسر ذلك الحي تبعث طعاما إلى الخيمة التي نزلوا بها وذلك للمساعدة في معاملتهم"⁹⁴.

وإذا كان عدد الضيوف مرتفعا بحيث تضيق خيمة واحدة عن استيعابهم فإنهم يوزعون على بعض خيام الحي، إلا أن معاملتهم نادرا ما تلقى على كاهل خيمة واحدة إذ جرت العادة أن تساهم مختلف أسر المخيم في تلك المعاملة.⁹⁵

ويعدد هذا الرحالة الأطعمة التي يقدمها البيضان لضيوفهم وأهمها اللبن والمذق واللحم والتمر.

ويؤكد بلانشي⁹⁶ الذي زار المنطقة سنة 1900 المعلومات التي أوردها أسلافه عن كرم الوفاة عند البيضان مشيرا إلى انتشار عادة تقديم الشاي للضيوف في نطاق معاملتهم ومؤكدا "أن تقديم الشاي للضيوف لا يقل أهمية عن تقديم اللبن واللحم، بل إن بعض الضيوف يفضلونه على جميع أنواع المأكولات والمشروبات"⁹⁷.

وقد يعود هذا التفضيل إلى ندرة مادة الشاي إذ ذاك وإلى أن هذه المادة لم تدخل بعد في التقاليد الغذائية.

2. التقاليد الغذائية

⁹³ - Ibid, op.cit., p.87.

⁹⁴ - Ibid, op.cit., p.89.

⁹⁵ - Ibid, op.cit., pp;90-91.

⁹⁶ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., pp.9-10.

⁹⁷ - Idem

من الطبيعي أن تحتل المنتوجات الحيوانية من لحم ولبن... إلخ الصدارة في تغذية مجموعة بدوية رعوية تعتمد تربية المواشي مصدرا أساسيا للحياة. ذلك ما أجمع عليه تقريبا أصحاب مدونتنا. يقول موليين: "إن لديهم [البيضان] أيضا الإبل والبقر والضأن [...] التي تعطيههم اللحم واللبن اللذين يتغذون بهما"⁹⁸.

ويؤكد كايي "أن البيضان على العموم لا يتغذون أثناء فصل الأمطار إلا باللبن لتوفره بكثرة في هذه الفترة من السنة. وإذا كان الأكثر ثراء من بينهم يذبح أحيانا كبشا فإن ذلك نادر الوقوع"⁹⁹.

ويجزم المستكشف علي صل في السياق نفسه أن "اللبن واللحم هما أساس تغذية البيضان"¹⁰⁰.

ولا يشذ الرحلتان صولبي وبلانشي عما ذهب إليه أسلافهما إذ يشيران إلى المكانة المتميزة لهاتين المادتين في التغذية البيضانية.¹⁰¹

وإلى جانب اللبن واللحم تتوافر لدى البيضان أغذية أخرى يصنعونها من الحبوب فضلا عن السمك والتمر وغيرهما.

وطبعا فإن التغذية تختلف باختلاف فصول السنة وتباين الإمكانيات والموارد المتاحة لدى هذه الفئة أو تلك. كما تختلف باختلاف مناطق البلاد.

فخلال فصل الخريف أي بعد تساقط الأمطار وتجدد المرعى يكثر اللبن فيعتمد عليه البيضان غذاء أساسيا إذ يتعشون به حليبيا ويشربونه في الصباح حليبيا أيضا، ثم يواصلون شربه طوال النهار رائبا خالصا أو ممزوجا بماء حسب الرغبة.

⁹⁸ - Mollien, **voyage dans l'intérieur de l'Afrique**, t-1, op.cit., p.9.

⁹⁹ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.105.

¹⁰⁰ - Alioune Sall, **Rapport sur un voyage d'exploration**, op.cit., p.11.

¹⁰¹ - انظر:

✓ Soleillet, **Rapport...**, op.cit., p. 104.

✓ Blanchet, **Rapport de mission ...**, op.cit., p. 15.

وقد قدم الحليب إلى جميع الرحالين والمستكشفين¹⁰² الذين زاروا المنطقة أثناء القرن التاسع عشر.

وينقل علي صل عن بعض البيضان القول: "إنهم يقضون أحيانا فصل الأمطار كله دون أن يوقدوا النار للطبخ مكتفين باللبن"¹⁰³. وينحو صولي ي المنحى نفسه مبرزاً أهمية اللبن في حياة البيضان " إذ قد يغنيهم عن بقية أنواع التغذية أيما وأسابع"¹⁰⁴.

أما اللحم فرغم استعماله غذاء في مختلف أنحاء البلاد، فإن استهلاك السكان له أقل بكثير من استخدامهم للبن.

ويذكر كايي الذي تجول أزيد من تسعة أشهر في إحدى مناطق البلاد الرعوية أن البيضان قليلاً ما يذبحون بعض مواشيهم. ويشير إلى "أن الذين يمتلكون قطعانا كثيرة قد ينحرون ثورا أو يذبحون شاة، ولكن ذلك يحدث نادراً. ففي غضون الشهور السبعة التي قضيتها بمخيم محمد سيدي المختار [المعلم] لم يذبحوا سوى عشر مرات وكلها أثناء فصل الصيف لأنهم لا يذبحون أبداً عندما يكون اللبن متوافراً بكثرة ولا بعيد حصاد الزرع"¹⁰⁵.

¹⁰² - راجع بهذا الخصوص على سبيل المثال:

- ✓ Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p. 116;
- ✓ Mage, "Voyage au Tagant...", op.cit., pp. 6 et 13;
- ✓ Vincent, "Voyage dans l'Adrar...", op.cit.;
- ✓ Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., p. 21;
- ✓ Soleillet, Rapport...op.cit., p. 103;
- ✓ Blanchet, Rapport de mission ..., op.cit., p. 25.

¹⁰³ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.16.

¹⁰⁴ - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., p.98.

¹⁰⁵ - René Caillié, Voyage à Tombouctou, op.cit., t-1, p.119.

وقد يفسر عزوف البيضان عن ذبح مواشيهم بكونها تمثل مورد عيشهم الأساسي¹⁰⁶ وبالتالي فهم حريصون كل الحرص على صيانة هذا المورد والمحافظة عليه.

ومع ذلك فإن البيضان يذبحون عادة في المناسبات الدينية (كالأعياد) والاجتماعية (كحفلات القران والزفاف)¹⁰⁷ فضلا عن استقبال وفود أو ضيوف مرموقين.¹⁰⁸

ولا تقتصر مصادر اللحم عند البيضان على الحيوانات الأهلية، بل إن صحراءهم تجود على غير عاداتها أحيانا بطرائد أهمها الغزلان¹⁰⁹ والنعام¹¹⁰ الذي يتم اصطياده للمساعدة في التغذية من جهة وللمحافظة على القطيع الأهلي من ناحية أخرى.

ويحضر البيضان اللحم بطرق متعددة. فقد يشوونه في حفر خاصة أو على ملتهب¹¹¹ وقد يقلونه في الدهن أو يطبخونه في الماء.¹¹² وقد يجففونه¹¹³ ليحفظ في أوعية جلدية خاصة حتى وقت الحاجة إليه غذاء أو بضاعة تجارية للتبادل.¹¹⁴

¹⁰⁶ - راجع الأنشطة الرعوية من الفصل السابع من هذا العمل.

¹⁰⁷ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.137.

¹⁰⁸ - راجع كلا من:

- ✓ Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p.;
- ✓ Soleillet, Rapport...op.cit., p. 14;
- ✓ A. Sall, Rapport sur un voyage, op.cit., p. 16.

¹⁰⁹ - Henri Vincent, Voyages d'exploration dans l'Adrar, op.cit., p.475.

¹¹⁰ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.35.

¹¹¹ - راجع طرق شيهم للحم عند:

- ✓ Sall, Rapport sur un voyage, op.cit., p. 15.
- ✓ Soleillet, Rapport..., op.cit., p. 103.

¹¹² - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., pp.15-16.

¹¹³ - بخصوص طرق تجفيف اللحم، راجع:

وعندما يقوم البيضان بشي اللحم فإنهم يأكلون معه عادة الشحم نيبًا. وقد أثارت هذه العادة تعجب صولي ي عندما أكل أحد مرافقيه البيضان الشحم نيبًا.¹¹⁵ وفضلا عن اللحم واللبن فإن الأطباق تختلف حسب المناطق ولو كان ذلك الاختلاف نسبيًا وبسيطًا.

ففي المناطق الجنوبية الغربية من البلاد (الترارزه والبراكه) يبدو أن المادة المكملة للبن واللحم والمعوضة لهما عند انعدامهما هي الحبوب وخاصة الذرة والدخن، إذ يحضرون من تلك الحبوب بعد طحنها طبقًا خاصًا¹¹⁶ يضيفون إليه اللبن أو الدهن في حالة توفرهما وأحيانًا قليلة اللحم. وقد يأكلونه مخلوطًا بالماء والسكر. وإذا كان استخدام طبق العصيدة منتشرًا جدًا¹¹⁷ في منطقة البراكه فإن سكان هذه المنطقة لا يأكلون السمك. يقول كايي: "إن البراكه لا يأكلون السمك، بل إنهم يعتبرونه مقرفا رغم أن الشريعة لا تحرمه، فرائحته الكريهة تثير تقززهم، فالزاوي الذي رافقني [نحو ودور] قضى ثلاثة أيام دون أكل الكسكس أخرى أن يذوق الطعام المحضر مع مرق السمك"¹¹⁸. وحين ذكر كايي لمرافقه أنه شاهد الترارزه يأكلون

Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, pp. 130-131.

¹¹⁴ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit.,

¹¹⁵ - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., p.34.

¹¹⁶ - يسميه كايي (le sanglé) ويعرفه بأنه نوع من العصيدة يتم تحضيره من دقيق الذرة أو غيره، راجع:

Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p. 74, note n°8.

¹¹⁷ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, pp.74, 76, 98, 116 et 137.

¹¹⁸ - Ibid, t-1, p.159.

السّمك وسمع أن من يجاورون الساحل [الأطلسي] منهم صيادون¹¹⁹، أجابه المرافق: "إن الترارزه بحكم قربهم من النصارى يتأقلمون بسهولة مع أكل أي شيء ولو كان شرب الخمر [?] وهم كفار [?]"¹²⁰.

ويؤكد صولبي وبلانشي استخدام السمك في الأجزاء الساحلية من منطقة الترارزة موضحين أنه يؤكل مطبوخا أو مجففا.¹²¹

ويضيف صولبي أن بعض سكان المناطق البعيدة عن الشاطئ يأتون في بعض أوقات السنة للبقاء مع صيادي إيمراكن بغية استهلاك السمك المجفف.¹²²

وإذا كان الكسكس من أطباق المناسبات الخاصة¹²³ (الأعياد، حفلات

الزواج... إلخ) في منطقة البراكنه، فإنه يعتبر طبقا أكثر انتشارا في المناطق الوسطى والشرقية من البلاد. إذ يحدثنا عنه المستكشف علي صل الذي جاب تلك المناطق، فهم

يحضرونه مع اللحم أو الدهن أو معها معا. وقد يجعلون معه اللبن أو اللوبيا.¹²⁴

وينتشر استعمال التمر في منطقتي أدرار وتكانت وبعض مناطق الواحات بالحوض.¹²⁵

119 - يشير إلى جماعة صيادي إيمراكن الذين تم التعريف بهم سابقا.

120 - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.159.

121 - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., p.98.

122 - Ibid, op.cit., pp.88-89.

123 - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.137.

124 - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., pp.13 et 16.

125 - راجع بهذا الخصوص:

- ✓ Mage, "Voyage au Tagant...", op.cit., p. 13;
- ✓ Sall, Rapport sur un voyage, op.cit., p. 25;
- ✓ Soleillet, Rapport...op.cit., p. 102;
- ✓ Blanchet, Rapport de mission ..., op.cit., p. 31.

ومن الطبيعي أن تتميز المراكز الحضرية رغم قلتها وتمن عها أمام المستكشفين الفرنسيين بتقاليد غذائية خاصة بها وبأطباق أكثر تلاؤما مع أذواق سكانها شبه المتحضرين. ذلك ما نستشفه من حديث للمستكشف علي صل عن أنواع من الكسكس والعصيدة في ولاته تحضر تحضيراً خاصاً مع مرق متبل¹²⁶ لزيد المذاق.¹²⁷ وفي السياق نفسه (تميز أطباق المدن) يصف صولبي وبلانشي أطباق أدرار المعدة من دقيق الشعير أو القمح ومرق اللحم والخيز.¹²⁸ وبقدراً تتنوع الأطباق عبر مناطق البلاد المختلفة فإنها تختلف أيضاً كما وكيفاً حسب أذواق السكان وتقاليدهم وإمكانياتهم، حتى داخل المنطقة الواحدة. فعادة القوم أن يخصصوا نصيب الأسد من التغذية خاصة اللبن للنساء. ذلك ما يشير إليه الرحالة كايي¹²⁹ في منطقة البراكه ويؤكد كل من علي صل¹³⁰ وصولبي¹³¹

¹²⁶ - لعل لذلك علاقة بنوعية محلية من البهارات عند بيضان المناطق الشرقية من البلاد يدعونها "الشروط".

¹²⁷ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.18.

¹²⁸ - راجع بهذا الخصوص كلا من صولبي وبلانشي:

✓ Soleillet, Rapport...op.cit., p. 90.

✓ Blanchet, Rapport de mission ..., op.cit., p. 12.

ولعل الأمر يتعلق بطبقي "بلقمان" و"لكسور" الشهيرين في منطقة أدرار الموريتانية التي زارها هذان الرحالتان.

¹²⁹ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.108.

¹³⁰ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.13.

¹³¹ - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., pp.101-102..

وبلانشي¹³² بالنسبة لبقية المناطق بل إن عليا صل يضيف بأن العادة جرت عند البيضان أن يخصصوا للنساء أجزاء معينة من كل شاة تذبح.¹³³

وإذا أخذنا منطقة البراكنه مثلا نجد التغذية مختلفة باختلاف الفئات الاجتماعية. يقول كايي: "إن الأغنياء جدا من حسان يأكلون اللحم مرة في اليوم"¹³⁴. ورغم تراجع ذلك الرحالة عن هذا الزعم الذي لا تسمح به إمكانيات تلك المجموعة في جميع الحالات، فإن ذهاب كايي إليه يوحي بأن مجموعات من تلك الأرستقراطية الحربية كانت تعيش حياة شبه مترفة مع أنها لا تمتلك من الثروة إلا ما تنتزعه بأسلحتها.

أما الزوايا فإنهم يصنعون من الحبوب التي يستوردونها من منطقة فوته عصيدة يحلونها جزئيا محل اللبن في فصل الصيف الذي تجف فيه الضروع وتقل ألبان المواشي.¹³⁵

ويعيش أزيانكه عيشة مشابهة من حيث التغذية لعيشة الزوايا معتمدين على ما تدره الحيوانات.

أما المعدمون وغالبا ما يكونون من بعض القبائل الزاوية الفقيرة فإنهم يعتمدون في تغذيتهم على ما يقدم لهم من صدقات ومساعدات من قبل القبائل الزاوية الغنية وقبائل أزيانكه.¹³⁶

وبخصوص الأسرة الأميرية في البراكنه فإن الأميرة "تتغذى أساسا باللبن واللحم المنقح في الدهن".¹³⁷

¹³² - Blanchet, p. 19.

¹³³ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., pp.13-14.

¹³⁴ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.119.

¹³⁵ - يقول كايي: "إن أفضل البقرات الحلوب لا تعطى أثناء شهري مارس وإبريل سوى قنيتين [ربما يعني ليترين] من اللبن يوميا"، راجع:

Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p. 119.

¹³⁶ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.105.

أما الأمير فنقتصر تغذيته حسب كاي ي على لبن الإبل. يقول ذلك الرحالة:
"خلال شهر قضيته في مخيم هذا الأمير لم أره قط يتناول طعاما صلبا (solide) ولكنه
يشرب اللبن دوما. وعندما سألته عن سبب عدم تناوله اللحم والعصيدة أجابني بأنه
يفضل اللبن على جميع أنواع المأكولات"¹³⁸.
ويضيف كاي ي إن الأمير وكل الشخصيات المهمة يتناولون لبن الإبل، وذلك
تميزا عن غيرهم من البيضان. فهذا النوع من اللبن نادر الوجود.¹³⁹
وإذا كانت الألبان واللحوم والحبوب والتمور تشكل أساس تغذية البيضان،
فإنها كثيرا ما تستخدم لأغراض صحية.

ب. التقاليد الصحية: الأمراض، العلاج والوقاية

لم تكن حالة البيضان، خلال القرن التاسع عشر، رغم بساطة الإمكانيات التي
يتوفرون عليها لتأمين ضروريات الحياة، سيئة على العموم. فقد كانت لهم دراية بعلاج
بعض الأمراض الخطيرة، فضلا عن درجة من الخبرة في التعامل مع الأمراض
المعدية قد تشكل بوادر وعي صحي ساهم في الحيلولة دون انتشار بعض الأمراض.

1. الأمراض

يبدو أن البلاد لم تعرف انتشارا كبيرا للأمراض خلال القرن التاسع عشر.
وربما تكون شمس الصحراء الحارقة وجفاف المنطقة من أهم العوامل التي ساعدت
على ندرة انتشار الأوبئة.

¹³⁷ - Ibid, t-1, p.113.

¹³⁸ - Ibid, t-1, p.105.

¹³⁹ - Idem

يقول كايي: "[...] لقد لاحظت أن البيضان على العموم ليسوا عرضة للأمراض الخطيرة".¹⁴⁰ ويحاول هذا الرحالة تفسير ندرة الأمراض الخطيرة بين صفوف البيضان بزهدهم في الأكل والشرب.¹⁴¹

ويمضي كايي في حديثه عن الأمراض عند البيضان مؤكدا قلة شيوع بعض أنواعها: "لقد شاهدت طوال مقامي [تسعة أشهر من التجول داخل البراكه] رجلا واحدا مصابا بالجذام ومكفوبا واحدا، ولم أصادف إنسانا أبرص؛ إذ يبدو أن هذا المرض [البرص] غير معروف، كما أني لم أصادف في تلك المنطقة إنسانا أعرج".¹⁴²

ويعدد كايي¹⁴³ جملة من الأمراض شاهدها لدى البيضان مثل الحمى¹⁴⁴، والتهاب الجيوب الأنفية والزكام وآلام الرأس والوجه والمعدة. ويضيف هذا الرحالة: "إن الجرب وهو موز شائع عند الزنوج قليل لدى البيضان"¹⁴⁵.

ويذكر جراح سلاح البحرية بيبي ضمن ملاحظات جمعها سنة 1851 حول الوضعية الصحية للسكان البيضان والزنوج بمنطقة حوض النهر شيوع الرمد خاصة في صفوف الزنوج وبالذات بين أطفالهم، معللا ذلك ببرودة الليل ورطوبته.¹⁴⁶ ويقول

¹⁴⁰ - Ibid, t-1, p.113.

¹⁴¹ - Idem

¹⁴² - Ibid, t-1, pp.114-115.

¹⁴³ - Idem

¹⁴⁴ - لا نستبعد أن تكون تلك الحمى هي الملاريا نظرا لطبيعة المنطقة المحاذية لنهر السنغال.

¹⁴⁵ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.145.

¹⁴⁶ - Pipy, Chirurgien de la Marine au Sénégal, Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures et yolloffs qui habitent entre l'escale des Trarzas et Dagana, Paris, RC, octobre 1851, pp. 374-387, p.375.

هذا الطبيب الجراح¹⁴⁷: "إن برد الليالي يؤدي أحيانا إلى إصابة بعض السكان بآلام الحلق الذي يتحول غالبا إلى التهاب اللوزتين (angine)". ويشير الضابط البحري بورل، الذي تجول في منطقة البراكن ه سنة 1860 (أي بعد مرور ست وثلاثين سنة على مغادرة الرحالة كاي ي لها) إلى وجود الجرب والقرع والزهرى في تلك المنطقة مؤكدا "أن هذا المرض الأخير يفتك بالسكان الذين لا يتوفرون على ما يكافحونه به"¹⁴⁸. ومن جانبه يذكر علي صل وجود الحمى أثناء فصل الخريف في بعض المناطق التي زارها.¹⁴⁹ كما يشير إلى مرض معد يصيب الأطفال خاصة، ويمتاز ببروز حبيبات دقيقة حمراء، وتصاحبه حمى وإسهال، وهو يقتل العديد من الأطفال.¹⁵⁰ ولا يستبعد أن يكون الأمر متعلقا بمرض الحصباء التي كانت إلى وقت قريب تنتشر في المنطقة. ويتحدث صولبي وبلانشي¹⁵¹ عن شيوع الرمد في منطقة آدرار، على حين ينفرد صولبي بذكر حمى ونزلات بردية في الأجزاء الجنوبية الغربية من منطقة الترازه حيث طلب منه بعض السكان أدوية لعلاج هذا المرض.¹⁵²

¹⁴⁷ - Idem

¹⁴⁸ - Dominique Bourrel, Voyage dans le pays des Maures Brakna, op.cit., p.27..

¹⁴⁹ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.19.

¹⁵⁰ - لا نستبعد أن يكون هذا المرض هو الحصبة التي كانت شائعة أن ذاك بدليل الأعراض التي قدمها المستكشف. انظر:

A Sall, Rapport ..., op.cit., p. 15.

¹⁵¹ - انظر:

- ✓ Soleillet, Rapport...op.cit., p. 97;
- ✓ Blanchet, Rapport de mission..., op. cit., p. 21.

2. العلاج

استرعت انتباه المستكشفين الفرنسيين طرق ووسائل العلاج عند البيضان، إذ يتحدث كايي عن طرق معالجتهم للعديد من الأمراض مشيرا إلى أن المرضى يمتنعون طوال إصابتهم عن الأكل مكتفين بتناول القليل من اللبن. غير أنهم في أثناء فترة النقاهة لا يأكلون إلا اللحم الذي يساعد في تعجيل الشفاء.

ولعلاج آلام الرأس، فإن البيضان يستعملون عصابة يشدونها عليه بقوة. وتعتمد معالجتهم للزكام على صب زبدة ذائبة في الأنف بواسطة إناء أو أنبوب خاصين وهم يؤكدون أن هذا العلاج يخفف كثيرا من الآلام وخاصة بالنسبة لالتهاب القنوات الأنفية.¹⁵³

ويتناول كايي طريقة علاج السكان لأوجاع البطن قائلا: "إنهم يصنعون نقاعة مغلقة تتكون من نصف ليتر من بول الإبل مخلوط بلترين من الماء"¹⁵⁴، غير أنه لم يبين طريقة استعمال هذا الدواء.

ويواصل هذا الرحالة استعراضه لأدوية البيضان مشيرا إلى أنهم يأخذون لحاء شجرة السنط (Mimosa) ويحرقونه ويحولونه إلى دقيق ثم يمزجون معه الزبدة وذلك لصناعة مرهم يعالجون به جميع أنواع الجروح والحروق والرضوض والأورام عن طريق دهن الأماكن المصابة مرتين في اليوم.¹⁵⁵

ويستخلص البيضان أوراق شجرة البوهينيا (Bauhinia) ثم يطحنونها و يمزجونها مع دقيق الصمغ وقليل من الماء فيضعون هذا "المستحضر" على الأماكن

¹⁵² - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., p.32.

¹⁵³ - René Caillié, Voyage à Tombouctou, op.cit., t-1, p.113.

¹⁵⁴ - Idem

¹⁵⁵ - Idem

المصابة من الجسم. وعندما يببس الصمغ يشكل قشرة على الجسم تترك حتى تسقط تلقائيا، وقد يشوون الصمغ أحيانا لاستخدامه في الدواء.¹⁵⁶ ويشيع عند البيضان كذلك استخدام حجر أحمر (المغرة) يعالجون به الرمذ والشقيقة.¹⁵⁷

ويذكر الرحالة كايي أن البيضان لا يعرفون أي دواء للحمى. لكنها حين تصيبهم يشربون اللبن الممزوج بالصمغ. ويضيف إنه شاهد امرأة مصابة بالحمى منذ شهر، وهي تدلك رأسها بزبدة ساخنة ممزوجة بمسحوق القرنفل.¹⁵⁸ ويمضي هذا الرحالة في استعراضه للعلاجات عند البيضان ذاكرا أنهم نادرا ما يستخدمون المسهلات رغم معرفتهم بها مشيرا إلى نبات مسهل يدعى السنا إذا أرادوا استخدامه يقومون بسحقه مع بعض ثمار العناب ويضيفون إليه الماء ثم يقدمونه إلى المريض.

وبعد مضي أكثر من ربع قرن على جمع كايي لتلك المعلومات عن الأمراض وعلاجها عند بيضان البراكنه يؤكد الطبيب الجراح بيبي في تقريره السابق الذكر تفوق البيضان على جيرانهم الزنوج من الناحية الطبية، وهو تفوق كما يقول: "متأت من كون البيضاني يتوفر على درجة متطورة من الذكاء"¹⁵⁹.

ويضيف هذا الجراح قائلا: "لن أتوسع بخصوص معارف الزنوج في مجال الطب، ذلك أنهم يلجأون باستمرار تقريبا إلى البيضان إذا كانت الحالة المرضية تمثل خطرا"¹⁶⁰.

¹⁵⁶ - Ibid, t-1, pp.113-114.

¹⁵⁷ - Ibid, t-1, p.114.

¹⁵⁸ - Idem

¹⁵⁹ - Pipy, Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures, op.cit., p.377.

¹⁶⁰ - Idem

ويقر هذا الطبيب خبرة البيضان النسبية في مجال الطب التقليدي طبعا وتمكنهم من الاستفادة من نباتاتهم الطبيعية في معالجة الأمراض، إذ يقول¹⁶¹: "إن البيضان بصفتهم أطباء لديهم معارف متسعة نوعا ما، فقد عرفوا كيف يستخرجون من أعداد كبيرة من النباتات أدوية يستخدمونها حسب الحالات المرضية وإن كان ذلك بطريقة خاطئة في كثير من الأحيان".

وينتقد هذا الجراح على أطباء البيضان مثلا طريقتهم السيئة جدا في معالجة الالتهابات عن طريق إعطاء كميات قليلة من القوابض مما يؤدي إلى إفشال العلاج أو إطالة أمد المرض إذا كانت الحالة على درجة من الخطورة.¹⁶²

ويمضي ببني في حديثه ذاك قائلا: "وبصفتهم [البيضان] جراحين فإنهم جسورون وموفقون في غالب الأحيان. فقد رأيت في مجموعة من الأشخاص آثارا عميقة لشقوق استهدفت علاج انسداد أو آلام.¹⁶³

ويعترف هذا الجراح بكفاءة الأطباء البيضان قائلا: "كما رأيت مؤخرا في الترازه واحدا من أعظم زواياهم يدعى أحمد¹⁶⁴، وهو مشهور بعلاجاته المدهشة، فقد نجح في معالجة خراج كبدي معالجة متقنة. ومع أن الخراج كان بارزا تحت الأضلاع إلا أن عملية البضع وعلاج المريض تتطلب الخبرة"¹⁶⁵.

¹⁶¹ - Ibid, op.cit., p.378.

¹⁶² - Idem

¹⁶³ - Idem

¹⁶⁴ - لم نتمكن من معرفة هذا الطبيب التقليدي "الجراح"، إلا أن وجوده في منطقة الكبله ليس غريبا بالنظر إلى أن هذه المنطقة أنجبت أسرة أهل أوفى التي اشتهر أفرادها بالطب التقليدي بما في ذلك إجراء بعض العمليات الجراحية.

¹⁶⁵ - Pipy, Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures, op.cit., p.378.

ويختتم هذا الجراح العسكري تقريره مؤكداً أن المفيد التعرف على مختلف وسائل العلاجات البيضاوية.¹⁶⁶ ويشير علي صل من جانبه إلى وجود أطباء مهرة¹⁶⁷ في منطقة تكانت يقومون ببعض العمليات الجراحية التي لم يحدد نوعها.¹⁶⁸ كما يتحدث هذا المستكشف عن شيوع معالجة البيضان لعدد من الأمراض عن طريق الكي بالنار، ودأبهم على القول: إن "كية من نار شفاء من كل داء"¹⁶⁹.

وعلى ما يبدو فإن العلاج بالكي والحجامة والتشريط كان سائداً في مختلف أنحاء البلاد الموريتانية إذ يذكره العديد¹⁷⁰ من المستكشفين والرحالين الفرنسيين على تباين المناطق التي جابوها والأوساط التي عايشوها.

وكان صولبي شاهد عيان على تداوي البيضان بالتشريط ولو أن هذا العلاج في تلك الحالة لم يكن ممارسة من طرف طبيب، وبالتالي فقد لا يكون صحيحاً بما فيه الكفاية، ومع ذلك أعطى نتائج إيجابية. يقول هذا الرحالة: "عندما اشتكى الطالب ابراهيم [أحد مرافقي صولبي] من آلام في أضلاعه عالجها الطالب عبد الله [مرافق

¹⁶⁶ - Idem

¹⁶⁷ - لعل الأمر يتعلق بأسرة أهل المقري العلوية التي اشتهرت بممارسة الطب التقليدي في منطقة تكانت.

¹⁶⁸ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.7.

¹⁶⁹ - Ibid, op.cit., p.9.

¹⁷⁰ - راجع بهذا الخصوص:

- ✓ Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit., pp. 7, 8 et 18;
- ✓ Soleillet, Rapport..., op.cit., pp. 21 et 37;
- ✓ Blanchet, Rapport de mission..., op. cit., p. 16.

آخر] بست شرطات بموسى رديئة. وعندما سال الدم من تلك الجروح أعلن أن آلامه قد خفت" ¹⁷¹.

ويصرح صوليبي "أن البيضان يستخدمون العديد من نباتات بلادهم للعلاج كالصمغ العربي وحب القرظ والسنا" ¹⁷².

ويذكر بلانشي استخدام السكان لمياه المحيط بهدف علاج بعض الأمراض مشيرا على الخصوص إلى أنهم يسقون المصاب باليرقان كمية من مياه البحر المالحة. ¹⁷³ غير أننا لا نجد لدى هذا الرحالة معلومات عن نتائج ذلك العلاج.

ويضيف بلانشي إنهم يعالجون الأمراض الجلدية مثل الجرب بمياه البحر ¹⁷⁴، دون أن يعطي تفاصيل أخرى بهذا الشأن.

ويستخدم البيضان مياه البحر أيضا في علاج بعض أمراض حيواناتهم. يقول صوليبي في هذا السياق: "[...] فهم يغسلون الإبل والخيل المصابة بلدغ الحشرات بمياه البحر" ¹⁷⁵ مشيرا إلى أنه يوم غادر مركز نجاكو بادنا رحلته إلى أدرار تعرض "لهجوم جيش عرمرم من الحشرات التي تهاجم الإبل والخيل بشراسة مما أدى إلى سيلان دمائها، فكادت تهلك لو لم نقم بغسلها بمياه المحيط. وقد تكون هذه الحشرات من فصيلة ذبابة تسي تسي الشهيرة" ¹⁷⁶.

ويذكر هذا الرحالة أيضا طريقة أخرى من طرق علاج البيضان للحيوانات فيقول: "لقد أصيب أحد جمالنا بدوار فنفخ عبد الله [أحد مرافقي صوليبي] في منخر

¹⁷¹ - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., p.37.

¹⁷² - Ibid, p.47.

¹⁷³ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., p.15.

¹⁷⁴ - ibid, pp.15-16.

¹⁷⁵ - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., p.27.

¹⁷⁶ - Ibid, pp.27-28.

الجمال المصاب كما قام محفوظ [مرافق آخر] بنفث دخان التبغ داخل فمه فاستجاب
الجمال على ما يبدو لهذا العلاج وأعلن بياطرته شفاءه¹⁷⁷.
غير أن هذه العلاجات التي قد تستخدم "بطريقة خاطئة" ما كانت لتؤتي أكلها
على الصحة العامة للبيضان لولا تفتنهم لضرورة الوقاية.

3. الوقاية

قد يكون من الجسارة أن نتحدث عن الوقاية (بالمعنى الذي نفهمه الآن من هذه
الكلمة) عند بيضان القرن التاسع عشر، غير أن المعلومات التي نقلها لنا المستكشفون
والرحالون عن هؤلاء السكان تسمح بتتبع بعض الممارسات الدالة في هذا الصدد.
فعن معاملة البيضان للمريض المصاب بالجرب يقول كايي: "عندما يصيب
الجرب أحدهم فإنه يتحاشى الجميع ويحظر عليه دخول المسجد، ويخصص له سرير
في زاوية من الخيمة. ولا يشرب أي شخص في الإناء المخصص لذلك المريض حتي
يتم شفاؤه بصورة كلية"¹⁷⁸.

ويؤكد علي صل ما ذهبنا إليه بخصوص وجود بواذر وعي صحي لدى
البيضان عندما يذكر ضمن حديثه عن المرض المعدي السابق (الحصباء) أن البيضان
يبدلون قسارى جهدهم للحيلولة دون اختلاط الأطفال المرضى بأولئك الذين لم
يصابوا بعد.¹⁷⁹

ويشير هذا المستكشف إلى ما يشبه الحجر الصحي ذاكرا تأجيل سفر بعض
البيضان حتى تنقضي فترة كافية على شفاء أبنائهم وأنهم يغتسلون كي لا ينقلوا العدوى
إلى المخيم الذي سيرحلون إليه.¹⁸⁰

¹⁷⁷ - Ibid, p.63.

¹⁷⁸ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.114.

¹⁷⁹ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., pp.15-16.

¹⁸⁰ - Idem

وفي هذا النطاق يخبرنا علي صل ل أن السكان يعزلون حيواناتهم المريضة عن تلك الصحيحة مخافة العدوى.¹⁸¹

ويؤكد صولي ذلك قائلا: "إن البيضان يعزلون الجمال التي يصيبها الجرب ويحاولون منعها من الاختلاط ببقية القطعان، بل إنهم يجلبون إليها الماء في ضاحية البئر وذلك لمنعها من الوصول إلى البئر حتى لا تعدي القطعان السليمة"¹⁸².

ويستنتج من حديث الرحالة بلانشي¹⁸³ أن البيضان أدركوا مخاطر انتشار المرض الوبائي في صفوف أبقارهم فحرصوا على فصل الأبقار المصابة بالمرض عن تلك السليمة للحد من انتشار الوباء.

وهكذا فقد تمتع القوم بتقاليد صحية نعتقد أن لاستفادة بعض الأوساط¹⁸⁴ من التراث الطبي العربي علاقة بها. إذ لولا ذلك المرجع النظري ما كان لبيضان الصحراء أن "يبرعوا" في تدخلاتهم العلاجية والإسعافية التي قد تتطلبها الأمراض الخطيرة والحوادث العارضة، فضلا عن الحروب التي تقوم من وقت لآخر هنا أو هناك.

ج. الحرب .. (الوسائل والطرق)

إن ممارسة الحرب هي في العادة من مشمولات اختصاص فئة حسان ذات الشوكة. وتجري الحروب عادة بين القبائل الحسانية المكونة للإمارة ذاتها أو بين بعض أو كل القبائل الحسانية في إمارة ما ضد إمارة أخرى غالبا ما تكون مجاورة.

¹⁸¹ - Ibid, op.cit., p.18.

¹⁸² - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., p.32.

¹⁸³ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., p.17

¹⁸⁴ - نشير هنا إلى الممارسات الطبية لأسر أهل المقري، أهل أوفى... إلخ.

وفضلا عن الحروب والمعارك يعرف المجال البيضاني غارات خاطفة تقوم بها هذه الجماعة أو تلك ضد جماعة أخرى أخذا بالثأر أو بحثا عن موارد رزق في ما يمكن اعتباره شكلا من أشكال إعادة تنظيم مصادر العيش وتوزيعها في هذا المحيط الصحراوي الضنين.

وقد شغلت الحرب وأدواتها لدى البيضان حيزا مهما في اهتمامات الرحالين والمستكشفين إذ نجد إشارات مشتتة عن هذه الظاهرة لدى مختلف أولئك الفرنسيين. ويتحدث موليين عن تربية أبناء حسان وتكوينهم المبكر على الحرب فيقول: "ابتداء من السنة العاشرة فإن أبناء البيضان [حسان] يذهبون إلى الحرب، ففي هذه السن يعرفون ركوب الخيل واستعمال البنادق"¹⁸⁵.

ويضيف هذا الرحالة في الموضوع نفسه قائلا: "إن أبناء الأمراء يتميزون خاصة بالجرأة. ذلك أن واحدا منهم يدعى علي الكوري¹⁸⁶ لما يبلغ التاسعة من العمر لم يتردد في الذهاب وحيدا لخطف كبش من الرعاة [...] مهددا بقتلهم [...] إن واصلوا محاولات استرجاع الكبش"¹⁸⁷.

ويعرب موليين عن دهشته عندما شاهد ذلك الشاب الذي تعود أن يراه عاري الجسم يلبس دراعة جميلة، قائلا: "إنني ذاهب إلى حي ي لأن أتباعي يوشكون أن يقتلوا، وحضوري كفيل بإرجاعهم إلى الواجب [الطاعة]"¹⁸⁸. ويظهر هذا الرحالة

¹⁸⁵ - Mollien, *voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, t-1, op.cit., p.8.

¹⁸⁶ - ربما يعني محمد بن علي الكوري بن أمير بن علي شنظوره الذي انتقلت الإمارة في صباه إلى أمير بن المختار من الفرع الأصغر من ذرية علي شنظوره. وقد دخل محمد بن علي الكوري في صراع مع الأمير أمير بن المختار مطالبا بإمارة أبيه بوصفه زعيما للفرع الأكبر من أبناء علي شنظوره فتمكن من كسب بعض أولاد أحمد بن دامن وأولاد دامن وجناح من إيدوعيش وخاض ضد الأمير حروبا عديدة، استمرت حتى اغتياله سنة 1827.

¹⁸⁷ - Mollien, *voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, t-1, op.cit., p.8.

¹⁸⁸ - Ibid, op.cit., pp.8-9.

إعجابه بذلك الشاب متسائلا عما إذا كانت "عشر سنوات إضافية من العمر وتربية أوربية [?] كافية لجعله بطلا مغوارا"¹⁸⁹.
وينحو كايي منحى سلفه موليين مؤكدا أن: "حسان نادرا ما يتعلمون الكتابة لأن طموحهم الأساسي يتمثل في إتقان الفروسية والقتال"¹⁹⁰; فما هي أهم وسائلهم لذلك القتال؟

1. وسائل الحرب

يتم إعلان البيضان لقرار الحرب عادة بعد مشاورات بين الأمير والجماعة (مجلس الأعيان).

وتضطلع الخيل والإبل بدور أساسي في الحروب لدى البيضان، ولعل ذلك من أهم أسباب المكانة المتميزة التي يعطونها لهذين الصنفين من الحيوانات بشكل خاص. فلدى كل بيت أميري، وربما لدى كل مشيخة أو قبيلة من القبائل ذات الشوكة توجد عينات من الخيل يوشك الاهتمام بها أن يصل حد التقديس، إذ تحاك روايات أسطورية عن سرعتها وقدرتها الفائقة على هزيمة العدو وحماية فارسها من السقوط أو من ضربة طائشة صادرة من خصم محترف. كما تنسج روايات دون تلك المرتبة عن بعض الجمال ذات الاستخدام العسكري.

وعن المكانة المتميزة للخيول والبندقية عند القوم يتحدث كايي فيقول: "إن الحساني الذي يمتلك فرسا وبندقية ودراعة يعتبر نفسه أكثر العالمين سعادة"¹⁹¹.

أما منزلة الجمل فتكاد لا تقل أهمية عن مكانة الجواد. فالجمل فضلا عن استخدامه في مجال الحرب يعتبر سفينة الصحراء التي لا تكل، والتي قدمت على مر الزمن خدمات كبيرة لسكان الصحراء. وينقل صوليبي أنموذجا من اعتداد البيضاني بالجمل حين يقول: "قال لي محمد مولود وزير الأمير [علي بن محمد الحبيب] وهو

¹⁸⁹ - Ibid, op.cit., p.9.

¹⁹⁰ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.102.

¹⁹¹ - Ibid, t-1, p.141.

[أي الوزير] يمتطي جملة ووراءه زوجته: انظر، هكذا فمع الجمل لا ينقص المرء شيء فباستطاعته الذهاب حيث شاء حاملا ما يحتاج إليه: زوجته وسريره"¹⁹².
وعن نوعية العتاد الحربي البيضاني يحدثنا موليين قائلا: "إن أسلحة البيضان هي أسلحتنا بعينها، غير أن غياب التنظيم يجعلهم دوننا في ميادين الحروب"¹⁹³.
وتتشكل هذه الأسلحة من البنادق والسيوف والخناجر والسكاكين والنبال وأحيانا العصي.¹⁹⁴

ويبدو من خلال تقرير علي صل عن رحلته عبر المناطق الوسطى والشرقية من البلاد أن العديد من المجموعات القبلية في تلك المناطق بما فيها بعض القبائل الزاوية تتوفر على مختلف هذه الأسلحة.¹⁹⁵
ويؤكد بلانشي أن لكل بيضاني بندقية. غير أننا لا نستبعد أن يكون مرد هذا التأكيد إلى محاولة تيرير المصير الذي آلت إليه بعثته في أدرار (التهب والأسر). ذلك أن غيره من الرحالين والمستكشفين¹⁹⁶ الفرنسيين الذين زاروا البلاد الموريتانية في القرن التاسع عشر أكدوا على أن حمل السلاح واستخدامه يكاد يكون مقصورا على القبائل الحسانية ذات الشوكة.

ونكتفي في هذا المجال باستشهاد للرحالة صوليبي وقد زار منطقة أدرار التي يتحدث عنها بلانشي قبل وصول هذا الرحالة إليها بعقدين من الزمن فقط (وقد سلك

¹⁹² - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., p.61.,

¹⁹³ - Mollien, **voyage dans l'intérieur de l'Afrique**, t-1, op.cit., p.9.

¹⁹⁴ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.8.

¹⁹⁵ - Ibid, op.cit., pp.8, 11, 17 et 21.

¹⁹⁶ - راجع علي سبيل المثال:

- ✓ Mollien, Voyage dans l'intérieur..., op.cit, t.-1, pp, 10-12,
- ✓ Caillié, Voyage ..., op.cit., t.-1, p.,
- ✓ Mage, "Voyage au Tagant ..." op.cit., p. 6,
- ✓ Sall, Rapport sur un voyage..., op.cit.

طريقا مشابهة لطريق سلفه بلانشي عابرا منطقتي الترازه وأينشيري). يقول صوليبي: "لا يتوفر الزوايا على أي سلاح في هذه المناطق المشتهرة ببربريتها [?] سوى سلاح العلم والرحمة والغفران"¹⁹⁷. وعن وسائل الحرب لدى البيضان يقول موليين: "إن لدى معظمهم [البيضان] خيلا مشهورة بسرعتها المنقطعة النظير في المباراة"¹⁹⁸. ولا يقتصر البيضان على استخدام الخيل وحدها في مبارياتهم ومبارزاتهم، بل إن للجمل مكانته المتميزة كوسيلة للحرب. يقول الرحالة موليين: "إن هؤلاء الفرسان المحتممين وراء تلك الحيوانات [الجمال] يحاربون برباطة جأش تماثل ما لدى محاربينا [الفرنسيين] وهم وراء الأسوار والحواجز"¹⁹⁹؛ فما هي أهم الطرق والاستراتيجيات التي يتبعها أولئك الفرسان في معاركهم؟

2. استراتيجيات المعركة

لم تكن عند البيضان قواعد محددة للقتال الذي "كان كرا وفرا واغتيالاً في المناسبات"²⁰⁰ فالكر والفر والهجوم المباغت والكمين من أهم أساليب المعركة عند هؤلاء السكان.

ويبرز كايي أسلوب البيضان في المباغته حين يقول: "إنهم لا يتحاربون إلا عن طريق المناوشات، ولا يهاجمون إلا بغتة"²⁰¹.

¹⁹⁷ - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., p.6.

¹⁹⁸ - Eugène-Abdon Mage, Voyage au Tagant, op.cit., p.9.

¹⁹⁹ - Mollien, **voyage dans l'intérieur de l'Afrique**, t-1, op.cit., p.20.

²⁰⁰ - المختار بن حامد، الموسوعة، الجزء السياسي، مر. سا، مرقون، ص. 78.

²⁰¹ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.102.

وعن طريقة معاملتهم للأسرى يقول هذا الرحالة: "عندما تندلع الحرب بين البيضان فإنهم لا يحتفظون بالأسرى بل يقتلون فوراً خصومهم الذين يسقطون في أيديهم. كما أن غنائم الحرب تكون للمنتصر"²⁰².

وبعد سبعة عقود ونصف على مغادرة كايي لبيضان البراكنه، يؤكد بلانشي على أهمية الهجوم المباغت والكمين ضمن آليات الحرب البيضانية. يقول ذلك الرحالة نقلاً عن أحد أفراد قبيلة أولاد عمري الحسانية "[...] إننا لا نطلق النار إلا حينما يصبح خصمنا على بعد متر من مكان اختبائنا. وإذا لم تؤد البندقية دورها فإن الخنجر كفيل بالقضاء عليه"²⁰³.

ويبدو أن معظم المعارك لم تكن تجري على أرضية مقننة وطبقاً لقواعد قتال الجيوش، بل إن البيضان كانوا مرغمين على "أن يجوبوا مسافات شاسعة بحثاً عن غرماهم أو غنائمهم"²⁰⁴ كما يقول بلانشي.

ويستأنف بلانشي وصفه لطرق الحرب عند البيضان في حديث لا يخلو من تحامل ربما أملت ظروف النهب والاعتقال التي عاشها إذ يقول: "إن البيضان نتيجة لندالتهم وجبنهم [!] لا يحاربون إلا عن طريق نصب الكمائن، أو بشكل مفاجئ، أو إذا احتالوا على العدو بواسطة خيانة ما. وهم كذلك متبحرون متكبرون وحقوقدون ميالون للثأر يتقنون التستر على حقدهم إذ يمكنهم أحياناً انتظار عدة سنوات حتى يجدوا الفرصة المناسبة للانتقام"²⁰⁵.

ورغم أن المختار بن حامد يرى "أن حسان ليست عندهم للقتال قواعد مرعية، إنما كان كرا وفرا بين الفرسان واغتياً في المناسبات ولم يكن هنالك تجنيد

²⁰² - Idem

²⁰³ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., p.19

²⁰⁴ - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit.,

p.9.

²⁰⁵ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., pp.19-20.

إجباري أو راتب للمجندين فالقتال تطوع وعصبية²⁰⁶؛ فإن كل إمارة وربما كل مشيخة تمتلك ما يمكن، بشئ من التجاوز، اعتباره قوة عسكرية خاصة بها. وتتشكل هذه القوة عادة من فرسان القبيلة أو المجموعة القبلية الحاكمة وحرطينها²⁰⁷ وعبيدها. وقد تلجأ إلى مساعدة بعض مجموعات "أزناكه" ولو كان ذلك كله لا يمكن الأمراء من الاستغناء عن مساعدة القبائل الأخرى صاحبة الشوكة الموجودة في المجال الترابي لهذا الأمير أو ذاك، كما أنه لا يخولهم فرض السيطرة المطلقة على تلك القبائل.²⁰⁸

وتتم تعبئة هذه القوى في مناسبات الحرب بطرق مختلفة. ويعتبر الطبل الأداة الإعلامية التي يعلن قرار الحرب عن طريق قرعها عدة مرات.²⁰⁹ ويمكن اعتبار الغنائم التي تتقاسم بعد النصر نوعاً من رواتب الجند غير النظاميين الذين يؤلفون ما يمكن اعتباره قطاعات عسكرية.

3. القطاعات العسكرية

لقد برزت فكرة إنشاء قطاعات عسكرية داخل بعض الإمارات لتسهيل الدفاع عن المجال الأميري. فقد عرفت إمارة الترارزه مثالا لا حصراً توزيعاً جيوعسكرياً لقدراتها الحربية، إذ يشير المستكشف فينصان²¹⁰، في هذا الخصوص، إلى أن قبيلة لعلب الحسانية كانت تلعب دور قوة استطلاعية في الهوامش الشمالية لمجال الإمارة؛ بينما تمارس قبيلة الرحاحله العمل نفسه في الأجزاء الشرقية من ذلك المجال.

²⁰⁶ - المختار بن حامد، الموسوعة، الجزء السياسي، مر.س، ص.78.

²⁰⁷ - العبيد المعتوقون.

²⁰⁸ - G. Gerhardt, Les Trarza, tribus, redevances et classes sociales, op.cit., p.464.

²⁰⁹ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.7.

²¹⁰ - Henri Vincent, Voyages d'exploration dans l'Adrar, op.cit., p.452.

ويتحدث علي صل²¹¹ من جانبه عن تولي أهل بورده²¹² لحراسة نقاط المياه الموجودة على الطريق بين أروان وولاته مشيرا إلى أن مجموعات من تلك القبيلة تؤلف مراكز حراسة متقدمة في التخوم الشرقية من المنطقة. ونجد لدى بعض المستكشفين والرحالين معطيات كمية عن القوى العسكرية التي تتوفر عليها بعض الإمارات. وإذا كنا نشك في دقة تلك المعطيات ونتساءل في الوقت نفسه عن مدى مشروعية الركون إليها، فإنها في حد ذاتها وبغض النظر عن صحة أرقامها تدل على توفر تلك الكيانات على رصيد عسكري لا يخلو من أهمية. فالضابط كايّ وليس الرحالة كايّ يقدر في سنة 1843 العدد الإجمالي للمجموعات الحسانية في إمارة الترارزه بخمسة وعشرين ألف نسمة، من بينهم ستة آلاف مقاتل.

ويبلغ مجمل المجموعات الحسانية في إمارة البراكنه حسب هذا الضابط دائما ثلاثة وعشرين ألف نسمة من بينهم خمسة آلاف محارب.²¹³ أما المستكشف علي صل فيقول: "إن جيش بكار ولد اسويد أحمد يتجاوز أحيانا عدة آلاف من الفرسان"²¹⁴. ويشير هذا المستكشف عبر تنقلاته في المناطق الشرقية من البلاد إلى تشكيلات عسكرية متعددة، حيث سافر مع فرقة من قبيلة لقلال تضم 200 جمال مسلحين.²¹⁵ ويضيف علي صل قائلاً: لقد تصادف وصولي إلى مدينة ولاته مع تعرضها لهجوم من طوارق تنبكتو. "وقد تمكن أولاد علوش وأهل بورده من تعبئة أكثر من ألفي رجل مسلحين بالبنادق لصد المهاجمين الذين هزموا شر

²¹¹ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit.,

²¹² - بطن من أولاد علوش بن داود أصبح مستقلا باسمه وبقيادته منذ ظهور سيدي محمد بن الحاج بورده.

²¹³ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.3.

²¹⁴ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.12.

²¹⁵ - Ibid, op.cit., p.17.

هزيمة فلم يستطع منهم العودة إلى تنبكتو سوى 70 رجلا، في حين خسر المنتصرون خمسين رجلا فقط".²¹⁶

ورغم أننا لا نعرف المصادر التي استقى منها علي صل معلوماته تلك، ورغم ما تثيره الأعداد الصماء من تساؤل كذلك، فإن ما ذكره يدعم ما ذهبنا إليه وهو وجود نواة لجيش احتياطي عند مختلف الإمارات والمشيخات البيضانية. ويقدم بلانشي بدوره معلومات عديدة تتعلق بالقوى العسكرية لإمارة أولاد يحيى بن عثمان إبان بعثته إلى آدرار سنة 1900. يقول هذا الرحالة²¹⁷: "عند وصولنا إلى آدرار كان أولاد غيلان البالغ عددهم 800 محارب يخوضون الحرب ضد الأمير المختار بن عيده الذي تمكن بعد بعض الانتصارات وتوزيع بعض الهدايا من كسب القبائل التالية:

إديشلي 100 محارب

أولاد أكشار 150 محاربا

أولاد اللب 250 محاربا

البيجات 250 محاربا

العبيد²¹⁸ 100 محارب

فضلا عن أولاد عمي 500 مدفع²¹⁹، مما يجعل أنصار هذا الأمير يقدرون

بألفي محارب".

وطبعا فإن بعض هذه المجموعات لا يشكل حملة سلاح دائمين، وإنما مجرد جنود احتياطيين يتم تسليحهم وقت الحاجة، في حين يتفرغون في الأوقات العادية للأنشطة الاقتصادية.

²¹⁶ - Ibid, op.cit., p.21.

²¹⁷ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., pp.25-26.

²¹⁸ - قد يكون الأمر متعلقا بعبيد أهل يحيى بن عثمان.

²¹⁹ - ربما يقصد خمسمائة محارب.

الفصل السابع

الأنشطة الاقتصادية البيضانية خلال القرن التاسع عشر

يمارس البيضان كغيرهم من سكان المنطقة أنشطة اقتصادية تقليدية متعددة كالرعي والزراعة والتجارة والصيد...إلخ. وتفاوتت هذه الأنشطة أهمية باختلاف الزمان والمكان.

وسنحاول تناول هذه النشاطات انطلاقا من العناية التي منحها لها المستكشفون الفرنسيون أثناء القرن التاسع عشر، بادئين بالنشاط التجاري الذي ظل طيلة القرن يثير أكثر من غيره اهتمام أولئك الفرنسيين

أولاً. التجارة والمبادلات التجارية

لقد حظيت التجارة البيضانية بنصيب الأسد من اهتمامات المستكشفين الأوروبيين عامة والفرنسيين على وجه الخصوص، الشيء الذي قد يجد تفسيره في أن الاهتمام بثروات المنطقة وإمكانياتها التجارية من منظور مركنتيلي ظل الشغل الشاغل للإدارة الفرنسية في السنغال، هذه الإدارة التي ألحت في تعليماتها المقدمة إلى المستكشفين والرحالين على ضرورة إعطاء الأهمية المناسبة لهذا النشاط. وبالتالي فإنه من الطبيعي أن يولي المستكشفون لهذا المجال أهمية تتناسب مع مكانته لدى تلك السلطات.

ويمكن تناول التجارة البيضانية، على العموم، من خلال محورين: هما التجارة الخارجية والتجارة الداخلية.

أ. التبادل الخارجي

شاركت في المبادلات التجارية الخارجية مع البيضان أطراف عديدة أهمها الجيران الجنوبيون والشرقيون بالمناطق السودانية، والجيران العرب الشماليون والأوروبيون في المناطق الساحلية.

1. التبادل مع الأوروبيين

تتم المبادلات التجارية بين البيضان والأوروبيين في المحطات الأطلسية (أركين وبورتانديك) والنهرية (لودزير، تري روج، بودور، باكل، دكانه، وسين-لوي... إلخ).

وبالطبع فإن اهتمام الأوروبيين بتجارة المنطقة، ومحاولة الاستحواذ على مواردها الاقتصادية ليس بالأمر الجديد. فالمبادلات التجارية بين البيضان والأوروبيين بدأت على ما يبدو منذ النصف الأول من القرن الخامس عشر حين حل البرتغاليون بالسواحل الأطلسية (الموريتانية) وأنشأوا بها مراكز تجارية كان من أهمها وأكثرها حيوية مركز أركين حيث أقاموا تجارة نشطة مع البيضان تركزت على مقايضة الحرير والأقمشة والفضة والقمح... إلخ، بالذهب والعبيد.

ويذكر مستو أن تجار البيضان كانوا يسافرون في قوافل كبيرة إلى تنبكتو ومملكة مالي بحثًا عن الذهب والرقيق اللذين يقيضونهما بالملح والخيول.¹ وقد اهتم المسكتشفون البرتغاليون بهذه التجارة، وبالمراكز التجارية، وكانت تجارة الرقيق شغلهم الشاغل.² وعندما تمكن البرتغاليون من التوغل داخل الصحراء

¹ - Mosto, op.cit, pp.45 et suivantes

² - راجع بهذا الشأن:

Ancelle, Les explorations..., op.cit., pp. 18-22 .

الموريتانية، أنشأوا وكالة تجارية في وادان³ محاولين مد نفوذهم داخل الصحراء ونحو السودان الغربي سعياً إلى الوصول إلى المناطق المنتجة والمصدرة للذهب. وقد حاولت أمم أوروبية عديدة (الإسبان، الهولنديون، البريطانيون، الفرنسيون) أن تسلك الطريق الذي دشنه البرتغاليون بحثاً عن مصادر الثروة على السواحل الإفريقية، وتسابقا إلى وصول المناطق الإفريقية المنتجة للذهب. وقد أدى ذلك السباق إلى اندلاع سلسلة من الحروب بين تلك الدول أهمها حروب الصمغ⁴ التي أسفرت في نهاية المطاف عن استئثار الفرنسيين بالمنطقة.

وكان التبادل التجاري مع الأوروبيين يجري أساساً في المراكز الأطلسية وفي المحطات النهرية التي استوقفت الرحالة موليين الذي عرف المحطة (Escale) بأنها "حسب الأوروبيين مجموعة من الخيام يضربها البيضان عادة في مكان يشكل عقدة (Coude) في النهر وهذا المخيم يظهر لوحده أن ضفة النهر قابلة للسكنى"⁵.

ويبالغ هذا الرحالة في حيوية محطات التبادل التي تشبه الحركة بها ما يشاهد في بعض القرى الأوربية أيام انتظام الأسواق بها حيث اعتاد سكان الريف زيارتها للمشاركة في أسواقها الموسمية.⁶

ويواصل الرحالة وصفه الذي لا يخلو من نفس أدبي لمحطات التبادل ونشاطها الحيوي: "من هذه الجهة تصل القوافل [البيضانة] المحملة بالصمغ؛ وفي الجهة الأخرى أعداد هائلة من الجمال تتجه نحو الضفة لتروي ظمأها؛ وهناك قطع من الثيران الحمالة يركبها بيضان وتسير بخطوات وئيدة لتغوص في النهر؛ وهنا تاجر بيضاني يجري وراء أحد تجار سينلوي ليبيعه مسبقاً الصمغ الذي جمعه عبيده

³ - Mosto, op.cit, pp.45.

⁴ - بخصوص تلك الحروب تمكن مراجعة:

Delcourt, La France..., op.cit., pp. 179 et suivantes.

⁵ - Mollien, **voyage dans l'intérieur de l'Afrique**, t-1, op.cit., p.10.

⁶ - Idem

في الغابات"⁷. ثم يستعرض موليين ضمن حديث له عن محطات التبادل تلك أهم البضائع البيضانية وهي الصمغ العربي والحيوانات والحليب ومشتقاته. وتتم مقايضة هذه المنتجات بالبضائع الأوروبية كالقماش الغيني الأزرق والبنادق والبارود. وتطالعنا في رحلة موليين بعض الإشارات إلى النشاط التجاري البيضاني إذ يزعم هذا الرحالة أن "البيضان مثل جميع الشعوب الإفريقية يفضلون المبادلات التجارية على غيرها من الأنشطة"⁸.

ويتوقف هذا الرحالة عند تجارة الصمغ قائلا: "إن جميع تجار هذه البضاعة من فئة الزوايا الذين لا يحاربون أبدا"⁹. ويشير موليين إلى أن هؤلاء الزوايا يستخدمون عبيدهم لجمع الصمغ قبل حمله إلى المراكز التجارية النهريّة لمقايضته بالبضائع الأوروبية¹⁰.

وإذا كان موليين بحكم محدودية اتصاله بالمنطقة، واقتصاره على مشاهدات عابرة في محطات التبادل خلال أيام معدودة قد تحدث عن التجارة البيضانية في شكل إشارات سريعة، فإن هذا النشاط قد شغل الرحالة كايي أكثر، الشيء الذي قد يفسر على ضوء معاشته الطويلة للسكان، فقد مكث هذا الرحالة كما أسلفنا في منطقة البراكنه حوالي تسعة أشهر من سنتي 1824-1825. وعبر الصحراء الكبرى مارا ببعض المراكز التجارية المهمة ومسافرا رفقة قوافل تجارية متعددة، مما جعله أكثر اطلاعا من معظم الرحالين والمستكشفين الفرنسيين على حياة البيضان وأنشطتهم المختلفة.

فعند قراءتنا لرحلة كايي نصادف هاجس الاهتمام بالتجارة بارزا حتى في مقدمة كتابه إذ يقول: "إن مقامي المطول في مراكزنا بالسنگال، وربما تجربتي

⁷ - Ibid, pp.10-11.

⁸ - Ibid, p.12.

⁹ - Idem

¹⁰ - Idem

الخاصة قد علماني أن تجارتنا الراكدة في المنطقة تحتاج إلى أسواق ومنافذ وعلاقات جديدة مع المناطق الداخلية الإفريقية".¹¹

ويتحدث الضابط البحري ماج، من جانبه، عن تجارة البيضان مؤكدا أنهم يصدرون سنويا إلى مركز باكل قطعانا هائلة من الحيوانات.¹² ويشير إلى أن أول اتصال له مع هؤلاء البيضان، فوق ترابهم، تم مع مجموعة من تجار قبيلة مسومه صادفهم عاندين لتوهم من محطة باكل حيث كانوا يبيعون قطعانا من الثيران ولديهم ثوران محملان بالبضائع وسبعة عبيد.¹³

ومع علي صل تعرف معلوماتنا عن النشاط التجاري البيضاني دفعا مهما، وذلك بالنظر إلى كثرة تجوال هذا الرحالة داخل المجال البيضاني، ولطول فترة إقامته بهذا المجال، ثم لتمكنه على الخصوص من زيارة بعض المدن التجارية البيضانية التي جلب منها معطيات بالغة الأهمية عن تجارة البيضان. فقد رافق ذلك الرحالة في بداية طريقه نحو الشرق الموريتاني قافلة تجارية من تتواجبو كانت تقايض الصمغ العربي في سين-لوي بالبضائع الأوروبية.¹⁴

وفي معرض حديثه عن تجارة البيضان مع الأوروبيين استعرض كايي¹⁵ طرق ووسائل تلك المبادلات التي تتم في محطات التبادل النهرية مشيرا إلى "أن موسم المتاجرة في تلك المراكز يستمر عادة من شهر يناير/كانون الثاني وحتى نهاية يوليو/تموز من كل سنة"¹⁶.

¹¹ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, pp.38-39.

¹² - Eugène-Abdon Mage, **Voyage au Tagant**, op.cit., p.6.

¹³ - Ibid, op.cit., p.2.

¹⁴ - Alioune Sall, **Rapport sur un voyage d'exploration**, op.cit., p.12.

¹⁵ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.176.

¹⁶ - Ibid, p.178.

وأضاف أن الأمير يوفد وزراءه إلى المحطة ويمنحهم صلاحيات التفاوض باسمه لتحديد الأتاوات المستحقة على التجار الفرنسيين ولحل الخلافات التي قد تحدث أثناء عمليات التبادل.¹⁷

واستعرض كايي¹⁸ ما يواجه التجار الفرنسيين من عراقيل وعقبات يخلقها البيضان تجارا وخفراء وأمراء. فأفراد القافلة التجارية وهم من الزوايا في العادة يبقون على نفقة التجار الفرنسيين منذ وصولهم للمحطة حتى يبيع صمغهم واستلامهم الثمن، وحين يصعد أي بيضاني سفينة فرنسية لبيع كمية مهما كانت قليلة من الصمغ فإن تغذيته هو ومرافقيه تقع على عاتق صاحب تلك السفينة. وبعد أن يبيع البيضان صمغهم ويحصلوا على ثمنه فإنهم يفرضون على التجار الفرنسيين التكفل بنفقات العشاء مع أن عمليات البيع قد تستغرق عدة أيام لأن التجار البيضان يفضلون أن يتم البيع بشكل متأن حتى لا يخذعهم الفرنسيون.¹⁹

وتقتضي العادة أن يتولى التجار الفرنسيون نفقة البيضان الذين كلفهم الأمير بخفارة السفن. وتتخلص مهمة هؤلاء الخفراء في منع نقل الصمغ إلى السفن قبل توقيع اتفاقية بهذا الشأن، كما أنهم يراقبون السفن الممنوعة من المتاجرة.²⁰ ويأخذ التجار الفرنسيون كذلك على عاتقهم نفقة الأمير ورفقته أثناء مقامه بمحطة التبادل. يقول كايي²¹ "أثناء مقام الأمير [البركني] الذي يستغرق حوالي شهرين فإن التجار [الفرنسيين] مرغمون على تولي نفقته هو ومن يرافقه فضلا عن تقديم قطعتين من القماش الغيني الأزرق ضريبة يومية له تسمى "عشاء الأمير".

¹⁷ - Ibid, p. 176.

¹⁸ - Ibid, pp. 177-179.

¹⁹ - Ibid; pp. 179-180.

²⁰ - Ibid; p. 177.

²¹ - Ibid, pp. 178-179.

وإلى جانب ذلك يذكر كايي²² ضريبة أخرى فرضها الأمير على التجار تتألف من 100 قطعة من القماش الغيني الأزرق، وإذا لم تقدم هذه الإتاوة إلى الأمير فوراً فإنه يوقف عمليات التبادل التي قد تعطل لأتفه الأسباب. ويذكر كايي أنه كان شاهد عيان عندما تم توقيف عمليات التبادل يوماً في المحطة لأن "خاله الأمير فاطمه بنت المختار اشتكت إليه من أحد التجار [الفرنسيين] كان قد قدم إليها قهوة (un café) ارتأت أنها غير لذيدة"²³.

ويتصدر الصمغ البضائع البيضانية نظراً لحاجة الفرنسيين الماسة إليه في ذلك الوقت، مما جعلهم يتحملون مختلف إهانات وضغوط البيضان حتى لا يقطعوا تزويدهم بهذه المادة، ويحولوها شطر الإنجليز، وهم المنافسون الرئيسيون للفرنسيين حينئذ.

وضمن البضائع البيضانية المعروضة للتبادل المواشي ومنتجاتها من ألبان ودهون.. إلخ.. يذكر كايي²⁴ أن قبائل أزناكه تقترب أثناء موسم بيع الصمغ من المحطات التجارية لمقايضة منتجات حيواناتها من لبن ودهن بالقماش الغيني الأزرق والبارود والمصنوعات الزجاجية وغيرها من البضائع الأوروبية.

ويتحدث علي صل²⁵ عن قافلة تجارية من قبيلة تتواجبوا كانت تقايض الصمغ العربي في سين-لوي بالبضائع الأوروبية مشيراً إلى أن هذه القافلة التي رافقها في بداية طريقه نحو الشرق الموريتاني، كانت محملة بمختلف البضائع الأوروبية خاصة القماش الغيني الأزرق التي تمت مبادلتها بالصمغ العربي وبعض رؤوس الماشية.

²² - Ibid, p.179.

²³ - انظر: كايي، المصدر والصفحة ذاتهما. كما أن التساؤل وارد عما إذا كان الأمر يتعلق فعلاً بقهوة (café) أم بمشروب آخر.

²⁴ - Ibid, p.182.

²⁵ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.12.

أما صولبي فقد لفتت انتباهه أكثر القوافل التجارية البيضانية المتجهة إلى سين-لوي والقادمة منها. ففي 19 فبراير/شباط 1880 أي يوم انطلاقه من نجاكو إلى أدرار وصلت قافلة من التجار البيضان إلى سين-لوي قادمة من شنقيط²⁶. وفي 26 من الشهر نفسه صادف قافلة تروزية عائدة للتو من سين-لوي مؤلفة من عشرة رجال لديهم 12 جملا محملا بالبضائع²⁷. وفي اليوم نفسه التقى "قافلة أخرى متوجهة إلى سين-لوي تضم ثمانية رجال وعشرين جملا محملا بالتمور، فضلا عن حمولة مخفية من الذهب وريش النعام"²⁸.

ومع أن صولبي لم يذكر كيف اكتشف الحمولة الخفية (الذهب وريش النعام)، فإننا لا نستبعد أن تكون المسألة مجرد عملية إسقاط، فقد كان الرحالة يحمل كمية من الذهب مخفية ضمن بضائعه، مما جعله يسقط وضعيته على القافلة المذكورة، والتي لم يحدد لنا الجهة القادمة منها. غير أننا نعتقد أنها أتت من أدرار بدليل حمولة التمر التي أشار إليها الرحالة.

وفي اليوم الموالي (17 فبراير/شباط 1880) صادف صولبي قافلة أخرى قادمة من مدينة تشيت متجهة إلى سين-لوي لبيع قطعان من الماشية (إبل وخيل)²⁹. وفي فاتح مارس/آذار التقى الرحالة بقافلة من قبيلة أولاد بسباع متجهة إلى سينلوي ولديها عشر من الخيل العتاق وقطيع من الجمال³⁰. وبخصوص المبادلات التجارية الأوروبية مع المنطقة والتنافس الأوروبي للاستثمار بتجارها، يذكر الرحالة صولبي أن الأمير التروزي علي بن محمد الحبيب أبدى تخوفه من مركز تجاري أقامه الإنجليز في الساقية الحمراء، لأنه سيقضي على

²⁶ - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., p.20.

²⁷ - Ibid, p.36.

²⁸ - Ibid, p.37.

²⁹ - Ibid, p.29.

³⁰ - Ibid, p.43.

التبادل التجاري بين وادي نون وسين-لوي.³¹ كما أن ذلك المركز الإنجليزي سيستقطب جزءا من تجارة آدرار مع السنغال، مما يؤثر سلبا على الأمير علي لأنه سيحرمه من ضريبة حق العبور التي يفرضها على القوافل التجارية المارة بالمجال الأميري لإمارته.³²

ويؤكد صوالي من جانبه أن هذا المركز يمثل خطرا على التجارة الفرنسية في السنغال، ويقترح معالجة الموضوع "ببعث مراكزنا [يعني الفرنسيين] القديمة في حوض آرकिन"³³.

وفيما يتعلق بالمبادلات التجارية مع الفرنسيين يشير الرحالة بلانشي إلى أن سكان شنقيط وأطار يوفدون كل سنة إلى سين-لوي قافلة تجارية لشراء القماش الغيني الأزرق من مختلف العينات لاستخدامه في اللباس. ويبيع تجار البيضان قطعة هذا القماش التي اشتروها من سين-لوي بستة فرنكات، في آدرار ب 10 أو 12 فرنكا³⁴. ويشترى البيضان كذلك من سين-لوي السكر والشاي، فيبيعون كيلوغرام الشاي بثلاثين إلى أربعين فرنكا في آدرار بعد أن اشتروه من سين-لوي بسبعة فرنكات³⁵. ويشترك سكان المناطق المجاورة للمحيط الأطلسي البيضان في هذا النشاط التجاري حيث يجفون السمك ويحملونه إلى سينلوي لبيعه هنالك.³⁶ غير أن علاقات البيضان التجارية مع الأوربيين لم تمنعهم من إقامة حركة تبادل حيوي داخل المنطقة.

2. التبادل الجهوي

³¹ -Ibid, p.64.

³² - Idem

³³ - Ibid, pp.64-65.

³⁴ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., p.26..

³⁵ - Idem

³⁶ - Ibid, p.20.

تتركز المبادلات التجارية الجهوية بين بيضان المنطقة وجيرانهم الشماليين وفي المدن والممالك السودانية المجاورة. ويمكن اعتبار هذا النمط من التبادل امتدادا للتجارة عبر الصحراء، هذه التجارة التي تمكنت من الصمود رغم تحول ثقل الحركة التجارية نحو السواحل الأطلسية.

فبخصوص المبادلات التجارية الجهوية بين البيضان وجيرانهم السودانيين يذكر كايي أن زوايا البراكنه، أثناء فصل الصيف عندما ينضب حليب مواشيهم، يذهبون إلى منطقة فوته لمقايضة حاجياتهم من الدخن والذرة البيضاء برؤوس من الماشية وقطع من القماش الغيني الأزرق.³⁷

ويشير كايي في السياق نفسه إلى قافلة بيضانية مرت بالحي البركني الذي كان يقيم فيه متجهة بدورها إلى فوته لمقايضة الذرة والدخن بالملح وهو مادة لعبت دورا مهما في النشاط التجاري البيضاني.³⁸

ويمتاز كايي عن نظرائه بثناء وتنوع المعلومات التي أوردها عن نشاط البيضان التجاري داخل المجال البيضاني الواسع الذي تحدثنا عنه سابقا حيث يقول: "إن لدى البيضان المقيمين في جنه وسطاء ومستخدمين وعبيدا يقومون ببيع بضائعهم وخاصة الملح، وبذلك يحصلون دون كبير عناء على كميات من العاج والذهب والأرز والدخن والعسل والشمع الخام والقماش المحلي والحاجيات المصنعة [...] ويقومون بحفظ كل ذلك في مخازنهم حتى يشحن إلى تنبكتو حيث يوجد ممثلوهم الذين سيرسلون إليهم بدورهم الملح والتبغ والبضائع الأوروبية"³⁹.

ويضيف أن عدد هؤلاء التجار البيضان يتراوح بين 30 و 40 تاجرا، وأنهم ينزلون في مساكن فخمة مقامة على مقربة من السوق، وأنهم يمتلكون زوارق يبعثونها إلى تنبكتو محملة بالمواد الغذائية المحلية.⁴⁰

³⁷ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.119.

³⁸ - Ibid, p.116.

³⁹ - Ibid, t-2, p.145.

⁴⁰ - Ibid, t-2, p.146.

ويعود كايي بعد عدة صفحات إلى الحديث عن التجار البيضان في جنه مؤكدا أنهم يمتلكون مخازن مملوءة بالبضائع الأوروبية كقماش القطن والقماش الغيني الأزرق والهندي الأرجواني والبنادق... إلخ، وأنهم يبيعون كل هذه البضائع بالجملة كما أن لديهم أيضا السكر الأبيض والشاي. "غير أن الأشخاص الأكثر غنى يضيف كايي هم الذين يستطيعون استهلاك هاتين المادتين"⁴¹.

ويواصل هذا الرحالة حديثه عن تجار البيضان في منطقة السودان الإفريقية قائلا: "التقيب في محطة كونا (Conna) بتاجر بيضاني قادم من تنبكتو بزورق محمل بالملح"⁴².

ويوم وصول كايي إلى ميناء دو (Do) على نهر النيجر في 3 إبريل/نيسان 1828 كانت مفاجأته كبيرة، عندما وجد الميناء يعج بالبضائع والزوارق التي قدرها بأربعين زورقا يمتلك غالبيتها التجار البيضان الذين يذكر أنهم يسيطرون على أهم قطاعات التجارة ويتولون الإشراف على نقل البضائع المشحونة إلى تنبكتو ويتقاضون مقابل ذلك أجور النقل ملحا أو نقدا.⁴³

ويؤكد هذا الرحالة أنه لم يكن ينتظر على الإطلاق أن يصادف داخل القارة الإفريقية مثل هذا النشاط التجاري الحيوي الذي ذكره بالموانئ التجارية الأوروبية.⁴⁴ وضمن حديثه عن تجارة تكانت أشار الرحالة ماج إلى أن "الأهمية التجارية لتكانت محدودة الآن [سنة 1860]، إلا أنها يمكن أن تأخذ أهمية متزايدة إذا تمكنا [يعني الفرنسيين] من جعل قوافل تيشيت التجارية تتجه صوب محطتي باكل وماتام. ذلك أن لتكانت مبادلات تجارية دائمة مع سكو. أما تيشيت يضيف ماج "فمبادلاتها التجارية مستمرة مع تنبكتو والمغرب الأقصى."⁴⁵

⁴¹ - Ibid, t-2, p.152.

⁴² - Ibid, t-2, p.168.

⁴³ - Ibid, t-2, pp.188-189.

⁴⁴ - Ibid, t-2, p189.

⁴⁵ - Eugène-Abdon Mage, Voyage au Tagant, op.cit., p.28.

وكما هو الشأن بالنسبة للمبادلات التجارية مع الأوروبيين يزودنا علي صل بمعلومات متنوعة عن النشاط التجاري البيضاني على الصعيد الجهوي. فعند وصوله إلى مدينة ولاته يستعرض المستكشف بإسهاب تجارة هذه المدينة التي حولها موقعها الاستراتيجي أن تكون محورا للمبادلات التجارية في المنطقة، "فولاته وأروان هما السوقان الكبيران اللذان يتم فيهما تبادل أهم المنتوجات المغربية والسودانية إذ يجلب تكنه وأولاد يسباع وتجاننت من وادي نون والمغرب جميع أنواع البضائع بما فيها المنتوجات الأوروبية ليقاوضوها في ولاته وأروان بالذهب وريش النعام".⁴⁶ ويعدد علي صل⁴⁷ القبائل البيضانية التي تتاجر بريش النعام وهي أولاد علوش وأهل بورده وأهل الطالب مصطفى.

ولا تقتصر التبادلات الجهوية لولاته على هذه المواد، بل إن سلسلة علاقاتها وروابطها التجارية تشمل أيضا التبادل مع بعض المراكز الأخرى. ومن أهم تلك المراكز توات التي يخبرنا علي صل "أن تجارها يأتون إلى ولاته محملين ببضائع متنوعة منها الملابس الصوفية كالبرانس والأقمصة وجميع أنواع الأقمشة الحريرية والنطاقات والأحزمة الجلدية والحريرية المتنوعة التي يستخدم بعضها لحفظ الأسلحة وحملها وهي بضائع يتسابق البيضان والسود إلى شرائها"⁴⁸.

ويسافر تجار ولاته إلى بعض المراكز السودانية لمقايضة بضائعهم وأهمها الملح والإبل والمنتوجات المستوردة من الشمال الإفريقي ببضائع تلك المراكز. "فمن هاوصا يستورد الولاتيون قماشاً⁴⁹ دقيقاً يبيعهونه بأسعار مربحة في أروان. ويأتي لقلال ولادم لمبادلة الذهب والإبل بعينات من بضائع ولاته وخاصة القماش السابق الذكر"⁵⁰.

⁴⁶ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.16.

⁴⁷ - Ibid, op.cit., p.17.

⁴⁸ - Ibid, op.cit., p.18.

⁴⁹ - يسمى هذا القماش بالفرنسية pagne (وزرة) و pagnon نسبة إلى صاحبه. وهو قماش هاوصي دقيق أسود أو أبيض في غالب الأحيان.

⁵⁰ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.18.

وفي نهاية القرن التاسع عشر نجد لدى النقيب لارتيك بعض المعطيات الكمية عن المبادلات التجارية بين البيضان وجيرانهم الشرقيين إذ يقول:⁵¹ "إن تجارة البيضان مع المناطق السودانية تقدر قيمتها بحوالي عشرة ملايين ف.ف.". ويضيف هذا الضابط الفرنسي⁵² إن حقوق الجمارك بلغت أربعمئة ألف ف.ف. سنة 1895 مشيراً إلى أن الصمغ العربي معفي من الرسوم الجمركية. وقد عدد أهم الصادرات البيضانية إلى السودان وهي الملح والأغنام والملابس الأوروبية والمغربية. ويذكر بلانشي أن سكان آدرار يستوردون كذلك من وادي نون الدخان (التبغ) والذرة والملابس الصوفية والخيل لمقايضتها بالملح والجمال. وهكذا تكون المبادلات الجهوية قد شكلت أساساً لتجارة محلية نشطة.

ب. المبادلات المحلية

يتم التبادل الداخلي بين مختلف مناطق المجال البيضاني. ويتمثل هذا التبادل أساساً في مقايضة بعض المنتوجات الحيوانية أو الفلاحية المحلية، أو في بيع بعض البضائع المستوردة من الخارج (أقطار إفريقيا الشمالية، مراكز التبادل الأوروبية بالمحطات النهرية أو المحيطية، المدن التجارية السودانية... إلخ). ويوفر هذا النمط من المبادلات التجارية للسكان بعض حاجياتهم الأساسية خاصة من الأغذية والملابس. ويتقاطع هذا النشاط التجاري الداخلي أحياناً مع التجارة الخارجية، وذلك لأن القبائل البيضانية التي تتولى الإشراف عليه تلعب أيضاً دوراً بارزاً في المبادلات مع الخارج.

⁵¹ - Lartigue, Capitaine, Notice sur les Maures du Sénégal et du Soudan, op.cit., p.5.

⁵² - Ibid, pp.6-7.

ومن هذه القبائل يمكن أن نذكر، على سبيل المثال لا الحصر، أولاد بسباع، إدو علي، تجكانت، كنته، تكنه... إلخ؛ مع أن البضائع وكذا القبائل المشرفة على التجارة تختلف باختلاف مناطق البلاد.

وقد تحدث كايي الذي أقام بمنطقة البراكنه عدة أشهر عن هذا التبادل الداخلي قائلاً: "إن تجارة البراكنه يسيطر عليها الزوايا الذين يشرفون على جمع الصمغ العربي ومبادلته بالبضائع الأوروبية وخاصة القماش الغيني الأزرق والبنادق، هذه البضائع التي يسوقونها في مناطق بعيدة، إذ غالباً ما يتوقفون في مدينة آدرار⁵³ التي تبعد مسيرة سبعة أيام من بحيرة ألاك"⁵⁴.

ويشير كايي إلى أن البراكنه يشتركون من تجار قبيلة كنته أغطية وثيابا مستوردة من مدينة ولاته وغيرها من المدن الداخلية.⁵⁵

ومن جهته يتحدث المستكشف علي صل عن تجارة ريش النعام التي كانت وقتها نشطة في تلك النواحي إذ التقى في منطقة أوكار⁵⁶ وقبيل أن يصل إلى ولاته بفاصلة كبيرة قادمة من تيشيت في طريقها إلى أهل الطالب مصطفى لشراء ريش النعام.⁵⁷

⁵³ - ربما يقصد إمارة آدرار، إذ لا توجد في المنطقة مدينة بهذا الاسم.

⁵⁴ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.142.

⁵⁵ - Ibid, t-1, p.130.

⁵⁶ - أرض فسيحة تقع في الوسط الشرقي من البلاد الموريتانية بين مناطق تكانت والركيبه والحوض.

⁵⁷ - Alioune Sall, *Rapport sur un voyage d'exploration*, op.cit., p.16.

وتوضح معلومات هذا الرحالة وفرة الثروة الحيوانية بالمنطقة إذ ذاك. فيقول:
"إنه رافق في طريقه من ولات ه إلى أروان قافلة من تجكانت وأولاد علوش "لديها
أكثر من ألف رأس من الإبل"⁵⁸ (التشديد منا).

ويتناول الرحالة بلانشي تجارة منطقة آدرار البيضانية مؤكدا أن الإيراد في
هذه المنطقة أهم من التصدير.⁵⁹ فبخصوص المبادلات المحلية يشير بلانشي إلى أن
سكان تكانت يجلبون إلى آدرار الذرة والشعير لمبادلتها بالتمور والملح والجمال. أما
سكان تيشيت وولاته فيصدرون إلى آدرار الذهب والفضة والعبيد المجلوبين من بلاد
السودان لمقايضة هذه البضائع بالملح.⁶⁰ ويضيف أن قبيلة أولاد بسباع تجلب من
المغرب الأقصى الشاي والسكر والأسلحة والبارود ثم تقايضها بالتمر في منطقة
آدرار.⁶¹

وعند استعراضه للمبادلات التجارية المحلية يذكر بلانشي "أن سكان تكانت
يزودون منطقة آدرار بالشعير والذرة"⁶².

ويلخص بلانشي حديثه عن تجارة آدرار قائلا "إن صادرات المنطقة تقتصر
على التمور وملح كدية أجل. أما الواردات فتشمل تقريبا كل الحاجيات الضرورية
والكمالية"⁶³.

ويكاد علي صل يكون الوحيد من بين أصحاب مدونتنا الذي توقف عند أسعار
البضائع التجارية بالمنطقة ليخبرنا بأن قطعتي القماش الغيني الأزرق المستورد على
ظهور الجمال إلى ولاته من وادي نون تقايضان بكيلوغرام واحد من ريش النعام. أما

⁵⁸ - Ibid, op.cit., p.17.

⁵⁹ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., p.28.

⁶⁰ - Ibid, p.25.

⁶¹ - Idem

⁶² - Idem

⁶³ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., pp.21.

ثمان قطع القماش من الدخن أو الذرة البيضاء، فهو ثلاثون "ماتارا"⁶⁴ في حين تقايض قطعة القماش بمائة قالب⁶⁵ من الدهن. كما تدفع ثمانية "ماتارات" من الذرة مقابل قطعة الملح التي يبلغ طولها سبعين سنتمترًا وعرضها خمسة وثلاثين وسمكها ثمانية سنتمترات.⁶⁶

وعلى ما يبدو فإن القماش الهاوصي قد نafs في أقصى شرق البلاد القماش الغيني الأزرق كمادة تلعب دور العملة إذ يخبرنا المستكشف علي صل أن العملة الأكثر شيوعًا هي قطعة (وزرة: pagne) القماش الهاوصي الأبيض التي يسميها البيضان "أجيف" (jif)⁶⁷.

ويظهر تقرير علي صل أهمية الدور الذي يلعبه الصيد البري حينئذ في مجال المبادلات التجارية حين يقول: "إن أولاد بورده يقومون أحيانًا بحملات صيد يرسلون على إثرها إلى ولايته عدة مئات من الجمال المحملة بلحم الغزلان المجفف"⁶⁸.
وضمن المبادلات التجارية التي تضطلع فيها ولايته بدور الوسيط يذكر علي صل أن سكان تيشيت وإدو علي آدرار يجلبون الملح والتبغ وبعض بضائع سين-لوي إلى ولايته "ليقايضوها بالذرة البيضاء والدخن المتوفرين بكثرة وبشكل دائم في هذه

⁶⁴ - بخصوص هذا المقياس تمكن مراجعة الإحالة 135، ص. 000 من هذا العمل.

⁶⁵ - يقول علي صل إن القالب (Moule) يتراوح ما بين 1 - 2 ليتر حسب المناطق، راجع:

Sall, Rapport sur un voyage, op.cit., p. 17.

⁶⁶ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.18.

⁶⁷ - Idem

⁶⁸ - Idem

المدينة جراء علاقاتها التجارية المستمرة مع كل من بارنا⁶⁹ (Barna) وسكو وماسينا وهي مناطق سودانية اشتهرت بجودة إنتاجها من الحبوب⁷⁰. ويلاحظ أن عليا صل أغفل ذكر أسعار الحيوانات التي كانت تلعب دورا مهما في الحركة التجارية بالمنطقة والتي تشكل في الوقت ذاته أساسا للنشاط الرعوي الذي اشتهر به سكان هذه البلاد.

ثانيا. النشاط الرعوي

يمثل الرعي النشاط الاقتصادي الأساسي لدى المجتمع البيضاني الذي هو بالأساس مجتمع تقليدي رعوي، ورغم مكانته تلك، فإن هذا النشاط احتل مرتبة ثانوية في كتابات الرحالين والمستكشفين الفرنسيين، مقارنة مع مآظيت به التجارة. ويرجع ذلك في اعتقادنا إلى العناية التي كان الأوروبيون حينئذ يولونها للنشاط التجاري على العموم، وفي المنطقة بشكل خاص. ومع ذلك فإننا نجد لدى أصحاب مدونتنا كما عند غيرهم من المستكشفين الفرنسيين جملة من المعلومات المتعلقة بتربية الحيوانات وما يتصل بها من بحث عن المراعى والمياه...إلخ.

أ. قطعان الماشية

ترتبط أولوية النشاط الرعوي عند البيضان بطبيعة نظام القبيلة وعلاقاتها مع القبائل الأخرى. فالنشاط الرعوي أهم مجال للاستثمار عند القبائل البدوية لأن القطيع ثروة متحركة من السهل أخذها والفرار بها لحمايتها من عدو موجود أو محتمل في مجال تسوده الفوضى والنهب. ولهذا يكون "الاقتصاد الرعوي أكثر ضمانا لأمن

⁶⁹ - لعل الأمر يتعلق بتصحيح باغن ه الواقعة جنوب بلدة جكني إحدى عواصم مقاطعات ولاية الحوض الشرقي.

⁷⁰ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.17.

القبائل من الاقتصاد الفلاحي وأكثر ملاءمة مع الظروف التي يفرضها الصراع والحرب"⁷¹ السائدان بشكل شبه دائم بين مختلف القبائل البدوية بهدف السيطرة على ما يوفره المجال من موارد شحيحة في غالب الأحيان. هذا فضلا عن ملاءمة القطيع للانتجاع وهو دأب بيضان الصحراء.

وتلعب ندرة الأراضي الزراعية وقلّة مردوديتها جِراء تخلف وسائل الزراعة دورا مساعدا في التركيز على الثروة الحيوانية بغية سد العجز في الحبوب.

وهكذا فإن القطيع يعتبر الوسيلة الأولى لكسب القوت عند غالبية القبائل البيضانية. فاللحم واللبن يتصدران أغذية هؤلاء السكان، هذا فضلا عن استخدام الحيوانات في مجالات عدة من حياة القوم وأنشطتهم المختلفة.

وإذا كنا لا نجد عند موليين الكثير من المعلومات حول النشاط الرعوي للبيضان، فقد يكون الأمر متأتيا من كون ذلك الرحالة لم يتجاوز هوامش المجال البيضاني (النهرية والمحيطية) وهي مناطق ليست ملائمة لهذا النشاط في العادة.

ومع ذلك فإن موليين أدرك أهمية الرعي في حياة السكان التي تعتمد في الأساس على الثروة الحيوانية طالما أن "اللحم واللبن يشكلان كل تغذية البيضان"⁷².

ولا يقتصر دور الثروة الحيوانية على تزويد البيضان بالمواد الضرورية لتغذيتهم بل إن الحيوانات كذلك تمنحهم صوفها ووبرها وجلودها مما يساعد على صناعة الخيام وتأثيثها فضلا عن كون بعض تلك الحيوانات تستخدم كوسائل للنقل والمتاجرة.

ويتحدث هذا الرحالة عن الثروة الحيوانية البيضانية قائلا: "ويمتلكون [البيضان] أيضا الجمال والثيران والضأن، التي تزودهم باللحم واللبن للتغذية؛ كما

⁷¹ - رحمة بورقية، "حول القبيلة في المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، العدد 14، 1988، صص. 48-35، ص. 45.

⁷² - Mollien, *voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, t-1, op.cit., p.14.

تعطيهم الوبر الذي يصنعون منه خيامهم. وتستخدم الجمال لنقل الأمتعة والبضائع. كما تستخدم هذه الحيوانات لحمل الصمغ العربي إلى محطات التبادل"⁷³.

ويشير موليين كذلك ضمن حديث له عن محطات التبادل النهريّة إلى "أعداد كبيرة من الجمال [...] وإلى قطع من الثيران الحمّ الة [...] التي يمتلكها البيضان"⁷⁴.

ومن جانبه يقول الرحالة كايي: "إن لدى البيضان قطعانا كثيرة من الإبل والبقر"⁷⁵. وعن ملكية قطعان المواشي الكثيرة هذه، نجد تفصيلا أكثر عند هذا الرحالة الذي يخبرنا أن القبائل الزاوية هي صاحبة نصيب الأسد من الثروة الحيوانية في المنطقة. أما القبائل الحسانية فمواشيها قليلة إذ تقتصر عادة على بضع بقرات حلوب وثيران لحمل الأمتعة. أما بقية القطعان باستثناء الجمال فإنها تودع عند الأتباع (أزناكه) الذين يتولون رعايتها حتى تحين الحاجة إليها"⁷⁶.

ويضيف كايي "إن البيضان يمتلكون خيلا عتاقا يولون عناية خاصة لتربيتها ورعايتها. فأثناء موسم وفرة اللبن يطعمون خيلهم تلك اللبن في الصباح وفي المساء"⁷⁷. ويواصل كايي مظهرا مدى عناية البيضان بخيلهم إذ يقول: "عند وصول أحد الفرسان إلى المخيم كثيرا ما يتجول من بيت لآخر بحثا عن لبن وماء لفرسه"⁷⁸.

وبعد مضي أزيد من ثلث قرن على زيارة كايي لمنطقة البراكنه يزودنا ماج بمعلومات عن الثروة الحيوانية في منطقتي العصابة وتكانت المجاورتين فيقول: "مررنا بمخيم بيضاني قرب سفح أحد جبال [هضاب] العصابة يمتلك قطعانا كبيرة من البقر والغنم"⁷⁹.

⁷³ - Ibid, pp.9-10.

⁷⁴ - Idem

⁷⁵ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.14..

⁷⁶ - Ibid, t-1, p.109.

⁷⁷ - Ibid, t-1, p.106.

⁷⁸ - Idem

⁷⁹ - Eugène-Abdon Mage, **Voyage au Tagant**, op.cit., p.6.

ويستغرب هذا الرحالة رفض بيضان المنطقة أن يبيعه كيشا أو ثورا في الوقت الذي يصدرون فيه أعدادا هائلة من قطعان المواشي سنويا إلى محطة باكل.⁸⁰ ويتحدث ماج⁸¹ أيضا عن "قطعان كثيرة من الغنم والإبل... إلخ، صادفها يوم 17 ديسمبر/كانون الأول 1859 قرب جبل بافه^[82] وهي ترعى". ويورد ماج بعض المعلومات عن ممتلكات الأمير بكار من المواشي مؤكدا أن الثلاثين فرسا التي يتحدث البيضان عن وجودها لدى ذلك الأمير تقتصر على فرسين من الخيل العتاق وبعض الأمهار مما جعله مضطرا إلى شراء فرس إذا ما أهدى إحدى فرسيه.⁸³ أما الجمال الكثيرة المتوفرة لدى بكار فهي ملك لعبيده وبناته وزوجه على حد قول هذا الرحالة.⁸⁴

وفي تكانت كما هو الشأن في البراكنه حسب ما رأينا مع كايي فإن القبائل الزاوية هي صاحبة الجزء الأوفر من الثروة الحيوانية. ذلك ما يؤكد ماج حين يقول: "إن زعماء قبيلة كنته أغنياء بالفعل غنى البيضان إذ يمتلكون الذهب والفضة والإبل والخيل وقطعان المواشي بمختلف أصنافها"⁸⁵. وإذا كانت معلومات الرحالين كايي وماج عن الثروة الحيوانية البيضانية معلومات عامة تحتاج إلى الدقة والتحديد فإن أولى المعطيات الدقيقة نسبيا عن هذه الثروة قد رأت النور مع المسكشفت فينصان، وهو معاصر للرحالة ماج، وقد زار

⁸⁰ - Idem

⁸¹ - Eugène-Abdon Mage, Voyage au Tagant, op.cit., p.9.

⁸² - لا يتعلق الأمر بجبل وإنما بالحافة الصخرية الجنوبية لهضبة العصابة التي يخترقها مسلك بافه المذكور.

⁸³ - Eugène-Abdon Mage, Voyage au Tagant, op.cit., p.27.

⁸⁴ - Idem

⁸⁵ - Idem

مناطق الترارزه وإينشيري وتيرس وأدرار خلال ربيع 1860؛ فقد قدر هذا المستكشف يوم وصوله إلى بئر غسرم⁸⁶، عدد المواشي التي وردت ذلك البئر وحده بحوالي خمسة عشر ألف رأس من الغنم وألف رأس من الإبل، فضلا عن قطعان كثيرة من البقر. ويشير فينصان إلى أن هذه القطعان تمتلكها قبيلتا إديسات وأرويجات البيضانيتين.⁸⁷

وأثناء عبور المستكشف علي صل لمنطقة العصابة في طريقه إلى مدينة ولاته يحدثنا عن قطعان كثيرة من الإبل والبقر تملكها قبائل المنطقة وخاصة أهل سيدي محمود.⁸⁸

وعند وصوله إلى الحوض يصادف هذا المستكشف قطعانا هائلة من الإبل تمتلكها قبيلة مشظوف وأعدادا كثيرة من الأبقار والأغنام والإبل لقبيلة لقلال.⁸⁹ ومع أن عليا صل تجول في المناطق الوسطى والشرقية من البلاد الموريتانية حيث المراعي الخصبة والنشاط الرعوي المكثف فإن معلوماته عن هذا النشاط كانت على العموم قليلة وسطحية خاصة إذا قارناها بالمعلومات التي جمعها عن النشاط التجاري. وربما يرجع ذلك إلى العناية التي يخصصها الفرنسيون يومئذ لهذا النشاط وإلى التعليمات التي تلقاها هذا المستكشف من الوالي الفرنسي فدرب بهذا الخصوص قبل أن يغادر سين-لوي.

ويسير صولبي في النهج نفسه الذي اتبعه كل من كايي وماج بخصوص الحديث عن الثروة الحيوانية في المنطقة التي اجتازها مكتفيا بذكر وجود قطعان من الإبل والغنم.⁹⁰

⁸⁶ - بئر تقع على بعد حوالي 80 كيلومترا جنوب نواكشوط.

⁸⁷ - Henri Vincent, Voyages d'exploration dans l'Adrar, op.cit., p.449.

⁸⁸ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.16.

⁸⁹ - Ibid, op.cit., p.21.

وتبقى أطرف معطاة نصادفها، في هذا الصدد لدى هذا الرحالة، هي ذكره لقطيع من الإبل يمتلكه الأمير التروزي ع لي بن محمد الحبيب.⁹¹ والعودة إلى الموضوع نفسه للقول "إن هذا الأمير غادر الحي في الصباح لإحصاء إبله بغية إخراج زكاتها"⁹².

وفي حالة صحة هذه المعلومات وليس لدينا مايفيها الآن فإن الأمر يمثل تطورا مهما في تقاليد البيت الأميري. إذ الشائع حتى ذلك الحين أن المجموعة الحسانية وخاصة الأسرة الأميرية تأنف من ممارسة الأنشطة الاقتصادية السائدة من تجارة ورعي وزراعة؛ مم ا جعل ملكية تلك الأسر محدودة جدا، إذ تقتصر أساسا على الخيل والجمال ربما لعلاقة هذين الصنفين من الحيوانات بالوظيفة العسكرية التي تختص بها تلك القبائل.

فعندما يقول الرحالة صولبي "إن الأمير علي بن محمد الحبيب يمتلك عدة رؤوس من الخيل منها فرس من العتاق (جزائرية) اشتراها بسبعة آلاف فرنك"⁹³، فإن المسألة عادية جدا في سياقها، أما حين يحدثنا عن ملكية ذلك الأمير لقطعان من الإبل تستوجب أن تحصى لإخراج زكاتها فالمسألة تثير بعض التساؤل.

وفي مطلع القرن العشرين، ورغم مستواه العلمي، فإن معلومات الرحالة بلانشي لا تختلف كثيرا من حيث الدقة عن معلومات أسلافه بخصوص الثروة الحيوانية للمنطقة إذ يقول: "توجد بالمنطقة قطعان من الماعز والضأن وهي شبيهة بحيوانات الجنوب الجزائري".⁹⁴ ويذكر بلانشي⁹⁵ "وجود أعداد هائلة من الأبقار"⁹⁶

⁹⁰ - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., pp.38, 50 et101.

⁹¹ - Ibid, op.cit., p.54.

⁹² - Ibid, op.cit., p.64.

⁹³ - Ibid, op.cit., p.58.

⁹⁴ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., p.17.

⁹⁵ - Idem

⁹⁶ - Ibid, p.21.

في منطقة أمكرز⁹⁷ وفي ضواحي تويزكت وتابرنكوت⁹⁸ مشيرا إلى أن هذه الأبقار جميلة جدا ولا فرق على العموم بينها وبين الأبقار في فرنسا. وإذا كانت الحيوانات وفيرة في أرض البيضان فإن مشكلة المراعي التي تنتجها هذه القطعان ظلت شغلهم الشاغل.

ب. المراعي والمياه

ترتبط الثروة الحيوانية البيضانية بوفرة المراعي والمياه مما جعل هؤلاء البداة الرعويين ينتجعون دوما داخل الصحراء المترامية الأطراف بحثا عن الماء والكأ لمواشيهم.

وقد عايش الرحالة كايي ووصف تنقلات بيضان البراكنه المتواصلة طلبا للمراعي، فأشار إلى أن "الزوايا لا يرحلون إلا بحثا عن المراعي لحيواناتهم"⁹⁹. ثم يواصل في هذا السياق مشيرا إلى تحضير هذا الارتحال: "وقبل أن يرحل البيضان إلى مكان جديد، فإنهم يرسلون مستطلعين لارتياح الجهة المقصودة بغية التأكد من وجود الماء والكأ بها"¹⁰⁰.

وإذا كان الرحالة ماج يشير¹⁰¹ إلى قلة الحيوانات وارتفاع أسعارها في تانت مقارنة بالمناطق المجاورة، معللا ذلك بأن البيضان هنالك يرسلون قطعانهم إلى

⁹⁷ - منطقة تمتد من نحو 40 كلم شمال نواكشوط باتجاه الجنوب إلى حدود منطقة أوليل، وتمتد شرقا على مسافة 20 كلم تقريبا. وهي تبعد عن المحيط الأطلسي حوالي 5 كلم ويفصلها عنه أفطوط الساحلي والزابار.

⁹⁸ - بئر تبعد حوالي 30 كلم إلى الشمال من مدينة أوجت عاصمة ولاية إينشيري الحالية. انظر: الخريطة رقم 9 ضمن ملحقات هذا العمل.

⁹⁹ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.115..

¹⁰⁰ - Ibid, t-1, p.92.

¹⁰¹ - Eugène-Abdon Mage, *Voyage au Tagant*, op.cit., p.27.

المناطق الرعوية ولا يحتفظون إلا بالحيوانات الحلوب الضرورية، فإن عليا صل يؤكد على العكس من ذلك كثرة الحيوانات في تكانت مشيرا إلى "خصوبة تلك المنطقة مما جعل مواشيتها ذات شهرة كبيرة"¹⁰². وربما يعود هذا التباين بين الرحالتين إلى اختلاف الفصول التي أقام فيها كل منهما بالمنطقة. ويشير بلانشي إلى " أن المياه كذلك متوفرة بكميات قليلة في كل مكان إذ يكفي أن نحفر الأرض حفرا بسيطا كي نجد الماء"¹⁰³. وبافتراض أن تلك الكميات القليلة من الماء كافية لسقي قطعان المواشي فإنها تطرح مشاكل فيما يتصل بالزراعة.

ثالثا. النشاط الزراعي

لم يستقطب النشاط الزراعي البيضاني كثيرا اهتمام الرحالين والمستكشفين الفرنسيين أثناء القرن التاسع عشر بمن فيهم أصحاب مدونتنا. فطبيعة المنطقة الصحراوية التي تحدثنا عنها سابقا وحجم الزراعة والإمكانيات المتاحة فضلا عن عدم اهتمام الإدارة الفرنسية في السنغال بهذا النشاط¹⁰⁴، كلها عوامل جعلت هذا النشاط البيضاني يحتل مرتبة ثانوية بعد التجارة والرعي. وقد حاول الرحالة موليين تعليل المكانة المهمة التي يحتلها النشاط الرعوي لدى البيضان على حساب النشاط الفلاحي. يقول هذا الرحالة: "إن قساوة وشح الصحراء جعلت البيضاني يفضل حياة البداوة والظعن [الرعي]، فحياة التجوال

¹⁰² - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.14.

¹⁰³ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., pp.17-18.

¹⁰⁴ - أشرنا سابقا إلى العناية التي أعطاها الفرنسيون للنشاط التجاري في المنطقة. كما أن الثروة الحيوانية لعبت في بعض الأحيان دورا مهما في ذلك النشاط مزودة السوق السنغالية ببعض حاجياتها من اللحوم وغيرها من المنتجات الحيوانية. أما الزراعة فبقيت عموما موجهة لحاجيات السوق المحلية.

والفراغ [?] هذه لها من الجاذبية عند البيضاني ما لا توفره وضعية المزارع المحكوم عليه بالمزيد من المتاعب الدائمة"¹⁰⁵. ويمضي موليين في تعليقاته تلك قائلا: "إن أجسام البيضان الهزيلة تهيوهم لمتاعب الأسفار لا لفلاحة الأرض"¹⁰⁶ التي تتطلب طرقا ووسائل لم تكن متاحة لهؤلاء السكان الطاعنين.

أ. طرق الزراعة ووسائلها

امتازت الزراعة البيضانية بعناية كانت أم سقوية باستخدام آلات تقليدية واتباع أساليب عتيقة.

ويشير الرحالة موليين إلى وجود العديد من الحقول على ضفاف النهر. "وهي حقول وضع فيها البيضان بعض البنور إلا أن الطبيعة وحدها هي التي تتولى تنميتها [رعايتها]"¹⁰⁷ على حد تعبير هذا الفرنسي.

وتبدو معلومات كايي عن النشاط الزراعي البيضاني أكثر تنوعا وغزارة. وقد يعلل ذلك بأن هذا الرحالة تجول في منطقة البراكنه وهي منطقة ملائمة للزراعة بحكم موقعها ومناخها.

فقد مر كايي وهو في طريقة إلى مخيم الأمير البركني بحي مؤلف من خمسة عشر كوخا يقيم بها حوالي خمسين فلاحا من العبيد يزرعون الحقول تحت إشراف سيدهم الزاوي. وقد زار كايي أحد تلك الحقول فلاحظ "أن الزراعة تتم بشكل بدائي سيئ فالعبيد كانوا منشغلين بنزع الأعشاب وهم يكتفون فقط بحرث الأرض حرثا سطحيا في حين أن طبيعة تربتها الطينية المتماسكة تتطلب تقليب التربة قبل زراعتها"¹⁰⁸.

¹⁰⁵ - Mollien, **voyage dans l'intérieur de l'Afrique**, t-1, op.cit., p.15.

¹⁰⁶ - Ibid, p.7.

¹⁰⁷ - Ibid, p.15.

¹⁰⁸ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.176..

ويخبرنا كايي أن النشاط الزراعي تمارسه أساسا فنتا العبيد والأتباع إذ يقول: "عند ما تبدأ مياه النهر في التراجع أثناء شهر نوفمبر/تشرين الثاني يرسل البيضان عبيدهم لزراعة الحقول التي غمرتها مياه الأمطار أو فيضان النهر. وفي هذه الفترة أيضا يقترب ازناكه من النهر لزراعة الذرة والدخن"¹⁰⁹.
وينتقد كايي الطريقة التي يزرع بها البيضان حقولهم مؤكدا "أنها فاسدة لكنها لا تكلفهم عناء يذكر"¹¹⁰.

ويصف هذا الرحالة تلك الطريقة وصفا لا يخلو من دقة حين يقول: "يستخدم العبيد [الفلاحون] وتدا [محراثا] كبيرا لحفر التربة حفرا يبلغ عمقها حوالي ست بوصات¹¹¹ ثم يضعون ثلاث أو أربع حبات من الذرة في كل حفرة قبل ردم الحفر، وذلك دون أي تمهيد للتربة مكتفين بنزع الأعشاب بعد أن تنبت الذرة"¹¹².
ويبالغ كايي في اتهام البيضان بالكسل مؤكدا "أنهم تقاديا لبذل الجهد يختارون تربة فقيرة لأن التربة الخصبة التي تنبت أعشابا كثيرة ترغمهم على بذل مجهود إضافي في إزالة الأعشاب. إنهم مجبولون فطريا على الكسل"¹¹³.
ويواصل كايي حديثه ذاك عن زراعة البيضان قائلا: "إنهم بعد عملية البذر يأخذون قسطا من الراحة في انتظار نبات مزروعاتهم مكتفين بإزالة الأعشاب من حولها لإعطائها متنفسا، بل إن الكثير منهم يتركون الأعشاب تنمو بين مزروعاتهم"¹¹⁴.

ومع ذلك فإن كايي يعترف لهؤلاء البيضان ببذل الجهد، على الأقل، بعد بروز السنابل إذ يقول: "وعندما تبدأ السنابل في الظهور يبقون في الحقول بشكل مستمر

¹⁰⁹ - Ibid, t-1, p.121.

¹¹⁰ - Idem

¹¹¹ - مقياس قديم يساوي 72 ميلميترًا.

¹¹² - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, pp.121-122.

¹¹³ - Ibid, t-1, p.122.

¹¹⁴ - Idem

وذلك لمطاردة الطيور التي تفتك بالحبوب قبل النضج وهذه العملية لا تترك لهم وقتا للراحة حيث يتنقلون بدون توقف من طرف الحقل إلى طرفه الآخر وهم يصرخون ويرمون الطيور بالحجارة، كما أنهم يقضون الليل في الحقول لحراستها من الغزلان والظرابين والخنازير البرية التي تلحق بها الأذى"¹¹⁵.

ويتابع هذا الرحالة استعراضه لموسم زراعي عند البيضان، فبعد البذر والنبات والرعاية يحين موسم الحصاد الذي يصفه قائلا: "عندما ينضج الزرع تقطع السنايل وتتم عملية الدرس عن طريق ضربها بالعصي ثم تجعل الحبوب في أكياس من الجلد وتنقل من الحقول إلى المخيمات"¹¹⁶.

وقد تقطن كايي إلى خصوبة أرض البراكنه إذ يقول: "إن المناطق الواقعة على مقربة من الحجار"¹¹⁷ (El Hajar) ذات تربة خصبة جدا إذ تغطيها نباتات غنية كما أن السيول الموسمية ترسب فيها كميات من الغرين (الطمي) فضلا عن تسميدها تسميدا طبيعيا عن طريق قطعان الحيوانات الكثيرة التي تجتذبها مراعي المنطقة. إن هذه الأرض البكر لا تنتظر سوى سواعد الفلاحين كي تجود بسخاء بكل ما يزرع فيها من نبات"¹¹⁸.

ولم تقتصر معلومات كايي عن النشاط الزراعي البيضاني على منطقة البراكنه التي تجول داخلها بل إنه تحدث كذلك عن الزراعة في منطقة أدرار "هذه المدينة [?]"¹¹⁹ الواقعة على بعد مسيرة سبعة أيام شمال بحيرة ألاك والتي أعطت تسميتها لمملكة صغيرة، يقطنها زوايا لا يشتغلون إلا بالزراعة وتربية قطعان

115 - Idem

116 - Idem

117 - ربما تكون لهذه التسمية علاقة ببلدة مقطع لحجار وهي الآن عاصمة مقاطعة إدارية بولاية البراكنه.

118 - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.125.

119 - لا يتعلق الأمر بمدينة وإنما بإمارة ومنطقة جغرافية.

مواشيهم الكثيرة. وهذه البلاد تنتج الكثير من التمور وحقولها محاطة بالنخيل. كما أنها تنتج الأرز [?] ¹²⁰ والذرة ¹²¹.

وبعد مرور ربع قرن من الزمان على رحلة كايي عبر المنطقة، يزودنا رحالة آخر هو بانى بمعلومات عيانية عن النشاط الزراعي في منطقة آدرار وبالتحديد في ضواحي مدينة شنقيط العاصمة التاريخية للبلاد. فقد زار ذلك الرحالة في شتاء 1850 تلك المدينة فانبهر بمنظرها "فهي تقع في واد مرمل بين تلين رمليين مغروسين بنخيل أغصانه الباسقة تهزها الرياح بشكل مستمر فتتموج وتتنصب بعظمة فوق الجذع الذي يحملها" ¹²².

ويتواصل انبهار بانى بمشهد واحة شنقيط: "وهذا النخيل أيضا تحيط به حقول رائعة من القمح والشعير زرعت بعناية فائقة. ويتم ريها بواسطة عين محفورة في وسط الحقل. ويكفي أن ننزف المياه ونصبها قرب العين كي تسيل عبر القنوات مروية الحقل كله" ¹²³.

أما الضابط ماج فلم يسترع انتباهه النشاط الزراعي البيضاني. ورغم أنه زار بعض المناطق الزراعية (كوركول، العصابة وتكانت) فالإشارة الوحيدة عنده إلى هذا النشاط الزراعي هي قوله: "إن وادي سن تكانت ¹²⁴ عادة مكان لزراعة الذرة والدخن والفاصوليا" ¹²⁵.

¹²⁰ - قد لا يتعلق الأمر بالأرز وإنما بالقمح أو بالشعير.

¹²¹ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.142.

¹²² - Léopold Panet, *Relation d'un voyage du Sénégal Soueira*, op.cit., p.142.

¹²³ - Ibid, p.63.

¹²⁴ - حافة صخرية تحد منطقة تكانت من الجنوب والجنوب الغربي والجنوب الشرقي، وتوجد بها أودية ملائمة للزراعة (كهميت، الفج، الطرطيكه).

¹²⁵ - Eugène-Abdon Mage, *Voyage au Tagant*, op.cit.

ويتحدث المستكشف فينصان عن تجارب لغراسة النخيل المستجلب من آدرار في منطقة الترازه بالجنوب الغربي الموريتاني مشيرا إلى ثلاث محاولات من هذا النوع إحداها تمثلت في غرس ألف وخمسمائة نخلة قرب بئر تيورورت¹²⁶ غير أن هذه التجربة لم تنجح لأن ذلك النخيل لم ينتج تمرا. أما الثانية فتمت بقرية تكند¹²⁷ بينما جرت الأخيرة عند بئر أمندور¹²⁸، وقد أنتجت حسب ينصان كميات كبيرة من التمر، وهو منتج أفاد كثيرا سكان الترازه أثناء حربهم الأخيرة¹²⁹ مع الفرنسيين.¹³⁰ أما عند صولي فلا نجد أية إشارة إلى الأنشطة الزراعية البيضانية. وقد يكون مرد ذلك إلى كون هذا الرحالة سار أثناء رحلته بين سين-لوي وآدرار في طريق ساحلي مواز للمحيط وغير بعيد عنه أي في منطقة غير ملائمة عموما للزراعة. كما أنه لم يتمكن من الوصول إلى الواحات حيث تمارس أنماط من النشاط الزراعي. ولم يثر النشاط الزراعي بالمنطقة كذلك اهتمام بعثة بلانشي الذي لم يشر إلى الزراعة البيضانية إلا بإشارات موجزة تعوزها الدقة والموضوعية. فهذا الرحالة يتهم سكان آدرار بالكسل والتقصير قائلا: "إن آدرار نتيجة لجمود وكسل سكانه لا ينتج سوى التمور التي يعطيها نخله الذي ينبت من تلقاء نفسه [?] ودون أن يحظى بأية عناية"¹³¹

¹²⁶ - بئر تقع على بعد حوالي ستين كلم جنوب نواكشوط.

¹²⁷ - قرية تقع على بعد 108 كلم جنوب نواكشوط.

¹²⁸ - بئر تقع على بعد 130 كلم إلى الجنوب من مدينة نواكشوط.

¹²⁹ - يعني الحرب التي خاضها الجنرال فيدرب بين سنتي 1854 و1858 ضد البيضان بهدف وضع حد لنفوذهم في منطقة والو وسعيا إلى تغيير شروط التبادل في المنطقة.

¹³⁰ - Henri Vincent, Voyages d'exploration dans l'Adrar, op.cit., p.450.

¹³¹ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., p.22.

ويمضي بلانشي قائلا: "خلال فصل الأمطار الذي يدوم أربعة أشهر [?] تكثر المياه في الشقوق الجيولوجية [الأودية] التي تحتجز الدبال المغذي للنخيل في واحات أطار وشنقيط ووادان وأوجفت¹³² غير أن أي جهد لم يقم به بغية التحكم في تلك المياه لسقي النخيل وزراعة الخضراوات والقمح والذرة والشعير تحت ظلال ذلك النخيل"¹³³.

وضمن حديثه عن الموارد الاقتصادية في منطقة آدرار يقول بلانشي: "إن الحبوب في هذه المنطقة قليلة بالنظر إلى وفرة المياه"¹³⁴ مشيرا إلى "أن سكان ت أنت يزودون منطقة آدرار بالشعير والذرة"¹³⁵.

ولنا أن نتساءل حول صحة معلومات بلانشي هذه. ذلك أن منطقة آدرار، وهي قليلة السكان نسبيا تنتج حسب ما رأينا مع الرحالين السابقين¹³⁶ كميات من الحبوب تكفي لسد حاجيات السكان، بل إن بعضها يصدر إلى مناطق أخرى، وبالتالي فقد لا تكون محتاجة لاستيراد تلك الحبوب.

أما اتهام سكان آدرار بالكسل فهو غير وارد حسب اعتقادنا، إذ أنهم يعتبرون أكثر سكان البلاد نشاطا وحيوية خاصة إذا تعلق الأمر بغراسة النخيل والعناية به بوصفه أحد أهم مصادر التغذية والمحاصيل الزراعية بالمنطقة.

¹³² - إحدى مدن إقليم آدرار ازدهرت بعد وصول مهاجري شنقيط من قبيلة السماسيد خلال القرن السابع عشر. وهي في الوقت نفسه واحة نخيل وقاعدة لمجموعة من الأودية الواحية وأودية الزراعة البعلية (الكرابر). اضطلعت هذه المدينة بدور مركزي في مقاومة الزحف الفرنسي على موريتانيا، إذ انطلق منها الشريف سيدي بن مولاي الزين نحو تجكجه حيث قتل كوبولاني، وهي الآن عاصمة لمقاطعة بهذا الاسم.

¹³³ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., p.23.

¹³⁴ - Ibid, p. 17.

¹³⁵ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., p.25.

¹³⁶ - خاصة مع باني وفينصان.

ب. أهم المحاصيل

تتصدر الحبوب والتمور المنتوجات الزراعية البيضاء التي تسمح ظروف البلاد بزراعتها. وفي معرض حديثه عن الزراعة البيضاء يشير كايي إلى محصولين زراعيين يتولى أزناكة زراعتهم في منطقة النهر هما الذرة والدخن.¹³⁷

أما الضابط البحري ماج فيشير إلى الذرة والدخن والفاصوليا بوصفها أهم المحاصيل الزراعية في منطقة تكانت، غير أنه لم يتعرض للتمور وهي منتج بالغ الأهمية في تلك المنطقة لما تتوفر عليه من واحات النخيل. غير أننا سنجد عند المستكشف علي صل وقد زار المنطقة بعيد الرحالة ماج بعدة أشهر معلومات متنوعة عن النشاط الزراعي البيضاني إذ يخبرنا "أن ت انت منطقة تتخللها سهول وأودية [...] يزرع فيها الشعير والقمح والذرة والدخان¹³⁸ [?] وبها الكثير من النخيل خاصة في قرى قصر البركة¹³⁹ والرشيدي¹⁴⁰ وتجكجه"¹⁴¹.

¹³⁷ - René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, op.cit., t-1, p.121.

¹³⁸ - في النص الفرنسي (le tabac)، إلا أننا نشك في ذلك ونعتقد أن هذا النص إذا كان مترجماً بالفعل عن نص الرحلة الذي تدعي بعض الروايات كتابته بالعربية فإن الأمر يتعلق بالدخن (le mi) لا بالدخان (le tabac). وربما يكون المترجم في حالة ترجمته ملخص الرحلة قد صحف كلمة الدخن إلى دخان.

¹³⁹ - واد من أودية تكانت يقع على بعد حوالي 120 كلم غربي مدينة تجكجه.

¹⁴⁰ - واحة تبعد حوالي 45 كلم شمال شرقي تجكجه عاصمة ولاية تكانت.

¹⁴¹ - Alioune Sall, *Rapport sur un voyage d'exploration*, op.cit., p.3.

ويذكر علي صل كذلك وجود سهول مزروعة بالدخن والذرة في منطقة العصابة¹⁴².

وضمن حديثه عن قرية تغبه القديمة أشار إلى أن هذه الواحة غنية مزدهرة بفضل تربتها الخصبة التي تجود بالزرع والتمر¹⁴³.

وحين زار علي صل بلدة النعمه قال "إنها مشيدة في أعماق واد خصيب يمتد مسافة طويلة ويزرع فيه السكان الذرة والبطيخ الأصفر والدخان [ربما تعلق الأمر بالدخن¹⁴⁴] فضلا عن غراسة النخيل"¹⁴⁵.

ولاحظ هذا المستكشف أن مدينة ولاته لا تلعب دورا يذكر في مجال النشاط الزراعي وحاول أن يسوغ ذلك مشيرا إلى "أن ضواحي هذه المدينة قاحلة وجافة فضلا عن كون السكان وهم أساسا تجار لا يزرعون الأرض لأن التجار يجلبون إليهم، وبكثرة، جميع الحاجيات الضرورية للحياة ومع ذلك يضيف هذا المستكشف نجد حول المدينة بعض حقول البطيخ الأصفر"¹⁴⁶.

وإذا كانت المعطيات الكمية المتعلقة بالنشاط الزراعي البيضاني شبه غائبة عند الرحالين الذين استعرضناهم للتو فإن المستكشف الفرنسي ينصان قد حاول تجاوز أسلافه ومعاصريه¹⁴⁷ فتحدث بشكل أكثر دقة عن هذا النشاط خصوصا في

¹⁴² - Ibid, op.cit., p.4.

¹⁴³ - Idem

¹⁴⁴ - راجع الإحالة رقم 138 أعلاه.

¹⁴⁵ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.9.

¹⁴⁶ - Ibid, op.cit., p.21.

¹⁴⁷ - أحد مستكشفي مرحلة "القفزة المنسقة" وهو بالتالي معاصر للرحالتين السابقين ماج وعلي صل.

منطقة أدرار التي "تنتج الكثير من التمور فضلا عن الذرة والقمح والشعير والبطيخ الأحمر" ¹⁴⁸.

ويضيف فينصان إن مدينة أطار لوحدها ينمو بها ما يربو على ستين ألف نخلة مقدرا متوسط إنتاجها السنوي من الذرة بحمولة ألف وخمسمائة جمل ومن الشعير بحمولة ألف جمل ومن القمح بحمولة خمسمائة جمل؛ أي ما يساوي، باعتبار حمولة الجمل مائتي كيلوغرام، ستمائة ألف كلغ من الذرة ومائتي ألف كلغ من الشعير ومائة ألف كلغ من القمح ¹⁴⁹.

وعند الرحالة موليين نكاد لا نجد تقريبا أية معلومات عن هذا النشاط البالغ الأهمية بالمقارنة مع الحرف الثانوية الأخرى.

رابعاً. أنشطة أخرى

يمارس البيضان أعمالا مكملة للأنشطة السالفة الذكر أهمها الصناعة التقليدية والصيد.

أ. الصناعة التقليدية

يمكن أن يدمج في نطاق هذا النشاط حرف الحدادة والنجارة والصياغة والصناعات الجلدية التي تضطلع بها فئة الحرفيين المشار إليها في الفصل السابق. أما الحدادة والنجارة والصياغة (صياغة الذهب والفضة) فهي من مشمولات حرف الصناع التقليديين المذكور بينما تختص الصانعات التقليديات بالصناعات الجلدية.

ويقوم الصناع التقليديون بإعداد عملهم في المنزل معتمدين في هذه الحرفة على أدوات بسيطة كالمطرقة والسندان والكماشة والمبرد والمقصات... إلخ.

¹⁴⁸ - Henri Vincent, Voyages d'exploration dans l'Adrar, op.cit., p.482.

¹⁴⁹ - Idem

ورغم بساطة الأدوات المعتمدة وندرة المواد الأولية الضرورية لهذه الصناعة كالحديد والنحاس والذهب، فإن الصناعة التقليدية كانت توفر للبيضان جل حاجياتهم من أدوات المنازل كالحصائر والأغلفة... وآلات الزراعة مثل الفؤوس والمناجل... والأسلحة التقليدية من خناجر وسيوف ورناد البنادق... إلخ. هذا فضلا عن أدوات الزينة وحلي النساء كالخواتم والأقراط التي يشير كولبري¹⁵⁰ إلى أنها كانت تصدر وتباع حتى في السيراليون والكونغو رغم أن الصناعة التقليدية البيضانية ليست معدة للتصدير أصلا، وإنما لتلبية متطلبات الحياة اليومية للسكان الرحل.¹⁵¹

وقد تناول كايي هذه الصناعة في أكثر من موضع¹⁵² من رحلته حيث أشار¹⁵³ إلى طريقة تصنيع بعض الأدوات المنزلية من الأخشاب كالمحلاب. ووصف هذا الرحالة¹⁵⁴ الطرق التي يتبعها الحدادون التقليديون في إذابة الحديد معتمدين على الجمر والمنفاخ اليدوي البسيط.

وعدد كايي¹⁵⁵ بعض الآلات التي ينتجها الصانع التقليدي من الحديد (الأقفال، القيود، الخناجر...) ومن الجلود (الأحذية، حاويات الأوراق، السروج...) مشيرا إلى أن الصانع يمارسون كذلك صياغة الذهب والفضة. وقد نوه هذا الرحالة بما يمتازون به من مهارة وبراعة.

وقد انبهر علي صل¹⁵⁶، هو الآخر، بمهارة الصانع التقليديين وعدد منتوجاتهم وفي طليعتها الأدوات المنزلية والزراعية وبعض الأسلحة التي تستخدم في الحروب أو في الصيد.

¹⁵⁰ - Meinard-Xavier Golberry, Fragments d'un voyage en Afrique, op.cit., p.319.

¹⁵¹ - Francis de Chasse, L'étrier, la houe et le livre, op.cit., p.47.

¹⁵² - René Caillié, Voyage à Tombouctou, op.cit., t-1, pp.110-115-126.

¹⁵³ - Ibid, t-1, p.110.

¹⁵⁴ - Ibid, t-1, p.115.

¹⁵⁵ - Ibid, t-1, p.126.

¹⁵⁶ - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.31.

ب. الصيد التقليدي

ينقسم الصيد التقليدي عند البيضان إلى صيد بري وصيد بحري وهو في العموم يعتبر نشاطا محدودا مكملا للأنشطة الاقتصادية السالفة الذكر. ويكاد كل من الصيد البري والبحري يرتبط بشريحة أو شرائح اجتماعية يكون بحكم العادة حكرا عليها.

1. الصيد البري

وتمارس هذا النشاط أساسا قبائل الحسانيين ومن سار سيرتهم من أهل الشوكة.

ويتم الصيد عن طريق الأسلحة التقليدية كالنبال والأقواس أو عن طريق الأسلحة النارية. وقد كان هذا النوع من الصيد منتشرا في مختلف أنحاء البلاد، إذ تحدث عنه رحالون ومستكشفون عديدون.

ويشير الرحالة كايي إشارات خاطفة إلى الصيد البري في المنطقة، إذ يقول¹⁵⁷: "إن حيوانات الصيد كثيرة جدا فالغبيضات ملأى بالخنازير البرية والغزلان".

ويتحدث هذا الرحالة¹⁵⁸ عن طيور المنطقة قائلا: "شاهدت على ضفة غدير عظيم جدا أعدادا كبيرة من البط والحذق¹⁵⁹ ودجاج الماء" مبرزا أن بعض البيضان يصطادون الطيور: "لقد التقيت بصيادين بيضانيين فأرياني عرار غاب¹⁶⁰ صغيرة اصطاداها قبل قليل"¹⁶¹.

¹⁵⁷ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.73..

¹⁵⁸ - Ibid, t-1, p.110.

¹⁵⁹ - Sarcelles

¹⁶⁰ - Pintade

¹⁶¹ - René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.90.

ويظهر تقرير علي صل أهمية الدور الذي يلعبه الصيد البري حينئذ في مجال المبادلات التجارية حين يقول¹⁶²: "إن أولاد بورده يقومون أحيانا بحملات صيد يرسلون على إثرها إلى ولاته عدة منات من الجمال المحملة بلحم الغزلان المجفف" (التشديد منا).

ويذكر علي صل أن مجموعات النماذي التي تعتمد أساسا في عيشها على الصيد البري ما تزال تستخدم الكلاب وسيلة أساسية للصيد مشيرا إلى أن هذه المجموعات المتواجدة في ضواحي تيشيت وولاته لا تحترف نشاطا آخر غير صيد الغزلان والحبارى والنعام وغيرها من الحيوانات البرية التي هي عماد تغذية هذه المجموعة وشغلها الشاغل.¹⁶³

وتحدث صولبي¹⁶⁴، من جانبه عن ممارسة القبائل الحسانية وأتباعها للصيد البري مؤكدا أن لهذا النشاط جانبا معيشيا إذ يوفر لهؤلاء القوم مادة أساسية في تغذيتهم هي اللحم. كما أن له جانبا ترفيهيا رياضيا إذ أن مطاردة الحيوانات البرية والتباري في ملاحقتها ورميها بالسهام أو بالرصاص تمثل جزءا من حياة واهتمامات أبناء حسان.

ويعتقد الرحالة بلانشي أن الصيد يكاد يكون منعدما إذ يقتصر على بعض الخنازير البرية والأرانب الهزيلة.¹⁶⁵ والغريب أن الرحالة فينصان الذي مر بالمنطقة قبل أربعين سنة من وصول بلانشي إليها يشير إلى وجود كثيف للحيوانات البرية، فقد انطلق أمامه في إحدى المرات "قطيع غزلان يربو على المائة"¹⁶⁶.

¹⁶² - Alioune Sall, Rapport sur un voyage d'exploration, op.cit., p.18.

¹⁶³ Ibid, p.35.

¹⁶⁴ - Paul Soleillet, Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, op.cit., p.57.

¹⁶⁵ - Paul Blanchet, Rapport de la Mission dans l'Adrar, op.cit., p.24.

¹⁶⁶ - Henri Vincent, Voyages d'exploration dans l'Adrar, op.cit., p.475.

وبما أن زيارة الرحالتين للمنطقة كانت في فترة شبه متقاربة من السنة (مارس/آذار بالنسبة ل ينصان، وإبريل/نيسان بالنسبة للرحالة بلانشي)، فإن عدم مصادفة هذا الأخير للغزلان ربما يكون متأثرا من استفحال ظاهرة اصطياد تلك الحيوانات خاصة وأن الأسلحة النارية أخذت تنتشر بسرعة في المنطقة التي تتركز فيها وقتئذ المجموعات الحسانية بصفة عامة، وكل الجماعات المهاجرة من المناطق الجنوبية والشرقية والوسطى من البلاد، والتي جعلت من آدرار مركزا ومنطلقا لمقاومة التوغل الفرنسي في البلاد الموريتانية.

2. الصيد البحري

تعتبر مجموعة إيمران أهم شريحة تختص في ممارسة هذا النشاط. ويذكر المختار بن حامد¹⁶⁷ أن هذه المجموعة لا تمارس الصيد بواسطة الزوارق وإنما تكتفي باستخدام الشباك لهذا الغرض.

ويتحدث رفول¹⁶⁸ (Revol) عن هذه المجموعة القاطنة على شاطئ المحيط في منطقة قاحلة مشيرا إلى أنهم يتجولون في تلك الشواطئ لاصطياد الأسماك التي تشكل عماد تغذيتهم وأساس نشاطهم التجاري.

وهكذا فإن ممارسة الصيد البحري كانت العامل الحاسم في خلق هذه الشريحة التي لا تشكل قبيلة بالمعنى المتعارف عليه إذ لا يربط بينها جد مشترك منه تستمد وجودها وتسميتها، بل إنها كانت -حسب رفول- نتاجا لظاهرة ذات طبيعة اجتماعية واقتصادية.

وإلى جانب صيادي إيماكن فإن بعض موالي قبيلتي أهل براك الله فيه وأولاد بسباع كانوا يمارسون بدورهم الصيد البحري على شواطئ المحيط.

¹⁶⁷ - المختار بن حامد، الموسوعة، جزء الجغرافيا، مر. سا، ص. 115.

¹⁶⁸ - Revol, Etude sur les fractions d'Imraguen de la Côte mauritanienne, op.cit., p.221.

الخاتمة

استعرضنا في الفصول السابقة من هذا البحث جملة من الملاحظات والانطباعات سجلها مستكشفون ورحالون فرنسيون أثناء اتصالهم بالمجال البيضاني حول أوضاع السكان البيضان وطبيعة بلادهم.

ومن الطبيعي أن يركز اهتمام أولئك الفرنسيين -حسب مستوياتهم واهتمامات بلادهم المتغيرة- على هذا الجانب أو ذلك من حياة البيضان الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

وقد حاولنا خلال محاورتنا للرحلات الفرنسية أن نترسم أهم معالم الحياة البيضانية في ذلك القرن، كما تخيلها وعكسها أصحاب مدونتنا وغيرهم من رحالي ومستكشفي القرن التاسع عشر الفرنسيين.

والمتتبع لهذه النصوص وللتفاعل بين أصحابها وبين المجال البيضاني المدروس يمكنه - بشيء من التجاوز- أن يدرجها ضمن الاستشراق غير العالم، إذ هي صادرة في الأساس عن شبان مغامرين وضباط عسكريين وتجار وعلماء طبيعيين اهتموا أساسا بوصف مظهر الطبيعة والأنشطة الاقتصادية دون الغوص في خصوصيات البيضان السوسولوجية والأنثروبولوجية.

ولعل غياب الاستشراق العالم الذي يقوم عليه مهتمون أو مختصون في علوم الإناسة والمجتمعات، وهو الاستشراق الذي قصد مجتمعات مجاورة فخلف تراثا تنظيريا ليس هذا مكان الحكم على قيمته؛ لعل غياب مثل هذا الاستشراق كان ناجما عن مستوى العناية التي أولها الفرنسيون للبلاد الموريتانية خلال القرن التاسع عشر، وهي عناية من مستوى ثان إذا ما قارناها بتلك التي أولوها لفضاءات عربية أو سودانية مجاورة. غير أنه يبقى من الشطط مع ذلك تحجيم نصوص أولئك الفرنسيين أو التقليل من أهميتها المصدرية.

لقد مثلت تلك النصوص خطوة مهمة نحو دراسة البلاد من النواحي الطبيعية والاقتصادية، إذ تم رسم أولى خرائطها الجغرافية وشرع في كشف وتحديد ثرواتها المعدنية ومواردها الاقتصادية. ومن خلال اهتمام هؤلاء الرحالين والمستكشفين بالظروف الطبيعية والاقتصادية للبلاد، يمكننا أن نستنتج -اعتمادا على نصوصهم- أن القرن التاسع عشر على ما يبدو كان، بالنسبة للبلاد الموريتانية، قرن استقرار من الناحية الطبيعية، إذ لم يشر أي من الفرنسيين الذين زاروا المنطقة حينئذ إلى وقوع

مراجعة أو قحط أو إلى انتشار وباء أو كارثة طبيعية في هذه البلاد أثناء ذلك القرن، ولم نعثر على أي حديث عن أكل السكان لأوراق وعروق الأشجار أو الجراد والضباب... إلخ، وهي أمور كثيرا ما تصاحب المجاعات والكوارث.

وقد عرف موقف البيضان من الفرنسيين تطورا ملحوظا خلال الفترة المدروسة، فبينما كان رني كايي (Caillie)، في نهاية الربع الأول من القرن، موضع شك وريبة دائمين من قبل البيضان وكان مرغما -رغم تنكره وتظاهره باعتناق الإسلام- على تسجيل ملاحظاته في سرية مطلقة، نجد بول صولبي (Soleillet) سنة 1880 يدون معلوماته علنا، بل إن البيضاني الذي ينقل عنه بعض المعطيات كان فخورا بتدوينها من قبل ذلك الرحالة الذي يستعيد ذكرياته عن ظرفية كان فيها سلفه كايي يسجل انطباعاته قبل ما يزيد على نصف قرن من الزمان.¹

وليس بعيدا عن ذاكرتنا ما أنفقه الأمير أعمر بن المختار (ت. 1829) وابنه وخليفته الأمير محمد الحبيب (ت. 1860) -وغيرهما من الأمراء- من وقت وجهد في مواجهة التوغل الفرنسي، لا في إمارة الترازه فحسب، وإنما في منطقة حوض نهر السنغال عموما، في حين نجد الأمير علي بن محمد الحبيب (ت. 1886) يستقبل صولبي بحفاوة سنة 1880 مقترحا عليه إحياء المراكز الفرنسية بالمحيط الأطلسي لمواجهة المنافسة الإسبانية.

وستعرف شروط التعامل بين الفرنسيين والبيضان في ملتقى القرنين التاسع عشر والعشرين تطورا يوقع معه الأمراء البيضان (في البراكنه، الترازه وإدوعيش) اتفاقيات تطالب بوضع البلاد تحت الحماية الفرنسية.

وطبعا فإن الأمراء الذين أقدموا على هذا العمل كانوا يسعون من خلاله إلى كسب ود الفرنسيين والحصول على دعمهم ضد أبناء عمومتهم ومناقسيهم على السلطة.

ولم يكن هذا التطور مقصورا على الأرستقراطية الحربية المسيطرة سياسيا وعسكريا، بل إنه شمل كذلك الأرستقراطية الدينية. فبينما بذل الشيخ سيدي الكبير (ت. 1868)، في منتصف القرن التاسع عشر، قصارى جهده من أجل إصلاح ذات بين الإمارات البيضانية المتحاربة وتوحيدها ضد الفرنسيين باعتبارهم العدو المشترك، فإننا نجد حفيده الشيخ سيدي بابيه (ت. 1924) وغيره من الشخصيات الزاوية -مثل الشيخ سعد بوه (ت. 1917)- يربطون علاقات وطيدة مع الفرنسيين في

¹ - يقول صولبي بهذا الخصوص: "يبدو أن الزمن تغير بعد سنة 1824 فحينذاك لو شاهد البراكنه، جيران الترازه، كايي وهو يسجل أبسط معطاة عن بلادهم قتلوه أو حولوه إلى عبد مسترق"، صولبي، التقرير، مص. سا، ص. 93.

السنغال ويشجعون توغلمهم داخل البلاد الموريتانية باعتباره ضمانا للقضاء على ما تعرفه هذه البلاد في ذلك الوقت من نهب وسلب وفوضى، كانت المجموعات غير المسلحة وصاحبة الثروة الحيوانية بالمنطقة المتضرر الأول منها.

وقد عرف موقف الرحالين والمستكشفين نفس الانزياح الذي عرفه موقف السكان، إذ تطور تعامل هؤلاء الفرنسيين تبعاً لتطور أهداف السياسة الفرنسية في المنطقة.

فقد رأينا كيف تدرجت أهداف الرحلات من محاولة ربط علاقات تجارية محدودة مع السكان، إلى السعي لزيارة المدن التجارية وتوقيع اتفاقيات مع زعماء البيضان، ثم الدعوة الصريحة إلى بسط السيطرة السياسية والعسكرية على هذا الإقليم، فلم يكن الرحالة رني كايي، وهو أحد رواد القرن التاسع عشر داخل البلاد الموريتانية، يتصور أن الفرنسيين سينتهي بهم المطاف إلى احتلال أرض البيضان. يقول هذا الرحالة: "إن بعد هذه الرقعة [عن أوروبا] لن يسمح أبداً للأوروبيين بالاستقرار بها"².

أما الرحالة ماج (Mage) فيستنتج من خلال رحلته إلى تكانت "أن ربط السنغال بالجزائر عن طريق بلاد البيضان حالياً [1860] مسألة تكاد تكون مستحيلة"، في حين كان شغل صولبي الشاغل هو إقامة الخط الحديدي العابر للصحراء والرابط بين الجزائر والسنغال عبر البلاد البيضانية، بينما دعا كل من فايبر (Fabert)، صولير (Soller) ودوني (Donnet) إلى بسط السيطرة الفرنسية على البلاد الموريتانية تقادياً لوقوعها في أحضان الإنجليز أو الإسبان.

ورغم الطابع العلمي والاقتصادي لمهمة بلانشي في أدرار سنة 1900 فقد كانت تظاهرة سياسية وعسكرية، إذ أن اهتمام هذا الرحالة كان منصبا على مواقف الفئات الاجتماعية والشخصيات السياسية والدينية من بسط النفوذ الفرنسي على المنطقة التي أشار إلى أنها "تتوفر على المياه الكافية لرتل من المشاة" و"أنها ملائمة لتربية الخيل اللازمة لنشر الخيالة". كما اعتنى هذا المستكشف كذلك بالقدرات العسكرية لمختلف المجموعات الحربية في المنطقة.

وإذا كان أصحاب هذه النصوص قد اعتنوا بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية ثم الفلكلورية من حياة الناس، فإنهم قد غفلوا -أو تغافلوا- عن الجوانب العامة من الثقافة الشنقراطية. فلم يهتموا بالشعر ولا بالمحاضر، وكانت حينئذ بمثابة جامعات متنقلة اضطلعت بدور مهم في نشر

² - " {...} et l'éloignement de ce lieu ne permettra jamais aux Européens de s'y établir"., René Caillié, Voyage, op.cit, p. 125.

الثقافة العربية الإسلامية بهذه البلاد وفي مناطق واسعة من إفريقيا. كما أنهم لم يتحدثوا عن المتون ولا عن ما عرفته هذه الساحة أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من جدل ومساجلات فقهية وأدبية.

ورغم أن غياب الاستشراق العالم -الذي أشرنا إليه قبل حين- قد يكون عاملا في الصدود عن ثقافة القوم العالمية، فإن تعييب مظاهر تلك الثقافة ربما لا يكون بريئا. وإلا فبم نفس تغاضي رني كايي مثلا عن ذكر محظرة الكحلأ والصفراء في البراكنه، رغم إقامته بتلك المنطقة وبين صفوف الزاويأ أهل التعلم والتعليم في فترة كانت فيها تلك المحظرة محجة لطلاب العلم من مختلف أنحاء بلاد البيضان!؟

وإذا أضفنا إلى ذلك تحاشي الرحالين الفرنسيين إيراد تسميات البلاد التاريخية مثل "شنقيط"، "صحراء الملتمين"، "بلاد التكرور"... إلخ، وسكوتهم -على اختلاف المشارب- عن الخوض في تاريخ القوم، أفلا يحق لنا التساؤل عما إذا كان في الأمر إقصاء متعمد ومحاولة لبتر هذا الإقليم عن جذوره الحضارية والثقافية؟.

إن الرحالين والمستكشفين الأوروبيين لم يكونوا دائما مجرد شهود حياديين بل كانوا، على العموم، يضعون معرفتهم في خدمة بلادهم، مما دفع البعض إلى اعتبارهم ينتجون "علما في صالح الكولونيالية". ولم يجاف إدوارد سعيد³ الحقيقة حين تحدث عن "الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق" باعتبار أن معرفة الأعراق المحكومة هي التي تجعل حكمها سهلا ومجديا، فالمعرفة تمنح القوة، ومزيد من القوة يتطلب مزيدا من المعرفة، وهكذا في حركة جدلية للمعلومات والسيطرة متنامية الأرباح باستمرار⁴.

وعلى الرغم من كون الرحلات والاكتشافات عكست في عمومها تطورا للهيمنة الأوروبية من مرحلة المبادلات التجارية إلى الاستحواذ الترابي فالاحتلال العسكري والاستعمار المباشر، فإن قيمتها المصدرية بالنسبة لتاريخ البيضان ليست مجالا للشك.

ولا تكمن قيمة هذه الرحلات في الفترة الزمنية التي تغطيها هذه النصوص، ولا في تعدد اهتمامات أصحابها فحسب، بل في ما تشتمل عليه من معطيات متنوعة تتعلق بالأنشطة الاقتصادية والاجتماعية لهؤلاء السكان. إنها تمثل رصييدا وثائقيا يمكن أن يساعد على سد ثغرة تعاني منها

³ - إدوارد سعيد، الاستشراق...، مرجع سابق، ص. 39.

⁴ - المرجع السابق، ص. 68.

وثائقنا المحلية جراء إهمالها للعديد من مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من قضايا الماضي المسكوت عنها عمداً أو لأن كتابنا المحليين كانوا يعتبرونها غير جديرة بالتسجيل والاهتمام.

إن أي دراسة لتاريخ هذه البلاد لا تعطي لهذا الصنف من مصادره الأساسية ما يستحق من عناية لن تستطيع بناء تصور متكامل عنه. غير أن القراءة الساذجة لنصوص الفرنسيين تلك تظل مزلقاً على الدارس أن يحذر الوقوع فيه. فهي -على أهميتها- تبقى إطلالة خارجية على المجتمع الذي تصفه.

لقد عجز أولئك المستكشفون -وهم يقومون برحلاتهم الخاطفة- عن إدراك الديناميكية الداخلية للمجتمع البيضاني فسقطوا أحياناً كثيرة في التبسيط واستسلموا للأحكام الجاهزة. وهذا ما أدركه أحد الفرنسيين حين قال: "إن الرحالين الفرنسيين جاؤوا إلى موريتانيا بعقل مشحون بالأحكام المسبقة"⁵ مؤكداً أن عدم فهم الحقائق الصحراوية قد زادت من حدته رؤيتها من منظور الذات المركزية الأوروبية.⁶

وهكذا، فإن التعامل مع هذه المصادر بروح نقدية حصيفة يبرز اليوم كتحد يواجه الباحث الموريتاني الذي يستطيع -وحده- الاضطلاع بهذه المهمة. ذلك أن كتابة تاريخ أمة ما من الخارج تبقى -بغض النظر عن ما قد يتحلى به المضطلعون بها من تجرد وموضوعية وكفاءة- كتابة ناقصة.

ورغم كل ذلك فإن هذه الرحلات تبقى فضاء مفتوحاً على الذات والآخر في الوقت نفسه. إنها تتيح محاورة النص على محورين: الرحالة ومجال الرحلة.

لقد حاولت تلك الرحلات أن ترسم صورة للغرابية من خلال هذا المجتمع البدوي، فأرادت أن تغوص في أعماقه وأن تخترق بناه. لكنها في النهاية قدمت لوحة أمينة لتصور ذلك الأوربي وهمومه ومأربه... إلخ، فكانت حقلاً لتلاقح حضاري حاولنا عبر فصول هذا العمل استكشاف جانب منه أملياً أن يحفز هذا الجهد المتواضع غيرنا من الباحثين لاستكناه وجهه الآخر أي تصور هذا الإنسان الصحراوي لذلك الأوربي الوافد.

⁵ - Jean-Claude Blachère, "L'image de la Mauritanie saharienne dans la littérature française", Notes africaines, n°132, 1971, pp. 102-107, p. 103.

⁶ - Idem